الكيالا الاحتارة

مَابِينَ البَعَنْ إلى مُخُولُ الجَبَّة أَوْ النَّارُ

تأليمت د،غالب بر علي عسواجي

الجنزء الأولك

المكتَبَذالِ*عَصِرِتَّ*زالذَهَبيَّذ جسستة رحمُ عَوِي الطَّلْمِعِ مِحْ عُوْظَمَّ رَ الطَّلْبُعَتَة الشَّانِيَة اكلَبُعَتَة الشَّانِيَة

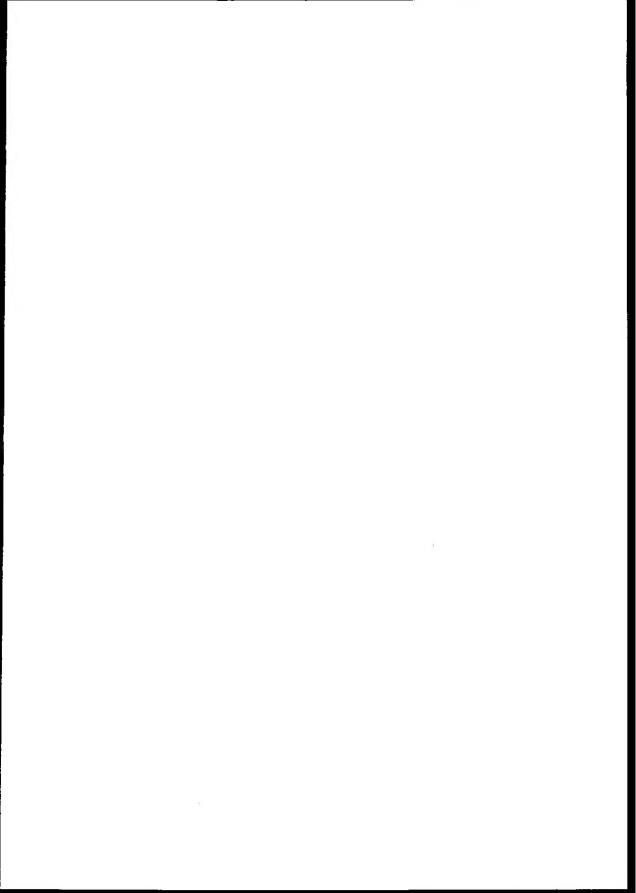
المكتّبذ العَصِرت الذَهبتية

الطبّاعة والنَشْرُ والنَسْويْق جسّدة: ١٧٣٠٦٥٨ - ١٢٩٣٨٩

الْرِيَاض: ٨٠٠٥ ٢٧ - ٤٧٢٤٨٤٤

الدَمسّام:

بسُدُ النَّالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحِ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحِ الْحَالِحُ لَلْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحِ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ لَلْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْحَالِحُ الْح



بسبا بتدارهم إرحيم

الحمد لله رب العالمين، جامع الناس ليوم لا ريب فيه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن مما لاجدال فيه أن أشرف العلوم، وأولاها بالعناية والاهتمام، هو ما يتعلق منها بأمر العقيدة، وكيف لايكون ذلك، وقد كان من عظم أمرها أن الله عز وجل هو الذي تولى بيانها؛ فأنزل الكتب وأرسل الرسل، ثم بين أن القصد من خلق الجن والإنس وإيجادهم، إنما هو لتوحيده و عبادته جل وعلا.

فقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رَزْق وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (١) [الذاريات: ٥٠، ٥٠].

وهذا العلم هو الفقه الأكبر كما سماه الإمام أبوحنيفة رحمه الله (٢). ولست في حاجة إلى التطويل بذكر مزايا هذا الطريق، وبيان عظم شأنه، فلقد صار أمرًا معلوماً في أذهان العقلاء الذين لم تدنس فطرهم.

وإذا كان ذلك واضحاً وشرفه معلوماً، فإن البحث في جزء من أجزاء

⁽١) معنى: ﴿ إِلاَّ لِيَعَبُّدُونِ ﴾ قال ابن عباس: أي: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرها، وهو ما رجحه ابن جرير في تفسيره ٢٧/٢٧.

وقال ابن كثير في معناها: « أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم». تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٣٨.

⁽٢) له كتيب صغير بهذا الاسم ينسب إليه.

هذا الطريق؛ ألا وهو بحث اليوم الآخر وما يقع فيه للخلق من الوقوف لرب العالمين، من أولهم إلى آخرهم في صعيد واحد، لهو من الأهمية بالمكان الأعلى.

وخصوصاً ونحن في عصراتجه تفكير الناس فيه إلى المادة؛ بل وأصبح أكثر ماترى وتشاهد من حولك لا يذكرك بالمصير المحتوم والحياة الباقية.

إن بحث اليوم الآخر مطلب جليل لا يندم صاحبه، مهما بذل فيه من جهد ومهما تكبد بسببه من عناء.

وقد كان من نعمة الله علي ـ وله الحمد والشكر ـ أنَّ بحث اليوم الآخر، والاطلاع على ما جاء به كتاب الله تعالى، وما جاء في سنة نبيه عَلَيْهُ، وأقوال العلماء على اختلاف علومهم، هو البحث الذي كانت تميل إليه نفسي وتشتاقه؛ فلقد شغفت بكل ما يتعلق بهذا الموضوع، قبل أن يكون دراسة لمرحلة من مراحل طلب العلم، وقد حقق الله الرغبة فاخترت أن تكون الفترة الزمنية الواقعة بين البعث ودخول الجنة أو النار موضوعاً لهذا البحث الذي أقدمه، وأنا أطمع أن يتقبل الله ما كان فيه من صواب، وأن يغفر ما أخطأت فيه أو قصر عنه الفهم مما يلحق بطبيعة النقص الإنساني.

ولقد بذلت في هذا البحث من الجهد، وتحمل التعب ما قد علمه الله عز وجل، والكمال لله تعالى وحده.

ولا أقول ذلك مستكثراً لما بذلته في خدمته؛ فإنه ما من باحث إلا ويمر بتلك المشاق والمتاعب؛ خصوصا حينما تعترضه بعض القضايا التي لا مدخل للعقل في الحكم فيها إلا بعد استفراغ أقصى ما لديه للوقوف على دليلها من الكتاب والسنة أوأقوال أهل العلم.

وقد كانت طريقة بحثي في كل مسألة أن أعمد أولاً إلى إثباتها أونفيها، مستنداً في كل ذلك إلى ما جاء فيها من النصوص التي تثبتها أوتنفيها، وتكون تلك النصوص: إما من كتاب الله تعالى ، أومن سنة نبيه على أومن أقوال أهل العلم فيها، ثم عرض تلك النصوص بطريقة واضحة وتخريج الآيات والأحاديث وعزو الأقوال إلى أهلها ، وترجيح ماقد يوجد فيها بما في ظاهره تعارض ، وكذلك تحقيق ما يحتاج إلى تحقيق من أقوال العلماء، وقد رأيت أن تظافر الأدلة في المسألة الواحدة ممايزيدها قوة واطمئناناً في نفس السامع ، على حد ما أورده الإمام النووي في كتابه والمنابة لشرح صحيح مسلم بن الحجاج» ، حين قال: «باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة»(١)

على أن تلك الأدلة التي أوردتها مهما كثرت فهي مقصودة ؛ إذ لا يخلو نص منها عن فائدة قد لا توجد في النص الآخر .

وقد أوردت بعض الآثار للإشارة إليها ثم أذكر درجة الأثر، وإذا لم أجد نصاً صحيحاً في المسألة، فإنني أورد ما جاء فيها من تلك الآثار، وما قاله العلماء فيها، ثم أبدي رأيي حسبما ظهر لي من خلاصة البحث فيها.

وقد جمعت شتات هذا البحث من مصادره المتفرقة؛ سواء منها ما كتب عن اليوم الآخر كتابة مستقلة؛ مثل ما كتبه السيوطي في كتابه المسمى «البدور السافرة»؛ حيث جمع فيه عدة أحاديث، وكذا ما كتبه القرطبي رحمه الله في كتابه «التذكرة»، وما كتبه البيهقي ـ رحمه الله _ في البعث والنشور، وما كتبه أيضاً البرديسي في كتابه «تكملة شرح الصدور»، وغير هؤلاء من العلماء، أو

⁽۱) صحيح مسلم ١/٣٦٤.

ما ذكره العلماء من هذا الباب في مؤلفاتهم ضمن مواضيع عامة.

ومن تلك الكتب ما هو مخطوط، ومنها ما هو مطبوع، وقد وفق الله إلى جمعها والاستفادة منها، وقد بلغ مجموعها مايقارب مائة وثمانين كتاباً.

إضافة إلى مااستفدته من آراء بعض العلماء _ الذين أذكرهم بخالص الشكر والتقدير _ حيث كان لهم الفضل _ بعد الله تعالى _ في توجيهي إلى بحث مسائل في هذا الباب وإبرازها بوضوح لأهمية الحاجة إليها، أسأل الله العلي القدير أن يغفر لي ولوالدي ولجميع مشايخي.

وقد سرت في خطة البحث على النحو الآتي:

الدراسة فيه.

١- أبواب الرسالة: وقد قسمتها إلى خمسة عشر باباً وماثة وثمانية فصول:

بينت في الباب الأول منها: ما يتعلق بالبعث والحشر ووقوف الخلق في الموقف، وقد قسمته إلى فصول، مجهداً لكل فصل منها بنبذة يسيرة؛ ذكرت في الفصل الأول منها: نبذة يسيرة عن وجوب الإيمان بالغيب.

وفي الفصل الثاني: ذكرت أسماء يوم القيامة مستدلاً على كل اسم منها بدليله.

وفي الفصل الثالث: ذكرت تعريفاً موجزاً عن البعث؛ اشتمل على تعريفه في اللغة والاصطلاح، ونبهت إلى ألفاظ جاءت بمعنى البعث، ثم

ذكرت مراتب الموقف.

وفي الفصل الرابع: ذكرت أدلة البعث من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية، مع بيان عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليوم الآخر، وبعض أسباب تلك العناية ثم دلالة العقل على البعث.

وفي الفصل الخامس: بيان المنكرين للبعث وأقسامهم.

وفي الفصل السادس: بيان أسباب إنكار البعث.

وفي الفصل السابع: كيفية البعث كما في الكتاب والسنة.

وفي الفصل الثامن: أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث، والرد على الفلاسفة وإبطال حججهم في إنكار البعث.

وفي الفصل التاسع: بيان النفخ في الصور - نفخة البعث - ذكرت فيه تعريف النفخ في اللغة، وفي الاصطلاح، وكم هي عدد النفخات، والأدلة على إثبات النفخ في الصور من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

والفصل العاشر: جعلته لصفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى، ثم ذكرت بعض صور الحشر المختلفة.

وقد اشتمل هذا الفصل كذلك على مسائل وفوائد منها:

١- الحكمة في إعادة الخلق غرلاً.

٢_ بعث الموتى في أكفانهم.

٣ ـ هل تحشر بقية المخلوقات غير الجن والإنس؟

٤ - بيان دفع ما ظاهره التعارض بين بعض النصوص الدالة على أن

الكفار يسمعون ويبصرون ويتكلمون عند حشرهم _ وبين ما ورد من عدم اتصافهم بذلك.

وأما الفوائد فهي:

١-بيان أول من يحشر من الخلق.

٢_بيان أول من يكسى منهم.

أما الفصل الحادي عشر: وهو آخر فصول هذا الباب- فقد جعلته خاصاً بالموقف؛ بينت المراد من الموقف لغة واصطلاحاً، وصفة حالة الناس وهم وقوف لرب العالمين، وأدلة ذلك من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وبيان صفة الأرض التي يقف عليها الخلق، والخلاف في تلك الأرض، ثم بيان مدة وقوف الخلق في الموقف، وذكر أدلة ذلك من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية.

الباب الثاني: وموضوعه: الشفاعة

وقد قسمته إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول: عرفت فيه الشفاعة في اللغة وفي الشرع.

الفصل الثاني: بينت أقسام الشفاعة، وأنها تنقسم إلى مثبتة ومنفية.

وقد جعلت الفصل الثالث: لبيان أقسام الشفاعات الثابتة؛ التي ورد بها النص، وهي ثماني شفاعات بينتها مفصلة بأدلتها.

وأما الفصل الرابع: فقد كان لبيان ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال، وذكرت منها ثلاثة أمور. أما الفصل الخامس: فقد جعلته لبيان الشفاعات التي لم يرد بها نص صحيح، وذكرت منها تسعة أمور.

وأما الفصل السادس: فهو في بيان الأمور التي تمنع الشفاعة، وذكرت منها ثلاثة.

وأما الفصل السابع: فقد كان لبيان ذنوب لم يثبت نفي الشفاعة فيها، وذكرت منها أربعة أمور.

وأما الفصل الثامن: وهو آخر هذا الباب.

فقد كان لبيان أقسام الشفعاء؛ وهم قسم ثبتت صحة شفاعتهم وذكرت منهم سبعة أصناف، وقسم لم تثبت صحة شفاعتهم وذكرت منهم ثلاثة.

وأما الباب الثالث: وموضوعه مجيء الله تبارك وتعالى لفصل القضاء فقد اشتمل على فصلين:

الفصل الأول: ذكرت فيه الأدلة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية على نزول الله تعالى لفصل القضاء.

وأما الفصل الثاني: فقد كان في بيان معنى المجيء الذي اتصف الله به، بينت فيه مذهب السلف، ثم مذهب المؤولين.

وأما الباب الرابع: وموضوعه رؤية الله تعالى في عرصات القيامة

فقد اشتمل بعد التمهيد على أربعة فصول:

أما الفصل الأول: فهو في بيان الأدلة على وقوع رؤية الله تعالى، وأدلة ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية، مع بيان وجه الاستدلال وذكر

شبه المخالفين والرد عليهم، ثم الاستدلال بالعقل على وقوعها .

وأما الفصل الثاني: فهو لبيان آراء الفرق في إمكان وقوع رؤية الله تعالى.

وأما الفصل الثالث: فهو لبيان الخلاف في رؤية غير المؤمنين لربهم، وبيان الخلاف بين المثبتين للرؤية والنافين لها.

وأما الفصل الرابع والأخير: فقد جعل لبيان هل تستلزم رؤية الله تعالى الجهة أم لا ؟

وأما الباب الخامس وموضوعه: «كلام الله تعالى في يوم القيامة»فقد جعلته بعد التمهيد في أربعة فصول:

الفصل الأول: في إثبات صفة الكلام لله تعالى، مع ذكر أدلته من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن إجماع علماء الإسلام.

أما الفصل الثاني: فقد كان في بيان إثبات صفة كلام الله تعالى للخلق في يوم القيامة في موقف فصل القضاء. وذكرت الأدلة على ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

أما الفصل الثالث: فقد كان في بيان إثبات أن الله تعالى لايكلم بعض خلقه في يوم القيامة، وذكر أدلته من القرآن الكريم ومن السنة النبوية، مع بيان وجه الجمع بين ماورد من إثبات عدم كلام الله تعالى لبعض خلقه، وبين ماورد من ثبوت ذلك.

وأما الفصل الرابع: فقد كان لبيان أهم المذاهب في كلام الله تعالى مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب الأشاعرة، ومذهب الجهمية والمعتزلة

ثم الإجابة عن مسألة هي خاتمة الفصل عن اللغة التي يخاطب الله بها الخلق يوم القيامة، هل هي العربية أو السريانية أو الفارسية وبيان الصحيح من ذلك.

وأما الباب السادس وموضوعه: «العرض على الله جل وعلا في موقف فصل القضاء»

فقد اشتمل بعد التمهيد: على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى العرض لغة واصطلاحاً.

الفصل الثاني: الأدلة على حصول العرض على الله تعالى، وذكر أدلته من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

أما الفصل الثالث: فهو في بيان دلالة تلك النصوص من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه على كيفية العرض على الله، مع بيان رأي المثبتين للعرض على الله والمؤولين له والرد عليهم.

وأما الباب السابع وموضوعه: «الصحف أو كتاب الأعمال»

فقد اشتمل بعد التمهيد على سبعة فصول.

الفصل الأول: الأدلة على كتابة الملائكة لكل ما يصدر عن العباد، وأدلة ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

الفصل الثاني: المنكرون كتابة الملائكة أعمال العباد والرد عليهم.

وأما الفصل الثالث: فكان لإثبات أن كل إنسان يقرأ كتابه في يوم القيامة، والأدلة على ذلك من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

أو صحف الأعمال؟ وأدلة وزن كل واحد من هذه الثلاثة.

الفصل السابع: حكمة الله تعالى في وزن أعمال العباد، والردعلى من ينكره.

الفصل الثامن: مرجحات الميزان.

الفصل التاسع: متى تنصب الموازين.

الفصل العاشر: لمن ينصب الميزان.

الفصل الحادي عشر: كيفية الوزن.

الفصل الثاني عشر: هل هو ميزان واحد في يوم القيامة، أم هي موازين متعددة.

الفصل الثالث عشر: هل توزن أعمال الجن.

وأما الباب العاشر وموضوعه: «الصراط»:

فقد اشتمل على الفصول الآتية:

تمهيد:

الفصل الأول: تعريف الصراط:

١ ـ في اللغة .

٢ ـ في الاصطلاح.

الفصل الثاني: الأدلة على إثبات الصراط من القرآن الكريم والسنة النبوية.

الفصل الثالث: وصف الصراط والمرور عليه.

الفصل الرابع: متى يتم المرور على الصراط.

الفصل الخامس: الحكمة في نصب الصراط.

الفصل السادس: مسافة الصراط.

الفصل السابع: المنكرون للصراط.

الفصل الثامن: هل يمر جميع الخلق على الصراط؟

الفصل التاسع: أول من يجوز الصراط.

الفصل العاشر: شعار المؤمنين على الصراط.

الفصل الحادي عشر: الأعمال الموجبة للجواز على الصراط.

الفصل الثاني عشر: هل الصراط قد خلق أم سيخلق في يوم القيامة؟

الفصل الثالث عشر: هل يسقى الصراط إلى خروج عصاة الموحدين أم لا؟

وأما الباب الحادي عشر وموضوعه: «القنطرة»:

فقد اشتمل بعد التمهيد على أربعة فصول:

الفصل الأول: أدلة إثبات القنطرة.

الفصل الثاني: موضع تلك القنطرة.

الفصل الثالث: هل هي قنطرة واحدة، أم هي قناطر متعددة، والراجح في ذلك.

أما الفصل الرابع والأخير، فهو لماذا أخر الله حساب أهل القنطرة إلى

القنطرة ولم يكمله في الموقف.

وأما الباب الثاني عشر وموضوعه: «الورود»:

فقد اشتمل بعد التمهيد على أربعة فصول:

الفصل الأول: في بيان أقوال العلماء في معنى الورود، وذكر أدلة كل قول.

الفصل الثاني: في بيان القول الراجح في معنى الورود.

أما الفصل الثالث: فكان جواباً عن مسألة هي هل يستثنى الأنبياء من ورود النار واجتيازها؟.

وأما الفصل الرابع والأخير: وهو جواب كذلك عن مسألة أخرى هي: «ما فائدة دخول أهل السعادة النار واجتيازهم فوقها وقد كتب الله لهم النجاة ؟».

وأما الباب الثالث عشر وموضوعه: «أصحاب الأعراف»:

وفصوله خمسة:

الفصل الأول منها: في ذكر ما ورد في القرآن الكريم بشأن أصحاب الأعراف.

والفصل الثاني: في بيان ما هو المراد بالأعراف لغة واصطلاحاً.

والفصل الثالث: عن الخلاف في تعيين أصحاب الأعراف.

و الفصل الرابع: في بيان ما هو الراجح في أهل الأعراف.

والفصل الخامس: في ذكر سور الأعراف الحاجز بين الجنة والنار؟ هل يكون دائما أم في فترة من الفترات.

وأما الباب الرابع عشر وموضوعه: «الحوض المورود»:

فقد اشتمل بعد التمهيد على الفصول الآتية:

الفصل الأول: بيان المراد من الحوض في اللغة وفي الشرع.

الفصل الثاني: الأدلة على إثبات الحوض.

الفصل الثالث: في بيان أقوال علماء الإسلام في إثبات الحوض.

أماالفصل الرابع، فكان لبيان مسافة الحوض.

وفي الفصل الخامس: الجمع بين تلك الروايات الكثيرة التي وردت في تحديد مسافة الحوض.

وفي الفصل السادس: ذكر صفات الحوض ومزاياه.

وفي الفصل السابع: بيان متى يرد الناس الحوض.

وأما الفصل الثامن، فهو: في بيان المنكرين للحوض.

وفي الفصل التاسع: الردعليهم.

وفي الفصل العاشر والأخير في هذا الباب: بيان هل ثبت أن لكل نبي حوضاً يخصه.

وأما الباب الخامس عشر وهو آخر أبواب الرسالة وموضوعه: «الكوثر»:

فقد اشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول منها: في بيان تعريف الكوثر في اللغة والاصطلاح.

الفصل الثاني: بيان أدلة إثباته من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة .

أما الفصل الثالث: فقد كان في بيان تسمية الكوثر بالحوض، والحوض بالكوثر وبيان وجه الاتصال بينهما.

أما الفصل الرابع: فهو في بيان اختصاص الرسول عَلَيْكَ بالكوثر دون غيره من الأنبياء.

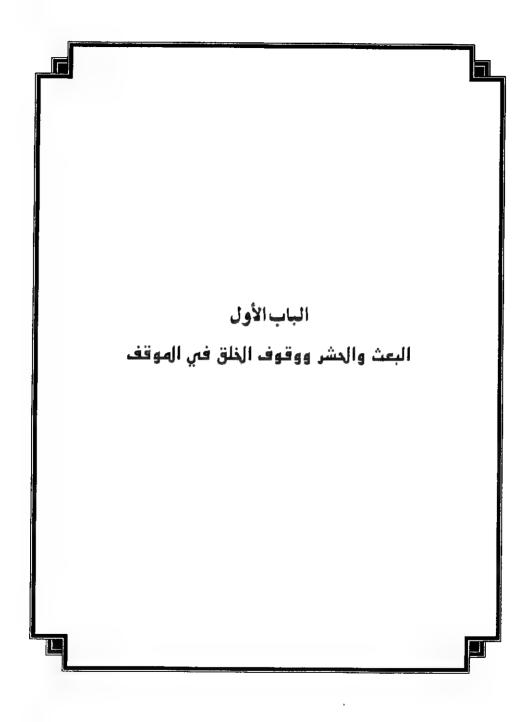
وأما الفصل الخامس والأخير: فهو في بيان صفات الكوثر.

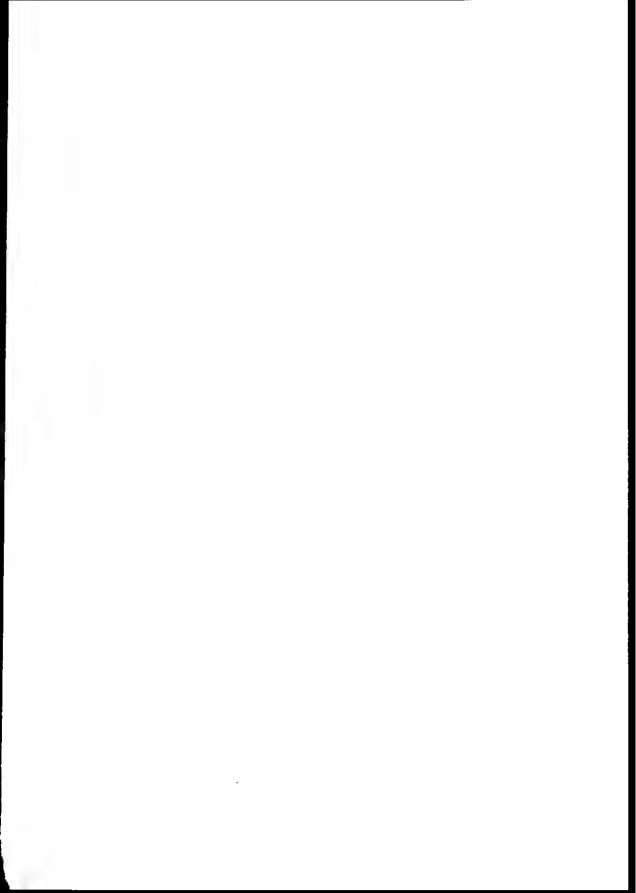
وأخيراً فقد أنهيت تلك الدراسة بخاتمة تضمنت أهم ما اشتمل عليه البحث من نتائج.

هذا وأسأل الله العلي القدير أن يجعل ثواب ما بذلته من خدمة لهذا البحث رضوانه والجنة، وأن يوفقني وكل من ساعد في خدمته مبتغياً ثواب ربه. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المدينة المنورة في ٢٣/ ٨/ ١٤٠٥ هـ

* * *





البابالأول البعث والدشر ووقوف الخلق في الموقف

ويشتمل على الفصول الآتية:

الفصل الأول: تمهيد في وجوب الإيمان بالغيب.

٢ - الفصل الثاني: في أسماء يوم القيامة .

٣ ـ الفصل الثالث: التعريف بالبعث ويشمل:

١ ـ تعريفه لغة .

٢ ـ تعريفه شرعاً .

٣- ألفاظ ينبغي اثتنبه إليها.

٤ ـ مراتب الموقف.

4- الفصل الرابع: أدلة البعث:

١ ـ عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليوم الآخر.

٢ ـ بعض أسباب العناية باليوم الآخر .

٣ ـ أدلة البعث من القرآن الكريم .

أدلة البعث من السنة النبوية وبيان عناية الرسول عَلَيْكُ بأمر البعث.

٥ ـ دلالة العقل على البعث.

الفصل الخامس: المنكرون للبعث وأقسامهم.

٦- الفصل السادس: أسباب إنكار البعث.

٧- الفصل السابع: كيفية البعث كما في الكتاب والسنة.

٨-الفصل الثامن: أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث والرد على
 الفلاسفة وإبطال حججهم في إنكار البعث.

٩ ـ الفصل التاسع: النفخ في الصور.

نفخة البعث.

١ ـ معنى النفخ :

١ ـ في النلغة . .

٢ ـ في الاصطلاح.

٢ ـ عدد النفخات.

٣ ـ الأدلة على إثبات النفخ في الصور:

١ ـ من القرآن الكريم.

٢ ـ من السنة النبوية.

١٠ - الفصل العاشر: صفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى:

١ ـ حشر الخلق حفاة عراة غرالًا.

٢ ـ حشر الكفار يسحبون على وجوههم.

٣ حشر المتكبرين.

٤ ـ حشر السائلين.

٥ ـ حشر أصحاب الغلول.

٦ ـ حشر أهل الوضوء أهل الغرة والتحجيل.

٧ حشر الشهداء.

ويشتمل هذا الفصل كذلك على مسائل وفوائد:

أما المسائل فهي:

١- الحكمة في إعادة الخلق غرلاً.

٢ بعث الموتى في أكفانهم.

٣. هل تحشر بقية المخلوقات غير الجن والإنس.

٤ دفع تعارض.

وأما الفوائد:

١ _ أول من يحشر من الخلق.

٢ _ أول من يكسى من الخلق.

١١ الفصل الحادي عشر: الموقف:

ـ تعريفه في اللغة.

ـ تعريفه في الاصطلاح.

صفة حالة الناس وهم في الموقف:

١ ـ تمهيد .

٢ ـ صفته (١) في القرآن الكريم.

⁽١) أي صفة الحال التي هم عليها كما يصورها الله في القرآن الكريم.

٣ ـ صفتة في السنة النبوية.

3 - صفة الأرض التي يقف عليها الخلق وبيان الخلاف
 في أرض المحشر.

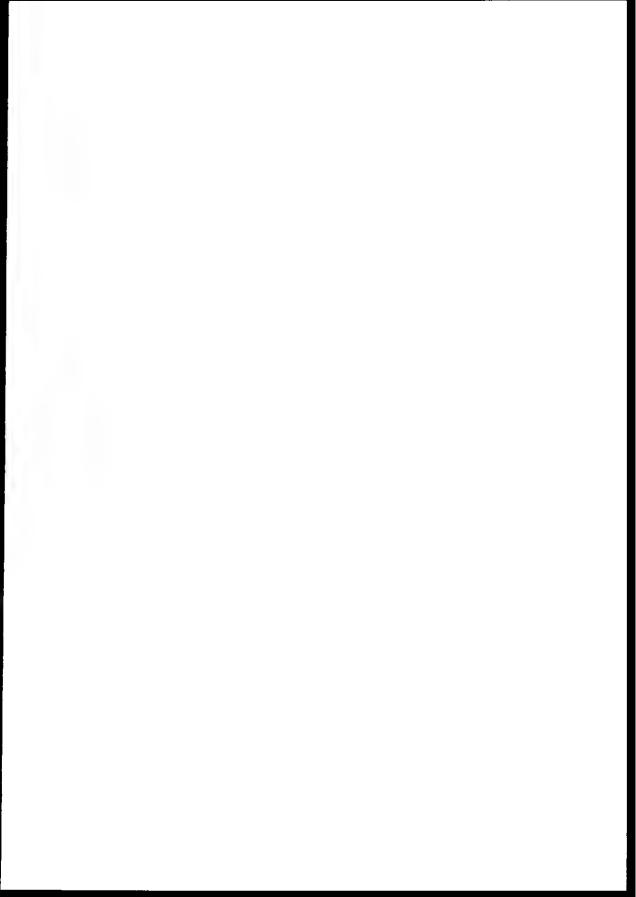
٥ ـ مدة وقوف الخلق في الموقف:

١ ما جاء في القرآن الكريم.

٢ ما جاء في السنة النبوية.

袋 袋 袋





الفصل الأول الإيهان بالغيب

مدخل:

إن الإيمان بالغيب هو أحد أركان الإيمان، والتي لا يسمى الشخص مؤمناً إلا إذا آمن بها وصدق بأخبارها.

فقد جعل الرسول عَلَيْكُ في إجابته عن الإيمان ـ حين سُئل ما هو الإيمان ـ جعل الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان .

والأحاديث في هذا كثيرة، إضافة إلى ما جاء في القرآن الكريم من ربط الإيمان بالله، كما سنفصل الكلام عن هذا في موضعه.

ولقد كان الموضوع الذي وقع عليه اختياري لكتابة هذه الرسالة هو الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار.

وظاهر أن هذا الموضوع من الأمور السمعية، وبعبارة أخرى من الأمور الغيبية التي أمرنا بالإيمان بها عن طريق السمع.

ومن المعلوم أن ما صح من الأمور السمعية وخصوصاً ما جاء في تفاصيل اليوم الآخر- التي لا يدركها العقل بمفرده - أن الإيمان بذلك وقبوله مما لا ينبغي أن ينازع فيه أحد، لأن هذه الأمور مما لا مجال للعقل في إدراك حقائقها وجزئياتها إلا ما ورد به النص.

ولهذا فإنه قبل أن نشرع في ذكر تفاصيل تلك الأمور السمعية نحب أن

نبين الأمور الآتية:

١- أن نبين معنى الإيمان بالغيب في اللغة والاصطلاح.

٢- أن نبين إمكانية هذه الغيبيات وأنها ليست من المستحيلات عقلاً بل هي من الأمور الممكنة التي ليست مستحيلة على الله تعالى لاعقلاً ولا نقلاً، بل هي عين العدل والحق.

و لم يخالف في اعتقاد هذا أو ادعى استحالته غير أهل الشرك الذين قالوا: ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا السَّدُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ السَّدَّهُرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمِ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُونَ ﴾ [الجائية: ٣٤].

وهؤلاء هم الجهال الذين لا علم عندهم، ولهذا قال الله في جوابه عن مقالتهم ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ وأسأل الله التوفيق والعون.

告 告 告

أ_معنى الغيب في اللغة:

يطلق لفظ الغيب في اللغة على عدة معان دائرة كلها حول الاستتار والاختفاء وعدم المشاهدة.

قال الأزهري فيما ينقله عن علماء اللغة: «قال شمر: كل مكان لايدرى ما فيه فهو غيب، وكذلك الموضع الذي لا يدرى ما وراءه، وجمعه غيوب».

وقال أبو إسحاق في قول الله جل وعز: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣]: أي يؤمنون بما غاب عنهم مما أخبرهم به رسول الله عَيْنَ ؟ من أمر البعث والجنة والنار، وكل ما غاب عنهم مما أنبأهم به فهو غيب.

وقال الأزهري أيضاً: "قال أبو العباس عن الأعرابي في قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهُ عِن الْعَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] قال: يؤمنون بالله، قال: والغيب أيضًا ما غاب عن العيون وإن كان محصلاً في القلوب.

وقال اللحياني: امرأة مغيبة ومغيب إذا غاب زوجها. قال: وقال بعضهم: بدا غيبان الشجرة وهي عروقها التي تغيبت في الأرض فحفرت عنها حتى ظهرت (١).

وقال الراغب: «الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال: غاب عنى كذا».

«والغيب في قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام،

⁽١) تهذيب اللعة: ٨/ ٢١٤.

وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد ١١١٠٠ .

وذكر الرازي عن جمهور المفسرين: «أن الغيب هو الذي يكون غائبًا عن الحاسة ».

ثم قسمه إلى ما عليه دليل وإلى ما ليس عليه دليل، وأن قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] المراد به مدح المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب الذي دل عليه دليل(٢).

ب معنى الغيب في الاصطلاح:

الغيب في المعنى اللغوي أعم، وفي معناه الاصطلاحي أخص، وذلك لأن الغيب لغة يطلق على كل ما غاب، سواء كان أمرا حسياً أو أمراً معنوياً، وسواء أكان مما يجب الإيمان به أو مما لا يجب الإيمان به.

وأما الغيب بالمعنى الشرعي فهو أخص مما ذكر، فهو ما غاب عنا وأمرنا بالإيمان به كالإيمان باليوم الآخر وما فيه من الميزان والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار وغير ذلك.

وعلى هذا؛ فإن المعنى الاصطلاحي للغيب: هو الإيمان بما لا نعلمه أو بما لا تقع عليه حواسنا مما أخبر به الله سبحانه وتعالى أو أخبر به رسوله على من المغيبات، كاليوم الآخر وما يقع فيه من حساب وجزاء وغيرهما مما ثبت به النص.

⁽١) المفرادت في غريب القرآن: ص ٣٦٧.

⁽٢) التفسير الكبير ١/ ٢٧، ويقصد بما ليس عليه دليل هو الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى لاغيره، وأن الذي عليه دليل هو العلم الحاصل بالتفكر والاستدلال كالعلم بالله وصماته والآخرة والأحكام والشرائع. . . إلخ.

وإن كان علماء التفسير يذكرون أقوالاً وكلها متفقة . في معنى الغيب الذي ذكره الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] من أنه الله سبحانه وتعالى، أوهو القضاء والقدر، أو هو القرآن وما فيه من الغيوب، أو أن الغيب هو كل ما أخبر به الرسول عليه عما لا تهتدي إليه العقول، من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار.

« وقد ضعف ابن العربي القول الأول ، وقال ابن عطية عن تلك الأقوال أنها لا تتعارض ؛ بل يقع الغيب على جميعها » (١) بمعنى أن الغيب هو كل ما غاب عنك ولا تعلمه ولايقع تحت إحساسك قال محمد رشيد رضا: «والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس»

ثم استشهد بكلام للأستاذ محمد عبده فقال: "وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد، وقائم على أول النهج، لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك ويأخذ بيده إلى الغاية، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل وإن كانت لا يأتي عليها الحس(٢٠) إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السماوات والأرض، المستعلي عن المادة ولواحقها، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله، بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة مثلاً؛ لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة؛ لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم.

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس، ويظن أن لا شيء وراء

⁽١) انظر: فتح القدير: ١/٣٤.

⁽٢) قبوله: "وإن كنانت لا يأتي عليها الحس " يرد عليه : أن أصور الآخسرة ليست من الأمور المعنوية بل هي أمور محسوسة .

المحسوسات وما اشتملت عليه، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أوما يشبه مشهوده، وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك، نعم قد توصلك المجاهدة ـ بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البعيدة والأخذ به في الطرق المختلفة ـ إلى تقريبه مما تطلب، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر أو يخضعه القهر حتى يتم لك منه الأمر.

فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه، ولم يجمل من نفسه وقعه، فكيف يجد فيه هداية أو منقذًا من غواية؟ »(١).

جـ ـ الإيمان بالغيب وأدلته:

وإذا كان الإيمان بالغيب يراد به أن يؤمن العبد بأن وراء هذه الحياة المحسوسة (٢) الدنيوية حياة أخرى هي أشرف وأعلى منها، فقد أثنى الله تعالى على المتصفين به ووصفهم بصفات حميدة عديدة.

ومما يجدر ذكره أن الله تعالى قد ذكر لفظة الغيب في ثلاث وخمسين آية في القرآن الكريم، ذكر منها ثماني آيات في الحث على الإيمان بالغيب ومدح من يتصف بذلك.

فقال تعالى: ﴿ اللَّمْ ۚ ذَلِكَ الْكَتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لَلْمُتَقِينَ ﴿ الَّذِينَ اللَّذِينَ اللَّهُ الْكَتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لَلْمُتَقِينَ ﴿ اللَّذِينَ اللَّهُ مِنُونَ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ وَمِمّاً رَزَقْنَاهُمْ اللَّهَ وَاللَّذِينَ اللَّهُ مُنُونَ اللَّهُ مُنُونَ اللَّهُ مُنْ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ مُنْ اللَّهُ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ مُنْ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ ا

⁽١) تفسير المنار ١/٨٢٨.

⁽٢) لا يصح أن يفهم من هذا أن أمورالآخرة ليست من الأمور المحسوسة.

وقال تعالى في مدح الذين يؤمنون بالغيب ومبشراً لهم بما أعده من جزائهم من المغفرة والأجر الكبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشُونُ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَغْفِرةٌ وَأَجُرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢] .

وأخبر تعالى أنه قد ابتلى عباده ببعض المنهيات _ كالصيد _ حتى يتبين من يؤمن بالغيب ممن هو ضعيف الإيمان به، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُونَكُمُ اللَّهُ مِشْيَء مِّنَ الصَّيْد تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبِّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُسَذِرُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا البصَّلاةَ ﴾ . [الفطر: ١٨]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُندَدِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ السَّرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةً وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

وقال تعالى: ﴿ مِنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلْنَا بِالْبَيْنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكَتَابَ وَالْميــزَانَ لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطُ وَأَنزَلْنَا الْحَديدَ فِيهِ بَأْسٌ شَديدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَرِيٌ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

ففي هذه الآيات الكريمات وغيرها يخبرنا تعالى أن وراء هذا الكون كونًا آخر، ووراء هذه الحياة حياة أخرى يجب الإيمان بها، والعقل يؤيد ذلك، فلو لم يكن وراء هذه الحياة حياة أخرى؛ لكان هذا الوجود ـ المشتمل على الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيء، والطائع والعاصي وجودًا أشبه ما يكون بالعبث؛ بل هو عين العبث الذي تمنزه الله تعالى عن الاتصاف به، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَيْنًا وَأَنكُمُ إِلَيْنَا لا لاتصاف به، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَيْنًا وَأَنكُمُ إِلَيْنَا لا لاتصاف به، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقَنْاكُمْ عَبَيْنًا وَأَنكُمُ إِلَيْنَا لا لاتصاف به، قال تعالى الله المملك المُحتَقُ لا إلله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ترجع عنها والمؤمنون: ١١٦،١١٥].

وكذلك لو لم تكن هناك حياة أخرى وحساب وجزاء لتساوى الناس في الحكم، بأن يكونوا كلهم على نتيجة واحدة، وهو خلاف ما تقتضيه بدائة العقول وتأباه الطبائع، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ ﴾ [الليل: ٤]. وإذا كان السعي شتى؛ فلابد من أن يجازى كل واحد بقدر عمله، إن خيرا فخير وإن شراً فشر، ولو لم يحصل هذا التفاوت في الجزاء؛ لتساوى المجرم بالمسلم والطائع بالعاصي. وهو ما صرحت الآيات القرآنية بنفيه، أشد النفي وتوعدت من اعتقد ذلك، كما نلحظه في الآيات الآرة:

قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ صَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيّئَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

فهذه الآيات صريحة في أنه لو لم يكن هناك يوم آخر يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لتساوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين في الأرض ولتساوى المتقون بالفجار، وهذا أمر يأباه الله تعالى ويأباه عدله وإن رغمت أنوف من ينكرون اليوم الآخر.

وإذا كان الناس يرفضون مساواة المصلح بالمفسد، والطائع بالعاصي؟ فكيف بالله تعالى الذي له صفات الكمال المطلق في العدل وفي غيره من سائر الصفات، وقد رأينا كيف تضافرت أدلة العقل والنقل على وجوب الإيمان باليوم الآخر ووجوب العدل والتفرقة بين المحسن والمسيء والكافر والعاصي: ﴿ فَمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ ﴿ وَمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةً شَرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فليست الحياة هي هذه الدنيا المملوءة بالمتناقضات فحسب كما يعتقد الماديون؛ بل هناك عالم آخر .

إن الشخص الذي لا يؤمن إلا بالحسيات هو شخص مادي بعيد عما يوجبه العقل السليم والفطرة المستقيمة، أما غير المادي فهو الشخص المستقيم الذي يؤمن بما لايدركه الحس من الأمور التي ثبت وجوب اعتقادها بالنصوص الصحيحة الصريحة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عَنْ ، ولو أراد الله إظهار المغيبات لزالت حكمة التكاليف؛ بل ولأفضى الحال بالناس إلى الوقوع في مضار كثيرة، كما قال عَنْ : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع ، (۱) .

ولما كان الإيمان باليوم الآخر يعتبر من أهم الأمور الغيبية كما تقدم، فلا شك أنه يحتاج إلى يقين ثابت؛ لأن أول ما يضعّف من يقين العبد هو أخبار اليوم الآخر إن لم يوفق الله العبد إلى طريق الحق ويعينه عليه.

ولهذا كانت دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أعظم أهدافهم

⁽١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد ٢٢٠٠/٤.

هو تعريف البشر باليوم الآخر وما يقع فيه، فلم تخل أمة من الأم منذ أول الخلق إلى آخرهم من معرفة اليوم الآخر ولم ينكره إلا الكفار الجاحدون، فما من نبي إلا وقد أنذر قومه ذلك اليوم وحذرهم من القدوم على ربهم بدون عمل صالح، فمنهم من آمن بهم وبهداهم وصدقهم في ذلك، ومنهم من كفر ونأى عن ربه وهم كثيرون اتبعوا الشيطان واجتنبوا تعاليم الأنبياء.

فهذا آدم أبو البشر عليه السلام قد أخبره الله بالقيامة وأنها ستقع منذ أن أمر الله بإهباطه من الجنة، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وهذا نوح عليه السلام يقول لقومه وهو يجادلهم ويبين لهم نعم الله عليهم : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (٧٠) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيتَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢].

ويقول الله تعالى لموسى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِ ، بِمَا تَسْعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدُّنَك عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ما ١٦، ١٦].

وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قبال لهم خزنتها: ﴿ أَلَمْ يَبَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَبِنُوكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكُنْ مِنْكُمْ يَبِتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَات رَبِيَكُمْ ويُبنذرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكَنْ حَقَتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١]، وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا (١٠).

⁽١) انظر: شرح الطحاوية: ص ٤٥٨.

ومعلوم أن الداخلين في النار أم شتى ليسوا بأصحاب رسول واحد، ومع هذا الجمع كله؛ فإنهم جميعًا اعترفوا بإنذار رسلهم لهم لقاء ربهم في هذا اليوم العظيم.

والآيات في هذا المعنى كثيرة كلها تقرر أمر البعث ووقوعه، وأنه كذلك ما من نبي ولا رسول إلا وقد أنذر قومه أمر اليوم الآخر .

وإذا عرف هذا فلابد من الإشارة إلى مسألة هامة ضل بسبب الجهل بها طوائف عديدة لأنهم لم يعرفوا الحقيقة فيها، وهي مسألة التفاصيل الدقيقة التي جاء بها نبينا عَلَي أكثر من غيره من الرسل، وهؤلاء هم جهال الفلاسفة الذين ظنوا أنه لم يخبر بجعاد الأبدان إلا محمد عَلَي لأنهم وجدوا تفاصيل لليوم الآخر لم تكن معروفة عند غيره من الرسل المتقدمين، أو على الأصح لم توجد تلك التعاليم ولم يعثروا عليها، إما لضياع لحقها، وإما لتحريف أصابها؛ حتى تنوسيت مع مرور الزمن وحلت محلها الخرافات التي هي أشبه ما تكون بنسيج الخيال أو بالضوء الخافت.

وللرد على شبهة أولئك الملاحدة؛ يجب أن نتنبه إلى حقيقة هامة وأمر لا يجادل فيه إلا من ضل عن الطريق الصحيح ولم ينصف عقله، ذلك الأمر هو أن الرسول عَيَّا لما كان آخر الرسل وكتابه آخر الكتب؛ كان من الضروري أن يفصل أمر اليوم الآخر بما لامزيد بعده، وأن يبين جميع حقائقه لأنه إذا لم يبين تلك الحقائق كان نقصًا في الرسالة وقصوراً عن البيان، و هو ما لا يمكن وقوعه بحال يتنزه الله ورسوله عنه.

وفي هذا يقول ابن أبي العز: «ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفى ـ بين تفصيل الآخرة بيانًا لا

يوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد عَلَيْهُ وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري» (١).

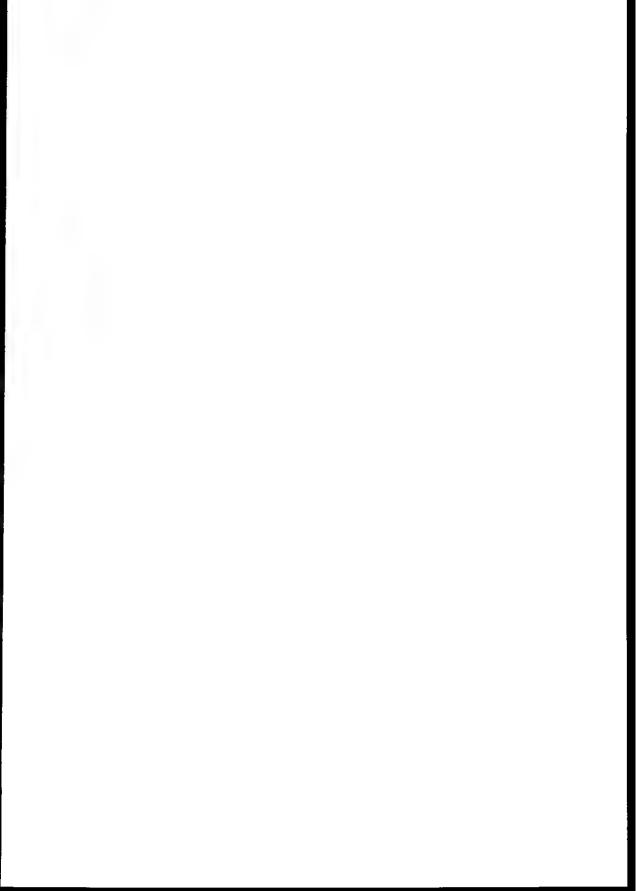
فلأنهم ملاحدة قد استمرءوا الكذب؛ ظنوا أن الرسل يستجيزون الكذب ويضللون الجماهير بما لا يصح وقوعه، وقولهم هذا إنما هو تعلل من لا حجة له ولا برهان، وهم لا يؤمنون لا بالقيامة ولا بمعاد الأبدان شأنهم شأن البهائم بل هم أضل سبيلاً.

ولما كان من المفيد جداً أن نتعرف على أقوال المنكرين والرد عليهم حتى لا يبقى لضعيف الإيمان شبهة؛ فسنفصل القول في ذلك بادئين بذكر أسماء يوم القيامة.

* * *

⁽١) انظر: شرح الطحاوية: ص ٤٥٧.





الفصل الثاني أسماء يوم القيامة

وردت ليوم القيامة أسماء كثيرة قد تتبعها العلماء من كتاب الله تعالى وبينوا معانيها، وعمن اهتم بسردها الغزالي^(۱)، والقرطبي في التذكرة^(۲)، وابن كثير في كتابه الفتن والملاحم^(۳)، والبرديسي⁽¹⁾. وغيرهم من علماء الإسلام.

وأسماء يوم القيامة كثيرة شأن كل عظيم، فإن العرب كانوا إذا عظم الشيء في نفوسهم أطلقوا عليه عدة أسماء، كما هو معروف في أسماء الأسد والسيف والأفعى، ولهذا يقول القرطبي معللاً لسبب كثرة أسماء يوم القيامة: «وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم وله نظائر، فالقيامة لما عظم أمرها وكثرة أهوالها سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة». (٥)

وقال البرديسي: «اعلم أن العرب تسمي الشيء أسماء كثيرة وتجعل له

⁽١) الإحياء: ١٦/٤.

⁽٢) التذكرة: ص ٢١٤ ـ ٢٣٣.

⁽٣) النهاية: ص ٢٥٥، ٢٥٦ جـ١ ـ ط١٠

⁽٤) تكملة شرح الصدور ص ٩ للبرديسي وهو مخطوط، والبرديسي هو: محمد أمين بن محمد بن محمد الأنصاري البرديسي المالكي .

⁽٥) التذكرة: ص ٢١٤.

ألقاباً عديدة تعظيمًا لشأنه وإكباراً لأمره، وقد سمى الله يوم القيامة أسماء كثيرة "(١).

والقرطبي وابن كثير، وإن كانا قد ذكرا كثيرًا من أسماء يوم القيامة إلا أن بعض تلك الأسماء إنما هي أوصاف على صيغة جمل؛ فلم أذكرها مثل ﴿ يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة: ١٢٣].

﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسِ شَيْئًا ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿ يَوْمَ لا يَسْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُم ﴾ [غافر: ٢٥]، ﴿ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فيسهِ وَلا خِلال ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فيسهِ وَلا خِلال ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿ يَوْمُ تَبْيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وذكرا أيضاً أسماء لم أقف لها على نص بهذه الصيغ التي ذكراها مثل: «يوم يجد كل عامل عمله أمامه»، «يوم لات حين مناص»، «يوم يخرج الأموات وتظهر العورات»، «يوم يدعى فيه إلى النار»، «يوم لا يرتجى فيه إلا المغفرة»، «يوم الانقطاع لعقابه ولا يكشف فيه كافر عما به».

وقد حاولت أن أذكر أسماء يوم القيامة مرتبة على الحروف الهجائية ، مستدلا على كل اسم من أسمائها بدليله من القرآن ، مقتصرًا فيما أورده على ما جاء في القرآن عن اليوم الآخر في كلمة واحدة مفردة مثل الصاخة والحاقة والطامة ، أو ما كان مضافاً إلى «يوم» (٢) وهو كلمة واحدة مثل: يوم الفصل ، يوم الجمع ، يوم التناد ، وبيان ذلك فيما يلى :

١-اليوم الآخر:

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ

⁽١) تكملة شرح الصدور ص٩.

 ⁽٢) وفي المعجم المفهرس الألفاظ القرآن الكريم في مادة « يوم » آيات كثيرة من هدا النوع ،
 يصف الله تعالى ذلك اليوم بأوصاف عديدة .

الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. إلخ الآية الكريمة.

٢ ـ الآخرة:

قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ قال تعالى: ١٦، ١٧].

قال ابن حجر رحمه الله في سبب تسميته باليوم الآخر: «وأما اليوم الآخر فقيل له ذلك لأنه آخر أيام الدنيا أو آخر الأزمنة المحدودة»(١)

وعلى هذا فالمراد باليوم الآخر أمران:

الأول: فناء هذه العوالم كلها وانتهاء هذه الحياة بكاملها.

الثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها .

فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها ألبتة (٢).

٣ _ يوم الآزفة:

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمُ مِيُوْمُ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، والمراد بالآزفة «يوم القيامة ، سميت بذلك لقربها ؛ إذ كل ما هو آت قريب» . (٣)

\$ _ يوم البعث:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ

⁽١) فتح الباري: ١١٨/١.

⁽٢) عقيدة المؤمن: ص: ٣١١.

⁽٣) التفسير الواضح: ٢٧/٢٤.

يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٦].

وسمي يوم البعث لما يقع فيه من إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم.

٥ _ يوم التغابن:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩].

«وسمي يوم القيامة يوم التغابن لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار، أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر والجيد بالرديء» (١).

٦ _ يوم التلاق:

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عَبَادِهِ لِيُنذِر يَوْمَ التَّلاقِ ۞ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مَنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [غافر: ١٥، لَيُنذِر يَوْمَ التّلاق: «قال أبن عباس، وقتادة: يوم تلتقي أهل السماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضًا، وأبو العالية، ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخا ، وقيل: العابدون والمعبودون، وقيل: الظالم والمظلوم، وقيل: يلقى ذل إنسان جزاء عمله، وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد». قال القرطبي: وكله صحيح (٢).

٧ _ يوم التناد:

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢]، سمي بذلك:

⁽١) تفسير القرطبي: ١٨/ ١٣٦، ١٣٧.

⁽٢) تفسير القرطبي: ١٥/٣٠٠.

لمناداة الناس بعضهم بعضا، فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النارأن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء، وينادي المنادي أيضاً بالشقوة والسعادة، ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، وهذا عند وزن الأعمال، وتنادي الملائكة أصحاب الجنة أن تلكموا الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة، خلود لا موت، وينادى كل قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء(۱).

٨ - يوم الجمع:

﴿ لِتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى: ٧] وسمي يوم الجمع لأنه «يوم يجمع الله الأولين والآخرين، والإنس والجن، وأهل السماء وأهل الأرض، وقيل: هو يوم ينجمع الله بين كل عبد وعمله، وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم، قيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمته، وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظالم بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصى»(٢).

٩ ـ يوم الحساب:

﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧]، وسمي يوم الحساب: لأن البارئ سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم، من إحسان وإساءة، يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض بالبعض (٣).

⁽۱) تفسير القرطبي: ۳۱۱/۱۵.

⁽۲) تفسير القرطبي: ۱۳٦/۱۸.

⁽٣) التذكرة: ص ٢٧١.

أو هو: «توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيراً كانت أو شراً» (١).

١٠ ـ الحاقة:

﴿ الْحَاقَةُ ٢ مَا الْحَاقَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَةُ ﴾ [الحاقة: ١.٣]، وسميت بذلك: لأنها «تحق فيها الأمور ويجب فيها الجزاء على الأعمال»، وقيل: لأنها أحقت لكل قوم وقيل: لأنها أحقت لكل عامل عمله، وقيل: لأنها أحقت لكل قوم أعمالهم(٢)، وقيل: سميت حاقة لأنها كانت من غير شك، وقيل: سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام النار(٣).

١١ - يوم الحسرة:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسَرَةِ إِذْ قُصَيَ الْأَمْرُ وَهُمُ فِي غَفَلَةً وَهُمُ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مسريم: ٣٩]، وسمي يوم الحسرة لأنه: يتحسر فيه الكافر على كفره والظالم على ظلمه والمشيء على إساءته (١٠).

ويتحسر الكافر كذلك حينما ييأس من دخول الجنة ويرى ما فاته من النعيم (٥) .

١٢ ـ يوم الخلود:

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ [ق: ٣٤]، سماه يوم الخلود لأنه لا

⁽١) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية: ص ٢٢٣.

⁽٢) تفسير الطبرى: ٢٩/٤٧، ٤٨.

⁽٣) التذكرة: ص: ٢٧٥.

⁽٤) أوضح التفاسير: ص: ٣٧١.

⁽٥) تفسير الطبرى: ١٦/ ٨٨.

انتهاء له بل هو دائم أبداً (١) .

١٣ ـ يوم الخروج:

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ السَصَيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤٢]، وسمي يوم الخروج: لخروج الناس فيه من قبورهم للبعث(٢).

14 _يوم الدين:

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤].

الدين هنا بمعنى الجزاء، وعن ابن عباس أنه قال: «يوم الدين: يوم الحساب للخلاتق وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه».

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر »(٣) .

10 _الساعة:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥].

وقد اختلف الناس في معنى كلمة الساعة إلى أقوال عديدة: فقال البرديسي: «الساعة لغة: اسم لطائفة من الزمان مبهمة، وأقل ما يطلق عليه اسم الساعة طرفة عين أو أخذ نفس ورده، وهي نكرة، وكل نكرة تقبل التعريف والتنكير إلا هذه؛ فإن الألف واللام قد لزمتها على وجه التغليب كالثريا ونحوها، والمراد هنا يوم القيامة. . .

⁽١) فتح القدير: ٥/ ٧٨.

⁽٢) فتح القدير: ٥/ ٨١-٨٢، تفسير الطبري: ٢٦/ ١٨٣.

⁽٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥ (تفسير القرآن العظيم).

وقال بعضهم: الساعة من أصل الوضع مقدار من الزمان غير معين كقوله: ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس: ٤٥].

وفي لسان أهل الشرع: القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعات الدنيا، أو أنها تقع بغتة، وصارت علمًا بالغلبة كالكوكب للزهرة، والساعة في عرف الفلكيين جزء من أربعة وعشرين جزءًا من أوقات الليل والنهار.

وقال بعضهم: سميت بذلك لأنها بالنسبة إلى كمال قدرته وجلاله كساعة واحدة، أو من باب تسمية الكل بلفظ البعض، ويجوز أن يراد بالساعة أول ساعة من الآخرة، وقيل: هي عبارة عن آخر ساعات الدنيا، وقيل: الساعة عبارة عن انقراض الدنيا (۱).

١٦ _الصاخة:

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمُ يَفِرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣١) وأُمِهُ وأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ وَبَنِيهِ (٣٣ - ٣٧] وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿ وَبَنِيهِ لَكُلِّ امْرِئُ مِنْهُمْ يَوْمَئِذُ شَأَنٌ يُغْنِيهُ ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٧] والصاحَة هي: صيحة القيامة لأنها تصخ الآذان أي تصمها (١).

والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ يكاد يخرق صماخ الأذن وهو يشق الهواء شقًا حتى يصل إلى الآذان صاخًا ملحًا (٣).

1٧ ـ الطامة:

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبُرْى ﴿ إِنَ يَنُومُ يَشَذَكُرُ الْإِنسَانُ مُاسَعَى ﴾ [النازعات: ٣٥، ٣٥]، قال القرطبي: «معناها الغالبة، من قولك: طم

⁽١) انظر: كتاب تكملة شرح الصدور: ١، ٢.

⁽٢) تفسير النسفى: ٣٣٤/٤.

⁽٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٠/ ٥٦.

الشيء إذا علا وغلب، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء السم على الله الله الله الله الله على الله

١٨ _الغاشية:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١]، سميت غاشية لأنها تغشى كل شيء بأهوالها (٢).

٩ ١ - يوم الفصل:

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ [النبأ: ١٧]، وسمي يوم الفصل: لأنه يوم عظمه الله، يفصل الله فيه بين الأولين والآخرين بأعمالهم(٣).

٠٧ _ يوم الفتح:

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمَ يُنظَرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٩]، قال في الفتوحات الإلهية: «يو لفتح المراد به يوم القيامة الذي هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم » (٤٠).

وقال الآلوسي: «أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: يوم الفتح يوم القيامة. ثم قال: هذا وتفسير يوم الفتح بيوم القيامة ظاهر على القول بأن المراد بالفتح الفصل للخصومة». ثم ذكر ما قيل من تفسير يوم الفتح بأنه يوم بدر، أو يوم فتح مكة، وما إلى ذلك من أقوال علماء التفسير وهي مرجوحة، والراجح هو ما تقدم من تفسيره بيوم القيامة (٥).

⁽١) التذكرة: ص ٢٧٥،

⁽٢) تفسير الخازن: ٧/ ٢٣٧.

⁽٣) تفسير الطبري: ٨/٣٠.

⁽٤) الفتوحات الإلهية: ٣/ ٤٢٠.

⁽٥) انظر روح المعاني: ٢١/ ١٤٠، ١٤١.

٢١ ـ يوم القيامة:

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿ وَ كُلُّهُمْ آتِهِ يَوْمَ الْقَيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥، ٩٥]، قال البرديسي: «وسمي يوم القيامة لقيام الخلق من قبورهم فيه وقيامهم بين يدي خالقهم وقيام الحجة لهم وعليهم»(١).

٢٢ القارعة:

﴿ الْقَارِعَةُ ۞ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١٣]، السميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها»(٢).

٢٣ ـ الواقعة:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٠ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة: ١، ٢]، قال الألوسي بعد أن بين أن الواقعة هي القيامة _قال: «صرح ابن عباس بأنها من أسمائها، وسميت بذلك للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة»(٣).

٤٢ - يوم الوعيد:

﴿ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٠]، وسمي يوم الوعيد لأن الله «أوعد به الكفار، قال مقاتل: يعني بالوعيد العذاب في الآخرة، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعاً لتهويله (١٠٠٠).

وبعد أن ذكر القرطبي كثيراً من أسماء يوم القيامة _ التي هي على صيغة جمل _ ذكر أن أسماء يوم القيامة قد تتبعها بعض العلماء، منهم ابن نجاح في سبل الخيرات، وأبو حامد الغزالي في غير موضع من كتبه كالإحياء وغيره،

⁽١) تكملة شرح الصدور : ص ٢ .

⁽٢) التذكرة: ص: ٣٦٣.

⁽٣) روح المعاني: ٢٨/ ١٢٩ .

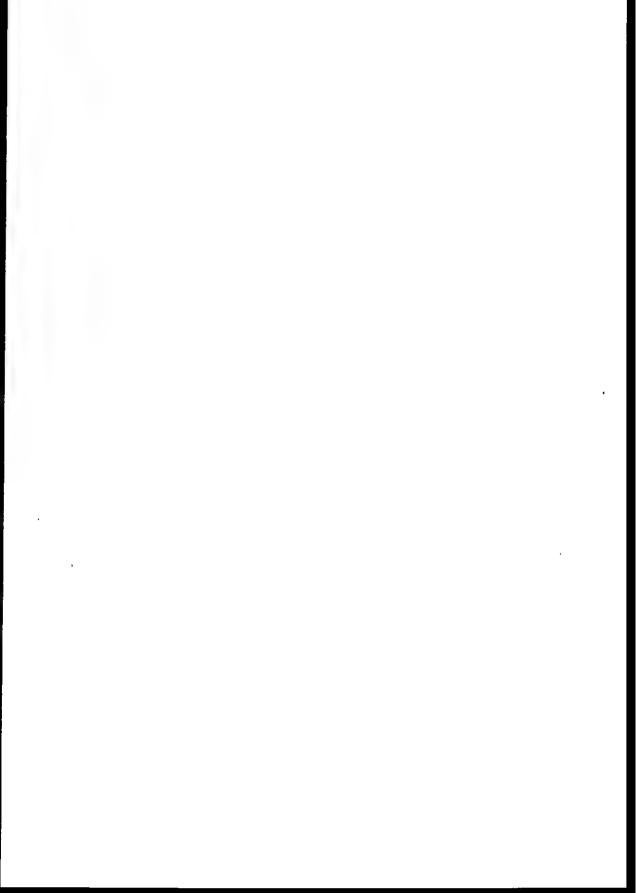
⁽٤) فتح القدير: ٥/٧٦.

والقتبي في كتاب عيون الأحبار، ثم قال:

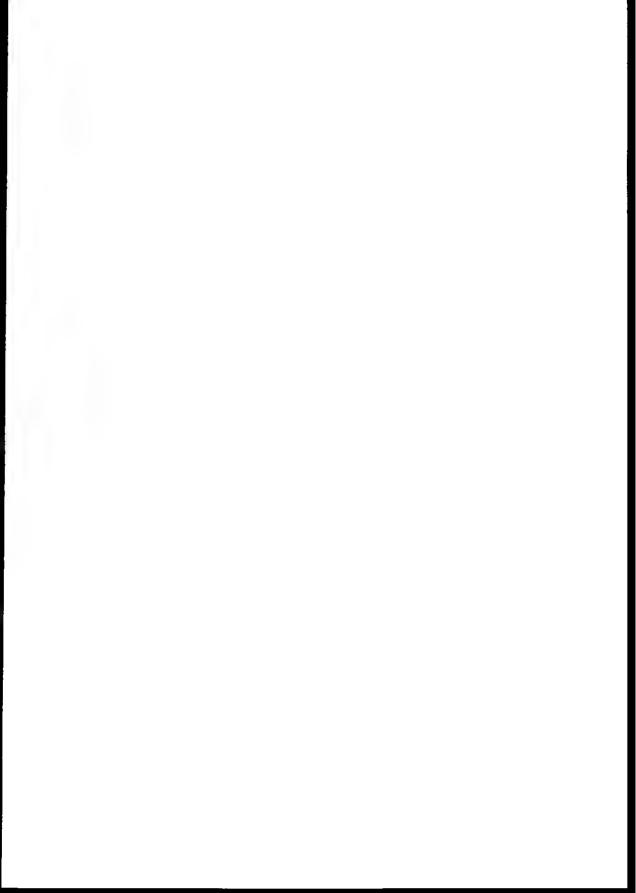
«ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكرنا حسب الأحوال الكائنة فيه، من الازدحام، والتضايق، واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصغار، والانكسار، ويوم الميقات، والمرصاد، إلى غير ذلك من الأسماء» (1).

恭 恭 恭

⁽١) التذكرة: ص ٢٣٢، ٢٣٣، وانظر: تكملة شرح الصدور: ص ٩.







الفصل الثالث التعريف بالبعث

١ ـ تعريف البعث في اللغة :

يختلف تعريف البعث في اللغة باختلاف ما علق به، فقد يطلق ويراد به:

١- الإرسال : يقال بعثت فلانًا أو ابتعثته أي أرسلته .

٢- البعث من النوم: يقال: بعثه من منامه إذا أيقظه.

٣- الإثارة: وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة: بعثتها إذا أثرتها وكانت قبل باركة.

وفي هذا يقول الأزهري(١):

«قال الليث: بعثت البعير فانبعث إذا حللت عقاله وأرسلته، لو كان باركًا فأثرته».

وقال أيضًا: «والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال كقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، معناه أرسلنا...

والبعث أيضًا الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله جل وعز: ﴿ ثُمَّ اللَّهِ عَنْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٦]، أي أحييناكم.

⁽١) انظر: تهذيب اللغة: ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥، القاموس المحيط: ١٦٨/١. وغيرهما من كتب اللغة في مادة "بعث".

وقال أبو هلال: «بعث الخلق: اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف ومنه قوله تعالى: ﴿ مَنْ بَعَثَنَا من مَّرْقَدنَا ﴾ [يس: ٥٢] » (١) .

ويقول الفيروز أبادي:

«بعثه كمنعه: أرسله كابتعثته فانبعث، والناقة أثارها، وفلانًا من منامه: أهبه. . . وتبعث منى الشعر انبعث كأنه سال» (٢) .

وقال الراغب: «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب ما علق به .

فبعثت البعير: أثرته وسيرته، وقوله عز وجل: ﴿ وَالْمَوْتَيْ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦]، أي يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة.

فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة. و إللهي وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس(٣). وذلك يختص به البارئ تعالى، ولم يقدر عليه أحدًا.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عَيْنَهُ وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦]، يعني الحشر.

وقـولـه عـز وجل: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣١]، أي قيضه.

⁽١) وانظر: الفروق: ص ٢٨٤.

⁽٢) القاموس المحيط: ١٦٨/١.

⁽٣) هكذا عبارة الراغب ولعله يقصد عن لا شيء.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَتْنَاهُمْ لِنَعْلُمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِشُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢]، وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان(١).

وهذه المعاني ثابتة في اللغة لكلمة البعث(٢) .

٢ ـ المراد بالبعث في الشرع :

البعث في الشرع يراد به: إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : «البعث: وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة»(٣).

وقال السفاريني: «أما البعث فالمراد به المعاد الجسماني؛ فإنه المتبادر عند الإطلاق؛ إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكفر منكره»(٤).

وقال البيجوري: «البعث عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم»(٥).

وقال السيد سابق عن البعث: «هو إعادة الإنسان روحاً وجسداً كما كان في الدنيا»(١) .

وهذا يكون حينما تتعلق إرادة الله تبارك وتعالى بذلك؛ فيخرجون من القبور حفاة عراة غرلاً بهماً، ويساقون ويجمعون إلى الموقف لمحاسبتهم

⁽١) المفردات: ص ٥٢، ٥٣.

⁽٢) أساس البلاغة: ص ٢٥.

⁽٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٠٦.

⁽٤) انظر: مختصر اللوامع: ص ٣٨٧.

⁽٥) شرح جوهرة التوحيد: ص ١٧٠.

⁽٦) العقائد الإسلامية: ص ٢٦٩.

ونيل كل مخلوق ما يستحقه من الجزاء العادل.

وهذا ما تشير إليه كثير من الآيات الواردة في كتاب الله عز وجل، كما قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقِّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَالَ اللهَ تعالى: ﴿ وَأَلْ اللهَ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: تَعالى: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْشِرَتَ ﴾ [الانفطار: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا اللهَ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الانفام: ٣٦].

وبالمقارنة بين المعنى الشرعي لكلمة «البعث» والمعنى اللغوي لها: نجد ترابطاً ظاهراً، وذلك أن من معاني البعث في اللغة الإثارة لما كان ساكنًا من قبل، وكذا الإرسال كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَن اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا ما جاء في كلمة البعث مراداً بها معناها الشرعي الذي هو إرسال الحياة إلى الأموات وإثارتها من جديد لتتهيأ لما يراد منها من الانطلاقة إلى الموقف للحساب.

٣ ــ الفاظ ينبغس التنبه إليها :

١ ـ النشور.

٢ سالمعاد.

٣ _ الحشر .

عرفنا فيما مضى معنى البعث لغة، واصطلاحاً، ولا يفوتنا التنبيه على أن هناك ألفاظاً قد استعملت في هذا المعنى وهي:

النشور، المعاد، الحشر، ونفصلها فيما يلي:

اـالنشور:

تعريفه في اللغة: النشر في اللغة يأتي بمعنى البسط، والانتشار، وتقلب الإنسان في حوائجه، ويأتي بمعنى التفرق.

أما مجيئه بمعنى البسط فمثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشرِرَتْ ﴾ [التكوير: ١٠]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ [المرسلات: ٣] أي الملائكة التي تنشر السحاب.

وأما مجيئه بمعنى الانتشار فمثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارُ لَنَّهَارُ لَنَّهَارُ لَكُمُّا لَانتشار وابتغاء الرزق.

وعن تقلب الإنسان في حوائجه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ السَّمَّلَاةُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ

قال الأزهري في باب (نشر): «قال الليث: النشر: نشر الريح الطيبة»، وعن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: «النشر: الحياة، والنشر: الريح الطيبة».

قال الأزهري: «يقال: أنشر الله الموتى فنشروا: إذا حيوا ، كما قال الأعشى:

حتى يقول الناس عا رأوا يا عبجبًا للميت الناشر

وقال أبو هلال العسكري: «والنشور: اسم لظهور المبعوثين، وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك: نشرت اسمك ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه

⁽١) انظر: المفردات للراغب: ص ٤٩٢، ٤٩٣.

⁽٢) تهذيب اللغة: ١١/ ٣٣٨، ٣٤٠.

قيل: أنشر الله الموتى بالألف ، ونشرت الفضيلة والثوب، للفرق بين المعنين "(١) .

وذكر الزمخشري في أساس البلاغة: أن من معانيه أيضًا: إذاعة الخبر ونشره في الناس(٢).

وفي الاصطلاح:

يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

وإذا كان المعنى اللغوي يراد به الانتشار والتفرق والانبساط والبعث، فهي معان عامة يدخل فيها المعنى الاصطلاحي وهو نشر الله للأموات وإحياؤهم من قبورهم، فالنشور يراد به سريان الحياة في الأموات، كما رأيناه في تعريفات العلماء السابقة من أنه يراد به البعث في اليوم الآجر وخروج الناس من قبورهم أحياء.

وهذا ما فسر به قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس: ٢٢].

قال ابن كثير: «أي بعثه بعد موته»، قال: «ومنه يقال البعث والنشور»(۳).

وجاء في الحديث عن حذيفة بن اليسمان رضي الله عنهما: أن رسول الله عنها أزاد أن ينام قال: «اللهم باسمك أموت وأحيا، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد أن أماتها وإليه النشور» (١٠). قال

⁽١) الفروق في اللغة: ص ٢٨٤.

⁽٢) أساس البلاغة: ص ٤٥٦.

⁽٣) تفسير القرآن العظيم: ٤٧٢/٤.

⁽٤) أخرجه الترمذي: ٥/ ٤٨١، وقال :حديث حسن صحيح .

ابن الأثير: «يقال: نشر الميت ينشر نشوراً: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أى أحياه»(١).

وعرفه البرديسي بأنه «قيام الناس من قبورهم» $^{(7)}$.

وقال السفاريني: «وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى، نشر الميت ينشر نشوراً: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياه»(٣).

٢ ـ المعاد:

المعادُ في اللغة :

قال الفيروز أبادي: «والمعاد: الآخرة، والحج، ومكة، والجنة وبكليهما فسر قوله تعالى: ﴿ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القبصص: ٨٥]، والمرجع، والمصير».

وقال: «وأعاده إلى مكانه: رجعه، والكلام: كرره، وتعاودوا في الحرب: عاد كل فريق إلى صاحبه»(٤).

وقال الراغب: «والمعاديقال للعود وللزمان الذي يعود فيه، وقد يكون للمكان الذي يعود إليه»(٥٠).

وتدل تلك التعريفات للمعاد على أنه مصدر ميمي مأخوذ من العود، وهو رجوع الشيء إلى ما كان عليه أولاً.

المعاد في الاصطلاح:

⁽١) النهاية لابن الأثير: ٥٤/٥.

⁽٢) تكملة شرح الصدور. ص ١٦.

⁽٣) انظر : مختصر لوامع الأنوار : ص ٣٨٨.

⁽٤) القاموس المحيط: ١/ ٣٣٠، ٣٣١.

⁽٥) المفردات: ص ٣٥٢.

وفي الاصطلاح: يطلق لفظ المعاد على الرجوع إلى الله تعالى في يوم القيامة، ورجوع أجزاء البدن المتفرقة إلى الاجتماع كما كانت في الدنيا، وحلول الروح فيه.

قال ابن الأثير: «وفي أسماء الله تعالى «المعيد» هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا، وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة» (١).

ومنه الحديث: «وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، (٢) أي ما يعود إليه يوم القيامة، ومنه حديث علي: «والحكم الله والمعود إليه يوم القيامة» (٣) أي المعاد(٤).

وقال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله: «المعاد: وهو المرد إلى الله عز وجل والإياب إليه» (٥).

وقد فسر قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] بعدة تفسيرات كلها تدل على الإعادة والرجوع إلى الله تعالى.

عن مجاهد: ﴿ كُمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]: يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصري: «كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء».

وقال قتادة: ﴿ كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئًا ثم ذهبوا ثم يعيدهم.

⁽١) النهاية لابن الأثير: ٣١٦/٣.

⁽٢) أخرجه مسلم: ٥٦٩/٥.

⁽٣) ذكره ابن الأثير في النهاية: ٣١٦/٣.

⁽٤) ابن الأثير في النهاَّية : ٣/ ٣١٦.

⁽٥) معارج القبول: ٢/ ١٠١.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً» (١) .

٣ ـ الحشر:

معنى الحشر في اللغة:

قال الراغب الأصفهاني: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها» (٢٠).

ويطلق على الإزالة «يقال: حَشَرَت السنّةُ مالَ بني فلان أي أزالته عنهم»، «ولايقال الحشر إلا في الجماعة» (٣).

قال تعالى: ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ تَعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥].

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى، وهي كثيرة تدل على إطلاق لفظة الحشرعلى الكثرة والجماعة، مرادًا بها جمع الناس في مكان.

وعرفه القرطبي بأنه الجمع (١)، وهو ما عرفه به كذلك البرديسي (٥)، والسفاريني.

وقال الأزهري نقلاً عن الليث: «الحشر: حشر يوم القيامة».(١) .

⁽١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٠٨/٢.

⁽٢) انظر: المفردات ص ١١٩.

⁽٣) انظر: المفردات ص ١١٩.

⁽٤) التذكرة: ص ٢٤٢.

⁽٥) تكملة شرح الصدور : ص ١٦، وانظر : مختصر اللوامع : ص ٣٨٨.

⁽٦) تهذيب اللغة: ٤/ ١٧٧.

ثم ذكر أن من معانيه وروده بمعنى «المجمع الذي يحشر إليه القوم، وكذلك إذا حشروا إلى بلد أو معسكر ونحوه» (١).

ويقول أبو هلال العسكري:

«الحشر: هو الجمع مع السوق، والشاهد قوله تعالى: ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمُدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٦] أي ابعث من يجمع السحرة ويسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر لأن الخلق يجمعون فيه ويساقون إلى الموقف» (٢).

وهو ما ذكره الزمخشري في أساس البلاغة(٣) .

قال البرديسي: «وأما المحشر بفتح الشين فهو المصدر، وبكسرها اسم للموضع، وبعضهم يذهب إلى أن الكل بمعنى واحد، ونقل عن الجوهري أنه قال: المحشر بالكسر موضع الحشر. قال: وذكر صاحب العين أن المحشر بالكسروالفتح الموضع الذي يحشر الناس إليه» (٤).

معنى الحشر في الاصطلاح:

ويطلق الحشر على يوم القيامة (٥)، وهو سوق الناس وجمعهم إلى المحشر لحسابهم، كما ظهرمن التعريفات السابقة.

وقال ابن حجر في بيان معنى الحشر: أنه «حشر الأموات من قبورهم وغيرها بعد البعث جميعاً إلى الموقف. قال الله عز وجل: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مَنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٧٧] » (١).

⁽١) المصدر السابق.

⁽٢) الفروق في اللغة: ص ١٣٦.

⁽٣) أساس البلاغة: ص ٨٤.

⁽٤) انظر: تكملة شرح الصدور: ص ١٦.

⁽٥) المفردات: ص ١٦٠، وانظر: أساس البلاغة ص ٨٤.

⁽٦) فتح البارى: ٤/ ٣٧٩.

وقال البيجوري: «الحشر عبارة عن سوقهم ـ أي الناس ـ جميعاً إلى الموقف وهو الموضع الذي يقفون فيه» (١) .

ويتضح مما تقدم أن الفرق بين البعث والحشر: هو أن البعث إرجاع الحياة إلى الأموات، والحشر هو سوق هؤلاء المبعوثين وجمعهم إلى الموقف.

٤ ـ مراتب الموقف :

لا يوجد نص يستند إليه في ترتيب أعمال يوم القيامة، ولم تخص هذه المسألة بالبحث والتحقيق، وإنما تذكر تلك الأمور التي تحصل في يوم القيامة كل مسألة مستقلة بمفردها.

غير أن بعض العلماء قد ذكر في ترتيب تلك الأمور رأيه، ومن هؤلاء العلامة البرديسي حيث قال في مخطوطته «تكملة شرح الصدور» ما نصه:

«اعلم أن مراتب الموقف: البعث، ثم الحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف، ثم أخذها بالأيمان والشمائل، ثم السؤال والحساب، ثم الميزان» (٢)، وقد ترك أعمالاً أخرى لم يذكرها مثل الصراط والقنطرة، والشفاعة، و مجىء الله لفصل القضاء.

وقال السفاريني: «اعلم أن مراتب المعاد: البعث، والنشور، ثم الحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم السؤال والحساب ثم الميزان» (").

⁽١) شرح جوهرة التوحيد: ص ١٧٠.

⁽٢) تكملة شرح الصدور: ص ١٤.

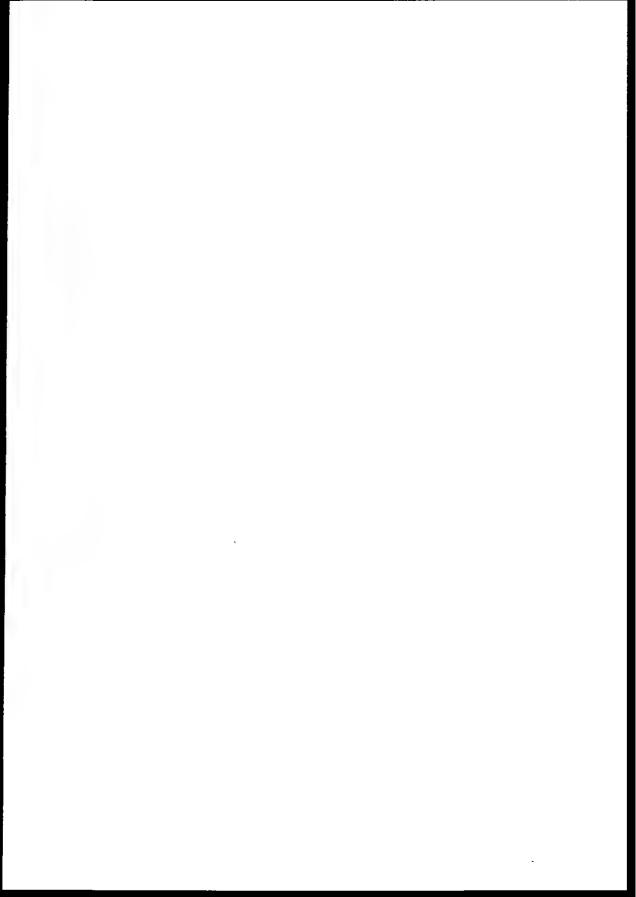
⁽٣) انظر: مختصر لوامع الأنوار: ص ٤٠٦.

وقد فاته كذلك بعض المراتب، فهو لم يذكر الشفاعة العظمى، ولا مجيء الله لفصل القضاء ولا الصراط.

وبغض النظر عما قيل من ترتيب ذلك فإننا سنرتب تلك الأمور ترتيبًا ربما يخالف بعض ما قيل في ذلك. وأسأل الله تعالى العون والتوفيق.

* * *

9900:	••••	
3000		
3394"	•••• •••• الفصل الرابع	
3000		
999**	•••• أدلة البعث	
399•• 399••	-196	
	•••. ١ ـ عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليـوم	Ö
9000.	وور. ١- عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليـوم	
333**	••••	
3300		
3000	e fit ou the death obod in in which where ∀	-
)331.	•••• ٢ ـ بعض أسباب العناية باليوم الآخر.	-
3000	4###	
23000	•••• ٣ ـ أدلة البعث من القرآن الكريم. ••••	-
3980-		=
4334	***، ٤ ـ أدلة البعث من السنة النبوية وبيأن عناية	-
1000	- 4	
3330	📲: ' الرسول ﷺ با مر البعث.	0
300a.	*100	Ò
3000	•••• ٥ ـ دلالة العقل على البعث.	
2000	19 (1)	
\$600.	• • • • •	
30 Do:		
		•



الفصلالرابع ادلة البعث

إن الإيمان بالبعث أم معلوم من الدين بالضرورة، ومنكره خارج عن الإسلام. ولقد خص ذك يوم الآخر بمزيد من العناية والتعظيم لشأنه في كتاب الله تعالى وفي سنة ببيه عَلَيْك، وقد أجمع على ذلك المسلمون.

وسوف نورد فيما يلي:

١ - بيان عناية القرآن الكريم والسنة النبوية بذكره، وبيان أسباب تلك
 العناية .

٢ ـ أدلته من القرآن الكريم.

٣ ـ أدلته من السنة النبوية .

٤ ـ دلالة العقل عليه.

١ ـ عناية الكتاب والسنة بالإيمان باليوم الآخر :

إن المتتبع لطريقة القرآن الكريم في مجادلة خصوم العقيدة؛ يجد أن الاهتمام باليوم الآخر أخذ قسطاً واسعاً من تلك الحجج والبراهين الدامغة لمنكري اليوم الآخر، وكذا في السنة المطهرة، ويتمثل ذلك فيما يلي:

١ ـ ربط الله تعالى الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر :

كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَـنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ وَالْمَلائكَة وَالْكَتَابِ وَالـنَّبِيْنَ وَآتَى الْمَالَ

عَلَىٰ حُبِهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكذا قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، فندون نرى كيف ربط الله تعالى الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر وجعله في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله .

فلا إيمان إذاً للشخص وإن قال أنه مؤمن بالله حتى يؤمن باليوم الآخر كإيمانه بالله تعالى، وإن المفرق بينهما لا حظ له من الإيمان وإن ادعاه، وقد كان كثير من الكفار يؤمنون بالله ولكنهم يجحدون اليوم الآخر؛ فلم ينفعهم ذلك الإيمان وأباح الله للمؤمنين دماءهم وأموالهم لأنهم كفار.

ويتمثل كذلك ربط الإيمان بالله باليوم الآخر من السنة المطهرة في مثل قوله عَيْنَ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلامع ذي محرم، (۱) ، وقال عَيْنَ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، (۲) وقال عَيْنَ : « لا يسغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر الآخر ».

٢ - الإكثار من ذكره في القرآن الكريم وفي السنة النبوية :

فقلما تخلو سورة من سور القرآن عن التحدث عنه وتقريبه إلى الأذهان بشتى الأساليب، من إقامة للحجة والبرهان، أو من ضرب الأمثال، كالاستدلال بالنشأة الأولى، وكذا خلق السموات والأرض وإحياء الأرض

⁽١) صحيح مسلم: ٢/ ٩٧٧.

⁽٢) مسلم: ١/ ٨٨.

⁽٣) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

بعد موتها على الإعادة، وما إلى ذلك من المسالك التي سلكها القرآن الكريم كما سنذكر ذلك.

٣ ـ كثرة الأسماء التي جاءت له في القرآن الكريم:

فقد وردت أسماء كثيرة وكلها تبين ما سيقع في هذا اليوم من أهوال(١) .

ومعلوم من أساليب العرب أنهم يكثرون الأسماء للشيء إذا كان ذا أهمية وشأن، وقد نزل القرآن بلغتهم.

ولتلك العناية أسباب نذكرها فيما يلي:

٢ _ بعض اسباب العناية باليوم الآخر:

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه محمد على في وقت انحت فيه كثير من الأمور التعبدية، وجهلت فيه على الخصوص عقيدة الإيمان باليوم الآخر، فلم تعد على ذلك الوضوح الذي كان في زمن الأنبياء، بل صارت بتطاول الزمن عقيدة محرفة بعيدة عن الصواب والواقع، فلم تبق من معالم الإيمان باليوم الآخر إلا بقايا رسوم ؛ هي إلى الاندثار أقرب منها إلى التماسك، ليس عند جهة أو قوم بل في كل بقاع الأرض وعند كل أمة عربية أو غير عربية، اللهم إلا ما ورد عن أناس بخصوصهم من العرب بقوا على الخنيفية ملة إبراهيم.

فالعرب منهم مشركون ينكرون اليوم الآخر أساسًا، وأهل الكتاب من يهود ونصارى ـ وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر عمومًا ـ لكنهم على جهل كبير بحقيقته وما ينبغي اعتقاده فيه، وغير هؤلاء وثنيون أو مجوس لا

⁽١) انظر: العقائد الإسلامية: ص ٢٦١.

يؤمنون به مطلقاً عند بعضهم، وعند بعضهم الآخر يؤمنون بأن هناك عودة للروح، لكنه لا يمت إلى الإيمان باليوم الآخر كما جاءت به الأنبياء بأي صلة، كما هو الحال عند الهنود والبوذيين وغيرهم من الفرق الضالة.

وعلى هذا فمن أسباب تلك العناية ما يلي:

ا - إنكار المشركين لليوم الآخر أشد الإنكار، ونسبة ما يُشاهد من الإحياء والإماتة إلى الدهر، دون أن يكون هناك تنظيم لهذا التغير المستمر أو هدف من وراء هذا الخلق: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدُّنْيا نَمُوتُ ١٤٤].

فكان من الأمور البديهية أن ينزل القرآن بتلك الحجج القوية ليشد من أزر الرسول المنطقة في مواجهة ذلك السيل الجارف من الجحود لليوم الآخر.

٢ - وكما قلنا سابقًا فإن أهل الكتاب وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر لكنهم لم يكونوا على العقيدة الصحيحة فيه، فقد حرفوه وبلغوا به منتهى الفساد، وحتى صاروا فيه كالوثنيين من هنود وبوذيين، وذلك من ناحية أن الهنود يعتقدون في كرشنة أنه هو المخلص لهم من الآلام(١).

والنصارى ـ بخصوصهم ـ يعتقدون في عيسى أنه هو المخلص لأمته من عقوبة الخطايا في الآخرة؛ فالكل في الجنة والنعيم (٢) .

وأما اليهود فقد اختلفوا في الإيمان باليوم الآخر، وحتى نفس هذا الاختلاف بعيد كل البعد عن حقيقة اليوم الآخر.

٣ ـ ومن الأسباب التي جعلت القرآن الكريم يهتم باليوم الآخر ذلك

⁽١) ، (٢) الديانات القديمة لأبي زهرة: ص ٣٠.

الاهتمام الشديد، هو التأكيد على أن هذه الحياة إنما جعلت لهدف أعلى وغاية سامية، فلولا أن هناك يومًا يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ لما كان هناك فرق بين عمل الخير وعمل الشر، ولا كانت هناك فضائل و لا رذائل، فالحياة فوضى والمصير مجهول ولا وازع نفسي ولا ضمير حي.

إذاً فلا عجب إن رأينا الإسلام يهتم بذكر اليوم الآخر ويحث على الإيان به ويجعله من أهم القضايا الأساسية التي لا يمكن أن يسمى الشخص مؤمنًا إلا إذا جاء بها معتقدًا صحتها في قرارة نفسه.

فالإسلام خاتم الديانات ورسوله خاتم المرسلين، ولا عجب كذلك حينما نرى ونقرأ حقائق وتفاصيل عن اليوم الآخر لم تكن معلومة عند أهل الديانات السابقة.

وهذا هو الذي حمل بعض الفلاسفة ومن سار على طريقهم على القول بأنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا نبينا محمد عَلَيْكُ (١)، كما تقدم.

ولأن تلك التفاصيل لم تكن معلومة لدى الكفار من قريش وغيرهم ؟ نرى أن الإسلام قد سلك مسالك شتى وطرقاً متعددة في إقناع الكفار بالإيمان باليوم الآخر ، مبينًا أن هذا الكون لابد وأن ينتهي ويزول كل أثر له ، وأنه لم يخلق عبثًا دون حساب وجزاء .

ونتبين الطرق التي سلكها القرآن الكريم في محاجة خصومه لإثبات البعث فيما يلي:

⁽١) انظر: شرح الطحاوية: ص ٤٥٧.

٣_ أدلة البعث من القرآن الكريم:

وسوف نرى كيف اهتم القرآن الكريم بذكر البعث اهتمامًا بالغًا، حيث يتجلى ذلك في كثرة الأدلة عليه وفي تنوعها في الرد على المنكرين له، وأنه سلك في سبيل توضيح ذلك طرقًا عديدة، ومنها:

١ ـ الإقسام على وقوع البعث:

كما نرى في الآيات الآتية:

قال الله تعالى آمراً نبيه أن يقسم بربه سبحانه وتعالى على أن البعث حق لا ريب فيه، وأنه لابد من وقوعه، ومحاسبة أولئك المكذبين الجاحدين له، وأن ذلك لا يعجز الله تعالى؛ بل هو عليه يسير، فقال عز وجل:

١ - ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُعْتُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنبَؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِينَكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةً فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مَبينِ ﴾ [سبا: ٣].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَـقٌ وَمَا أَنستُم بمُعْجزينَ ﴾ [يونس: ٥٣].

ففي هذه الآيات البينات يأمر الله تعالى نبيه وهو الصادق المصدوق أن يقسم على وقوع البعث والجزاء وأنه كائن لا محالة، ومعلوم أنه ولو لم يقسم عَلَي وقوع البعث؛ لتلقى المؤمنون خبره بالتصديق التام وعدم وجود أدنى شك في ذلك، ولكان ذلك الإخبار كافيًا لصحة ثبوته.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد. زيادة في التأكيد والإيضاح والبيان. أن يقرن ذلك الإخبار بالقسم، فقد أمر الله نبيه أن يجيبهم بهذا الجواب في مقابلة استهزائهم وإنكارهم لأمر البعث، الذي سيعلمون إذا ماتوا ووقفوا أمام ربهم وبينت لهم الحقيقة أنهم كانوا على ضلال وجهل في نفيهم ذلك. حين زعموا أن لن يبعثوا زعمًا يدل على مكابرتهم وعنادهم للحق.

ولأنهم زعموا ذلك دون أن يذكروا لهم مستندًا، فإن الله تعالى لم يقم لهم الأدلة على حصول البعث؛ بل أمر نبيه أن يقسم على أن المعاد حق، وكأن حالهم لا يحتاج إلى ذكر الأدلة بل يحتاج إلى القسم حتى ينقادوا للتصديق.

وقد ذكر الإمام الرازي الفائدة من هذا القسم على وقوع البعث من وجوه: فقال:

«أحدها: أن يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد، ومن الظاهر أن من أخبر عن شي وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد.

ثانيها: أن الناس طبقات: فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم، فإن الأعرابي الذي جاء للرسول عليه السلام وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم، فكذا هاهنا» (١).

٢- من الطرق الأخرى التي سلكها القرآن الكريم في إثبات البعث:

١ - التنبيه بالنشأة الأولى على النشأة الثانية:

١ ـ قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَديــدًا

⁽١) التفسير الكبير: ١١٠/١٧.

(3) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَديدًا (5) أَوْ خَلْقًا مّمًا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنَىٰ هُوَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً فَسَيْنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (5) يَوْمَ يَدُّعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدُهِ وَتَظُنُونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

٢ ـ وقال ثعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةَ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مَبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعَظَامَ وَهِي رَمِيمٌ (٨٧) قُلْ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعَظَامَ وَهِي رَمِيمٌ (٨٧) قُلْ يُحْيِي الْعَظَامَ وَهِي الْعَظَامَ وَهِي رَمِيمٌ لَكُم مِن يُحْيِي الْعَظَامَ وَهُو لَكُم مِن يُحْيِي الْعَظَيمُ (١٤) الله عَلَيم وَنَا الله عَلَيم وَنَا الله عَلَيم وَالله وَلّه وَالله وَلّه وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَال

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿ آَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنْ يُكُ نُطْفَةً مِن مَن يُمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنْ يُم نَنْ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ مَنْ يُم نَنْ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأَنْثَىٰ ﴿ آَ القيامةَ : ٣٦ ـ ٤٠].

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدُ عَلِمْتُ مُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكِرُونَ ﴾
 ١٤ ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدُ عَلِمْتُ مُ النَّشْأَةَ الأُولِيَى فَلَوْلا تَذَكَرُونَ ﴾

٥ ـ وقال تعالى : ﴿ وَهُو الَّذِي يَبِدُأُ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُو اَهُونَ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

٦ ـ وقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

[الأنبياء: ١٠٤].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبِ مِنَ الْبَعَثُ فَإِنَّا خَلَقَة ثُمَّ مِن مُضْغَة مُخَلَقَة وَغَيْرِ خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابِ ثُمَّ مِن نُطْفَة ثُمَّ مِنْ عَلَقَة ثُمَّ مِن مُضْغَة مُخَلَقَة وَغَيْرٍ مُخَلَقَة لِنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِسْكُم مَّن يُتَوَفِّىٰ وَمِسْكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمِ شَيْئًا ﴾ [الحج: ٥].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الإنسسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (١٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٦٦].

9 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدُ خَلَقْنَا الإنسانُ مِن سُلالَة مِسِّن طِين ﴿ اللهُ مُسَّنَ عَلَيْهَ مُسَلِّفَة مَلْنَاهُ نُطْفَةً فَى قَرَارِ مَكِين ﴿ اللهُ مُ خَلَقْنَا المُنْطَفَةَ عَلَقَةً فَحَلَقْنَا الْعَلَاقَةَ مُضَلِّغَةً فَحَلَقْنَا الْعَلَامُ لَحُمَّا المُنْطَفَة عَلَقَةً فَحَلَقَا الْعَلَامُ لَحَمَّا اللهُ وَخَلَقْنَا الْمُضَلِّغَة عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلَقًا آخَرَ فَتَبَارِكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ اللهَ المُعَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيتَتُونَ ﴿ اللهُ مَنونَ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ مَنونَ اللهُ اللهُ مَنونَ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ مَنونَ : ١٦ ـ ١٦] .

١٠ وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمْ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاء دَافقِ ۞ يُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۞ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمُ تُبْلَى السَّرَائِرِ ﴾ [الطارق: ٥-٩].

وفي هذه الآيات المباركة يوضح تعالى لعباده أنه يعيد المخلوقات بعد أن يوتوا ويبلوا في الأرض، فكما أنه أنشأهم أول مرة وأوجدهم من العدم لا يعجزه أن ينشئهم مرة أخرى، ومعلوم أن النشأة الأخرى تكون أهون من النشأة الأولى.

والله سبحانه وتعالى وإن كان يسهل عليه النشأة الأولى والنشأة الثانية على حد سواء لكن والقرآن يخاطب البشر ويبين لهم تنزلا مع عقولهم دليلا لا يستطيعون جحده ويعرفون صدقه في أنفسهم، وهو أن من قدر على النشأة الأولى فهو على النشأة الثانية أقدر من باب أولى، فإذا كان في عرف البشر أن النشأة الثانية لأي شيء كان أسهل عليهم من النشأة الأولى ؛ أفلا

يليق بالله تعالى وهو القادر على كل شيء أن تكون النشأة الثانية أهون عليه.

وهذه حجة قوية ظاهرة لا يستطيع دفعها إلا من كابر عقله وأجحف في الحكم على ربه.

ومعلوم أن هذا التفاوت لا يقال على الله ، فإن الله تعالى إنما يقول للشيء «كن فيكون »، فليس هناك جهد يبذل أو محاولات تتكرر، ولكنها كلمة واحدة يتحقق بها كل شيء يريده الله ، فمشيئته لا راد لها ، وحكمه لا معقب له ، فالذي أنشأ البشر وأوجدهم ورباهم بنعمه ؛ قادر على إرجاعهم إلى الحياة مرة أخرى لمجازاتهم .

وهم - وقد عرفوا النشأة الأولى من أين جاءت وكيف وجدت وكيف تنتهي - كان الأحرى بهم أن تدلهم فطرتهم على أن الذي أنشأ هذا الكائن الحي أول مرة، أنشأه من نطفة، ثم صيره علقة، ثم صيره مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم صير تلك المضغة عظامًا، ثم كسا العظام لحمًا ثم أنشأه خلقًا آخر، ثم بعد ذلك مر بتلك الظلمات العظيمة قبل خروجه إلى الدنيا طفلاً لا يملك أي شيء، فرباه بنعمه إلى أن صار إنسانا قويًا متماسك البنية.

فإذا هو خصيم مبين، ونسي ذلك الفضل لله عليه جملة وتفصيلاً، وحارب الله علانية، حتى إذا جاءه الموت فإذا به ضعيف مسكين قد أثقل نفسه بالذنوب والآثام، وركب كل صعب وذلول؛ ليأخذ جزاءه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال شمس الدين بن القيم - رحمه الله - في شرح قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥] «يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في مبدأ خلقكم

من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها»(١).

ويقول الرازي في الآية الأولى من سورة الإسراء ﴿ وَقَالُوا أَتِذَا كُنّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ [الإسراء: ٤٩] إلخ الآيات _ يقول عن تقرير شبهة أولئك المنكرين: "فهي أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم، فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم، أما الأجزاء المائية في البدن فتختلط بياه العالم، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم، وإذا صار كذلك، فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى؟ وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى؟ فهذا هو تقرير الشبهة».

ثم أجاب عن هذه الشبهة وهذا الإشكال فقال: "والجواب عنها أن هذا الإشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته، أما إذا سلمنا كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات، فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم ولا أنها متمايزة في علم الله تعالى، ولما سلمنا كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات كان قادرًا على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها، فثبت أنا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية» (٢).

ثم استمر في مناقشة الجاحدين للبعث على ضوء الآية مبينًا أن تلك

⁽١) أعلام الموقعين: ١٤٢/١.

⁽٢) التفسير الكبير: ٢٠/ ٢٢٥.

الأجسام قابلة للحياة والعقل، إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلاً لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر، وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليمه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي، وقادر على كل المكنات.

وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه، وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكناً قطعاً، سواء صارت عظاماً ورفاتًا، أو صارت شيئاً أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديدًا، ثم قال: "فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع"، ثم إن "القادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الحياة". قال: "وهذا كلام تام وبرهان وقوي" (۱).

٣-التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى :

١ - قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْج بَهِيج ۞ ذَلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْج بَهِيج ۞ ذَلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْء قَديرٌ ۞ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧].

لاً وقال تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْدِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْدِي الْمَوْتَىٰ وَهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيْ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ آيَاتِه أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشَعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا

⁽١) التفسير الكبير: ٢٠/ ٢٢٥، ٢٢٦.

الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المُمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللهُ المُعَنِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللهُ المُعَنِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَتْ سَحَابًا ثَقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَد مَّيْت فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجُنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الْمَاءَ فَأَخْرَجُنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ المُماءَ فَأَخْرَجُنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿ وَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ① وَالنَّخُلُ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ تَضِيدٌ ① رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْنًا كَذَلَكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩- ١١].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْبِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩].

٨ وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ
 مَيّت فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كُذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

٩ ـ وقال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ
 يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣].

ووجه الدلالة من هذه الآيات البينات واضح تمام الوضوح؛ بل هو من الأمور المشاهدة، أرض أصابها الجدب فإذا بأشجارها تيبس بعد نضارتها، وإذا بتلك الأرض هامدة خاشعة مستكينة قد مات منها كل شيء يدل على حياتها، فيريد الله إحياءها، فتنزل عليها الأمطار، فإذا بها قد اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج، وكأنها لم تكن هي التي كانت ميتة بالأمس قبل أن تمطر، فإذا بثمراتها تؤتي أكلها من كل نوع، وإذا بها تكسى حلة خضراء، وإذا بالزهور على أشكال شتى.

أفيعجز من أعاد الحياة إلى هذه الأرض الميتة والأشجار اليابسة أن يعيد إلى الإنسان حياته مرة أخرى لمجازاته، وهو الذي كرمه واصطفاه على سائر من خلق، وحمله في البر والبحر ورزقه من كل الشمرات، وأسجد له ملائكته وأرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه؟! أيظن بأحكم الحاكمين وصاحب الملك والعظمة أن يترك هذا الإنسان المكلف يحيا حياته الدنيوية ثم ينتهي إلى العدم المحض؟!

لا شك أن هذا هو عين العبث الذي يتنزه عنه المخلوق الناقص فضلاً عن الحالق العظيم، ولو تأمل العاقل بعقله فقط _ دون الرجوع إلى كلام الله ورسله _ لتبين له أن إحياء الله للأموات أمر لابد منه ولا محيص عنه، يسلم بصحته كل عاقل ويجد ضرورة في نفسه للتصديق به، لأنه هو الحقيقة ولا مانع يحول دون التصديق.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةٌ ﴾ [الحيج: ٥]: «هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ـ وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدى: ميتة.

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْجَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥] أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت: أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، وربت: أي ارتفعت ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥] أي حسن المنظر طيب الربح». (١)

⁽١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٨.

التنبيه بخلق السموات والأرض على إحياء الموتى :

١ ـ قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[الأحقاف: ٣٣].

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ أُولَيْسَ اللَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم (١) بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ أَولَمْ يَرُواْ أَنَّ اللَّهَ اللَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأُرْضَ قَادرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (٢٠) ﴾ [الإسراء: ٩٩].

٥ ـ وقال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ السَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

وفي هذه الآيات الكريمات يخبر تعالى عن وقوع البعث بالتنبيه على أمر مشاهد أمام الأنظار وهو خلق السموات والأرض، ألم ير هؤلاء المكذبون أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، فالذي يصنع الأمر العظيم لا يعسر عليه

⁽۱) الضمير يرجع إلى الخلق. قال ابن جرير الطبري في معناها: "يقول تعالى ذكره منبها هذا الكافر الذي قال: ﴿ مَن يُعْبِي الْعِظَامُ وَهِي رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨] على خطأ قوله وعظيم جهله: ﴿ أُولَيْسَ اللَّذِي خَلَقَ السّمَوات ـ السّبِع ـ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ ﴾ مثلكم، فإن خلق مثلكم من العظام الرميم ليس بأعظم من خلق السموات والأرض، يقول: فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمّت وبليت؟! ». تفسير ابن جرير ٢٣/ ٢٣.

⁽٢) الضمير يرجع إلى الخلق، قال ابن كثير في معناها: «أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم». تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٦.

أن يصنع الأمر الصغير، فالذي يستطيع أن يبني قصراً عظيماً لا يعسر عليه أن يعيد بناء غرفة من غرفه .

وما هو هذا الكائن الإنساني بالنسبة لحجم السموات والأرض، فلو لا غرور الإنسان بنفسه لرأى أنه كذرة تائهة في جانب هذا الكون الهائل من الأجرام العلوية والسفلية، وأيهما أشد في عقول البشر: خلق السموات والأرض أم خلق الإنسان؟ ولا شك أن خلقهما أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حيًا بعد أن صار ميتًا، والقادر على الأقوى والأكمل لابد وأن يكون قادرًا على الأقل والأضعف().

إن هذه المقارنة تقال بالنسبة لعقل الإنسان، وإلا فالكل عند الله وقدرته سواء، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ سواء، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

ومما لاشك فيه كذلك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولعل هذه المسألة على بساطتها ووضوحها؛ قد تخفى دلالتها على إحياء الموتى على كثيرين ممن لم يوفقهم الله للنظر في هذا الأمر و تدبره، وما سبب ذلك إلا الغفلة والإعراض عن تقبل ما جاء عن الله .

و-إخبار الله تعالى بما وقع من البعث الحسي المشاهد في الحياة الدنيا ليكون إحياء الله للموتى في الدنيا دليلاً على البعث في يوم القيامة كما في الآيات الآتية:

١ - قصة العزير - أو غيره ممن ذكرهم علماء التفسير من الخلاف في تعيين المار على تلك القرية (١):

⁽١) التفسير الكبير: ٣٤/٢٨.

⁽٢) انظر: تفسير ابن كثير: ١/ ٣١٤، والتفسير الكبير: ٧/ ٢٩. وغيرهما من كتب التفسير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَة وَهِي خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْمِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مَائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْم قَالَ بَلِ لَبِثْتَ مَائَةَ عَامٍ فَانَظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهُ وَانَظُرُ أَوْ بَعْضَ يَوْمُ وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لَلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعَظَامِ كَيْفَ نَنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا إِلَىٰ حَمَارِكَ وَلنَجْعَلَكَ آيَةً لَلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعَظَامِ كَيْفَ نَنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّ تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٢ ـ طلب إبراهيم من ربه مشاهدة إحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُوْمِن قَالَ بَسَلَىٰ وَلَكِن لِيَطْمَئِنَ قَلْي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلِ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزً حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٣ ـ موت بني إسرائيل الذين تنطعوا في إيمانهم واشترطوا لذلك أن يروا
 ربهم؛ فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله ليريهم قدرته:

قَـال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمُ يَا مُـُوسَىٰ لَـنَ نُوْمِـنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتُكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْد مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[البقرة: ٥٦،٥٥].

٤ ـ إخبار الله عن قتيل بني إسرائيل الذي أعاد الله إليه الحياة بعد ما قتل
 وأخبر عن قاتله معجزة لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام:

فقال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اصْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

٥ ـ إخبار الله تعالى عن إماتة آلاف من الناس خرجوا من ديارهم حذر

الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيسَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوثٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٦- إخبار الله تعالى عن أهل الكهف، وهم فتية آمنوا بربهم وتحابوا فيه،
 فأواهم ذلك الكهف الذي كان قبراً لهم إلى حين أراد الله إظهارهم:

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۞ إِذْ أَوَى الْفَتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئُ لَنَا مِنْ عَجَبًا ۞ إِذْ أَوَى الْفَتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئُ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ۞ فَضَرَبُنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۞ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُ الْحِوْلَ الْمَهْفِ اللّهُ الْحِوْلُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ

وفي هذه الآيات البينات دلالات واضحات على قدرة الله تعالى على إحياء الأموات.

وقد رأينا نماذج من إحياء الله تعالى لأناس ماتوا فأعادهم الله إلى الحياة، ومن ذلك ما وقع من إحياء الذي مر على تلك القرية ـ التي ذكرها الله تعالى، ووصفها بأنها خربة موحشة خاوية على عروشها ـ فوقف عندها هذا الرجل يتأمل كيف تحيا هذه القرية بعد الذي صارت إليه، وكيف ستعود إليها أيامها التي كانت فيها في زهو واختيال، وفي أثناء هذا التأمل وتلك المساءلة يأتيه الجواب من الله لما خطر في قلبه بأنه هو نفسه سيكون الجواب عن سؤاله.

فأماته الله مائة عام ثم رد إليه روحه وبعثه حيًا صحيحًا لم يفقد شيئًا من شخصه، ثم أراه الجواب شيئًا فشيئًا: طعامه أمامه لم يتغير، وشرابه لم يأسن، وهذا بخلاف ما يعهده من طبيعة الأشياء ولا سيما مثل الطعام

والشراب الذي هو سريع التغير، وحماره الذي صار قطعًا ممزقة وعظامًا نخرة رجعت إليه الحياة من جديد، فهذه العظام تهتز لدبيب الحياة فيها، وهذه اللحوم تظهر كالكساء على العظام، وما هي إلا لحظات فإذا بالرجل والطعام والشراب والحمار كأن لم يمض عليهم وغم مرور مائة سنة وإلا يوم أو بعض يوم، ولكنه أخبر أنه مكث مائة سنة، فهل الآن سيقتنع أن الذي أحياه سيحيي الموتى ويبعثهم متى شاء؟ الجواب: نعم، وقد قال هو بنفسه: ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والغرض من القصة واضح، وهو إثبات البعث بتلك الطريقة المشاهدة عيانًا؛ «لأن تبين الإحياء على سبيل المشاهدة ما كان حاصلاً له قبل ذلك»(١).

ولقد أحب إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - أن يريه الله كيف يحيي الموتى، ولم يقل هذا لنقص في إيمانه بقدرة الله على ذلك، ولكن أحب أن يطمئن قلبه بزيادة المشاهدة عيانًا، فأحيا الله له أربعة من الطيور المفرقة الأجزاء وعادت إليه كما كانت قبل الموت وكأنه لم يصبها موت ولا تقطيع لأجزائها، إذ عاد كل جزء إلى جزئه ثم جاءته من الجبال الأربعة سراعًا كأن لم يصبها شيء قبل دعوته لها.

وكم لبث أصحاب الكهف في كهفهم أمواتًا إلى أن شاء الله تعالى إحياءهم، فإذا هم أحياء يطلبون أزكى طعام من البلدة ظانين أنه لم يمض على رقدتهم في الكهف إلا يوم أو بعض يوم، وهكذا أحياهم نشأة ثانية وعادوا كما كانوا، لم ينكروا من أنفسهم أي تغير أو جديد.

والغرض من ذكر هؤلاء هو البيان والإيضاح لمن في قلبه شك في أمر البعث أن الله يحييه بروحه وجسمه كما أحيا هؤلاء الفتية وأن ذلك

١) التفسير الكبير: ٧٩/٧.

ليس على الله بعزيز.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى بيان الطرق التي استعملها القرآن الكريم لإثبات البعث فقال: «فتارة يخبر عمن أماتهم شم أحياهم كما أخبر عن قوم موسى الذين قالوا: ﴿ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَاخَذَتُكُمُ الصّاعِقَةُ وَالنّهُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُوْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتُكُمُ الصّاعِقَةُ وَالنّهُمْ تَنظُرُونَ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُوْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتُكُمُ الصّاعِقَةُ وَالنّهُمْ تَنظُرُونَ ﴿ وَهُمْ أَلُوفَ حَذَرَ الْمَوْتِ وَالنّهُمْ تَنظُرُونَ ﴿ وَعَن إلِهِمْ وَهُمْ أَلُوفَ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وعن الذي مر على قرية فقال لَهُم اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وعن إبراهيم إذ قال : ﴿ رَبّ فِفَالَ لَهُم اللّهُ مَا فَقَ عَام ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وكما أخبرنا عن المسيح أنه كان أرني كَيْفَ تُحْبِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وكما أخبرنا عن المسيح أنه كان يحبي الموتى بإذن الله ، وعن أصحاب الكهف أنهم بعثوا بعد ثلاثمائة وتسع سنين.

وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الأولى؛ فإن الإعادة أهون من الابتداء، كما في قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم ْ فِي رَيْب مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَاب ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِهِ اللَّذِي أَنشَاهَا أَوَّلَ مَرَّة ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿ قُلِ اللِّي فَطَرَكُم أُوّلَ مَرَّة ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ وَهُو اللَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُو الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُو الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُو الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُو اللَّذِي عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والأرض فإن خلقهما أعظم من إعادة الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الاحقاف: ٣٣].

وتارة يستدل على إمكانه بخلق النبات كما في قوله: ﴿ وَهُو َ الَّذِي

يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا ﴾ إلى قوله: ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ [الأعراف: ٥٧]» (١).

ورغم تلك الدلائل كلها ورغم ذلك البيان الكافي، إلا أن المشركين لا يريدون أن يسمعوا القول الحق، لقد عظم عليهم أن يؤمنوا بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى هي أعلى منها وأفضل لمن أطاع الله، وأتعس منها وأنكد لمن عصى الله، ولكن الإيمان بهذه الحقيقة سيكلفهم عبادة رب واحد وطاعة إله واحد ونبذ ما ألفوه وما صنعوه من آلهة لا تضر ولا تنفع، وهذا أمر عسير جدا على نفوسهم، عسير عليهم أن ينبذوا تلك الآلهة التي تشربت قلوبهم حبها.

لقد عظم على المشركين أن يؤمنوا بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى أجل وأعظم منها، فهم لا يريدون أن يصدقوا بأنهم إذا كانوا ترابًا وعظامًا أن يعودوا في خلق جديد، فهذا من الأمور العجيبة المستحيلة في خيالهم، ذلك أنهم قاسوا قدرة الله على قدرة المخلوق، فكما أن المخلوق يستحيل عليه أن يعيد الميت حيًا، فكذا في مقياسهم قدرة الله ، لأنهم لم يقدروا الله حق قدره.

ولهذا فهم على إصرار بأنه ليس أمامهم إلا حياتهم الدنيا يحيون ويوتون وينتهي كل شيء، فلا إعادة ولا حساب، ولا عقاب، ولا جنة، ولا نار، شأنهم في ذلك شأن النبات، بل تجاوزوا في استكبارهم إلى حد أنهم يتحدون الرسل بمجيء العذاب والبعث صراحة فيقولون: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِين ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وذهبوا إلى أن القول بالبعث إنما هو من أساطير الأولين، فقد سمعوا أن آباءهم أيضاً كذلك أنذروا لقاء الله، ومع أن هذا ذليل قوي على تأصل فكرة البعث عند الناس،

⁽١) الفتاوى: ٩/ ٢٢٤.

لكنهم استدلوا به على عكس ما كان ينبغي، فالأولى بهم أن يقولوا: إن هذا الوعد ليس بجديد علينا فقد أنذر به من كان قبلنا مما يدل على صحة وقوعه، ولكنهم والأمور معكوسة لديهم وحملوا هذا دليلاً على أن الإيمان به مستحيل لأنه من الأساطير، وصاروا يسخرون ويستهزئون بمن يؤمن بالبعث بأنه مفتر وبأنه مجنون وبأنه ساحر إلى آخر ذلك السباب الذي يدل على انقطاعهم وحيرتهم.

وبعد أن كاد نور الحق يسطع في قلوبهم سول لهم الشيطان أن يطلبوا مطلبًا غريبًا، وهو أن يأتي الرسول بآبائهم إن أراد أن يؤمنوا بالبعث، وما علموا أن الله لا يشاء هذا بل ولا تقتضيه حكمته، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وعلى هذا فقد أرجعوا حياتهم وموتهم إلى الدهر ليكونوا على منأى بعيد عن الله وعن التصديق باليوم الآخر، ولكن سوف يأتي الوقت الذي يصدقون فيه بذلك اليوم حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا هم ينصرون.

٤ ـ أدلة البعث من السنة :

وكما حصلت العناية في القرآن الكريم بذكر البعث وإبرازه في صور متعددة جلية، فقد كان دائم الحث متعددة جلية، فقد كان دائم الحث على الإيمان به والدعوة إليه، لا يفتر عن ذلك في كل مناسبة، ولهذا فقد وردت أحاديث كثيرة جدًا فيه تحمل صورًا عديدة لأمر البعث ولكيفية الحشر والحساب والجزاء والشفاعة وطول ذلك اليوم وكيفية نزول الرب فيه ومجيء الناس فيه أشتاتًا. وهكذا.

ونذكر هنا أسبابًا أخرى من عناية الرسول عَلَيْهُ باليوم الآخر، بالإضافة

إلى ما ذكرناه سابقًا من عناية القرأن الكريم بذلك، وهي:

۱ ـ أنه قد أمر بتبليغ كافة البشر ما ينفعهم وما يضرهم وما يقربهم إلى ربهم ويوصلهم إليه، ومن أوليات ذلك الإيمان برجوعهم إلى ربهم، وما يستلزمه ذلك الرجوع من استعداد للعمل الصالح، فإن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل الصالح والبعد عن الأعمال الشريرة.

٢ ـ أن الإيمان باليوم الآخر وحشر الأجساد والعرض على الله كان أمراً في غاية الاستبعاد عند الكفار من قريش وغيرهم، ولهذا كان الصراع بينه وبينهم في هذا المجال من الأمور الأولية؛ لأنه لا يؤمن أحد إلا إذا آمن باليوم الآخر.

٣- كان يهدف على من تقريب اليوم الآخر إلى أذهان المنكرين له والمكذبين به إلى أمر له ما بعده؛ فقد كان يعلم على أن الكفار إذا آمنوا باليوم الآخر و انقادوا له فإن الإيمان بالأمور الأخرى سيكون من باب أولى، ولهذا كان يحرص دائمًا على التذكير به والدعوة إليه في كل مناسبة؛ مبالغة في النصيحة وإيصال الخير إلى البشرية الجاهلة بأساليب متعددة تختلف باختلاف المخاطبين ومقدار حاجتهم.

ولكثرة الأحاديث الواردة في ذلك فإننا سنكتفي بالإشارة إلى أماكنها، ذلك أن كل ما ثبت به النص مما يجري في الدار الآخرة كلها تثبت وتدل على البعث، كإخباره عَلَي عن نسمة المؤمن أنها طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسدها يوم القيامة (١)، وهكذا جميع ما ورد من الأحاديث التي تدل على أخبار اليوم الآخر وما يقع فيه، كلها تثبت أيضاً البعث إما

⁽١) أخرجه النسائي ١٠٨/٤.

صراحة أو ضمنًا، لأنه لا يقع في يوم القيامة شيء إلا وقد تقدم البعث قبله، وكذلك ما وردت به النصوص بما يقع في الحشر وكيفيته والحساب والجزاء والعرض وغير ذلك، كل هذه الأمور لا تقع إلا بعد البعث كما هو معلوم(١).

٥ ـ دلالة العقل على البعث :

إن فكرة البعث عميقة في نفوس البشر منذ أن أوجد الله البشرية على هذه الأرض إلى أن تقوم الساعة. وحتى قال بعضهم: إن الإيمان بالبعث من قبل الغرائز والفطر التي فطر الله الناس عليها، وإن ما وجد من انحراف عند منكري البعث، أو عن اعتقادات غريبة وخاطئة فيه، فلا شك أنه من نتيجة الجهل وتطاول الزمن وفساد الفطر الذي أخذ يمحو عقيدة البعث الصحيحة التي جاءت بها الرسل شيئًا فشيئًا حتى لم تبق منها إلا تلك الومضات الخافة.

وقد أخبرنا الله في القرآن الكريم أنه لم تخل أمة من الأم من نذير ، وليس من المعقول أن يغفل ذلك النذير أهم ما يدعو إليه وهو الإيمان بالله واليوم الآخر.

ألم يكن الأساس الذي خلق الله لأجله الخلق من إنس وجن هو عبادته سبحانه وحده، وبها يثيب ويعاقب؟ وإلا لكان هذا الخلق عبثًا لا غاية له ولا هدف.

⁽۱) انسط ر: صحیح البخاري ۱۱۱، ۱۱، ۱۱۰، ۱۳، ۲۰، ۲۰، ۳۳۸، ۳۲، ۲۲۰۱، ۲۲۳، ۲۲۰۱، ۲۲۳، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۲۲۰۱، ۱۲۰۱، ۲۲۰۱، وص ۲۲۰۱، وص ۲۲۰۱، وص ۲۱۹۰، ۲۱۹۰، ۲۱۰۸، وانظر: سن ابن ماجه ۱/۲۰، ۲۳، ۲۲۱، ۲۲۰۱، وصن الترمذي: ۳/۳۸۳، وسنن الترمذي: ۳/۳۸۳، وسنن النسائي: ۲/۱۰۵، والمسند: ۵/۲۰۱، والمسند: ۵/۲۰۱،

إن من يظن أن هذا الكون ليس له غاية ولا نهاية قد افترض في عقله أن هذه الحياة عبث ولهو ولعب وتفاخر في الأموال والأولاد فحسب، ولكن الله يرد هذا الافتراض ويهدد من يعتقده بقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَنًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ثم قال تعالى مبينًا السر في هذا الخلق والخرض منه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ٥٠ مَا أُرِيدُ مَنْ يُطْعِمُونِ ﴿ وَاللهِ اللهِ هُو السَّرَاقُ ذُو السَّوَةُ وَالْمَعْيَنُ ﴾ [الذاريات: ٥٥، ٥٥].

وإذا كان الله قد خلقهم لعبادته وتكفل برزقهم وإطعامهم وهو الرزاق
ذو القوة المتين، وجعل كل ما في الكون في خدمة الإنسان وله، فإن هذا
يعني أن جزاء حاسمًا لا بد أن يلحقهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ فَمَن
يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَةً خَيْرًا يَرَهُ () وَمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةً شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧،
ك]، أي فلا يهتم الإنسان إلا بالعمل فقط، وسيجد النتيجة مرصودة أمامه،
وسيجني ثمارها يوم يقف بين يدي ربه ليس معه إلا ما قدم في حياته الدنيا
قبل نهاية عمره.

وإذا كان لابد من الفناء فلابد من العمل، لأن ذلك الفناء الإنساني إنما هو بداية أخرى لحياة أخرى، إما نعيم لا ينتهي وإما عذاب لا ينقطع، وقد بين الله للخلق تفاصيل ذلك كله؛ فليطلب الإنسان الحياة التي يريدها في الآخرة؛ فلا بد من الجزاء ولا يظلم ربك أحدًا.

وإذا كان الفناء حقيقة لا محيد عن الإيمان به، فإن البعث كذلك حقيقة لا محيد عن الإيمان به، والعقل السليم لايرد الإيمان بالبعث بل يوجبه، وكيف لا وهو يشاهد الآثار الدالة عليه أينما وقعت عليه عيناه؛ ذلك أن

الأدلة العامة التي تدل على المعاد جملة (١) مشاهدة مألوفة لا تحتاج إلا إلى العقل السليم ليدرك حقيقة وقوع المعاد، يتساءل العاقل وهو يشاهد هذه المخلوقات تُخلق ثم تفنى، ويشاهد كذلك تصرفات تلك المخلوقات في حياتها الدنيا، فهذا ظالم وذاك مظلوم، وهذا معطى وذاك محروم، وهل هذه الحركات الدائبة التي تعمر الأرض يكون نهايتها الفناء الأبدي؟ هؤلاء الذين يموتون إلى أين يذهبون؟ أين تلك النفس التي كانت تعمر هذا الجسد؟ لا بدوأنها انتقلت من هذا الجسد إلى جهة أخرى.

إن عليها حسابًا وعقابًا؛ فالحياة ليست عبثًا، لم يخلق هؤلاء الخلق بدون هدف ولا غاية، ومن هنا يعلم العاقل أن وراء هذه الحياة حياة أخرى.

ولقد أحسن قس بن ساعدة حينما قال: «أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، أما بعد: فإن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً، نجوم تمور، وبحار تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، أقسم قس بالله قسماً لا حانثاً فيه و لا آثماً، إن لله لديناً هو أرضى من دين أنتم عليه، ما لي أراهم يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا. . . "(٢) إلخ.

وإن من أدل الدلائل على البعث أمر معروف لكل أحد يجده كل شخص في نفسه، فهو يعلم أنه يموت ويبعث وهو في هذه الحياة الدنيا، ذلك أنه

⁽۱) أي بخلاف التفصيل فإنه لا يعلم أمر المعاد مفصلاً إلا بالاستناد إلى الأدلة السمعية كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله، فإنه بعد أن ذكر أن أصل الثواب والعقاب هل يعلم بالعقل مع السمع أولا يعلم إلا بالسمع وحده؟ وأن فيه قولين لنظار المسلمين، قال: «والصحيح أن العقل دل على المعاد والثواب والعقاب إجمالاً، وأما تفصيلاً فلا يعلم إلا بالسمع». حادي الأرواح: ص ٢٥٧.

⁽٢) انظر: مروج الذهب ١/ ٦٩.

يموت حين ينام فلا أكل ولا شرب ولا كلام ولا إحساس ولا فكر ولا تدبير، فإذا ما أفاق من نومه عادت إليه الحياة من جديد، ولهذا كان يقول الرسول عَلَيْهُ حينما يستيقظ من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»(۱).

وهذه الحالة التي يمر بها الشخص تشبه تماما الموت الأكبر والبعث الأكبر، لا ينكر هذا إلا فاسد العقل لأنها مسألة ظاهرة الدلالة على البعث، وكان عبد المطلب يقول: «إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك، ففكر وقال: والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بإساءته» (٢).

قال محمد بن علي الشرفي معلقًا على قول عبد المطلب في أمر البعث حينما أعمل فكره في خروج ذلك الظالم من الدنيا معافى، قال: "فظاهر قوله: " ففكر" أنه أدرك بفطرته السليمة أنه لابد من الدار الآخرة إجمالاً، وقد جاء الشرع مطابقًا ومتضمنًا لتفصيل ذلك، وتقرير ما ذهبت إليه العقول الصحيحة وأدركته بالإيمان والإلهام مع التوفيق، ونبذ العناد والأوهام" (7).

وممن أدرك كذلك أمر المعاد إجمالاً زهير بن أبي سلمي فلقد كان «يمر بالعضاة وقد أورقت بعد يبس فيقول: لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي

⁽١) أخرجه البخاري: ١١/١١١، ومسلم: ٢٠٨٣/٤.

⁽٢) الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٣٩.

⁽٣) نير البرهان في توطيد عقائد الإيمان ١/٧٣.

أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم»(١)، فهو في حيرة من أمره بين أن يصدق عقله في هذا الأمر ويتعرض لسخط العرب وسبها فيؤمن بأن الذي أحيا تلك الشجرة العظيمة بعد يبس قادر على أن يحيي هذا الإنسان وهو أكرم على الله من تلك الشجرة، وبين أن يجاري ما عليه العرب من عدم الإيمان بالبعث فيكون قد كابر عقله وخدع نفسه، وهذا مما يدل على أصالة الإيمان بالمعاد في نفوس الناس قديًا وحديثًا وإن كابر المكابرون.

وقد ذكر الشهرستاني ـ رحمه الله _ أن من العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ثم ذكر مجموعة من هؤلاء العرب الذين صفت عقولهم فآمنوا بالبعث، واستشهد لكل منهم بقوله الذي يدل على إيمانه بالبعث، نكتفى بذكر الأسماء فقط وهم:

١ _ عبد المطلب.

٢ ـ زيد بن عمرو بن نفيل.

٣ _ أمية بن أبي الصلت.

٤ _ قس بن ساعدة الأيادي.

٥ _ غامر بن الظرب العدواني.

٦ ـ النابغة الذبياني.

٧ _ زهير بن أبي سلمي المزني.

٨ _علاف بن شهاب التيمي.

٩ _ جريبة بن الأشم الأسدي.

٠ ١ ـ عمرو بن زيد بن المتمنى.

١١) الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٤٤.

وغير هؤلاء، وليس الغرض الاستشهاد بهؤلاء على أصالة البعث في نفوس الناس، ولكن الغرض ذكر من شهر عنه الإيمان به بمجرد تفكيره الصحيح، وإلا فالإيمان بالبعث قضية لا تحتاج إلى الأخذ والرد في مجملها إلا مع من سفه نفسه وانحط إدراكه.

قال الراغب الأصفهاني: «لم ينكر المعاد والنشأة الآخرة إلا جماعة من الطبيعيين، أهملوا أفكارهم وجهلوا أقدارهم وشغلهم عن التفكر في مبدئهم ومنشئهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات المذكورة في قوله تعالى: ﴿ زُينَ لِلنَّاسِ حُبُ الشَّهَوَاتِ مِنَ النّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَة مِنَ النّسَاءَ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَة مِنَ النّسَاءَ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَة مِنَ الذَّهُ مِن الذَّهُ عَلَى اللّهُ الْمُسَوّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرَثُ ذَلِكَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم قال: فلو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصبًا وهمًا وحزنًا، ولا يكون بعدها حال مغبوطة، لكان أخس البهاثم أحسن حالاً من الإنسان (١٠).

وهذا هو الاعتقاد الصحيح، والذي عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم من أولهم إلى آخرهم.

يقول البغدادي في بيان الأصول التي أجمع عليها أهل السنة: "وقالوا إن الله عز وجل يعيد في الآخرة الناس وسائر الحيوانات التي ماتت في الدنيا» (٢).

وهذا هو التعبير الذي يقوله جميع السلف ويذكره عنهم كل من كتب عنهم.

⁽١) انظر: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص١٠٦، ١٠٧.

٢١) الفرق بين الفرق ص ٣٤٨

ورغم أن هذه القضية من الأمور المعلومة بداهة وقد جرى عليها الناس قديمًا وحديثًا، نجد أن هناك أقوامًا لم تصل هذه الحقيقة إلى قلوبهم فأنكروا البعث أو حرفوه عن حقيقته إلى صور بعيدة خرافية.

وحيث إن المقام لا يستدعي عرض شبهة أولئك النفاة ومناقشتهم في كل ما ذهبوا إليه وإبطال أدلتهم الباطلة، لكن نذكر أن من أولئك النفاة للبعث فرقة البراهمة (١) كما يذكر البيروني (٦)، والبوذيين (٩)، ومشركي العرب وكذا الصابئة (٥)، والمعطلة فيما يذكر الجيلاني (١) ولعله يقصد معطلة العرب الذين سماهم الشهرستاني معطلة العرب، وفرقة الحرنانية من الصابئة (٧)، وفرقة الهندوس (٨).

وعن أنكره كذلك جماعة من اليهود(١) كما عبر عن ذلك التلمود ، ومنهم السامرية (١٠) ، والصدوقيون(١١) ، وجميع الدهرية : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا السَدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ السَدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤]. وممن أنكره أيضًا فيما يذكر الأشعري غلاة الروافض(١٢) على تفصيل فيهم، ومن الذين

⁽١) هي أكبر الديانات في الهند.

⁽٢) تحقيق ما للهند من مقولة: ص ٣٨.

⁽٣) انظر: مشاهد القيامة في القرآن: ص ٢٦.

⁽٤) انظر: الملل والنحل: ص ٢/ ٢٣٥، ٢٣٦. جـ٢.

⁽٥) انظر: الملل والنحل ٢/ ٥٥.

⁽٦) الغنية ١/ ٦٩.

⁽V) الملل والنحل: ٢/ ٥٥.

⁽٨) انظر السابق: ٢/ ٢٥٥.

⁽٩) انظر: الأسفار المقدسة للدكتور عبد الواحد ص ٥٨.

⁽١٠) انظر: الفصل لا بن حزم: ١٩٩٨.

⁽١١) انظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور عبد الواحد ص٥٦.

⁽١٢) انظر: المقالات ١/١١٩.

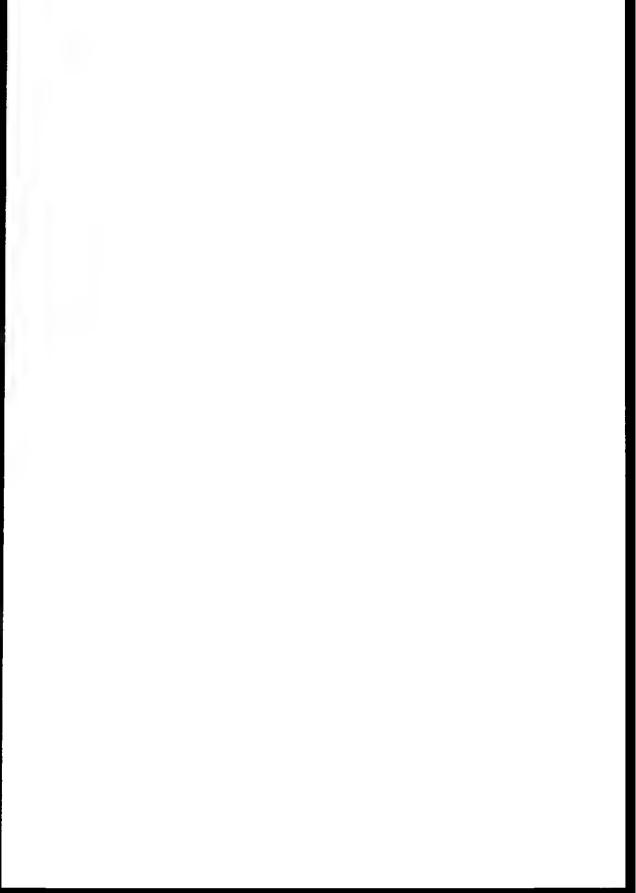
أنكروه كذلك فرقة البهائية(١).

وقد قسم الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله منكري البعث إلى أربعة أصناف: جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية، وطائفة من الدهرية يقال لهم الدورية، والدهرية من مشركي العرب وملاحدة الجهمية (٢) كما سنذكر ذلك مفصلاً.

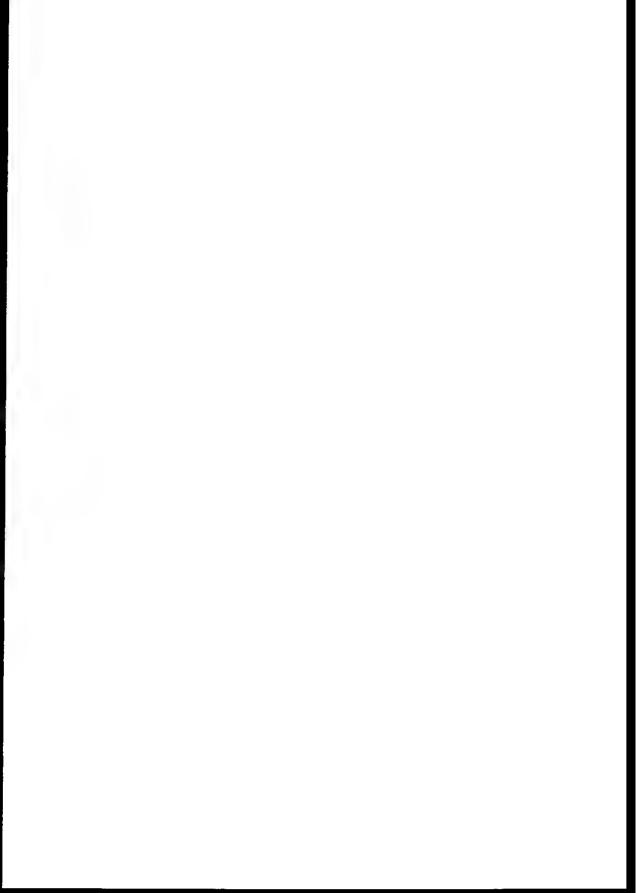
操 操 雅

⁽١) انظر: البهائية تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية ص ٢٧٥

⁽٢) انظر: معارج القبول ٢/ ١٩٩٠.







الفصل الخامس الهنكرون للبعث وأقسا مهم

ذكرنا فيما مضى أن الإيمان باليوم الآخر يعد من أعظم الأمور استبعاداً عند الكفار، ويعد أكبر قضية ينازعون فيها هي وإفراد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وأنه ما من نبي إلا وهم يقفون في وجهه ويصدون دعوته بكل ما يستطيعون قاتلين ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [س: ٥]، ﴿ أَيْذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩].

إن هذا لمن أعظم المستحيلات في خيالهم السقيم الجاهلي، وهم في إنكارهم هذا لم يستندوا إلى أي برهان لا من النقل ولا من العقل، وإنما استبعاد ذلك فحسب، ثم يسألون أسئلة المنقطع الحائر: كيف يرجع من مات وقد تحلل وصار تراباً؟ لماذا لم يرجع آباؤنا؟ متى يكون البعث؟ ﴿ اثْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادَقِينَ ﴾ [الجائية: ٢٥] . . . إلى غير ذلك من الأسئلة التي يقصدون بها نفي وقوع البعث.

وكل هذه الأسئلة إنما تعبر عن جهلهم وغفلتهم عن حكمة الله في خلقه ، ولو أنهم أعملوا أفكارهم باتزان ونظروا إلى الحق بعين المتفهم المتقبل أو الناقد المنصف لرأوا أن تلك الأسئلة إنما هي تعبير عن الجهل والبساطة الساذجة التي هم عليها.

وسنبين فيما يلي مذاهب هؤلاء المنكرين للبعث ثم الرد عليهم ببيان

حقيقة البعث كما في الكتاب والسنة وأقوال علماء السلف، وينبغي أن نعرف أولاً أن المنكرين للبعث من الكفار درجات: فمنهم من أنكره مطلقاً وأنكر كل ما جاء به الحق من تفاصيله، ومنهم من أنكر البعث وقال بتناسخ الأرواح فقط، ومنهم من فرق بين بعث الروح والجسد؛ فقال بالأول، وأنكر الثاني وهو بعث الأجساد . كما ذهب إليه الفلاسفة الإلهيون، ومنهم من قال بعكس ذلك وهو ثبوت المعاد الجسماني فقط كما ذهب إليه أكثر المتكلمين، ومنهم من ذهب إلى مذاهب أخرى وآراء بعيدة عن الحق.

وحيث إن البحث لم يخصص لذكر البعث بكل تفاصيله، فإننا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ سنبين بإيجاز من ذهب إلى إنكار البعث ثم الرد عليهم ببيان حقيقة البعث كما في الكتاب والسنة، ثم نذكر بعض أقوال السلف .

١ ـ الهنكرون للبعث مطلقاً

ومن هؤلاء النفاة بعض الفلاسفة الذين اعتقدوا عدم البعث مطلقاً، فلا إعادة للأجساد الميتة بعد أن انعدمت فيها طبيعة الحياة وأصبح هذا الميت ذرة من ذرات الكون، ولا هناك حساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار، إنما هي الحياة الأولى فإذا انتهت انتهى كل شيء بالنسبة لصاحبها.

وإذا كان هؤلاء قد أنكروا البعث مطلقاً فإنهم قد زادوا إلى إنكارهم فرية عظيمة على الله وعلى رسله كما يحدثنا الشهرستاني عنهم بقوله:

«الفلاسفة الإلهيون قالوا: الشرائع وأصحابها أمور مصلحية عامة، والحدود والأحكام والحلال والحرام أمور وضعية، وأصحاب الشرائع رجال لهم حكم عملية، وربما يؤيدون من عند واهب الصور بإثبات أحكام ووضع حلال وحرام مصلحة للعباد وعمارة للبلاد.

وما يخبرون عنه من الأمور الكائنة في حال من أحوال عالم الروحانيين من الملائكة، والعرش والكرسي، واللوح، والقلم، فإنما هي أمور معقولة لهم قد عبروا عنها بصور خيالية جسمانية، وكذلك ما يخبرون به من أحوال المعاد من الجنة والنار مثل قصور، وأنهار، وطيور، وثمار في الجنة؛ فترغيبات للعوام بما تميل إليه طباعهم، وسلاسل وأغلال وحزي ونكال في النار، فترهيبات للعوام بما تنزجر عنه طباعهم، وإلا ففي العالم

العلوي لا يتصور أشكال جسمانية وصور جرمانية ١٥٠١ .

وأي فرية على الله وعلى رسله أكبر من هذه، وأي مسلك أفحش من هذا المسلك المكذب بجميع الأديان.

ومن الذين أنكروا البعث كذلك بعض العرب، وقد تحدث القرآن الكريم والسنة النبوية عن مواقفهم تجاه البعث وبين شبههم ورد عليهم مبطلاً تلك الشبه في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

والعرب كما هو معلوم عاشوا في انعزال تام عن حضارات وديانات الأمم من حولهم، ولكن تسربت إليهم الوثنية والقول بالتناسخ وغير ذلك من الأقوال بسبب تسرب تلك الأفكار إليهم وتأثرهم بها رغم وجود بعض أهل الكتاب إلى جوارهم.

فإن هؤلاء قد انحرفوا هم أيضاً في عقائدهم انحرافات بعيدة شائنة ، ومن ذلك عقيدتهم بالبعث، فكانوا ينكرونه أشد إنكار ووقفوا من الإيمان بالبعث المواقف التي تحدث عنها القرآن الكريم في كثير من الآيات فقال تعالى:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمِ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيـــمٌ ﴾ [يـــس: ٧٨].

﴿ وَقَالُوا أَئِذًا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئَّنَّا لَمَنْعُوثُونَ خَلْقًا جَديدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩].

⁽١) الملل والنحل (٣/٢، ٤).

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا صَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنًا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: ١٠].

وآيات كثيرة كلها تتحدث عن موقف هؤلاء الضلال الذين استولى عليهم الشيطان فغير عقائدهم وأبعدهم عن طريق ربهم أيما إبعاد.

وقد ذكر العلامة الشهرستاني أصناف العرب بالنسبة لموقفهم من قضية الإيمان بالله وكذا البعث فقال: «الفصل الأول: معطلة العرب: وهم أصناف:

ا _ منكرو الخالق والبعث والإعادة :

فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفني، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا السدُّنْيَا فَمُوتُ وَنَحْياً ﴾ [الجائية: ٢٤]، إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصراً للحياة والموت على تركبها وتحللها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ السدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْم إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُونَ ﴾ [الجائية: ٢٤] ثم ذكر أدلة القرآن في رده عليهم.

٦ ـ منكرو البعث والإعادة :

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة، وهم الذين أخبر عنهم القرآن ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْبِي الْعِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

٣ـ منكرو الرسل: عباد الأصنام :

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك

والمشاعر وأحلوا وحرموا وهم الدهماء من العرب»(١).

وفي قول الشهرستاني: «ونوع من الإعادة» هذه اللفظة فيها غموض؛ إذ المعروف أن من يؤمن بالإعادة والبعث يؤمن به كاملاً لا نوعاً منه، ثم ما المراد بهذا النوع من الإعادة هل هي إعادة الأجسام فقط أو إعادة الأرواح فقط دون إعادة الأجسام؟ والظاهر أن كلام الشهرستاني يصدق على هذا، لكن الكثرة الكاثرة منهم وهم الذين سماهم الدهماء كانوا على إنكار البعث مطلقاً، أو ربما يريد الشهرستاني أن هؤلاء الذين ذكرهم كانوا يؤمنون بالبعث وعبر عنه بقوله: «نوع من الإعادة»، فإن كان هذا هو المراد فظاهر أنه لا يسمى نوعاً من الإعادة بل هو القول بالإعادة.

李 华 华

⁽١) الملل والنحل (٣/٣،٤).

٢ ـ الهنكرون لبعث الأجساد

وهناك قسم آخر من الفلاسفة أنكروا بعث الأجساد رغم وضوح دليله وإجماع أهل الملل على اعتقاده، وسنذكر في الرد على منكري المعث وحقيقته في الكتاب والسنة ما يثبت وقوعه ويدحض شبه القائلين باستبعاده، وهؤلاء قد نفوا وقوعه وعدم جوازه فيما يذكره عنهم أهل العلم.

قال الإيجي: «المقصد الثاني في حشر الأجساد: أجمع أهل الملل عن آخرهم على جوازه ووقوعه وأنكرهما الفلاسفة»(١).

ويقول ابن أبي العز عنهم: «وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان»(٢).

وقال ابن الجوزي: «وقد أنكرت الفلاسفة بعث الأجساد ورد الأرواح إلى الأبدان»(٣).

وهم بلاشك يخالفون في هذا الإنكار جميع ما عليه أهل الإسلام، وقد أضافوا إلى إنكار بعث الأجساد إنكار وجود الجنة وما فيها من الحور العين وسائر ما وعد الله به أهلها من أنواع المآكل والمشارب والمساكن، وأنكروا كذلك وجود النار الجسمانية وقالوا: «إن كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق

⁽١) المواقف: ص٢٧٢.

⁽٢) شرح الطحاوية: ص٤٥٧.

⁽٣) تلبيس إبليس: ص٤٧.

لتفهيم ثواب وعقاب روحانيين هما أعلى رتبة من الجسمانيين (١١) ، بل زعموا أن الأنبياء تخيلوا ما ورد في الشرع لأجل مصلحة الخلق، «وذلك ما يتقدس عنه منصب النبوة (٢٠) . كما قاله الإمام الغزالي رحمه الله .

ويقول ابن رشد في بيان ذلك: «وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد هو أحث على الأعمال بما قيل في غيرها، ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر بخاطر بشره(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء (3) وقال أيضاً: "إنهم - يعني الأنبياء أصحاب الشرائع - رأوا أن التمثيل بالمحسوسات هو أشد تفهيماً للجمهور، والجمهور إليها وعنها أشد تحركاً، فأخبروا أن الله يعيد النفوس السعيدة إلى أجساد تنعم فيها الدهر كله بأشد المحسوسات نعيماً وهو مثلاً الجنة، وأنه تعالى يعيد النفوس الشقية إلى أجساد تتأذى فيها الدهر كله بأشد المحسوسات عذاباً وهو النار (6).

وهذا ما عناه ابن أبي العز حين ذكر أن الفلاسفة أنكروا البعث وما جاء

⁽١) تهافت الفلاسفة: ص٢٨٢.

⁽٢) المصدر السابق: ص٢٩٢.

 ⁽٣) نص الحديث في البخاري: عن النبي على قال: وقال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشره البخاري (١٣/ ٤٦٥).

⁽٤) تهافت التهافت : ص٠٨٧.

⁽٥) مناهج الأدلة في عقائد الملة: ص٢٤٣.

من تفاصيله، وأنهم «جعلوا هذه ـ يعني ذكر تفاصيل أمور الآخرة ـ حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري (١١) .

ويؤكد إنكارهم للبعث الجسماني وما فيه من نعيم مادي أيضاً الفيلسوف «خوجه زاده» فيقول في معرض تعداده للخلاف في أمر المعاد: «وثانيها: ثبوت المعاد الروحاني فقط وهو قول الفلاسفة الإلهيين»(۲).

وقد اضطرب كلام ابن سينا حول الإيمان بقضية البعث الجسماني ـ كما يظهر ذلك فيما حققه الدكتور سليمان دنيا في تعليقه على ما ذكره الغزالي عن الفلاسفة ـ فقد نقل سليمان أقوالاً مضطربة مطولة للفلاسفة خلاصتها أن رأي ابن سينا في البعث يتمثل في شطرين :

١ - شطر رجع فيه إلى الشريعة المحمدية وما جاء فيها عن بعث البدن ونعيمه
 وعذابه، وقد آمن بكل ذلك وأذعن له.

٢ - وشطر رجع فيه إلى العقل وما تأدى إليه من بعث الروح ونعيمها
 وعذابها، وقد حكى كل ذلك أيضاً حكاية المذعن المؤمن.

قال سليمان دنيا: «والذي لا يستطيع المنصف أن يماري فيه أن ما جاء في الشطر الثاني يكاد يودي بما جاء في الشطر الأول؛ إذ قد جعل مناط السعادة والشقاوة في الخلاص من البدن، فالنفوس التي توفرت لديها أسباب السعادة إنما كان يمنعها من الشعور بها البدن، فإذا خلعته وتخلصت منه استذوقت سعادتها واستكملتها، والنفوس التي توافرت لديها أسباب الشقاوة إنما كان يحول بينها وبين الشعور بها البدن وشو اغله فإذا ألقته جاناً تأذت و تألمت.

⁽١) شرح العقيدة الطحاوية: ص٤٥٧.

⁽٢) تهافت الفلاسفة (٢/ ١٠٧)، ط. مصر سنة ١٣٢١هـ.

ولقد ورد في عبارته ما يفيد أن كلا الصنفين من النفوس سيفارق بدنه إلى غير رجعة، ومعنى هذا إنكار البعث الجسماني وما يترتب عليه من نعيم البدن وعذابه، فهل كان ابن سينا يعني ما جاء في الشطر الثاني وإغا ذكر الأول تقية؟ هذا محتمل، أم هو الاضطراب الذي كان ظاهرة شائعة في الفلسفة الإسلامية من جراء إيمان أصحابها بمصدرين مختلفين واعتقادهم فيها العصمة والنزاهة؟ إن كان الأول فلماذا لم يستشعر «ابن سينا» التقية في غير هذه المسألة مما لا يقل خطره في نظر خصومه عن خطرها كالقول بقدم العالم؟ وإن كان الثاني فكيف غاب عنه هذا التناقض الواضح بين الجانبين، فإن كلاً منهما ينفي ما يثبته الآخر؟

في الحق إن موقف أبن سينا في هذه المسألة غامض ورأيه في ها مضطرب».

ثم ذكر الدكتور دنيا أن ترجيح أحد هذين الشطرين على الآخر ـ كما فعل الغزالي ـ حين بنى على أحد الشطرين تكفير الفلاسفة أمر لا يوافقه عليه . (۱) وقد ذهب إلى إنكار بعث الأجساد بعض طوائف من النصارى ، كما سنذكر موقف الديانتين الكبيرتين اليهودية ، والنصرانية من قضية البعث فيما يلي :

البعث عند اليمودية:

أما بالنسبة للبعث عند أهل الديانتين الكبيرتين اليهودية، والنصرانية، فإن ما يجدر ذكره أولاً بالنسبة لقضية البعث عند اليهود: أن الديانة اليهودية التي جاء بها موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كانت مشتملة على ذكر وجوب الإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء كما حكى الله عنهم هذا المعتقد

⁽١) انظر: تهافت الفلاسفة ص٢٩٥.

في كتابه الكريم، كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧]، وقال تعالى عنه: ﴿ رَبَّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكُ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَاديثُ فَاطِرَ السَّمُواتِ وَالأَرْضِ أَنستَ وَلَيِّي فِي السّدُنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَقّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقد أخبر الله تعالى موسى عن يوم القيامة في أول وحي أوحاه إليه، حين قال له تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لذكْرِي (١١) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (٢٠) فَلا يَصُدُنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُوْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٦، ١٤]

وكذلك قال تعالى حكاية عن أحد أتباع موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَنَ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩].

وقالِ عنه أيضاً: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخرَة وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّه وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غانر: ٤٢، ٤٣].

ولكن هذه العقيدة بالنسبة لليوم الآخر لم تطل بعد موسى، إذ حرفت التوراة «العهد القديم» بأسفاره الخمسة .

وحيث أن المقام لا يستدعي ذكر تلك الأسفار ولا شرحها، فإن الواقع أن العهد القديم «التوارة» لم يذكر فيه أخبار اليوم الآخر وما جاء فيها من أخبار تفيد الثواب والعقاب أو الوعد والوعيد، فإنما يدل على أن ذلك الجزاء الذي يحصل إنما يقع في الدنيا، وهذا ما عناه بعض العلماء في نسبة إنكار اليوم الآخر إلى اليهود عامة، كما قال محمود بن الشريف: «إن المتبع للتوراة-

المتداولة، والمستقرئ لآياتها، والقارئ لأسفارها لا يكاد يجد فيها ذكراً للروح ولا للروحانية ولا لليوم الآخر وما يحفل به من جزاء ومثوبة»(١).

وهذا ما يقوله على عبد الواحد وافي حينما ذكر أن «الديانة اليهودية في أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما ينبئ بذلك القرآن الكريم، ولكن أسفار العهد القديم التي بين أيدينا الآن قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه، ومن ثم لا نجد من بين فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر على الوجه الذي يقرره الإسلام»(٢).

ويقول سيد قطب رحمه الله : «فأما في العهد القديم الذي بين أيدينا ؛ كتاب اليهود الأول ـ لأن الكتاب الثاني هو التلمود ـ فلا نجد ذكراً للعالم الآخر بتاتاً ، ومن السياق كله نفهم أن الجزاء على الشر كان يتحقق في الدنيا بالقياس إلى الأفراد وإلى الجماعات»(٢).

فلا ذكر لليوم الآخر في العهد القديم، على إنه قد وجد بعض العبارات في سفر إشعيا وفي سفر دانيال تشير إلى تهويلات تحدث في الكون يتغير كل شيء لصالح اليهود.

وهذه التهويلات لا نص فيها أيضاً صراحة على ذكر البعث الأخروي بمعناه الصحيح، وإنما هي محل احتمال أن تكون في البعث الأخروي وأن تكون كذلك في يوم نصر اليهود على أعدائهم ورفع شأنهم.

ففي سفر إشعيا ما نصه: «ويقال في ذلك اليوم . . هوذا هذا إلهنا انتظرناه

⁽١) الأديان في القرآن ص١١٤، ط٣، ١٩٧٦م.

⁽٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص٣٤.

⁽٣) مشاهد القيامة في القرآن الكريم ص٣٠.

فخلصنا، هذا هو الرب انتظرناه نبتهج ونفرح بخلاصه، لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل ـ ويداس مؤاب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة، فيبسط يديه فيه كما يبسط السابح ليسبح، فيضع كبرياءه مع مكايد يديه، وصرّح ارتفاع أسوارك يخفضه، يضعه يلصقه بالأرض إلى التراب (1).

وفي سفر دانسال يقول: «وكشيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي» (٢٠).

وكذا قوله: «أما أنت فاذهب إلى النهاية فتستريح وتقوم لقرعتك في نهاية الأيام»(٣).

فأما النص الوارد في سفر إشعيا فإنه لا يدل دلالة صريحة على ذكر البعث في الآخرة؛ بل هو أقرب إلى أن يكون معناه مجيء اليوم الذي ينتصر فيه اليهود على من سواهم من البشر.

وأما النص الوارد في سفر دانيال فإنه يظهر منه القول بالبعث الأخروي لكنه على فكرة محرفة، إذ إن الأشرار يكونون في عار الازدراء وليس في النار كما تثبته الأديان الصحيحة.

ثم إن قوله: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض» لا يدل على بعث الناس كلهم بل كثير منهم، ومعناه أن فيه بقية لم يذكر مصيرهم.

ومن فرق اليهود الذين أنكروا البعث فرقة الدوستانية، وهم فرقة انشقت

⁽١) الإصحاح ٢٥ رقم ٩ - ١٢.

⁽٢) الإصحاح ١٢ رقم ٣٠٢.

⁽٣) الإصحاح ١٢ رقم ١٣.

عن فرقة السامرة، وفيهم يقول الشهرستاني: «والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا»(١).

ومعنى الدوستانية «الفرقة المتفرقة الكاذبة»(٢) تمييزاً لهم عن فرقة الكوستانية وهي الفرقة الثانية من فرق السامرة والتي معناها (الجماعة الصادقة)، وهؤلاء - الكوستانية - يؤمنون بالبعث والثواب والعقاب في الدنيا.

والخلاصة أن البعث في الديانة الينهودية ثابت قبل أن يدخل عليها التحريف، وبعد امتداد يد العبث والتحريف إليها رأينا كيف أن فرقهم قد ذهبوا إلى إنكار البعث أو القول بالتناسخ.

البعث عند المسيحية ؛

أما البعث عند المسيحية - أي الدين السماوي المنزل على عيسى عليه السلام - فلاشك أنه قبل التحريف يثبت أمور الآخرة شأنه شأن بقية الأديان .

وفي هذا يحكي الله عن عيسى عليه السلام إيمانه بالبعث في قوله تعالى عنه: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أَبْعَتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣].

لكن هذه الديانة قد شملها التحريف وامتدت إليها أيدي العابثين ولم تكن بأحسن حالاً من اليهودية .

على إنه مما يجب ذكره أن الإيمان بالبسعث فكرة أصيلة في الديانة المسيحية، فإن من يرجع إلى الأناجيل وإن كانت محرفة كما ذكرنا من قبل سيجد فيها التصريح بالبعث الجسماني والروحاني في أكثر من موضع.

⁽١) الملل والنحل ٢١٩/١.

⁽٢) المصدر السابق: ص٢١٨.

كإنجيل متى (١) ، وإنجيل لوقا (٣) ، وإنجيل يوحنا (٣) ، وإنجيل مرقس، ففي هذه الأناجيل إشارات كثيرة إلى ذكر البعث الجسماني الروحاني، وحيث إن المقصود هو ذكر المنكرين للبعث، فنقول: إن بعضاً من النصارى أنكروا أن يكون البعث بالروح والجسم فقالوا ببعث الروح فقط دون بعث الجسم، وهذا ما يفيده كلام العلامة الشهرستاني حين قال: «وفي النصارى من قال بحشر الأرواح دون الأبدان، وقال إن عاقبة الأشرار في القيامة غم وحزن الجهل، وعاقبة الأخيار سرور وفرح العلم) (١).

ويقول البغدادي: «وأنكرت الحلولية وأكثر النصارى إعادة الأجساد؛ وزعموا أن الثواب والعقاب إنما يكون للأرواح»(٥).

ومما جاء مصرحاً به من أمر البعث الجسماني والروحاني في الأناجيل ما يلي :

ا _ في إنجيل متى جاء في الإصحاح الثاني عشر قول المسيح: "ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له؛ لا في هذا العالم ولا في الآتي"، "ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس يعطون عنها جواباً يوم الدين؛ لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان" (1).

⁽١) انظر الإصحاح الثاني عشر، والإصحاح التاسع عشر، والإصحاح الخامس والعشرين.

⁽٢) انظر الإصحاح الرابع عشر، والإصحاح الثاني والعشرين.

⁽٣) انظر الإصحاح الثاني عشر.

⁽٤) الملل والنحل ٢٢٣/١.

⁽٥) أصول الدين ص ٢٣٥.

⁽٦) الإصحاح الثاني عشر. رقم ٢٢-٢٣.

وفي الإصحاح الخامس والعشرين قوله: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة والقديسين، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينة والجداء عن اليسار، ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رُثُوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم؛ لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إلي".

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاً فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك، فيجيب الملك ويقول لهم الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم، ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته؛ لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تؤوني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني، حينئذ يجيبونه هم أيضاً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني، حينئذ يجيبونه هم أيضاً محبوساً ولم نخدمك؟

فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوا، فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية (١٠٠٠). هذا ما جاء في إنجيل متى.

وفي إنجيل مرقس كذلك تصريح بإعادة هذا الإنسان ودخوله في الحياة أو

⁽١) الإصحاح الخامس والعشرون. رقم ٣١-٤٦.

في عذاب جهنم التي لا تطفأ ودودها لا يموت(١).

ومثله إنجيل لوقا من دعوة المسيح الناس إلى الصدقة التي يكافؤن بها في قيامة الأبرار(١٠) .

وفي إنجيل يوحنا ذكر اليوم الآخر وإشارات إلى الحساب والجزاء(٣).

ومن تلك النصوص يتضع أن عقيدة البعث الجسماني والروحاني أمر مقرر في العقيدة المسيحية، وإن من خالف ذلك من النصارى فإنه يعتبر خارجاً عما دلت عليه الأناجيل، وإلى جانب ذلك فقد رأينا كيف دخل الانحراف في هذه العقيدة؛ حينما قررت تلك الأناجيل أن المحاسب والمجازي هو المسيح، حيث يُدخل هؤلاء الحياة الأبدية ويدخل أولئك في العذاب الأبدي، وبطلان هذا معلوم من دين الإسلام؛ لأن المحاسب للخلق هو ربهم مالك يوم الدين.

* * *

⁽١) انظر إنجيل مرقس الإصحاح التاسع. رقم ٤٣.

⁽٢) انظر إنجيل لوقا الإصحاح الرابع عشر. رقم ١٤.

⁽٣) انظر إنجيل يوحنا الإصحاح الثاني عشر . رقم ٤٨ .

٣ ـ الذين يقولون بالتناسخ

أما القول بالتناسخ فإنه يعني انتقال روح الميت إلى جسد آخر بعد خروجها من جسدها الأول، وهكذا تظل تنتقل من جسد إلى جسد آخر حتى يتم تطهيرها وتزكيتها، فإذا أصبحت طاهرة زكية وصلت إلى درجة النيرفانا عند البوذيين، أو اتحدت بالنجوم عند النصيريين، أو تطهرت في الأجساد حتى ترجع إلى جسد يهودي عند اليهود، أو تقمصت جسد درزي عند الدروز . . . إلخ، وهي تساوي في عقيدة المسلمين الجنة أو النار ، فهي نهاية مصير الروح بعد أن تستنفد جميع طلباتها ورغباتها في هذه الحياة .

وتكون روحه في هذا التجوال إنما هي تابعة لعمله ولما في نفسه من شر أو خير، فإذا كان الشخص الذي ماتت روحه شريرة فإنها ستنتقل إلى جسم شرير تعذب به إلى أن تصفو وتتطهر من الآثام وجميع الرغائب.

وتبعاً لهذا المعتقد فإن القائلين به يبالغون في التزهد وتعذيب أنفسهم في الدنيا لما يرجون من اتحاد أرواحهم بالذات الأقدس والوصول إلى النيرفانا التي هي نهاية التجوال للروح التي هي مناط الأمر ، بخلاف الجسد فإنه لا قيمة له ولا ينظر إليه بل يجب حرقه بعد خروج الروح منه ، ولهذا فإن الهنود البراهمة يبادرون إلى حرق الميت فور موته .

يقول الشهرستاني عن التناسخ: «هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية، ويحدث في كل دور مثلما حدث في الأول. والشواب والعقاب في

هذه الدار لا في دار أخرى لا عمل فيها، والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح والدعة التي نجدها هي مرتبة على أعمال البر التي سلفت منا في الأدوار الماضية. والغم، والحزن، والضنك، والكلفة التي نجدها هي مرتبة على أعمال الفجور التي سبقت منا»(١).

والغاية التي يهدف إليها أصحاب التناسخ هي الوصول إلى النيرفانا ـ كما تقدم ـ .

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله عن التناسخ في الهندوكية: «وتحطيم حدود الذات يفسره بعضهم بالتخلص من الجسد، وينشأ عن هذا ما هو مشهور عن الهندوكيين من تعذيب الجسد وتعريضه لأشق التجارب في سبيل تخليص الروح من سيطرته لتنطلق منه في النهاية، وتصل إلى درجة النيرفانا، والإنسان لا يصل إلى هذه الدرجة إلا حين تتطهر روحه وتخلص وتصبح جديرة بأن تفنى في الكل، هنا يقوم التناسخ بتحقيق هذه الغاية، فالإنسان حينما يموت تنتقل روحه إلى جسم حيوان أو إنسان، وتلاقي العذاب ألواناً حتى تتطهر بهذا العذاب فتصل في النهاية إلى النيرفانا وتستريح من التناسخ» (٢).

وهو كذلك الاندماج في الكائن الأسمى (طلعة براهما)، كما يقول الكيلاني في تعداده لأفكار العقلية الهندية.

«أما الفكرة الشالشة فهي: فكرة الانطلاق، وهي تمثل محاولة النفس

⁽١) الملل والنحل ٢/٥٥.

⁽٢) مشاهد القيامة في القرآن ص٢٧.

الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها، فالحياة في عرف البراهمة شر وخداع وأسر، أما الحياة الحق فهي استجلاء (طلعة براهما) التي لا تكتسب إلا بالاندماج فيه كما تندمج قطرة الماء من المحيط العظيم، وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى، وهذا الانطلاق لن يكتسب بالأعمال؛ لأن الأعمال الصالحة تنتج ثمارها عن طريق الميلاد المتكرر ((۱)).

وأشد من تزعم القول بالتناسخ واعتبره عقيدة ثابتة لا يسع الخروج عنها، هم البراهمة الهنود، ولهذا فإنهم لا يعتبرون من لم يقل به من أهل ملتهم وموافقيهم، وهو يماثل عدم النطق بالشهادتين في الدين الإسلامي، كما يذكر ذلك البيروني بقوله: «وكما أن الشهادة بكلمة الإخلاص من شعار المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهود، كذلك التناسخ فإنه علم النحلة الهندية ومن لم ينتحله لم يكن فيها ولم يعد من جملتها»(٢).

وممن قال بالتناسخ كذلك : البوذيون؛ وأهل هذه النحلة ينسبون إلى بوذا واسمه «سد هارثا» وقيل: «سيزاراسا» ولقب «ساكيا موني»، ومعناه المتبتل ومعنى بوذا أي المستنير.

وقد أنشأ بوذا نحلته على أساس من مقاومة الشهوات والتجرد من الأطماع والانسلاخ من الذاتية ليصل الشخص إلى النير فانا (٢) .

⁽۱) انظر: ذيل الملل والنحلل لمحمد سيد الكيلاني بهامش الملل والنحل للشهرستاني (۲/۲).

⁽٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص٣٨.

⁽٣) مشاهد القيامة ص٢٨.

ولابد قبل الوصول إلى درجة النيرفانا.أن يمر بأربعة أطوار من مجاهدة النفس:

الطور الأول: الإحياء والتجديد، حين يدرك الإنسان الحقائق، وعندما يبلغ الإنسان هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى وهي الوهم الخادع في وجود النفس، والشك في بوذا وتعاليمه، والاعتقاد في تأثير الطقوس والرسوم الدينية.

أما في الطور الشاني: فيقوى المهتدى على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الأوهام.

وفي الطور الثالث: يحطم قيود الشهوة.

وأما الطور الرابع: فيسمى صراط المقدسين وفي هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية وهي: الرغبة في البقاء المادي وغير المادي، والكبرياء، والاعتداد بالبر الذاتي، والجهل، وعند بلوغه هذا الطور يكون قد أدرك الهدف الذي يسعى إليه وهو «النرفانا»(١٠).

ويقول سيد قطب رحمه الله عن عقيدة البراهمة والبوذين: «لانجد في الديانات الهندوكية ولا في الديانة البوذية وهي عقيدة طائفة من الهنود، وعقيدة أهل سيلان ومعظم اليابانيين وكثير من الصينين لا نجد في هذه الديانات عالماً آخر للحساب والجزاء؛ إنما نجد مكانه النيرفانا وهي الفناء في الروح الأعظم، وإن اختلفت وسائل الوصول إلى هذه المرتبة بين الديانتين»(٢).

⁽١) ذيل الملل والنحل للكيلاني ٢/١٦.

⁽٢) مشاهد القيامة في القرآن ص٢٦.

ومن الذين يعتقدون القول بالتناسخ أيضاً: فرقة الحرنانية من الصابئة وهم أول من قال بالتناسخ كما يذكر الشهرستاني عنهم ذلك بقوله: «وإنما نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم»(١). وهم طائفة من الصابئة.

وممن قال بالتناسخ كذلك بعض اليهود وهو ما يذكره التلمود بقوله:

«أما اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهودياً؛ فإن أرواحهم تدخل بعد موتهم في الحيوانات أو النباتات، ثم تذهب إلى الجحيم وتعذب عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود ثانياً وتدخل في الجمادات، ثم في الحيوانات، ثم في الوثنين، ثم ترجع إلى جسد اليهود بعد تطهيرها»(٢).

وهذا النص يفيد إنكار البعث والقول بالتناسخ، وربما يفهم من هذا أن التناسخ إنما يشمل أولئك الذين يرتدون عن اليهودية، فإنه يكون عقابهم إذا فعلوا ذلك أن يشمل أرواحهم التناسخ حتى تتطهر تلك الروح، فإذا ما تطهرت رجعت فحلت في جسد اليهود.

قال البغدادي: «وقال بعض اليهود بالتناسخ، وزعم أنه وجد في كتاب دانيال أن الله تعالى مسخ بختنصر في سبع صور من صور البهائم والسباع، وعذبه فيها كلها، ثم بعثه في آخرها موحداً»(٣).

والبيانية وهي نسبة إلى بيان بن سمعان النهدي بمن يقول بالحلول والتناسخ(1).

⁽١) الملل والنحل ٢/ ٥٥.

⁽٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٦١.

⁽٣) الفرق بن الفرق ص٢٧٢.

 ⁽٤) الأد الفرق والمذاهب المعاصرة ص ١٦٢.

ومثلهم كذلك الحربية أتباع عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي؛ وقد كان من أتباع بيان بن سمعان ثم فارقهم وهم على عقيدة القول بالتناسخ (١١) .

وذكر البغدادي أن فريقاً من السمنية يقول بالتناسخ «وأجازوا أن ينقل روح الإنسان إلى كلب وروح الكلب إلى إنسان»(٢).

ويذكر البغدادي أن المانوية - أتباع ماني - قد ذهبت إلى القول بالتناسخ «وذلك أن ماني قال في بعض كتبه: إن الأرواح التي تفارق الأجسام نوعان: أرواح الصديقين وأرواح أهل الضلالة؛ فأرواح الصديقين إذا فارقت أجسادها سرت في عمود الصبح إلى النور الذي فوق الفلك فبقيت في ذلك العالم على السرور الدائم، وأرواح أهل الضلال إذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ردت منعكسة إلى السفل، فتتناسخ في أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلتحق بالنور العالي "(۲).

ثم ذكر أن سقراط وأفلاطون وأتباعهما من الفلاسفة قد قالوا بتناسخ الأرواح أيضاً.

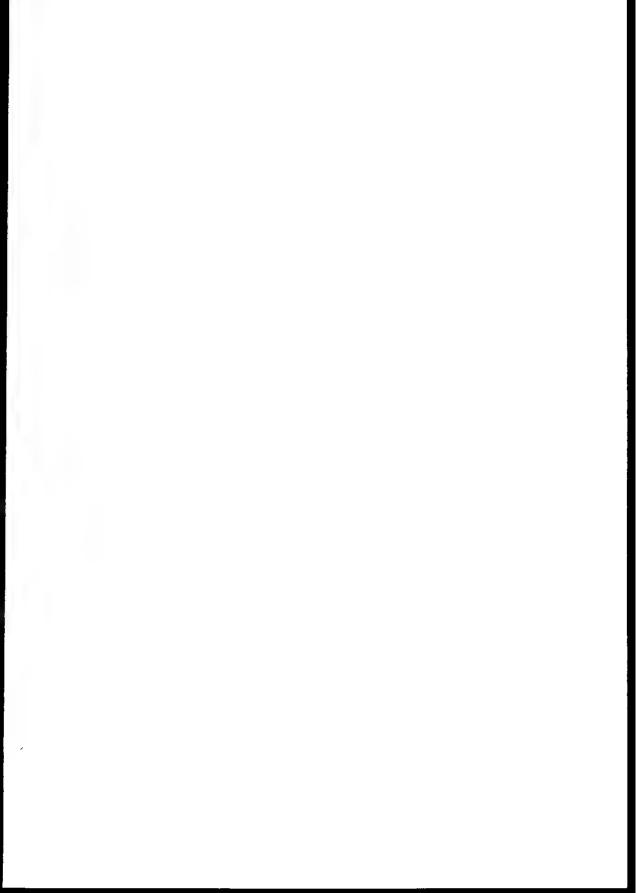
وكل أولئك الفرق على جهل وضلال سببه عدم الرجوع إلى الله وكراهية الدين وتكذيب الرسل؛ بل وتكذيب ما يوحي به العقل السليم والفطرة المستقيمة.

وأخيراً . . . فإن ذكر هذه الفرق وإن كانت ليست من صميم الموضوع إلا أني قد وجدت أن ذكرها والإشارة إليها مما يستتبع البحث ويتممه فوجدت أن من المناسب ألا يخلو البحث عن مثل ذلك .

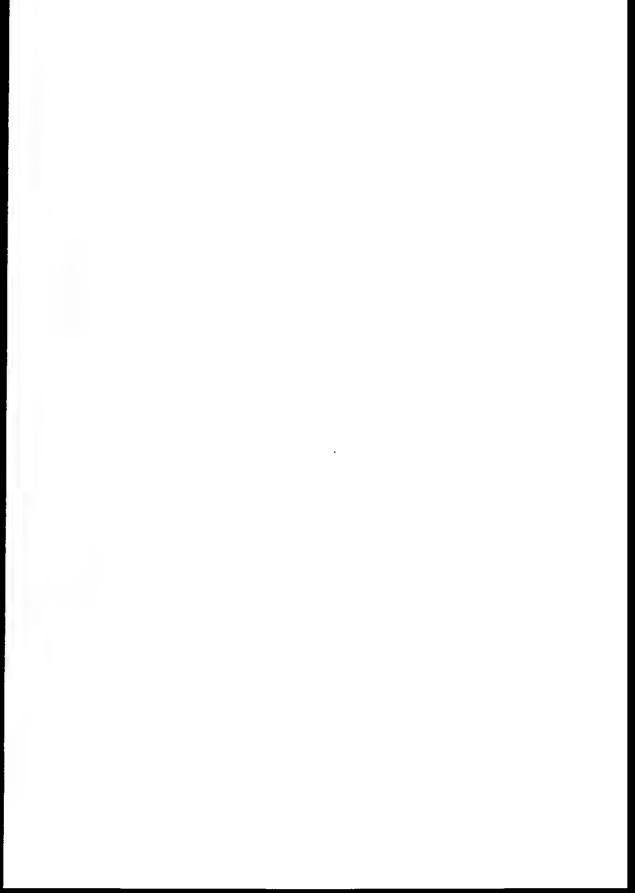
⁽١) الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ص١٦٤.

⁽٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٠.

⁽٣) المصدر السابق ص ٢٧١.







الفصل السادس أسباب إنكار البعث

وبعد عرض ما تقدم يتضح لنا مدى قوة وصلابة المشركين في تمسكهم بكفرهم وإنكارهم أمر البعث أشد إنكار، ويتضح كذلك صعوبة إقناعهم بالإيمان بالبعث وكيف كان جل الاهتمام بأمر العقيدة يتمثل في إقناعهم بالإيمان والإقرار به.

هنا يتبادر سؤال إلى الذهن: ما هي الأسباب الكامنة وراء هذا العناد والنفور؟

ومن الإجابة عن ذلك أن يقال: إن هناك أسباباً عديدة؛ لعل من أهمها ما يأتي :

1 - الاستبعاد: ولكونهم درجوا على ذلك مقلدين فيه الآباء والأجداد كان مجرد طلب تغيير عقيدتهم عن هذا المألوف أمراً من الصعوبة بمكان؛ بل جعلوه وهوالأمر المألوف الذي يقتضيه العقل السليم أمراً مستبعداً غاية البعد، فهم لم يشاهدوا أن الأموات يحيون بعد دفنهم فيقومون من قبورهم ليخبروهم بالعالم الآخر، وهم كذلك يشاهدون دائماً أن الميت بعد دفنه بأيام تأكله الديدان ويستحيل إلى تراب وعظام نخرة، فكيف يتصور أن ترجع إليه الحياة من جديد؟!

هذا بعيد في مقياسهم السقيم، غير مقتنعين بأن قدرة الله تعالى لا يحدها

حدود ولا يعجزها أمر، وقد استلزم هذا إنكارهم أيضاً لكمال علم الله تعالى، حيث تصوروا أن الإنسان حينما يصبح ذرات متفرقة في الكون في مشارق الأرض ومغاربها فكيف يعلم أماكن هذه الذرات ليجمعها ويجعلها كما كانت قبل الموت؟ ونسوا أن الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم لا يعجزه ذلك.

إلى هود عليه السلام ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جُنْتَنَا بِبَيِّنَةً وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهُتِنَا عَن قَوْلُ إِلاَّ اعْتَرَاكُ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءَ قَالَ عَن قَوْلُكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكُ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءَ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مَمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [مود: ٥٣، ٥٥].

إلى عاد الذين ﴿ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارِ عَنيد ﴾ [مود: ٥٩].

إلى ثمود الذين قالوا لنبيهم: ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنِتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا اللَّهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢]. أَتَنْهَانَا أَن نَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢].

إلى قوم شعيب الذين قالوا له عليه السلام: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لِنَوْكَ وَإِنَّا لِنَوْكَ وَلِنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١]. لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١].

إلى غير ذلك من القصص التي أخبرنا الله جل وعلا بها من أول الرسل

إلى آخرهم، بما في ذلك قصة كفار قريش وموقفهم من الإسلام حين قالوا في حق نبي الإسلام عَلَىٰ رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَلَىٰ رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ الزحرف: ٣١].

أو قولهم له عليه الصلاة والسلام: ﴿ لَن نُؤُمِنَ لَكَ حَتَىٰ تَفْجُر لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيل وَعِنَب فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا الأَرْضِ يَنْبُوعا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيل وَعِنَب فَتُفَجِرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيسُوا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنًا كَسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللّه وَالْمَلائكَة قَبِيسُلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُف أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاء وَلَن نُؤَمِنَ لِرُقِيكَ حَتَىٰ تُنزِل عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٠ ، ٩٣].

كل ذلك كان ناشئاً عن الكبر والتعالي والتعنت، فكان جزاء ذلك أن حرموا نعمة الإيمان ودخولهم في رحمة الله تعالى.

٣ - ميلهم إلى الشهوات وانغماسهم في الملذات التي يعز عليهم أن يتركوها: فهم يعلمون أن اقتناعهم بالإيمان بالبعث والنشور سيحول بينهم وبين هذه القاذورات التي ألفوها وأشربت قلوبهم حبها.

غ-وعامل اقسصادي: فهم كانوا يتاجرون بالخمور والربا يكرهون فتياتهم على البغاء لقاء مبلغ من المال، وفي معلومهم أن الدخول في الإسلام وبالتالي الإيمان بالبعث سيحول بينهم وبين هذه الموارد الفاجرة والأرباح الخاسرة.

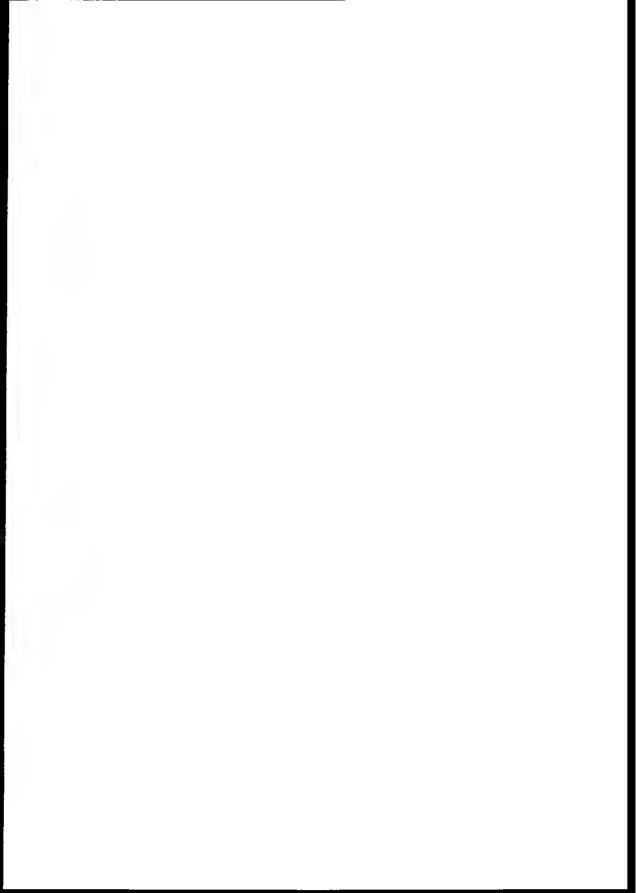
• عامل سياسي: ألا وهو حب الزعامة والمحافظة عليها وقهر وإذلال من لا حول له ولا قوة، لتبقى الزعامة في أيديهم ولتبقى مراكزهم في المجتمع خالصة لهم، لأنهم يعرفون أن الإيمان مطلقاً وخاصة البعث سيجعلهم سواسية مع عبيدهم، ومع سائر الناس، وسيحرمهم من نصب أنفسهم آلهة

للناس وساسة لهم.

فلهذه العوامل وغيرها كانت فكرة الإيمان بالبعث مرفوضة لدى الكفار وكان أمره مستبعداً في نفوسهم، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً منهم الراغب ومنهم الراهب، ومحا الإسلام تلك العقبات التي كانت تحول بين الناس وبين الإيمان بالله ولقائه.

* * *





الفصل السابع البعث كما في الكتاب والسنة

نريد من عرض هذا الموضوع بيان ما هو الذي يبعث في يوم القيامة: هل هو الجسد وحده أم الروح وحدها أم كلاهما؟ وقد أردنا إثبات المبعوث من تلك الأمور كما أثبته الله ورسوله، فإذا ما تبينت الأدلة ووضح المقصود منها في حقيقة ذلك المبعوث كان فيها غنى وإراحة للنفس واطمئنان وخروج بها من دنس أهل الكفر والوثنية نفاة البعث.

وفيها كذلك الرد عليهم وعلى الفلاسفة الذين أنكروا البعث الجسماني أو الروحاني والجسماني، وإبطال خبطهم واضطرابهم في حقيقة المبعوث، وإبطال الإيرادات التي يوردونها على تناقض كلامهم؛ فإنه بحث لم يبن على النصوص الصحيحة ولا نتيجة من ورائه إلا إضاعة الوقت وفتح باب للتشكيك في أمر المعاد، وحبذا لو ترك الاشتغال بذكره إذ كيف نشغل أنفسنا عمالم نؤمر به، فإن الحق هو ضألة المؤمن، ومادمنا نجده واضحاً في كتاب الله عزوجل وسنة نبيه على فلا حاجة إلى تكلف ما لم ينفعنا في ديننا ولا في دنيانا.

أ ـ أما البعث في كتاب الله تعالى: فقد قدمنا إيسراد كسثير من نصوص القرآن الكريم التي جاءت لإثبات البعث والرد على من ينكره.

١ ـ من مثل قـولـه تعـالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي

الْمِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (﴿ كُلُ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَاَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُو بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ المُطَامَ وَهِي رَمِيمٌ (﴿ كُلُ عَلْي عَلِيمٌ ﴾ والمحار المعالم المع

أي فكما أنه هو الذي خلقها أول مرة في الدنيا وبعث فيها الروح، قادر على أن يعيدها مرة أخرى ويبعث فيها الروح كما بعثها في أول مرة.

- ٢ ـ وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَن لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ
 أَن نُسوِّي بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣، ٤].
- ٤ ـ وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَنِذَا كُنَا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَنَنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَديدًا ()
 قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَديدًا () أَوْ خَلْقًا مَمّا يَكُبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيقُولُونَ مَسن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أُولَ مَرَّة فَسَينُغضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَسن يُعِيدُنَا قُلِ اللّٰذِي فَطَرَكُمْ أُولَ مَرَّة فَسَينُغضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُو قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا () يَدُومَ يَدْعُدوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلاَ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٩.٢٥].
- وقــال تعــالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَثِذَا كُنَّا عِظَامًا
 وَرُفَاتًا أَثِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٩٨].
- ٢ وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَثِذَا صَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنًا لَفِي خَالَى جَديد ﴾ [السجدة: ١٠].
- ٧- وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِسَنَ الأَرْضِ نَسَاتًا آ أَنْ تُسمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُنْ بَاتًا آلَ ثُلَمَ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

٨ ـ وقال تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ . [طه: ٥٥].

فهذه الآيات وغيرها بما جاء في معناها كلها تثبت البعث لهذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وفيها الإشارة كذلك إلى أن الكفار لا يملكون أي دليل على نفي البعث غير مجرد الاستبعاد لوقوعه لقصر أفهامهم وعقولهم، وفيها كذلك الرد عليهم بما يبطل ذلك الاستبعاد، وإثبات أن لله القدرة الكاملة في إحياء أولئك الأموات برد الحياة إليهم؛ فيخرجون من قبورهم سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون، خاشعة أبصارهم يأتون إلى الموقف كما بدأهم أول خلق لا يملكون سوى أنفسهم وأبدانهم، وقد علم الله حين أراد سريان الحياة فيهم بإعادة أرواحهم علم ما تنقص الأرض منهم.

وإضافة إلى ذلك فإنه قد سجل كل ذلك في كتاب حفيظ، وأن الناس لا يؤخرهم إلى البعث بعد موتهم إلا دعوة الله لهم، فإذا دعاهم بحمده وعظمته استجابوا فوراً وخرجوا إلى لقاء ربهم، بكل يسر وسهولة يجمع الله تعالى العظام ويركب كل بنان.

أما مجرد الاستبعاد كما أشارت إليه الآيات السابقة في الإخبار عنهم فإن الاستبعاد ليس بحجة ، وإنما هو حجة المنقطع العاجز .

على أنه من المشاهد المحسوسة أن النفس قد تستبعد أشياء وهي واقعة ، ولهذا يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله : «في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل ، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في

الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها «(١) .

وهكذا من نفى البعث الجسماني واستبعده بحجة أن الإنسان بعد دفنه يصير تراباً وعظاماً ويتفرق في الأرض فكيف يعاد.

والآيات السابقة تعطينا الصورة التي يتم عليها بعث الناس، إعادة الجسد الأول بروحه التي كانت في الدنيا لم ينقص منه شيء، وإضافة إلى ذلك ذكر الله تعالى أن تلك الأعضاء التي يعيدها إلى جسدها هي التي ستكون شاهدة على الإنسان بكل ما عملته في الدنيا، ولو أن تلك الأعضاء لم تكن في ذلك الجسد لكانت شهادتها في غير محلها إذ كيف تشهد على جسم لم تكن فيه؟!

وقد قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ٱلْسِنَتُهُمْ وَٱَيْدِيسِهِمْ وَٱرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَسُلُونَ آَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ كَانُوا يَعْمَسُلُونَ آَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْرَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنَهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِرَاطَ فَأَنَىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٦٥، ٦٦].

وقسال تعسالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمَ شَهِدَتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللّهُ السَّذِي أَنطَسَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُو خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ

⁽١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٩٧).

تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَـكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمًا تَعْمَلُونَ (٣٠) وَذَلِكُمْ ظَنَّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٣].

فلا أدل على بعث الأجساد التي كانت في الدنيا من هذه الآيات، ذلك أنه لا يعقل أن تشهد تلك الجوارح في الإنسان من السمع والبصر والجلود بشيء لم تعمله في الدنيا ولم تباشر العمل فيه بنفسها، والله يقول: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ ﴾ ولم يقل: (لجلود) مما يدل على أن تلك الجلود هي التي كانت في الدنيا، ولو أنها جلود أخرى لكانت تلك الشهادة باطلة، ولكانت شهادة زور.

يمكن للشخص أن يقول وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً عكن له أن يقول إن هذه الجوارح لا عهد لي بها ولم تكن معي في الدنيا، ولاسيما وأن الإنسان شديد الجدال لربه، شديد الجحود لما صدر منه في الدنيا.

بل تلك الجوارح ربما تعتذر - أمام أعدل العادلين - حين يستنطقها تعالى - والمقام مقام إظهار العدل - بأنها لا تشهد بما لم تعلم منه شيئاً، وللاذت بعدل الله أن تدلي بشيء في هذا الموقف الخطير . فدل نطقها بما باشرت العمل به أنها هي نفسها التي كانت في الدنيا، وهذا هو الحق والمعقول عند كل منصف .

ومن الأدلة الدالة على أن الأجساد التي تبعث هي الأجساد التي كانت في الدنيا بعينها، ما ذكره الله في قصة إبراهيم وإحياء الطيور التي أمره الله بذبحها بعد أن يقطعها إرباً إرباً ويخلطها مع بعضها بعضاً، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً، وحين فعل ذلك كانت النتيجة ما شاهده إبراهيم بنفسه، إذ رجع

كل عضو إلى عضوه الآخر حتى تكاملت الطيور الأربعة ثم جاءته سراعاً، وهذه صورة لما يقع عليه البعث في الآخرة.

ويصور القرآن الكريم كذلك الإنسان وهو سائر إلى ربه للموقف ليحاسب على ما قدم في الدنيا آخذاً طريقه نحو الموقف هو وما يحيط به من السائق والشهيد، فقال تعالى: ﴿ وَجَاءَتُ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١].

ثم أخبر تعالى عن الإنسان وقد اكتمل خلفه وعادت جميع حواسه إليه فهو يسمع ويبصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَـــد ْ كُنتَ فِسِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غَطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيُومَ حَديدٌ ﴾ [ق: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمُئِذَ بِجَهَنَمَ يَوْمُفِذَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَسَىٰ لَهُ اللَّهِ عَالَى اللهِ اللَّهِ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللل

وفي هذا السياق وبلفظة (الإنسان) دليل على أن المبعوث هو الجسد والروح معاً، لأن الإنسان جسم مركب من هذين الوصفين من الجسم والروح، والقول بأن الإنسان يراد به الجسد فقط أو الروح فقط قول لا دليل عليه.

ب ـ كيفية البعث في السنة:

وبعد ما قدمنا عرضه من الآيات البينات التي دلت بوضوح على أن الله

تعالى يعيد كل مخلوق خلقه في الدنيا ليوم القيامة وأن الإنسان يعاد بروحه وجسده الذي كان في الدنيا.

بعد هذا نود أن نعرض أيضاً نماذج من النصوص النبوية تدل على حقيقة المبعوث، أهو الجسد أم الروح أم كالاهما؟ وهي نصوص تدل بوضوح كذلك على أن المبعوث هو الروح والجسد.

1 _ ومن ذلك حديث أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي على أبي هو ذكر النفخات التي تسبق قيام الناس من القبور ، وفيه : «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ، قال : «وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة، (١) .

وقال البرديسي: «قال العلماء: وهو عظم كالخردلة في العصعص وهو آخر سلسلة الظهر عند الصلب، وهو من الإنسان بمنزلة مغرز الذنب من الدابة، ولذا أضيف إليه، وهو بفتح العين المهملة وسكون الجيم آخره باء موحدة وقد تبدل ميماً».

«وقيل: عجب الذنب حبة نسل بني آدم، فإذا نزل عليها الماء كالمني الذي هو من جنسه جذب إليه كل ما انحل من جسده في حال الحياة والموت، فإن ذلك كله محفوظ وجواهره مصونة في خزائن العالم وهي العناصر الأربع: الأرض، والهواء، والماء، والنار، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنسقُصُ الأَرْضُ مِنْهُم ﴾، فيجذب عجب الذنب ذلك كله فترجع تلك الأجزاء كلها إلى عجب الذنب فتركب عليه الجسد مرة أخرى بقدرة من أحاط بكل شيء

⁽۱) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٠. ٢٢٧١.

علماً»(١).

وقد روي هذا الحديث بعدة روايات، ففي رواية: «كل ابن آدم يأكله التراب الاعجب الذنب، منه خلق وفيه يركب، (٢).

وفي رواية أخرى: «إن في الإنسان عظماً واحداً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا: أي عظم هو يا رسول الله ؟ قال: عجب الذنب، (٣).

وفي هذا الحديث يخبر الرسول الله أن الأرض تأكل جميع الجسد، لم تبق منه إلا عجب الذنب ليعيد الله الجسد من ذلك العظم، وهو عجب الذنب، بعد أن استحال الجسد إلى تراب في الأرض، ثم الله تعالى بقدرته يعيد ذلك الجسد الذي استحال إلى تراب إلى خلق سوي يركبه على عجب الذنب، وينشئه خلقاً سوياً كما كان بواسطة ذلك المطر الذي اقتضت حكمته تعالى أن يكون سبباً لإنباتهم من عجب الذنب.

قال البرديسي: "قال الزركشي: فإن قيل: ما فائدة إبقاء هذا العظم عند القائل به دون سائر الجسد؟ قلت: أجاب ابن عقيل الحنبلي بأن لله في هذا سراً لا نعلمه، وعلل بجواز أن يكون البارئ جعل ذلك للملائكة علامة على أنه يحيي كل إنسان بجواهره التي كانت في الدنيا بأعيانها، ولولاه لجوزت الملائكة إعادة الأرواح إلى أبدان غيرها»(١٤).

فيعود الجسد إلى الحشر في أكمل صورة لم ينقص منه شيء، حتى تلك

⁽١) تكملة شرح الصدور ص ١٠.

⁽٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧١.

⁽r) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧١.

⁽٤) تكملة شرح الصدور ص ١١.

الغرلة التي ذهبت عند الختان تعود يوم القيامة ، كما في حديث عائشة رضى الله عنها ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، (١) .

وأخبر على بأن الروح تعود إلى الجسد حين يأذن الله بالبعث، ومعلوم أن مقر الروح غيرمقر الجسد حين يأمر الله الأرواح لتدخل في أجسادها، كما في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وإنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجع إلى جسده يوم يبعث (٢).

وأخبر تلك عن بعث الأجساد بما قاله في الرجل الذي وقصته ناقته فمات في الحج: وإنه يبعث يوم القيامة وهو يلبي، وفي رواية: ويهلل، وهذه الصفات لا تكون إلا لإنسان سوي.

وهذا ما يروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: خر رجل عن بعيره فوقص فمات، فقال النبي عَلَيْهُ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه ولا تخمروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً».

وفي رواية: «فإنه يبعث يوم القيامة ملبداً».

وفي رواية: وفإنه يبعث يوم القيامة وهو يهلل (٣٠٠).

وهي روايات كلها صحيحة، والتلبية، والتلبيد، والتهليل؛ هذه صفات لا تقوم إلا بإنسان روحاً وجسداً، وكذا ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عَلَيْه وفيه «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل (٤٠).

البخاري ٧/ ١٩٥، مسلم ٨/ ١٥٦.

⁽٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٢٨ ، سنن النسائي ٤/ ١٠٨ .

⁽٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٦٥ ـ ٨٦٦.

⁽٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧١.

وقد قدمنا في ذكر الأدلة من القرآن الكريم على بعث الجسد الأول بعينه، أن من الأدلة على ذلك: شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه، كما رأينا في الآيات التي تثبت ذلك.

وجاء من السنة النبوية في هذا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله على فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك ؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل، (١).

وكذا ما جاء عن أبي هريرة في تقرير الله لعبده في الحساب، وفيه قال على عن المنافق: «ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي ويقال له على فيه ويقال لفخذه وتحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه (٢).

ومثل دلالة هذا الحديث على بعث الأجساد ما روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله على قال: «قال رجل لم يعمل خيراً قط إذا مات فحرقوه واذروا نصفه في البحر، فوالله لنن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ثم قال: لم فعلت؟ قال: من

⁽۱) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٠ ٢٢٨١.

⁽٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٠.

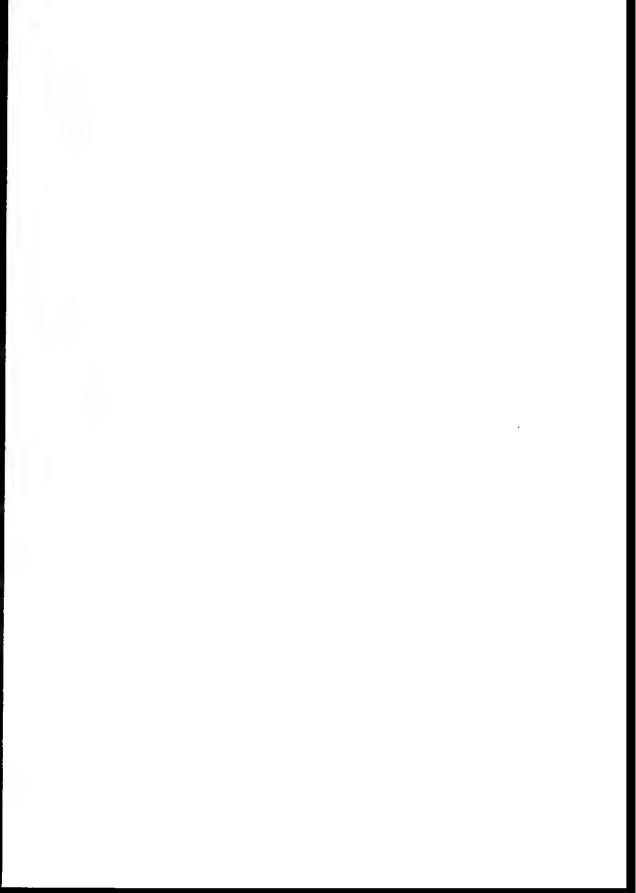
خشيتك وأنت أعلم، فغفر له ،^(١) .

وهذه الأحاديث صريحة في قيام الأجساد التي هي تحت الأرض قد استحالت إلى تراب وتفرقت، وحين يأذن الله بقيامها تقوم لرب العالمين.

وبما تقدم نكتفي لإثبات بعث الأجساد من السنة، وهي ظاهرة في دلالتها على ذلك لا ينكرها إلا من عطل فكره وانساق مع هواه، وكيف يجيب من ينكر بعث الأجساد عن السبب الذي يمنع بعث الجسد مادام العدل يقتضي ذلك؟ لأن الروح والجسد هما اللذان اشتركا في العمل خيراً وشراً، فإذا كان العذاب على الروح فقط أو الجسم فقط؛ كان ذلك إخلالاً ظاهراً بالعدل بينهما، فيجب إذاً أن يتحملا العذاب معاً وأن يتنعما معاً وهذا هو مقتضى الحق والعدل، وهو مقتضى العقل كذلك.

* * *

⁽١) البخاري ١٣/ ٤٦٦، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري ٤/ ٢١١٠.





الفصل الثامن

أقوال علماء الإسلام في كيفية البعث والرد على الفلاسفة وإبطال حججهم في إنكار البعث

بعد ما تقدم ذكره في إثبات كيفية البعث من كتاب الله عزوجل ومن سنة نبيه على ، وأن ذلك يكون بالروح والجسد، أود أن أقول: إن هذا هو الاعتقاد الصحيح الذي عليه عامة علماء السلف، وأنه من الأمور المعلومة لديهم، كما نتبين هذا من أقوالهم الآتية :

سئل شيخ الإسلام رحمه الله: هل تبعث هذه الأجسام بعينها؟ فأجاب بقوله: «وهذه الأجساد هي التي تبعث كما نطق به الكتاب والسنة»(١).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وأما من خلقه سبحانه فإنه أوجده لحكمة في إيجاده، فإذا اقتضت حكمته إعدامه جملة، أعدمه وأحدث بدله، وإذا اقتضت حكمته تبديله وتغييره وتحويله من صورة إلى صورة، بدله وغيره وحوله ولم يعدمه جملة، ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد وما جاءت به الرسل فه، فإن القرآن والسنة إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لا جعله عدماً محضاً وإعدامه بالكلية، فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسموات، وعلى تشقق السماء وانفطارها، وتكوير الشمس وانتثار الكواكب وسجر البحار، وإنزال المطر على أجزاء بني آدم المختلطة بالتراب فينبتون كما ينبت

⁽۱) الفتاري ۳۱٦/٤.

النبات، وترد تلك الأرواح بعينها إلى تلك الأجساد التي أحيلت ثم أنشئت نشأة أخرى».

إلى أن يقول: "وقد أخبر الله سبحانه أنه يحيي العظام بعدما صارت رميماً، وأنه قد علم ما تنقص الأرض من لحوم بني آدم وعظامهم، فيرد ذلك إليهم عند النشأة الثانية، وأنه ينشئ تلك الأجساد بعينها بعدما بليت نشأة أخرى، فيرد إليها تلك الأرواح»(١).

وقد استفاض الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الفوائد في بيان إعادة الإنسان حينما شرح آيات من سورة «ق» نأخذ منها ما يأتي :

«وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التي آمنت بعينها ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدناً غير هذا البدن من كل وجه عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عنده عرض من أعراض البدن فيخلق روحاً غير هذه الروح وبدناً غير هذا البدن. . . إلى أن يقول: «وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين» (٢) إلى كلامه في هذه المسألة .

وعلماء الفرق كلهم على هذا المعتقد، فالأشعري يذكر أن أكثر المسلمين يقولون: «إن المبتدأ في الدنيا هو المعاد في الآخرة» ".

⁽١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٤ ٣٥.

⁽٢) الفوائد ص ٥-١٣.

⁽٣) المقالات ٢/ ٦٢.

ويقول البغدادي عن عقيدة السلف: «وقالوا: إن الله عزوجل يعيد في الآخرة الناس وسائر الحيوانات التي ماتت في الدنيا»(١).

وقال علي بن أبي العز الحنفي: «القول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل تراباً، ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة ثم صار عظاماً ولحماً ثم أنشأه خلقاً سوياً، كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب»(٢).

قال الفاكهاني-فيما ينقله عنه البرديسي-: « وفي الحديث : إذا صار العظم رميماً ولم يبق إلا عجب الذنب فيأمر الله تعالى بمطر ينزل من تحت العرش كمني الرجال يحيي الله الخلائق من ذلك كما كانوا أول مرة»(٣).

وقال مالك: «بلغني أنه إذا كان قبل قيام الساعة تمطر السماء أربعين ليلة حتى تنفلق الأرض عن الهام كما تنفلق عن الكمأة، والهام: رؤوس الناس، فتنشق الأرض عنهم فإذا هم قيام ينظرون (1).

ويقول ابن حزم: «اتفق أهل القبلة على تنابذ فرقهم على القول بالبعث في القيامة وعلى تكفير من أنكر ذلك، ومعنى هذا القول: أن لمكث الناس وتناسلهم في دار الابتلاء التي هي الدنيا أمداً يعلمه الله تعالى، فإذا انتهى ذلك الأمد مات كل من في الأرض، ثم يحيي الله عزوجل كل من مات منذ

⁽¹⁾ الفرق بين الفرق ص٣٤٨.

⁽٢) شرح الطحاوية ص٤٦٤.

⁽٣) تكملة شرح الصدور ص١١.

⁽٤) نفس المصدر السابق.

خلق الله عزوجل الحيوان إلى انقضاء الأمد المذكور، ورد أرواحهم التي كانت بأعيانها، وجمع أعمالهم ووفاهم بأعيانها، وجمع أعمالهم ووفاهم جزاءهم، ففريق من الجن والإنس في الجنة وفريق في السعير، وبهذا جاء القرآن والسن (۱).

ويقول الجرجاني عن إثبات القول ببعث الجسد والروح معاً: «وهو قول كثير من المحققين كالحليمي، والغزالي، والراغب، وابن زيد الدبوسي، ومعمر من قدماء المعتزلة، وجمهور من متأخري الإمامية وكثير من الصوفية»(۲).

ويقول ابن كثير: «وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبد الوهاب أخبرنا هاشم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: جاء العاص ابن وائل إلى رسول الله على بعظم حائل، ففته، وقال يا محمد، يبعث الله هذا؟ قال: نعم، ييتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم، ونزلت ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ () قُلْ يُحْيِيهَا الّذِي أَنشَأَهَا أَوْلَ مَرَّةً وَهُو بِكُلِّ خَلْقِ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ١٧٩]، (١).

ويقول محمد رشيد رضا: "ولو كان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية، واللذات الجسمانية، ويتحقق بحكم الله جمع حكمة وأسرار صنعه فيهما معاً، من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى

⁽١) انظر: الفصل لابن حزم ٤/ ٧٩.

⁽٢) انظر: المواقف بشرح الجرجاني ٣/ ٢٨٨.

⁽٣) النهاية ١/ ٢٥٣.

والملائكة من الثانية»(١).

وأما ما حصل من خلاف في إعادة الأجسام: هل تعود عن العدم المحض ـ وهــو أن الله يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها ؟ أو تعاد الأجسام عن تفريق محض؟ أو يكون الأولى التوقف في ذلك؟

الشابت في ذلك أن الله تعالى يعيد هذا الجسد الذي كان في الدنيا بعينه وترجع إليه روحه بقدرة الله تعالى، والبحث عما وراء ذلك يعتبر من التكلفات التي تحتاج إلى إثبات.

قال البرديسي: «إعادة الأجسام حق يجب الإيمان بها، لكن اختلف هل تعود عن العدم المحض: وهو أن الله يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها. وهذا قول الأكثر، وقال الزركشي: وهو الصحيح، وقيل: بل تعاد الأجسام عن تفريق محض، وقال السعد: الحق التوقف، وقال في شرح المواقف: وهل يعدم الله الأجزاء البدنية ثم يعيدها أو يفرقها ويعيد فيها التأليف؟ الحق أنه لم يثبت في ذلك شيء، فلا جزم فيه نفياً ولا إثباتاً لعدم الدليل على شيء من الطرفين»(٢).

هذا هو رأي السلف، ومن المؤسف بعد تلك النصوص جميعها أن نرى من المسلمين من يزعم أن الله لم يشأ في القرآن أن يقطع بحكم واضح في مسألة كيفية البعث، وأنه قابل للاحتمالات، فيحتمل أن يكون بعثاً للجسد والروح، وأن يكون بالجسد فقط، أو بالروح فقط، وأن تلك الكيفية التي أثبتتها الحقائق السابقة جزئية بسيطة لا تقدم ولا تؤخر، وهذا ما نراه في كلام عبد الكريم

⁽¹⁾ الوحى المحمدي ص١٨٠، ط ٨ المكتب الإسلامي.

⁽٢) تكملة شرح الصدور ص ١٢.

الخطيب حين يقول: "والشيء الذي لم يشأ القرآن أن يعرض له وأن يدخل مع المجادلين فيه هو "كيفية البعث"، وهل هو بالجسد والروح أو بالروح دون الجسد؟ فإن القرآن لم يلتفت إلى هذه الجزئية من القضية لأن أمرها لا يقدم ولا يؤخر في هذه المسألة، فإذا ثبت البعث وآمن به من آمن فلا يعنيه بعد هذا أن يقع على أي صورة، ليكن بالجسد والروح أو ليكن بالروح وحده، فهو على أية حال حياة يجدها الإنسان ويجد فيها وجوده الذي يتعامل به في الحياة الأخرة فينعم بالنعيم أو يشقى بالعذاب».

ويقول كذلك: "وكذلك شأن القرآن في موضوع البعث لم يقل إنه بالروح أو الجسد، ولكنه يقف موقفاً وسطاً، فتارة يبدو وكأنه يقول بالبعث الروحي ﴿ يَا أَيُّتُهَا السَّفْسُ الْمُطْمَنَةُ ﴿ آ﴾ ارْجعي إلَىٰ رَبِّك رَاضِيةً مَرْضِيةً (آ﴾ فَادْخُلِي فِي عبادي (آ) وَادْخُلِي جَنّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، وتارة يلوح وكأنه يقول بالبعث الجسدي فيقول ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ يقول بالبعث الجسدي فيقول ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة: ٣]. وفي حال أخرى يجمع بين الأمرين في موقف واحد ﴿ وَجَاءَتُ كُلُن نَفْسٍ مَّعَهَا سَائتَ قَ وَشَهِيدٌ (آ) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةً مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ عَظَاءَكُ فَبْصَرُكَ الْيَوْمَ حَديدٌ ﴾ [ق: ٢١، ٢٢].

ثم ذكر أن المسلم غير مطالب أن يبحث عن حقيقة البعث ولا على أية صورة يقع ولا في أي مكان أو في أي زمان يكون، بل المطالب به هو الإيمان بوقوع البعث وحتميته بغض النظر عن كون البعث بالجسد وبالروح أو الروح بلاجسد أو الجسد بلا روح، «فالأمر كله سواء ما دام الإنسان سيجد في اليوم الآخر وجوده ويتعرف إلى ذاته، فليكن بعد هذا على أية صورة»(١).

⁽١) الله والإنسان ص٧٨١. ٢٨٣.

والواقع أن هذا الكلام يعد كلاماً خاطئاً يدل على أن صاحبه لم يتبين له الأمر في هذا، ولم تتبين له الحقيقة الساطعة التي قررها القرآن الكريم والسنة النبوية في بعث الأجساد والأرواح.

ويجب الانتهاء عن هذا القول الخاطئ، فإنه قول في مقابلة النصوص، ذلك أن النصوص جميعاً من كتاب الله، وسنة نبيه تلك، وأقوال علماء الإسلام؛ كلها حكما قدمنا تدل على أن المبعوث هو الجسد الأول بعينه، لا الجسد وحده، ولا الروح وحدها، ولا الجسد بلا روح، أو الروح بلا جسد كما يقرره عبد الكريم الخطيب، ومن الضروري أن القائل بهذه الأقوال يحتاج إلى إعادة النظر فيها وتقرير الحق منها الموافق لما جاء في كتاب الله عسز وجل وسنة نبيه تكلك.

وهو مع مخالفته لجميع النصوص الدالة على البعث الجسماني والروحاني رأي غير واضح في هذه القضية، وهو يشابه قول القائل: يكفي أن يعلم الإنسان أن له رباً وليس عليه بعد ذلك أن يكون على أي مذهب!! ومعلوم أن الشرع لم يرد هذا، وقد صرح القرآن ببعث الأجساد في أكثر من آية وصرحت السنة النبوية بذلك في أكثر من حديث.

فالادعاء بعد ذلك «أن الشيء الذي لم يشأ القرآن أن يعرض له وأن يدخل مع المجادلين فيه هو كيفية البعث»، كما قال عبد الكريم ـ قول غير مقبول، وليس له ما يؤيده لا من القرآن ولا من السنة ولا من أقوال السلف فيما أعرف ـ .

فالقرآن يبدئ ويعيد في وصف الجنة ونعيمها ونعيم أهلها ووصف مأكولاتهم، ومساكنهم، وثيابهم، وخدمهم، بل يذكر القرآن ما هو أبعد من ذلك، يذكر ما يدور بين أهل الجنة من أحاديث الذكريات التي كانت لهم في الدنيا، ثم يحمدون الله على ما وصلوا إليه من الخير العظيم، وبمثل ذلك يذكر أهل النار، وبمثل ذلك أيضاً جاءت السنة النبوية، فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أن القرآن لم يشأ أن يعرض لقضية البعث وبيان ما هو المبعوث؟! فكيف نسي عبد الكريم هذه النصوص، وكيف نسي كذلك ما أجمع عليه علماء الإسلام من تكفير منكري البعث الجسدي؟

وما استند إليه من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ (٧٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] على أنه قول بإعادة الأرواح دون الأجساد.

وما استند إليه كذلك من قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة: ٣] على أنه قول بالبعث الجسدي فقط، أو ما استند إليه من قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيد ﴾ [ق: ٢١] على أنه قول بالبعث الروحي والجسدي.

ثم استنتج بعد ذلك من تلك النصوص أن القرآن لم يبين هذا الأمر بياناً قاطعاً بل كان قابلاً لتلك الاحتمالات في البعث، فيمكن أن يكون بالروح أو الجسد أو كليهما، لا شأن للمسلم بذلك بل عليه أن يؤمن بالبعث ثم ليكن على أي صورة كان !! لا شك أن هذا قول غير سديد.

وذلك أن الآية: ﴿ يَا أَيْتُهَا السَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ ﴾، جاء خطاباً عاماً لكل نفس، ثم لا يمكن أن يفهم منه قصر البعث على الروح وحدها، وإلا كان حكماً بلا مستند.

مع أن هذا الخطاب إنما يقال لكل نفس عند احتضارها، كما ذكر ابن جرير رحمه الله في روايته عن أبي صالح، أو بمعنى رجوع الروح إلى الجسد في يوم القيامة كما جاء عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها: "أي ترد الأرواح المطمئنة يوم القيامة في الأجساد"، وعن الضحاك: "أي يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن ترجع إلى الأجساد فيأتون الله كما خلقهم أول مرة".

وعن عكرمة: ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾: إلى الجسد، وهو ما فسره به الكلبي أيضاً (١).

وكذلك الآية: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ لا يمكن أن يفهم منه بعث العظام دون الأرواح.

قال ابن جرير في شرح معنى الآية: "يقول تعالى ذكره: أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها، بلى قادرين على أعظم من ذلك، أن نسوي بنانه وهي أصابع يديه ورجليه فنجعلها شيئاً واحداً كخف البعير أو حافر الحمار فكان لا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، ولكنه فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول، ويقبض إذا شاء ويبسط؛ فحسن خلقه»(٢).

ثم نسب هذا القول إلى ابن عباس، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.

ومعلوم أن هؤلاء لا يقولون ببعث العظام بمفردها جسماً بلا روح.

ويوضح هذا المعنى الشوكاني رحمه الله فيقول: «والمعنى أن الله سبحانه

⁽١) انظر: جامع البيان ٣٠/ ١٩١ ـ ١٩٢.

⁽٢) المصدر السابق: ٢٩/ ١٧٥.

يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق»(١). ومن ذلك يتضح أن القول الحق هو اعتقاد بعث الروح والجسد معاً لا التفرقة بينهما.

وما قدمناه من أدلة على إثبات إعادة الأرواح إلى الأجساد التي قد بليت وصارت رميماً إنما يتوجه هذا على الأجساد التي فنيت، وهناك أجساد لا تفنى تعود إليها الأرواح قد أكرمها الله ببقاء أجسادها كالأنبياء والشهداء، على خلاف في الشهداء.

ونفصل ذلك فيما يلي :

الأنبياء: فقد ورد أن أجسادهم لا تأكلها الأرض، وذلك لما روى أوس ابن أوس رضي الله عنه عن النبي عليه أنه قال: • إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فاكثروا علي من الصلاة ،فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ أي يقولون: قد بليت، قال: إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء الأنها.

وقال ابن حجر رحمه الله عند شرحه لقول رسول الله عَلَى : • كل بني آدم يبلى الاعجب النب عنه قال: قال العلماء: هذا عام يخص منه الأنبياء لأن الأرض لا تأكل أجسادهم، وألحق ابن عبد البر بهم الشهداء، والقرطبي المؤذن المحتسب. ثم قال: قال عياض: فتأويل الخبر وهو كل ابن آدم يأكله التراب، أي كل ابن آدم مما يأكله التراب، وإن كان التراب لا يأكل أجساداً كثيرة كالأنبياء "(").

⁽١) فتح القدير ٥/٣٢٦.

⁽٢) سنن النسائي ٣/ ٩١.

⁽٣) فتح الباري ٨/ ٥٥٣.

وقال ابن القيم رحمه الله :

والأنبياء فإنهم تحت الشرى أجسادهم حفظت من الديدان ما للبلى بلحومهم وجسومهم أبداً وهم تحت التسراب يدان وكذلك عجب الظهر لا يبلى بلى منه يركب خلقه الإنسان(۱) ومن الذين وجدوا بعد مدة من دفنهم لم تأكل الأرض أجسادهم: الشهداء:

فقد ورد في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنهما قال: «لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال لي: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي على ، وإني لا أترك بعدي أعز منك غير نفس رسول الله على ، وإن علي ديناً ، فاقض واستوص بأخواتك خيراً ، فأصبحنا فكان أول قتيل ، ودفن معه آخر في قبره ، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر ، فإذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه » وفي رواية : «غير هنية في أذنه» (٢).

وقال ابن حجر في الرواية الأخيرة: وهي الصواب(٢).

وقد ذكر العلماء السبب الذي جعل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء، وهو لكونهم أحياء عند ربهم يرزقون.

قال العلماء: إنما لم تأكل الأرض أجساد الشهداء لكونهم أحياء عند ربهم يرزقون كما صرح به القرآن، وثبت في الصحيح أن عمرو بن الجموح وعبد الله

⁽١) النونية ص١٦.

⁽٢) صحيح البخاري ٣/ ٢١٤.

⁽٣) فتح الباري ٣/٢١٦، ومعنى هنية: أي شيئاً يسيراً.

ابن عمرو الأنصاري دفنا في قبر واحديوم أحد، فجرى السيل عن قبرهما فحفروا عليهما لينقلا إلى مكان آخر فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فكانوا يرفعون يده عن الجرح فترجع إلى ما كانت، وذلك بعد ست وأربعين سنة من وقعة أحد(۱).

وكذلك ما ورد عن الإمام أحمد رحمه الله أنه وجد لم يتغير فيه أي شيء بعد ماثتين وثلاثين سنة من دفنه، وهو ما ذكره ابن حجر العسقلاني بقوله: «وقال أبو الحسن بن الزاغوني: كُشف قبر أحمد حين دُفن الشريفُ أبو جعفر ابن أبي موسى إلى جانبه فوجد كفنه صحيحاً لم يبل وجنبه لم يتغير، وذلك بعد موته بجائين وثلاثين سنة»(٢).

والواقع أنه لا يوجد نص صريح عن الرسول على أن الشهداء لا تأكل الأرض أجسامهم، فيحتمل أن يبقوا كذلك ويحتمل أن يفنوا بعد مدة، والله أعلم.

وفي هذا يقول شارح الطحاوية ابن أبي العز: «وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما روي في السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشرة، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة والله أعلم، وكأنه والله أعلم كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول»(٢).

⁽١) انظر: مختصر التذكرة للشعراني ص٥١٠.

⁽٢) تهذيب التهذيب ٧٦/١.

⁽٣) شرح الطحاوية ص٤٥٦.

وإذا كنا قد خرجنا عن موضوعنا الأصلي وتكلمنا عن حياة الشهداء هل تبلى أجسادهم أم لا، فإن ذلك تكميلاً للفائدة وتتميماً للبحث.

هذا ما يتعلق بالنسبة للبعث عند المسلمين، وأما الرد على الفلاسفة وإبطال حججهم في نفي البعث، فهو ما سندرسه في الصفحات الآتية:

الرد على الفلاسفة وإبطال حججهم في إنكار البعث :

وإذا كنا قد قدمنا بيان حقيقة البعث والرد على من خالف في ذلك من المشركين والملاحدة، وكنا قد ذكرنا كذلك آراء غير هؤلاء في قضية البعث وهم الفلاسفة، فإننا سنختم فيما يلي بالرد على الفلاسفة وبيان ضلالهم، ورد علماء المسلمين عليهم.

والواقع أن الذي حمل الفلاسفة على هذا المعتقد الفاسد هو إنكارهم لقدرة الله تعالى على البعث الجسماني بعد تفتت الجسد وصيرورته تراباً، مضافاً إليه عدم التفاتهم إلى الجسد وما يقع له من النعيم والعقاب، وجعلوا حصول ذلك للروح وحدها، فذهبوا إلى «أن النفس تبقى بعد الموت بقاء سرمدياً، إما في لذة لا يحيط الوصف بها لعظمها، وإما في ألم لا يحيط الوصف به لعظمها، وهم لا يجزمون ببقاء هذا الألم دائماً بل «قد يكون ذلك الألم مخلداً وقد ينمخي على طول الزمان»(۱).

ثم يقسمون تفاوت الناس بالنسبة لدرجاتهم في الألم واللذة إلى أقسام لا تنحصر، كتفاوتهم في المراتب الدنيوية ولذاتها غير المنحصرة، فيقولون:

إن اللذة السرمدية تكون «للنفوس الكاملة الزكية».

⁽۱) يرجع لهذه النصوص التي سنذكرها إلى كنتاب الإمام الغزالي اتهافت الفلاسفة ، من ص٢٨٢ ـ ٣٠٣ بتصرف في بعض الأماكن .

والألم السرمدي اللنفوس الناقصة الملطخة».

والألم المنقضي «للنفوس الكاملة الملطخة».

والنتيجة من ذلك أن السعادة المطلقة لا تنال إلا بالكمال والتزكية والطهارة، وسبيل الكمال يكون بالعلم، وسبيل الزكاء والطهر يكون بالعمل.

وبعد أن ذكر الغزالي ما قدمناه ـ بتصرف ـ شرع في بيان وجه الحاجة إلى العلم، ببيان مفاضلة الفلاسفة بين حاجة النفس إلى إدراك المعقولات والتذاذها بها، وبين الوصول إلى اللذات الجسمانية التي هي لا تساوي شيئاً في جانب إدراك اللذات العقلية، مدعين أن اللذة الكاملة هي في إدراك اللذات العقلية التى هي أشرف وأعلى من اللذات الجسمية، مستدلين على ذلك بأمرين:

أحدهما: أن حال الملائكة أشرف من حال السباع والخنازير من البهائم، وليست لها اللذات الجسمية من الشراب والأكل(١) وإنما لها لذة الشعور بكمالها وجمالها الذي خصت به في نفسها في اطلاعها على حقائق الأشياء.

والثاني: أن الإنسان أيضاً قد يؤثر اللذات العقلية على الجسمية، «وضربوا لهذا من الأمثلة بحال من يتمكن من غلبة عدوه والشماتة به، فإنه قد يهجر في سبيل الحصول على ذلك ملاذ الأنكحة والأطعمة.

وكذا لاعب الشطرنج والنرد، فإن المنتصر فيهما قد لا يحس بألم الجوع ويستمرئ اللعب طول النهار.

⁽١) في الأصل من الجمال والأكل والصحيح من الشراب والأكل كما هو ظاهر من سياق العبارة.

وكذا الرجل الذي يحب الثناء عليه، فإنه قد يهجم على عدوه ولو كانوا جمعاً غفيراً مستحقراً خطر الموت شغفاً بما يتوهمه من لذة الثناء والإطراء عليه». والنتيجة بعد هذا أن اللذات العقلية أفضل من اللذات الجسمية الدنيوية.

هذا ما يتعلق باستدلالهم على أن اللذات العقلية أفضل من اللذات الجسمية ليتوصلوا إلى أن الجسد لا قيمة له فلا يبعث ولا يحاسب ولا ينعم.

أما بالنسبة لاستدلالهم على وجه الحاجة إلى العمل والعبادة بقصد زكاء النفس فهو «أن النفس في هذا البدن مصدودة عن درك حقائق الأشياء، لا لكونها منطبعة في البدن بل لاشتغالها ونزوعها إلى شهواتها وشوقها إلى مقتضياته»، ويذكرون أنه إذا صار حب الشهوات طبيعة لتلك النفس ومات البدن على هذا المسلك، فإن نتيجة ذلك تكون مؤذية للنفس من وجهين:

أحدهما: أنها تمنعها عن لذاتها الخاصة بها وهي الاتصال بالملائكة والاطلاع على الأمور الجميلة الإلهية، ولا يكون معها البدن الشاغل فيلهيها عن التألم كما قبل الموت.

والشاني: أنه يبقى معها الحرص والميل إلى الدنيا وأسبابها ولذاتها وقد استلبت منها الآلة، فإن البدن هو الآلة للوصول إلى تلك اللذات.

ويمثلون لذلك «بحال من عشق امرأة وألف رياسة واستأنس بأولاده واستراح إلى مال وابتهج بحشمة ، فُقتلت معشوقته وعُزل عن رياسته وسبي أولاده ونساؤه وأخذ أمواله أعداؤه وسقطت بالكلية حشمته ؛ فيقاسي من الألم ما لا يخفى ، وهو في هذه غير منقطع الأمل عن عودة أمثال هذه الأمور ، فإن أمر الدنيا غاد ورائح ، فكيف إذا انقطع الأمل بفقدان البدن بسبب الموت؟».

فالنتيجة إذن للخروج عن هذا المسلك لا يكون إلا «بكف النفس عن الهوى والإعراض عن الدنيا والإقبال بكنه الجد على العلم والتقوى، حتى تنقطع علائقها عن الأمور الدنيوية وهي في الدنيا وتستحكم علاقتها مع الأمور الأخروية، فإذا مات كان كالمتخلص من سجن، والواصل إلى جميع مطالبه وهو جنته».

وهم مع ذلك يعترفون بأنه «لا يمكن سلب جميع هذه الصفات عن النفس ومحوها بالكلية فإن الضرورات البدنية جاذبة إليها، إلا أنه يمكن تضعيف تلك العلاقة»، وكنتيجة لذلك «فقد ورد الشرع في الأخلاق بالتوسط بين كل طرفين متقابلين، فيقدم ويحجم بإشارته (۱) لا باختياره، فتتهذب به أخلاقه».

قالوا: "ومن عدم هذه الفضيلة في الخلق والعلم جميعاً فهو الهالك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، ومن جمع الفضيلتين، العلمية والعملية، فهو العارف العابد وهو السعيد، ومن له الفضيلة العلمية دون العملية فهو العالم الفاسق، ويتعذب مدة ولكن لا يدوم لأن نفسه قد كملت بالعلم، ولكن العوارض البدنية لطخته تلطيخاً عارضاً، ومن له الفضيلة العملية دون العلمية فيسلم وينجو عن الألم ولكن لا يحظى بالسعادة الكاملة».

وأخيراً فقد "زعموا أن من مات فقد قامت قيامته، ثم زعموا لقصد إبطال القول بالبعث أن "ماورد في الشرع من الصور الحسية؛ فالقصد به ضرب الأمثال لقصور الأفهام عن درك هذه اللذات، فمثل لهم ما يفهمون،

⁽١) أي بالشرع.

ثم ذكر لهم أن تلك اللذات فوق ما وصف لهم».

هذه هي خلاصة آراء الفلاسفة في إنكار البعث كما ذكرها الإمام الغزالي.

وقد تصدى الغزالي للرد على تلك المزاعم ببيان الصحيح والفاسد منها، فقال إجمالاً: «ونحن نقول: أكثر هذه الأمور ليست على مخالفة الشرع، فيإننا لا ننكر أن في الآخرة أنواعاً من اللذات أعظم من المحسوسات، ولا ننكر بقاء النفس عند مفارقة البدن، ولكنا عرفنا ذلك بالشرع، إذ قد ورد الشرع - بالمعاد، ولا يفهم المعاد إلا ببقاء النفس، وإنما أنكرنا عليهم من قبل دعواهم معرفة ذلك بمجرد العقل».

ثم بين أقوالهم المخالفة للشرع ومنها:

«إنكار حشر الأجساد.

وإنكار اللذات الجسمانية في الجنة .

وإنكار الآلام الجسمانية في النار.

وإنكار وجود الجنة والنار كما وصف في القرآن».

ثم ذكر في رده على الفلاسفة حينما فرقوا بين السعادة أو الشقاوة الجسمانية والروحانية، بأنه ليس هناك مانع من تحقق الجمع بين السعادتين الروحانية والجسمانية، ثم أبطل استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِي لَهُم مِن قُرَّة أَعْيُن ﴾ [السجدة: ١٧]، على أن اللذات إنما هي روحانية فقط، بأن معنى النص الكريم هو بيان أنه لا يعلم جميع ذلك.

وكذا قوله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشره (١): معناه أن «وجود هذه الأمور الشريفة لا يدل على نفي غيرها، بل الجمع بين الأمرين أكمل، والموعود به أكمل الأمور، وهو ممكن، فيبجب التصديق به على وفق الشرع».

وأما زعمهم بأن ما ورد من أخبار اليوم الآخر إنما هي أمثال ضربت لتفهيم عوام الخلق، ولتفهيمهم النعيم الروحاني بالأمثلة المادية التي يعرفونها، فإن إبطال هذا القول ظاهر، إذ إن أخبار اليوم الآخر قد بلغت حد التواتر، وهي كذلك من الأمور الممكنة وليست من المستحيلات، وليس هناك داع يضطر المؤمن إلى أن يسلك مسلك التأويلات التي سلكها الفلاسفة بالنسبة للنصوص الصريحة في ذلك، المثبتة للنعيم الروحاني والجسماني معاً.

أما قولهم بأنه قد دل الدليل العقلي على استحالة بعث الأجساد، فهذا ليس بصحيح، بل دل الدليل العقلي على جواز ذلك، وجاء بإثباته الشرع، فوجب التصديق به.

ولإيضاح ذلك نقول: إنهم قد سلكوا في استدلالهم مسلكين وهما: المسلك الأول: قالوا: تقدير العود إلى الأبدان ثلاثة أقسام:

١ - إما أن يقال: الإنسان عبارة عن البدن والحياة التي هي عرض قائم به، كما ذهب إليه بعض المتكلمين، وأن النفس التي هي قائمة بنفسها ومدبرة للجسم فلا وجود لها، ومعنى الموت انقطاع الحياة: أي امتناع الخالق عن

قد تقدم إخراجه.

خلقها فتنعدم، والبدن أيضاً ينعدم، ومعنى المعاد: إعادة الله تعالى للبدن الذي انعدم، ورده إلى الوجود، وإعادة الحياة التي انعدمت. أو يقال إن مادة البدن تبقى تراباً، ومعنى المعاد أن يجمع ويركب على شكل الآدمي ويخلق فيه الحياة ابتداء. فهذا قسم.

٢ ـ وإما أن يقال: إن النفس موجودة وتبقى بعد الموت ويكون رد النفس إلى
 البدن الأول بجمع تلك الأجزاء بعينها. وهذا قسم.

٣ ـ وإما أن يقال: رد النفس إلى بدن، سواء كان من تلك الأجزاء أو من غيرها، ويكون العائد ذلك الإنسان من حيث أن النفس تلك النفس، وأما المادة فلا التفات إليها إذ الإنسان ليس إنساناً بها بل بالنفس.

ثم عقب الفلاسفة على تلك الافتراضات أو الأقسام الثلاثة ببطلانها فقالوا: «وهذه الأقسام الثلاثة باطلة:

أما الأول: فظاهر البطلان، لأنه مهما انعدمت الحياة والبدن فاستئناف خلقها إيجاد لمثل ما كان لا لعين ما كان، بل العود المفهوم هو الذي يفرض بقاء شيء وتجدد شيء، كما يقال: عاد فلان إلى الإنعام، أي أن المنعم باق وترك الإنعام ثم عاد إليه، أي عاد إلى ما هو الأول بالجنس ولكنه غيره بالعدد، فيكون عوداً بالحقيقة إلى مثله لا إليه.

ويقال: فلان عاد إلى البلد أي بقي موجوداً خارجاً، وقد كان له كون في البلد فعاد إلى مثل ذلك، وإن لم يكن شيء باقياً وشيئان متعددان متماثلان يتخللهما زمان لم يتم اسم العود، إلا أن نسلك مذهب المعتزلة؛ فيقال: المعدوم شيء ثابت، والوجود حال يعرض له مرة وينقطع تارة ويعود أخرى،

فيتحقق معنى العود باعتبار بقاء الذات، ولكنه رفع للعدم المطلق الذي هو النفي المحض، وهو إثبات اللذات مستمرة الثبات إلى أن يعود إليها الوجود، وهو محال.

قالوا: فإن احتال ناصر هذا القسم بأن قال: تراب البدن لا يفنى فيكون باقياً فتعاد إليه الحياة، فتقول عند ذلك: يستقيم أن يقال عاد التراب حياً بعد أن انقطعت الحياة عنه مدة، ولا يكون ذلك عوداً للإنسان ولا رجوع ذلك الإنسان بعينه لأن الإنسان إنسان لا بمادته، والتراب الذي فيه إذ يتبدل عليه سائر الأجزاء أو أكثرها بالغذاء وهو ذاك الأول بعينه، فهو هو باعتبار روحه ونفسه، فإذا عدمت الحياة والروح فما عدم لا يعقل عوده وإنما يستأنف مثله.

ومهما خلق الله تعالى حياة إنسانية في تراب يحصل من بدن شجرة أو فرس أو نبات كان ذلك ابتداء خلق إنسان، فالمعدوم قط لا يعقل عوده، والعائد هو الموجود، أي عاد إلى حالة كانت له من قبل، أي إلى مثل تلك الحالة، فالعائد هو التراب إلى صفة الحياة، وليس الإنسان ببدنه، إذ قد يصير بدن الفرس غذاء لإنسان فيتخلق منه نطفة يحصل منها إنسان، فلا يقال: الفرس انقلب إنساناً بل الفرس فرس بصورته لا بمادته، وقد انعدمت الصورة وما بقي إلا المادة.

وأما القسم الثاني: وهو تقدير بقاء النفس وردها إلى ذلك البدن بعينه، فهو لو تصور لكان معاداً أي عوداً إلى تدبير البدن بعد مفارقته، ولكنه محال، إذ بدن الميت يستحيل تراباً أو تأكله الديدان والطيور، ويستحيل ماء وبخاراً وهواء، ويمتزج بهواء العالم وبخاره ومائه امتزاجاً يبعد انتزاعه

واستخلاصه.

ولكن إن فرض ذلك اتكالاً على قدرة الله تعالى، فلا يخلو إما أن يجمع الأجزاء التي مات عليها فقط، فينبغي أن يعاد الأقطع ومجدوع الأنف والأذن وناقص الأعضاء كما كان، وهذا مستقبح لاسيما في أهل الجنة، وهم الذين خلقوا ناقصين في ابتداء الفطرة، فإعادتهم على ما كانوا عليه من الهزال عند الموت في غاية النكال، هذا إن اقتصر على جمع الأجزاء الموجودة عند الموت.

وإن جمع جميع أجزائه التي كانت موجودة في جميع عمره فهو محال من وجهين :

أحدهما: أن الإنسان إذا تغذى بلحم إنسان، وقد جرت به العادة في بعض البلاد ويكثر وقوعه في أوقات القحط، فيتعذر حشرهما جميعاً، لأن مادة واحدة كانت بدناً للمأكول وصارت بالغذاء بدناً بعد ذلك للآكل، ولا يمكن رد نفسين إلى بدن واحد.

والشاني: أنه يجب أن يعاد جزء واحد يداً وقلباً ورجلاً، فإنه ثبت بالصناعة الطبية أن الأجزاء العضوية يتغذى بعضها بفضلة غذاء بعضها، فيتغذى الكبد بأجزاء القلب، وكذا سائر الأعضاء، فنفرض أجزاء معينة قد كانت مادة لجملة من الأعضاء، فإلى أي عضو تعاد؟!

بل لا يحتاج في تقدير الاستحالة إلى أكل الناس الناس، فإنك إذا تأملت ظاهر التربة المعمورة علمت بعد طول الزمان أن ترابها جثث الموتى، قد تتربت وزرع فيها وغرس وصارت حباً وفاكهة، وتناولها الدواب، فصارت لحماً،

وتناولناها فصارت أبداناً لنا، فما من مادة يشار إليها إلا وقد كانت بدناً لأناس كثيرة، فاستحالت وصارت تراباً ثم نباتاً ثم لحماً ثم حيواناً !!

قالوا: بل يلزم منه محال ثالث، وهو أن النفوس المفارقة للأبدان غير متناهية، والأبدان متناهية، فلا تفي المواد التي كانت مواد الإنسان بأنفس الناس كلهم بل تضيق عنهم.

وأما القسم الثالث: وهو رد النفس إلى بدن إنسان من أي مادة كانت وأي تراب اتفق فهذا محال من وجهين:

أحدهما: أن المواد القابلة للكون والفساد محصورة في مقعر فلك القمر لا يمكن عليها مزيد، وهي متناهية والأنفس المفارقة للأبدان غير متناهية ، فلا تفي بها .

والثاني: أن التراب لا يقبل تدبير النفس ما بقي تراباً، بل لابد وأن تمتزج العناصر امتزاجاً يضاهي امتزاج النطفة، بل الخشب والحديد لا يقبل هذا التدبير، ولا يمكن إعادة الإنسان وبدنه من خشب أو حديد، بل لا يكون إنساناً إلا إذا انقسم أعضاء بدنه إلى اللحم والعظم والأخلاط، ومهما استعد البدن والمزاج لقبول نفس استحق من المبادئ الواهبة للنفوس حدوث نفس، فيتوارد على البدن الواحد نفسان.

وبهذا بطل مذهب التناسخ، فإن رجع إلى اشتغال النفس بعد خلاصها من البدن بتدبير بدن آخر غير البدن الأول، فالمسلك الذي يدل على بطلان التناسخ يدل على بطلان هذا المذهب. ثم يتابع الغزالي بيان مذهب الفلاسفة في إنكارهم البعث ببيان المسلك الثانى من تلك المسالك فيقول:

المسلك الثاني: إن قالوا: ليس من المقدور أن يقلب الحديد ثوباً منسوجاً، بحيث يتعمم به الإنسان، إلا بتحلل أجزاء الحديد إلى بسائط العناصر بأسباب تستولي على الحديد فتحلله إلى بسائط العناصر، ثم تجمع العناصر وتدار في أطوار الخلقة إلى أن يكتسب صورة القطن، ثم يكتسب القطن صورة الغزل، ثم الغزل يكتسب الانتظام المعلوم الذي هو النسج على هيئة معلومة، ولو قيل: إن قلب الحديد عمامة قطنية محكن من غير الاستحالة في هذه الأطوار على سبيل الترتيب كان محالاً.

قالوا: نعم يجوز أن يخطر للإنسان أن هذه الاستحالات يجوز أن تحصل كلها في أزمان متقاربة لا يحس الإنسان بطولها ؛ فيظن أنه وقع فجأة دفعة واحدة، وإذا عقل هذا ؛ فالإنسان المبعوث المحشور لو كان بدنه من حجر أو ياقرت أو در، أو تراب محض ؛ لم يكن إنساناً.

بل لا يتصور أن يكون إنساناً إلا أن يكون متشكلاً بالشكل المخصوص، مركباً من العظام والعروق واللحوم والغضاريف والأخلاط، والأجزاء المفردة تتقدم على المركبة، فلا يكون البدن ما لم تكن الأعضاء، ولا تكون الأعضاء المركبة ما لم تكن العظام واللحوم والعروق، ولا تكون هذه المفردات ما لم تكن الأخلاط، ولا تكون الأخلاط الأربعة ما لم تكن موادها من الغذاء، ولا يكون الغذاء ما لم يكن حيواناً أو نباتاً وهو اللحم والحبوب، ولا يكون حيواناً ونباتاً وهو اللحم والحبوب، ولا يكون حيواناً ونباتاً ما لم تكن العناصر الأربعة جميعاً ممتزجة بشرائط مخصوصة طويلة أكثر عا فصلنا جملتها.

فإذن لا يمكن أن يتجدد بدن الإنسان لترد النفس إليه إلا بهذه الأمور ولها أسباب كثيرة.

ثم أوردوا التساؤلات الآتية فقالوا: أفينقلب التراب إنساناً بأن يقال له كن فيكون؟ أو بأن تمهد أسباب انقلابه في هذه الأدوار؟ وأسبابه هو إلقاء النطفة المستخرجة من لبان بدن الإنسان في رحم حتى يستمد من دم الطمث ومن الغذاء مدة، ثم يخلق مضغة، ثم علقة، ثم جنيناً، ثم طفلاً، ثم شاباً، ثم كهلاً.

فقول القائل: يقال له: كن فيكون: غير معقول، إذ التراب لا يخاطب، وانقلابه إنساناً دون التردد في هذه الأطوار محال، وتردده في هذه الأطوار دون جريان هذه الأسباب محال، فيكون البعث محالاً»(١).

هذا هو مذهب الفلاسفة في قضية البعث استوفاه الغزالي كما سبق ذكره، فما مدى صحة قولهم في هذه القضية؟ وهل ترد تلك الشبه على من يقول بالبعث الجسماني والروحاني أم لا؟

والجواب سيكون بالنفي ولاشك، ذلك أن قول الفلاسفة برد النفس إلى بدن إنسان من أي مادة كانت، وأي بدن اتفق، قول يخالف ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله على ، وهو أمر يأباه العدل الإلهى.

وقد رد الغزالي على الفلاسفة في هذه القضية، فقال في الاعتراض عليهم:

«والاعتراض هو أن يقال: بم تنكرون على من يختار القسم الأخير ويرى

⁽١) تهافت الفلاسفة ص ٣٠١.

أن النفس باقية بعد الموت، وهو جوهر قائم بنفسه، فإن ذلك لا يخالف الشرع، بل دل عليه الشرع في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِيسَنَ قُتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءً عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وبقوله عليه السلام: «أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر معلقة تحت العرش».

وبما ورد من الأخبار بشعور الأرواح بالصدقات والخيرات، وسؤال منكر ونكير، وعذاب القبر وغيره، وكل ذلك يدل على البقاء.

نعم، قد دل مع ذلك البعث والنشور بعده وبعث البدن، وذلك ممكن بردها إلى بدن، أي بدن كان، من مادة البدن الأول، أو من غيره، أو من مادة استأنف خلقها، فإنه هو بنفسه لا ببدنه، إذ تتبدل عليه أجزاء البدن من الصغر إلى الكبر بالهزال والسمن، ويتبدل الغذاء ويختلف مزاجه مع ذلك، وهو ذلك الإنسان بعينه.

فهذا مقدور لله تعالى، ويكون ذلك عوداً لتلك النفس، فإنه قد تعذر عليها أن تحظى بالآلام واللذات الجسمانية بفقد الآلة، وقد أعيدت إليها آلة مثل الأولى، فكان ذلك عوداً محققاً».

ثم يتابع الغزالي إبطال حجج الفلاسفة فيقول: وما ذكرتموه من استحالة هذا بكون النفس غير متناهية، وكون المواد متناهية؛ محال لا أصل له؛ فإنه بناء على قدم العالم وتعاقب الأدوار على الدوام، ومن لا يعتقد قدم العالم؛ فالنفوس المفارقة للأبدان عنده متناهية، وليست أكثر من المواد الموجودة.

وإن سلم أنها أكثر؛ فالله تعالى قادر على الخلق واستئناف الاختراع، وإنكاره إنكار لقدرة الله تعالى على الإحداث، وقد سبق إبطاله في مسألة حدوث العالم.

وأما إحالتكم الثانية: بأن هذا تناسخ: فلا مشاحة في الأسماء، فما ورد الشرع به يجب تصديقه؛ فليكن تناسخاً، وإنما نحن ننكر التناسخ في هذا العالم، فأما البعث فلا ننكره، سمي تناسخاً أو لم يسم تناسخاً.

وقولكم: إن كل مزاج استعد لقبول نفس؛ استحق حدوث نفس من المبادئ؛ رجوع إلى أن حدوث النفوس بالطبع لا بالإرادة، وقد أبطلنا ذلك في مسألة حدوث العالم، كيف ولا يبعد على مساق مذهبكم أيضاً أن يقال: إنما يستحق حدوث النفس إذا لم تكن ثم نفس موجودة فتستأنف نفس.

فيبقى أن يقال: فلم لم تتعلق بالأمزجة المستعدة في الأرحام قبل البعث والنشور، بل في عالمنا هذا.

فيقال: لعل الأنفس المفارقة تستدعي نوعاً آخر من الاستعداد، ولا يتم سببها إلا في ذلك الوقت، ولا يبعد في أن يفارق الاستعداد المشروط للنفس الحاملة المفارقة، الاستعداد المشروط للنفس الحادثة ابتداء، التي لم تستفد كمالاً بتدبير البدن مدة، والله تعالى أعلم بتلك الشروط وبأسبابها وبأوقات حضورها.

وقد ورد الشرع به وهو ممكن؛ فيجب التصديق به».

وهذه المناقشة العملية للإمام الغزالي في تفنيد شبه الفلاسفة في تلك المسائل الغيبية قوية مقنعة، لولا أنه يرد عليه اعتراض ينبغي التوقف عنده،

وذلك في رأيه بجواز رد النفس إلى بدن إنسان كيفما اتفق، سواء كان من مادة البدن الأول أو من غيره، أو من مادة استؤنف خلقها.

فالواقع أن الصحيح الذي يفيده مفهوم القرآن والسنة خلاف هذا، وهو إثبات المعاد للجسد الأول بعينه، ورد الروح إليه بعينه، لاجسم آخر كيفما اتفق، فهذا يأباه عدل الله أن يعذب جسداً لا ذنب له، وأن يقبل كذلك شهادة أعضاء ما كانت هي الفاعلة ـ كما سيأتي إيضاح هذا في مبحث الحساب ـ.

ثم قال الغزالي في رده على الشبهة الثانية التي توصلوا بها إلى أن القول بالبعث يعد من المحال قال: «أنا نسلم أن الترقي في هذه الأطوار لابد منه حتى يصير بدن إنسان لحماً، بل لابد منه حتى يصير الحديد عمامة، فإنه لو بقي حديداً لما كان ثوباً، بل لابد وأن يصير قطناً مغزولاً ثم منسوجاً.

ولكن ذلك في لحظة أو في مدة ممكن، ولم يبين لنا أن البعث يكون في أدنى ما يقدر أن يكون جمع العظام وإنشاز اللحم وإنباته في زمان طويل، وليس المناقشة فيه وإنما النظر في أن الترقي في هذه الأطوار يحصل بمجرد القدرة من غير واسطة (١)، أو بسبب من الأسباب، وكلاهما ممكنان عندنا.

وأما الثاني: فهو أن نقول: ذلك يكون بأسباب، ولكن ليس من شرطه أن يكون السبب هو المعهود، بل في خزانة المقدورات عجائب وغرائب لم يُطلع عليها، ينكرها من يظن أن لا وجود إلا لمشاهده، كما ينكر طائفة السحر والنارنجيات والطلسمات والمعجزات والكرامات، وهي ثابتة بالاتفاق بأسباب غريبة لا يطلع عليها.

⁽١) كقول الله تعالى للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

بل لو لم ير إنسان المغناطيس وجذبه الحديد، وحكي له ذلك لاستنكره، وقال: لا يتصور جذب الحديد إلا بخيط يشد عليه ويجذب، فإنه المشاهد في الحس، حتى إذا شاهده تعجب منه وعلم أنه قاصر عن الإحاطة بعجائب القدرة.

وكذلك الملحدة المنكرة للبعث والنشور، إذا بعثوا من القبور ورأوا عجائب صنع الله فيه ندموا ندامة لا تنفعهم، ويتحسرون على جهودهم تحسراً لا يغنيهم، ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون»(١).

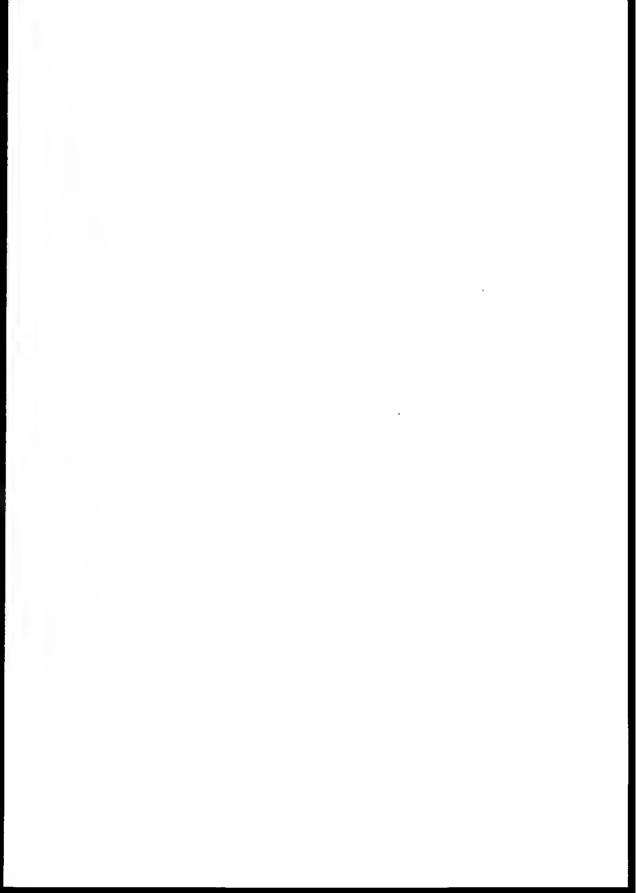
وفيما تقدم إثباته من كتاب الله تبارك وتعالى، ومن أقوال نبيه ﷺ، وأقوال علماء الإسلام ؛ ما يبطل هذا المذهب كما لا يخفى ذلك.

وقد أثبت كلام الغزالي هنا في عرض حجج الفلاسفة والرد عليهم ليكون العرض والرد من جنس كلام الفلاسفة، مع تعقب الغزالي فيما لا يتفق مع الاعتقاد الصحيح. والله الموفق.

格 格 格

⁽١) تهافت الفلاسفة ص٣٠٢.





الفصل التاسع النفخ في الصور نفخة البعث

وبعد أن انتهينا من ذكر البعث بما تقدم من ذكر الأدلة، فإن بما پنبغي معرفته أنه لا يتم البعث إلا إذا حصل أمر الله لإسرافيل بالنفخ في الصور نفخة البعث التي يتم بها قيام الناس من قبورهم، ليستقر بهم الحال في الموقف المعد لمكثهم فيه، إلى أن يقضي الله بينهم - كما سنذكر ذلك في موضعه.

ونفخة البعث هذه هي المقصودة في بحثنا من بين بقية النفخات التي نعرض لها بإيجاز لاستكمال البحث ، وقبل البدء في ذكر تلك النفخات والخلاف فيها نبين الأمور الآتية :

١ ـ ما معنى النفخ في اللغة، وفي الاصطلاح؟

٢ ـ كم عدد النفخات؟ وما الذي يحصل في كل نفخة منها؟

٣-الأدلة على إثبات النفخ في الصور من الكتاب والسنة.

١ ـ معنى النفخ في اللغة :

قال الراغب: «النفخ؛ نفخ الربح في الشيء، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ [بس: ٥١] ، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ [يس: ٥١] ، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ [الزمر: ٦٨] .

وذلك نحو قوله: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ [المدثر: ٨] ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى »(١).

وذكر الزمخشري بعض الإطلاقات التي تقال على النفخ، ومنه «نفخ في النار، ونفخ النار المنافيخ، ونفخت النار، ونفخ النار المنافيخ، ونفخت في الزق فانتفخ، ونفخت فيه فتنفخ، وهو يجد نفخة في بطنه، ونفخه انتفاخاً من طعام وغيره»(۲).

وهذه المعاني اللغوية كلها تدور حول النفخ المعروف، هو دفع الهواء.

٢ ـ أما معناه الأصطلاحي :

فهو النفخ المخصوص، في الوقت المخصوص، من الملك المخصوص؛ لإيجاد ما أراد الله تعالى، كما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه علله من أن نافخاً ينفخ في صور عظيم لإرادة الله تعالى تغيير ما يريد تغييره في خلقه لأمر القيامة.

وأما ما هو الصور؟ فمن أقوال العلماء في ذلك:

ما قاله ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ من أن الناس قد اختلفوا فيه «فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض، والثانية لنشر كل ميت.

وقال آخرون: الصور في هذا الموضع: جمع صورة، ينفخ فيها روحها

⁽١) المفردات ص٥٠٠.

⁽٢) أساس البلاغة ص٤٦٦.

فتحيا»^(۱) .

ولكنه وهو يذكر هذين القولين يرجح أن الصور قرن ينفخ فيه ؛ لقوة الأدلة على هذا ، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله على أنه قال: إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ» وأنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه »»(٢).

وقال الإمام الرازي: «المسألة الثالثة: قوله: ﴿ يَوْمَ يُسْفَخُ فِي السَّعُورِ ﴾ [الأنعام: ٧٧].

ولا شبهة أن المراد منه يوم الحشر، ولا شبهة عند أهل الإسلام أن الله سبحانه خلق قرناً ينفخ فيه ملك من الملائكة، وذلك القرن يسمى بالصور، على ما ذكر الله تعالى هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم.

ولكنهم اختلفوا في المراد بالصور في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أن المراد منه ذلك القرن الذي ينفخ فيه، وصفته مذكورة في سائر السور.

والقول الثاني: أن الصور جمع صورة، والنفخ في الصور عبارة عن النفخ في صور الموتى»(٣).

ثم أبطل الرازي هذا القول الأخير واعتبره خطأ فاحشاً من قائله، كما نقل ذلك عن أهل العلم.

وقد أيد الإمام ابن كثير ما قاله الإمام الرازي، حيث قال فيمن ذهب إلى

⁽١) جامع انبيان (٧/ ٢٤١).

⁽٢) نفس المصدر السابق.

⁽٣) التفسير الكبير (٣٤/١٣).

أن الصور هنا جمع صورة، وأن معناه: أي يوم ينفخ فيها فتحيا، قال: «والصحيح أن المراد بالصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام»(١).

وكذلك ذهب الآلوسي حيث قال عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيسه أُخْرَىٰ ﴾ [الزمر: ٦٨]: ظاهر في أن الصور ليس جمع صورة، وإلا لقال سبحانه «فيها» بدل «فيه»، وارتكاب التأويل يجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقة، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحاح».

ثم قال الآلوسي: "وقد قال أبو الهيثم - على ما نقل عنه القرطبي في تفسيره -: من أنكر أن يكون الصور قرناً، فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان، وطلب لها تأويلات»(٢).

وعلى هذا؛ فإن الصور هو قرن ينفخ فيه، وقد ورد أن الذي ينفخ فيه على التعيين هو إسرافيل عليه السلام، كما سيأتي النص عليه، ينفخ فيه النفخات التي سنذكرها.

ويتبين لنا كذلك مما تقدم في التعريف اللغوي والاصطلاحي أنهما متطابقان في المعنى، وإن كان المعنى اللغوي عاماً يشمل النفخ في الصور وغيره من أنواع النفخ، لكنه خصص في الاصطلاح بالنفخ في الصور.

٢ ـ عدد النفخات(٣) :

النفخات الواردة ثلاث، يتنير بهاكل شيء كان قبلها، وهذه

⁽١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٤٦).

⁽۲) روح المعاني (۲۰/۲۰).

 ⁽٣) ذكرت هنا أن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات اعتسماداً على حديث الصور، وفي
 ص١٧٢ الآتية ذكرت أنهما نفختان، ولا معارضة في هذا؛ إذ إن عدد النفخات ليس من _

النفخات هي:

١ _ نفخة الفزع.

٢ _ نفخة الصعق.

٣ ــ نفخة القيام من القبور لرب العالمين إلى الموقف.

والقول أنها ثلاث هو قول أكثر أهل العلم، وسنذكر الخلاف في عددها، أما نفخة الفزع، ونفخة الصعق: فإنما نذكرها استطراداً لاكتمال البحث؛ لعدم تعلق الغرض بها كما تقدم.

وقد ورد ذكر هذه النفخات الثلاث في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قال رسول الله عَنْ عنه عنه الصور ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثائثة نفخة القيام لرب العالمين تبارك وتعالى، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ نفخة الفزع؛ فتفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله.

قال أبو هريرة: يا رسول الله ، فمن استثنى حين يقول: ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النمل: ٨٧] قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم، (١٠).

وقال ابن كثير: «وفي حديث الصور أن إسرافيل هو اللذي ينفخ فيه

الأمور المتفق عليها، فمنهم من يرجح أنها ثلاث، وآخرون يرون أنهما اثنتان، وقيل أربع،
 والله أعلم بالصواب.

⁽١) ذكره الطبري (٢٤/ ٣٠) في التفسير.

بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء؛ فيفزع من في السموات ومن في الأرض الأرض الأرمن الأرض أله .

وأما النفخة الثانية : وهي نفخة الصعق :

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله على أنه قال: «ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فيقول: انفخ نفخة الصعق؛ فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا هم خامدون، (٢) الحديث.

وأما النفخة الثالثة : وهي نفخة البعث :

فإنها بداية الحياة الآخرة، يأمر الله إسرافيل فينفخ في الصور؛ فتبعث الخلائق من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

وفيها يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِحَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقد ذكر الطبري عن السدي ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ قال: في الصور، وهي نفخة البعث (٣).

* * *

⁽١) تفسير القرأن العظيم جـ٣ ص ٣٧٧.

⁽٢) ذكره الطبري (٣٠/٢٤) في التفسير.

⁽٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٣١).

الخلاف في عدد النفخات

اختلف العلماء في عدد النفخات: فمنهم من يجعلها نفختين، ومنهم يجعلها ثلاثاً، والذين جعلوها نفختين: جعلوا نفخة الصعق ونفخة الفزع نفخة واحدة، والذين جعلوها ثلاثاً: جعلوا نفخة الفزع نفخة مستقلة عن نفخة الصعق.

ونذكر فيما يلي أقوال العلماء في ذلك، وحجة من قال إنهما نفختان أو ثلاث أو غير ذلك من أقوالهم.

يقول الرازي: "واختلفوا في الصعقة: منهم من قال إنها غير الموت، بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ الأعسراف: ١٤٣]، مع أنه لم يمت، فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد، وهو المذكور في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُسَفَخُ فِي الصَّورِ فَفَزَعَ مَن فِي السَّمَواتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [النمل: ١٨] وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين.

والقول الثاني: أن الصعقة عبارة عن الموت، والقاتلون بهذا القول قالوا: إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت، وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات:

أولها: نفخة الفزع، وهي المذكورة في سورة النمل.

والثانية: نفخة الصعق.

والثالثة:نفخة القيام، وهما مذكورتان في هذه السورة»(١٠) .

وقال ابن كثير عند قوله عَلَيّه منى نفخة الفزع وما بعدها: «ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، _ قال (٢) _ وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله _ أو قال: ينزل الله مطراً كأنه الطل؛ فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى؛ فإذا هم قيام ينظرون،

قال: «الليت: هو صفحة العنق، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق».

ويقول الشوكاني: "والنفخات في الصور ثلاث: الأولى (٣): نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة البعث، ثم قال: "وقيل إنها نفختان، وأن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما، وقال الماوردي: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السسَّمَوَاتِ وَمَن فِي النَّرُضِ ﴾ [النمل: ٨٧] أي خافوا وانزعجوا لشدة ما سمعوا»(٤).

⁽١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٨).

⁽٢) راوي الحديث عبد الله بن عمرو.

⁽٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٨)، وهو في صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٩).

⁽٤) فتح القدير ٤/ ١٥٤.٥٥١.

والبرديسي بعد أن ذكر أن النفخات ثلاث قال: « وقال قوم: نفختان فقط بدليل قوله: ﴿ أُخْرَى ﴾ ، وأجابوا عن الآية: أن المراد أن يلقى عليهم الفزع حتى يصعقوا، واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿ ثُمَّ نُفِحَ فِيهِ أُخْرَى ﴾ [الزمر: ٦٨] فالأخرى لا تقال إلا للثانية ، وجرى على هذا القول البغوي، والزمخشري، والبيضاوي، وصححه القرطبي، وصحح بعضهم الأول، وقال إن الأخرى تقال للثالثة ، قال: «والأكثر أنهما نفختان»(۱).

وذكر الآلوسي الخلاف في عدد النفخات فقال: "واعلم أنهم اختلفوا في عدد النفخات، فقيل ثلاث: ففخة الصعق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨]، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مّنَ الأَجْدَاثِ إلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١]، ونفخة الفزع المذكورة في الآية المذكورة هنا» (أ).

يعني قوله تعالى: ﴿ فَفَرْعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ وذكر أن هذا هو اختيار ابن العربي (٣) .

ثم قال: «وقيل: اثنتان، ونفخة الفزع هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين: الفزع بمعنى الحوف، والصعق بمعنى الموت، لا زمان لها»(؛).

والقرطبي ممن ذهب إلى أنهما نفختان فقط لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «ثم ينفخ في الصور، فأول من يسمعه رجل يلوط حوضه؛ فيصعق، ثم

⁽١) تكملة شرح الصدور ص٤.

⁽۲) روح المعاني (۲۱/۲۰).

⁽٣) المصدر السابق.

⁽٤) المصدر السابق.

يصعق الناس، ثم ينفخ فيد أخرى فإذا هم قيام ينظرون،(١).

فهذا الحديث يدل فيما يذهب إليه القرطبي أن النفخ مرتان لا ثلاثاً، ثم قال: «وهو الصحيح»(٢) أي وتكون نفخة الفزع هي نفخة الصعق بعينه لاتحاد الاستثناء في آيتيهما(٢).

وقال الآلوسي عن رأي القرطبي المذكور: «وتعقب... بأنه لا دلالة في الحديث على عدم النفخة الثالثة (٤) ، غايته أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكت عنها، ولا يلزم من ذلك عدمها، وكذا لا دلالة في اتحاد الاستثناء في الآيتين أن يكون المذكور فيهما نفخة واحدة، وهذا ظاهر.

ثم قال: والصحيح عندي ما في القول الأول من أن نفخة الفزع غير نفخة الصعق؛ فإن حديث الصحيحين «لا تخيروني من بين الأنبياء؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أوجزي بصعقة الطور». صريح في أن الصعق يوم القيامة، وأن لا موت فيه فهو فزع بلا موت (٥)، فمن قال هي ثلاث نفخات؛ نفخة الفزع، ثم نفخة الصعق، وهو الموت، ثم نفخة البعث، فقد أصاب في التفرقة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق، إلا إنه لم يصب في زعمه أن

⁽١) المصدر السابق.

⁽٢) المصدر السابق.

⁽٣) المصدر السابق.

⁽٤) أي الفزع.

⁽٥) وهذا يحصل في الموقف ، كما سيأتى.

نفخة الفزع قبل نفخة الصعق^(١).

كيف وقد دل حديث الصحيحين المذكور على عموم حكم نفخة الفزع للأنبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفخة الصعق أي الموت».

ثم نقل عن القاضي عياض قوله: «إن نفخة الفزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرض، وعلى هذا فإن النفخات تكون أكثر من ثلاث، وهو ما نص عليه بقوله:

"فظهر أن النفخات ثلاث، بل أربع، نفخة يميت الله تعالى جميع الخلق بها ـ كما جاء في الحديث، وعند ذلك ينادي سبحانه ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ بها ـ كما جاء في الحديث، وعند ذلك ينادي سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَ وَجُهَهُ ﴾ [غافر: ١٦]، وينادي على ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَ وَجُهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨].

ونفخة البعث ـ كما نطق به قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي السَّوْرِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِهِمْ يَسَلُونَ ﴾ [يس: ٥١] ، ونفخة الصعق وهي نفخة الفزع بعينها، وقد سمعت آيتيهما، ونفخة للإفاقة كما قال تعالى بعد ذكر نفخة الصعق ﴿ ثُمَّ نُفِحَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]. ثم قال: «وقد عرفت ما في زعم أن نفخة الصعق هي نفخة الفزع بعينها؛ فتدبر "(٢).

قال الآلوسي: «وتعقبه بعضهم بأنه يلزم حينتذ على القول بالمغايرة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق أن تكون النفخات خمساً، ولم نسمع متنفساً يقول

⁽١) هذا بناء على أن نفخة الفزع هي التي تحدث بعد نفخة الصعق وبعد نفخة البعث والخلائق كلهم أحياء، وهذا القول لا يتفق مع قول من يجعل نفخة الفزع هي التي تحصل في آخر عمر الدنيا.

⁽۲) روح المعاني (۲۰/ ۳۱_۳۲).

بذلك، وأيضاً فيه القول بأن نفخة الصعق بعد نفخة البعث، ويأباه قوله عَلَيْهُ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأرفع رأسي؛ فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش، فما أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله تعالى،

فإن انشقاق الأرض عنه على الله بعد نفخة البعث لا محالة ، فإذا عقبه رفع رأسه على المعلى المعلى

وسيأتي بيان توجيه العلماء لهذا الحديث.

ومما تقدم نقله يتبين لنا الأمور الآتية :

١ ـ أن أكثر العلماء على أن النفخات ثلاث؛ نفخة الفزع، والصعق،
 والبعث على القول الراجح.

٢ - أن نفخة الفزع هي النفخة الأولى، ثم تتبعها نفخة الصعق، وأن
 بعضهم قد خالف في هذا جاعلاً نفخة الفزع ونفخة الصعق بمعنى واحد، أو
 جعلها ضمن نفخة البعث.

٣-أن القول بأن نفخة الفزع قبل نفخة الصعق هو ما ذهب إليه كثير من العلماء، وبعضهم يخطئ من يذهب إلى هذا، كما ذكر ابن الكمال والقاضي عياض، كما نقل عنه الألوسي قوله في نفخة الفزع: بأنها تكون بعد النشر حين تنشق السموات والأرض، وهذه النفخة غير نفخة الفزع الأولى التي تقع في آخر عمر الدنيا.

⁽١) روح المعاني (٢٠/ ٣٢)، والحديث في صحيح البخاري (٦/ ٤٤١).

٤ ـ القول بتعدد النفخات إلى أكثر من ثلاث ـ كما نقله الألوسي عن القاضي
 عياض ـ ليس عليه نص ثابت .

وإن من ذهب إلى أنها أكثر من ثلاث يقول: «نفخة الموت لجميع الخلق، ونفخة البعث، ونفخة الصعق وهي نفخة الفزع بعينها، ونفخة الإفاقة، وأنه قد تعقب هذا القول بأنه يلزم من القول بالمغايرة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق أن تكون النفخات خمساً؛ أي نفخة الموت، ونفخة البعث، ونفخة الصعق، ونفخة الفزع، ونفخة الإفاقة، وهذا قول قد رده العلماء.

القول بأن نفخة الصعق تكون قبل نفخة البعث؛ هو ما ذهب إليه كثير من العلماء؛ بناء على أن نفخة الصعق التي تكون بعد البعث هي نفخة خاصة تحصل عند نزول الله لفصل القضاء، لا نفخة الصعق التي تعقب النفخة الأولى نفخة الفزع.

وذهب بعضهم إلى القول بأنَّ جَعْل نفخة الصعق بعد نفخة البعث يأباه قوله عَلَيْ : «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأدفع رأسي، إلخ . . . الحديث كما ذكره الألوسي؛ فإن العلماء قد أجابوا عن هذا الحديث . والحديث الآخر الذي يعارضه، وهو قوله عَلى: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور، يقولهم: إن هذا الصعق المذكور في الحديث يراد به الصعق الحاصل في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنور ربها، في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنور ربها، فحيننذ يصعق الحلائق كلهم، وإن هذه الرواية هي المحفوظة، وأما الرواية فحيننذ يصعق الحلائق كلهم، وإن هذه الرواية هي المحفوظة، وأما الرواية

الأولى فإن الراوي لها أدخل حديثاً في حديث؛ حيث أدخل الرواية الأولى على الثانية فنشأ الإشكال.

قال العلامة ابن أبي العز رحمه الله بعد أن ذكر الرواية الأولى والرواية الشائية قال: «قيل لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث؛ فركب بين اللفظين؛ فجاء هذان الحديثان هكذا:

أحدهما : إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق كما تقدم، .

والثاني : «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر.

ثم قال ابن أبي العز "وعن نبه على هذا أبو الحجاج المزي، وبعده الشيخ شمس الدين ابن القيم، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير رحمهم الله، وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال: «فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عزوجل».

والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة؛ لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربهم يوم القيامة ، ثم قال ابن أبي العز: "فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله"(1).

⁽١) الطحاوية ص ٤٦٨.٤٦٧.

وقال البرديسي: "قال شيخنا في شرح عقيدة الرسالة (١): وهذه الصعقة ليست صعقة الموت، بل هي صعقة ثالثة تقع للناس يوم القيامة إذا تجلى الله للفصل بين العباد يوم المعاد، وهو المشار إليها بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور: ٤٥]»(٢).

學 學 袋

⁽١) الرسالة القشيرية.

⁽٢) تكملة شرح الصدور ص١٢.

٣ ـ الأدلة على إثبات النفخ في الصور :

١ ـ الأدلة من القرآن الكريم على إثبات النفخات في الصور:

ذكر الله سبحانه وتعالى عدة آيات في إثبات أن النفخ في الصور العظيم يحصل حينما يأمر الله بذلك، حسب ما يريد سبحانه من تغيير، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم هذا النفخ في أكثر من آية، مما يدل على أهميته ومدى خطورته.

لكي يدرك أولئك الهاربون عن ربهم وهم لا يعجزونه أن هذه الحياة التي قد غرتهم ليست بشيء، فهي تنتهي بنفخة واحدة، فإذا بها كأن لم تكن بالأمس.

نفخة واحدة فإذا بالفزع قد بلغ من كل نفس منتهاه، ونفخة أخرى فإذا هم أجساد بلا أرواح، ثم نفخة ثالثة فإذا هم قيام ينظرون، فأي قدرة هذه، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عن ربه واغتر بقوته، ونسي أنه يموت بنفخة، ويحيا بنفخة، رغم هذا التعالي الذي قذ ملاً رأسه وجميع مشاعره.

وسنذكر فيما يلي مصداق ما قدمنا من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه عَنْكُ .

والـواقـع أن الله تعالى قد ذكر النفخ في الصور فيما يقارب اثني عشر موضعاً في كتابه الكريم، ونذكر من تلك الآيات:

١ _ قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمُ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ

مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧].

٢ ﴿ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفخَ فَيه أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قَيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

٣ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي السَّصُورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
 وَاحَدَةً ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].

٤ _ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١].

٥ _ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٩٩].

٦ _ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢].

٧_ ﴿ يَوْمُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ: ١٨].

٨ ﴿ فَإِذَا نُفِحَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:
 ١٠١].

٩ _ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٠].

١٠ ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وهذه الآيات وغيرها تدل دلالة واضحة ليس بعدها خفاء على حتمية وقوع النفخ في الصور .

وسنتبع ذلك بذكر أدلة أخرى من السنة النبوية فيما يأتي:

٢ _ الأدلة من السنة على إثبات النفخ في الصور:

رأينا كبيف اهتم القرآن الكريم بذكر النفخ في الصور، وكيف كرره.

لتقريره وتثبيته في النفوس ـ في أكثر من آية، وبين سبحانه وتعالى نتيجة كل نفخة وما يحصل بسببها من التغيير الهائل .

وبعد ذكر تلك الآيات التي تدلنا على مدى أهمية تلك النفخات ومدى عناية القرآن الكريم بذكرها، يجب معرفة أنه قد جاءت السنة النبوية فبينت كذلك هذا الأمر العظيم، واعتنت بذكره عناية شديدة، فتكرر ذكره في أكثر من حديث، كما نتبين ذلك من عرض الأحاديث الآتية :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار؛ فقام فلطم وجهه وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي على أظهرنا؟

فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمة وعهداً، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لم لطمت وجهه؟ فذكره؛ فغضب النبي تَلَّ حتى رؤي في وجهه، ثم قال: «لا تفضلوا بين أولياء الله، فإنه ينفخ في الصور؛ فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي؟،(١).

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة الا تخييروني على ميوسى، فبإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله؟،(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عَلَيْ قال: وإني أول من يرفع رأسه بعد

⁽١) البخاري (٦/ ٤٥١)، ومسلم (٤/ ١٨٤٤).

⁽٢) مسلم (٤/ ١٨٤٤).

النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة؟،(١١).

وقد قدمنا ذكر حديث عبد الله بن عمرو وتخريجه (٢) .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ [المدثر: ٨]، قال: قال رسول الله عَلى : •كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ، فقال أصحاب محمد على : كيف نقول؟ قال: •قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا، (٣). وأخرجه كذلك الترمذي عن أبي سعيد (١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي عَلَيْ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه»(د).

فهذه النصوص صريحة في إثبات الصور، ونفخ إسرافيل فيه النفخات المذكورة، ومنها النفخة الثالثة وهي نفخة البعث.

قال ابن كثير: فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض؛ فيقول الله تعالى: «وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد فتدخل في الخياشم، ثم تمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ، ثم تنشق الأرض عنكم، (1).

⁽١) البخاري (٨/ ٥٥١).

⁽٢) وقد تقدم شرحه.

⁽٣) أخرجه أحمد (٢/١٦).

⁽٤) الترمذي (٤/ ٦٢٠)، وقال: حديث حسن.

⁽٥) الترمذي (٢/ ٦٢٠)، وقال: «هذا حديث حسن»، وأخرجه أبو داود (٦/ ٥٣٧).

⁽٢) النهاية لاين كثير (١/ ٢١٧).

ويقول السفاريني: «قال المفسرون: المنادي هو إسرافيل عليه السلام، ينفخ في الصور وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء»(١).

ثم بعد هذا يساقون إلى الموقف ليقع فيه ما سنذكره عند بحث الموقف.

مقدار ما بين النفختين:

وعلى القول بأنهما نفختان، أي نفخة الفزع والصعق، ونفخة البعث (٢)، فإن بينهما أربعين يوماً أو سنة أو شهراً، حسب ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي على قال: وما بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق، (٢).

وسبب امتناع أبي هريرة عن التعيين: أنه ليس عنده الجزم بالتعيين.

قال ابن حجر: «وزعم بعض الشراح أنه وقع عند مسلم ادبعون سنة، ولا وجود لذلك».

وذكر روايات أخرى في التحديد وضعفها، كرواية التحديد بأربعين سنة، أو أربعين جمعة (١٠). وقال عن الأخيرة: إنها منقطعة.

⁽¹⁾ لوامع الأنوار (٢/ ١٦٦).

⁽۲) انظر تكملة شرح الصدور ص١١.

⁽٣) البخاري (٨/ ٥٥١)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠، ٢٢٧١).

⁽٤) فتح الباري (٨/ ٥٥٢).

وذكر القرطبي أن الحليمي قال: «اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين سنة، وذلك بعد أن يجمع الله تعالى ما تفرق من أجساد الناس»(١).

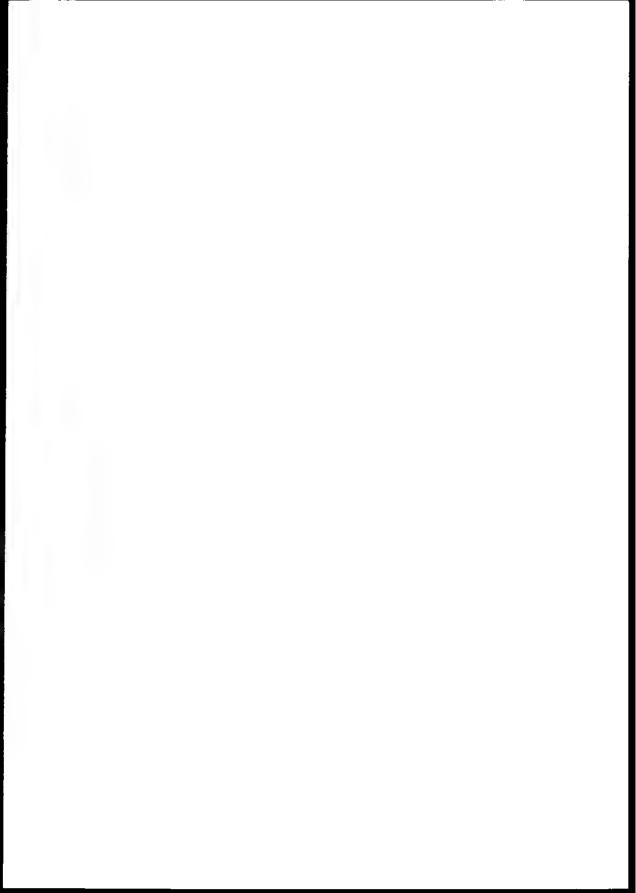
وذكر البرديسي ـ تبعاً للسيوطي ـ أن بين النفختين أربعين سنة من سني الدنيا(٢) .

وقد سبق رد ابن حجر على مثل هذا القول.

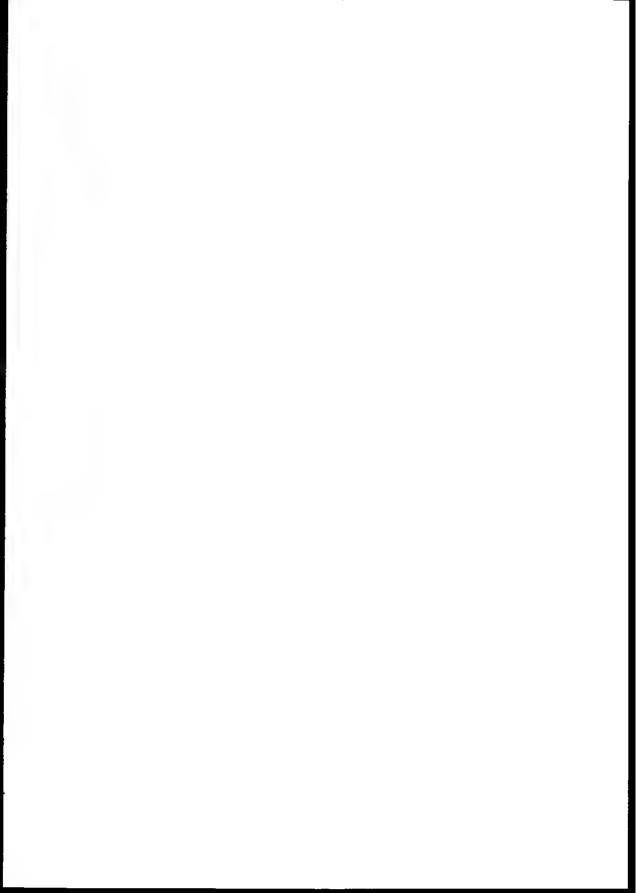
掛 格 格

⁽١) التذكرة ص١٨٤.

⁽٢) تكملة شرح الصدور ص٩.



```
901
           3
                                                     ....
000as
                                                     ....
                       الفصيل العاشر
00000
                                                     ....
....
                                                     10000
A 390.
                                                    ****
@#0s.
                                                    110000
         صفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى
Ø 300.
                                                    ****
....
                                                    ****
@ Dos.
                                                    ....
A 300.
                                                    ....
                            ١ ـ حشر الخلق حفاة عراة غرلاً.
# 63*:
                                                    .....
D30 ..
                                                    .....
                     ٢ ـ حشر الكفار يسحبون على وجوههم.
Gaos.
                                                    ****
1000 m
                                                    ....
                                     ٣. حشر المتكبرين.
6400.
                                                    60000
                                                    ....
Aaa.
                                     ١٠٥٥٠٠ ٤ حشر السائلين.
000m.
                                                    14900
                               ۱۹۵۵ ٥ ـ حشر أصحاب الغلول.
8000
09000
                                                    .....
                  ۱۰۰۰ ٦ - حشر أهل الوضوء أهل الغرّة والتحجيل.
A 400.
613a.
                                                    ....
30am
                                     ٧. حشر الشهداء.
                                                    14000
A-1-1-
                                                    ....
800m.
                                                    10400
199%
                                     ...
                                         ***
                                            1000
                      ۱
                              ٠
                                8
                                   à
                                              ð
```



الفصل العاشر صفة حشر الخلق وأنهم على صور شتى

حينما يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين يساقون إلى المحشر(١) لفصل القضاء، ولتجزى كل عامل ما يستحق من الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ولكن كيف يكون مجيئهم للحشر؟

والجواب: قد بينت السنة النبوية الهيئات التي يأتي بها الخلائق، وهي هيئات وحالات مختلفة؛ إما حسنة، وإما قبيحة، بحسب ما قدموا من خير، وشر، وإيمان، وكفر، وطاعة ومعصية، فتزود لها بالعمل الصالح.

ومن تلك الهيئات الأمثلة الآتية:

ا _ ما أخبر به على عن حالة الناس عند حشرهم لفصل القضاء - مؤمنهم وكافرهم - من أنهم يكونون في هيئة واحدة ، لا عهد لهم بها في الدنيا ، ولا يتصورون حدوثها ، ولهذا فقد كثر التساؤل والاستغراب لتلك الحالة

⁽۱) ذهب البرديسي إلى أن مكان الحشر هو أرض الشام، مستدلاً بما أخرج البزار في مسنده من حديث أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله علله : «الشام أدض المحشر والمنشر، أي المقعة التي يجتمع الناس فيها إلى الحساب وينشرون من قبورهم ثم يساقون إليها، ثم ذكر سبب دلك وهو أنها الما يما خصت به لأن الأنبياء بعثوا منها ؛ فانتشرت في العالم شرائعهم، فناسب كونها أرض المحشر».

تكملة شرح الصدور ص١٦. و الله أعلم بحقيقة ذلك.

حينما أخبر بها الرسول ﷺ .

كما في الحديث الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال: رسول الله عَلَيْهُ: وتحشرون حفاة عراة غرلاً، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: والأمر أشد من أن يهمهم قاك، (١).

ومعنى حفاة: أي تمشون على أرجلكم دون نعلِ أو خف.

والعاري: هو من لا ثوب له على جسده، والأغرل: هو الذي لم يختتن، أي إن البشر يرجعون كهيئتهم يوم ولدوا، حتى إن الغرلة ترجع وإن كان قد اختتن صاحبها في الدنيا؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أُوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقد ورد هذا المعنى في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي على يخطب فقال: «إنكم محشورون حفاة عراة، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أُوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾،(٢).

٢- يحسر بعض الناس (وهم الكافرون) وهم يسحبون في المحشر على وجوههم، وكم يستغرب كثير من الناس هذه الحال؛ لأنهم في الدنيا لم يعرفوا تلك الحال، ولم يتصوروا وقوعها، ومع أنها حالة غريبة لكنها غير منفية لاعقلا ولا نقلا.

فأما العقل فإنه لا ينفي وقوعها، وذلك إذا علمنا أن قدرة الله على

⁽١) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٥)، ومسلم (١٥٦/٨). وبنحوه أخرجه النسائي (١١٥/٤).

⁽٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٥).

كل شيء أمرٌ هين، فإن الذي أمشى هؤلاء على الرجلين له القدرة على أن يمشيهم على وجوههم؛ بل لو أراد الله ذلك لحصل في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

ومصداق ما قدمنا ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ كـمـا في الصحيحين ـ أن رجلاً قال: يا نبي الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: وأليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة: بلى وعزة ربنا(١).

قال ابن حجر في بيان معنى المشي المذكور في الحديث: قوله. «اليس الذي أمشاه الخ» الخ» ظاهر في أن المراد بالمشي حقيقته ؛ فلذلك استغربوا حتى سألوا عن كيفيته (٢).

ثم رد على الذين يزعمون أن هذا هو مثل ضربه النبي على بأن: "الجواب الصادر عن النبي على خقيقته"، أي فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره.

ومعلوم أن أمر الآخرة وأحوالها غير أمر الدنيا وأحوالها، فكل شيء في الآخرة جديد ولا عهد للناس به، فهي حياة أخرى لها مميزات وكيفيات لا توجد في الدنيا، وليس على الله بعزيز في أن يمشي الكافر على وجهه، إذ لو أراد الله ذلك في الدنيا لكان حاصلاً فيها، ولكان أمراً مألوفاً كما هو الحال في المشي على الرجلين.

أخرجه البخاري (٧/ ١٩٤)، ومسلم (٨/ ١٣٥).

⁽٢) فتح الباري (١١/ ٣٨٢).

ولله تعالى فوق هذا كله حكم قد ندركها، وقد لا ندركها، فإن الكافر في الدنيا كان ذا عتو واستكبار، يمشي على رجليه متبختراً معتزاً بنفسه، لا يحني رأسه لشيء غير هواه، فلا يعرف التواضع لله في شيء، بل كان يستنكف من السجود لربه والخضوع له.

وهذا ما ذهب إليه ابن حسجر في بيان حكمة هذا المشي حين قال: «والحكمة في حشر الكافر على وجهه: أنه عوقب على عدم السجود الله في الدنيا؛ بأن يسحب على وجهه في القيامة؛ إظهاراً لهوانه، بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات»(۱).

وكثرة النصوص في هذا الموضوع تمنع كونه من باب التمثيل، فهو إذاً على حقيقته فلا ينبغي تأويله، بالإضافة إلى أنه من الأمور الممكنة عقلاً، وليست من قبيل المستحيلات على الله تعالى كما سبق.

٣ ـ حشر المتكبرين:

ومن الأوصاف الأخرى التي وردت في السنة لحشر فثات من الناس، صنف من الناس يحشرون في أحقر صفة وأذلها، وهؤلاء هم المتكبرون.

فلأنهم في الدنيا يمشون في كبرهم وتبخترهم على الناس، عالية رؤوسهم عن التواضع لله أو لخلقه، هؤلاء المستكبرون ورد في صفة حشرهم عن رسول الله علله ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله علله قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان (٢) الحديث.

⁽١) فتح الباري (١١/ ٣٨٢).

⁽٢) صححه الترمذي (٤/ ٢٦٥٥، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه: عن النبي عَلَظَةً قال: «يبعث الله يوم القيامة ناساً في صور الذر؟ القيامة ناساً في صور الذر؟ في صور الذر؟ فيقال: هؤلاء المتكبرون في الدنيا، (١١) .

وهذه الحالة المخزية تناسب ماكانوا فيه في الدنيا من تعاظم وغرور بأنفسهم، لأنهم كانوا في الدنيا يتصورون أنفسهم أعظم وأجل المخلوقات؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أحقر المخلوقات وأصغرها.

٤ ـ حشر السائلين:

ومن الصور الأخرى التي تشاهد في يوم القيامة صور أولئك السائلين الذين يسألون الناس وعندهم ما يغنيهم، يأتون يوم القيامة وفي وجوههم خموش أو كدوح، أو يأتون وليس في وجوههم مزعة لحم، يعرفهم الناس كلهم.

وهذا ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي عَلَيْهُ: ما يزال الرجل يسأل الناس؛ حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم، (٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله على : «من سأل وله ما يغنيه ؛ جاءت خموشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة، (٣) والجزاء من جنس العمل.

والمزعة هي: «بضم الميم وحكي كسرها وسكون الزاي بعدها مهملة: أي قطعة»، «وقال ابن التين: ضبطه بعضهم بفتح الميم والزاي».

قال ابن حجر: «والذي أحفظه عن المحدثين الضم».

قال المنذري (٤/ ٣٨٧): رواه اليزار.

⁽٢) صحيح البخاري (٣/ ٣٣٨).

⁽٣) أخرجه النسائي (٩٧/٥).

ومعنى الحديث: «قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطاً لا قدر له ولا جاه، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه، لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء، لكونه أذل وجهه بالسؤال، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله؛ فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به».

والمعنى الأول الذي ذكره الخطابي تأويل للحديث بغير معناه، ولهذا قال ابن حجر: «والأول صرف للحديث عن ظاهره».

وإن كان قد ورد ما يؤيده، وهو ما أخرجه الطبراني والبزار من حديث مسعود بن عمرو مرفوعاً ولا يزال العبد يسأل وهو غني؛ حتى يخلق وجهه؛ فلا يكون له عند الله وجه،

(وقال ابن أبي جمرة: معناه: أنه ليس في وجهه من الحسن شيء، لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم، ومالَ المهلّبُ إلى حمله على ظاهره).

ثم ذكر أن السر في ذلك هو «أن الشمس تدنو يوم القيامة ، فإذا جاء لا لحم بوجهه ؛ كانت أذية الشمس له أكثر من غيره » قال يعني المهلب .: «والمراد به: من سأل تكثراً وهو غني لا تحل له الصدقة ، وأما من سأل وهو مضطر فذلك مباح له فلا يعاقب عليه »(١) .

د حشر أصحاب الغلول^(۲):

ومن المشاهد كذلك: مشهد أقوام يأتون حاملين أثقالاً على ظهورهم، كالبعير والشاة وغيرهما، وهؤلاء هم أهل الغلول، فإنهم يحشرون في هيئة

⁽١) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٣٩).

 ⁽۲) الغلول: له معان كثيرة، إلا أن المرادبه هنا: الأخذ من بعض الغنائم على سبيل الخفية،
 انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

تشهد عليهم بالخيانة والغلول أمام الخلق أجمعين، فمن غل شيئاً في حياته الدنيا ولم يظهره؛ فسيظهره الله عليه يوم يبعث، يكون علامة له، وزيادة في النكاية وتشهيراً بجريمته يحمل ما غل على ظهره.

ومصداق هذا ما جاء في كتاب الله عزوجل حيث قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلُ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمَ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١](١) .

قال قتادة في معنى الآبة: «كان النبي على إذا غنم مغنماً؛ بعث منادياً: ألا لا يغلن رجل مخيطاً فما دونه، ألا لا يغلن رجل بعيراً؛ فيأتي به على ظهره يوم القيامة له رغاء، ألا لا يغلن رجل فرساً؛ فيأتي به على ظهره يوم القيامة له حمحمة».

وما جاء في السنة النبوية كما في حديث أبي مسعود الأنصاري قال: «بعثني النبي عَلَيْهُ ساعياً، ثم قال: انطلق أبا مسعود، لا ألفينك يوم القيامة تجيء وعلى ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته، قال: إذاً لا أنطلق، قال: إذاً لا أكرهك»(٢).

وسنذكر مزيد بيان لهذا في مبحث الحساب.

والخلاصة : أن من مات على عمل بعث عليه .

قال البرديسي في شرح حديث جابر رضي الله عنه: أن رسول الله تَلَيْهُ قَال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه».

قال: «أي على الحالة التي مات عليها من خير أو شر؛ فالزامر يأتي يوم

 ⁽١) تفسير ابن جرير الطبري (٤/ ١٦١).

⁽۲) أخرجه أبو داود (۲/ ۱۲۲).

القيامة بجزماره، والسكران بقدحه، والمؤذن يؤذن، ونحو ذلك «(١).

٦ ـ حشر أهل الوضوء، أهل الغرة والتحجيل:

وإذا كان من قدمنا ذكرهم كانوا أمثلة سيئة لمن يعمل أعمالهم، فإنه في الجانب الآخر نجد من يتسم بالصفات الحميدة، ولهذا فإنه يبعث حميداً عليه سيما أهل الصلاح والتقوى، سيما أمة محمد على الغرة والتحجيل بسبب آثار الوضوء.

وهي كرامة من الله تعالى لأوليائه وأحبائه، كما قال على في حديث أبي هريرة: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»(٢).

وكما قال عَلَيْهُ في الحديث الذي رواه عبد الله بن بسر عن رسول الله عَلَيْهُ أنه قال: وأمتي يوم القيامة غر من السجود محجلون من الوضوء، (").

٧-حشر الشهداء:

ومن المشاهد الأخرى: مشهد لأقوام يحشرون ودماؤهم تسيل عليهم، وهم الشهداء، فإنهم يحشرون ودماؤهم تسيل كهيئتها يوم جرحت في الدنيا، تفجر دماً، كما ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله ثم تكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تفجر دماً، اللون لون دم والعرف عرف المسك، إلى آخر الحديث (1).

⁽١) تكملة شرح الصدور ص١٢

⁽٢) أخرجه البخاري (٣/١)، وقوله افمن استطاع . . . ا إلى آخر الحديث مدرج من كلام أبي هريرة .

⁽٣) أخرجه الترمذي (٥٠٦/٢)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبد الله بن بسر.

⁽٤) أخرجه مسلم (٤/ ٥٤٠)، والترمذي مع اختلاف في بعض الألفاظ (٤/ ١٨٤)، وبنحوه عند النسائي (٦/ ٢٥).

وهذا إكرام لهم وبيان لمزاياهم، وتشهيراً بمواقفهم وعلو مقامهم عند الله تعالى، لأن الجزاء من جنس العمل.

قال النووي: «وأما الكلم-بفتح الكاف وإسكان اللام-فهو الجرح، ويكلم-بإسكال الكاف-أي يجرح» قال: «وفيه دليل على أن الشهيد لا يزول عنه الدم بغسل ولا غيره، والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى»(١).

ويلخص البرديسي أحوال البشر في مجيئهم إلى الموقف فيقول: « واعلم أن الناس يحشرون يومئذ على ثلاثة أصناف: ركباناً، ومشاة، وعلى وجوههم. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى السرَّحْمَنِ وَقُدًا (٢٠٠٠ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦٠٨].

ثم قال: الوف في اللغة: القوم المكرمون، يفدون من بلادهم في جماعتهم إلى ملكهم؛ فينزلون ويكرمهم، والورد: العطاش، يساقون كما تساق الإبل وغيرها من الأنعام، فتسوقهم الملائكة بأسياط النار إلى النار، وقوم يمشون على وجوههم.

وقال بعضهم: إذا قام الناس من قبورهم لفصل القضاء؛ حضروا على أحوال مختلفة: فمنهم من يكسى، ومنهم من يحشر عرياناً، ومنهم راكبًا، ومنهم ماش، ومسحوب على وجهه، ومنهم من يذهب إلى الموقف راغباً، ومنهم من يذهب خاتفاً، ومنهم من تسوقه النار سوقاً»(۲).

⁽١) صحيح مسلم (٤/ ٥٤١).

⁽٢) تكملة شرح الصدور ص١٨.

وقوله: "ومنهم راكباً"؛ هذه المسألة مما أكثر فيه المؤلف الكلام عنها، وإن كان القول بأن الناس يأتون ركباناً يخالف ما ثبت في الصحيح من أنهم يأتون "حفاة عراة غرلاً"، إلا أن المؤلف جمع بين أقوال من ذهب إلى أنهم يأتون ركباناً، وبين هذا النص وما جاء في معناه بقوله:

«ثم إن الروايات التي فيها الركوب في المحشر تخالف حديث الصحيحين أن الناس يحشرون حفاة عراة، ولا يبعد أن يكون الركوب في المحشر لبعض السعداء، فيكون حديث الصحيحين محمولاً على بعض الصور»(١).

ونكتفي هنا بما قدمنا من الأمثلة لبيان اختلاف الناس وتباينهم عند المحشر، وإن كانت هناك صور أخرى سنذكرها إن شاء الله في باب الحساب.

وقد اتضح مما تقدم عرضه من الأحاديث - أنها إضافة إلى إثبات البعث وأنه أمر واقع لابد منه - أن المبعوثين يكونون على كيفيات مختلفة حسب أعمالهم التي قدموها في دار الدنيا، وأنهم يأتون إلى الموقف أصنافاً شتى، وعلى هيئات غريبة لم ير مثلها في الدنيا.

فهذا يسحب على وجهه بدلاً من المشي على رجليه؛ لأن جزاءه هو هذه الحال التي هي أحط ما يكون من الخزي والهوان.

وذاك يحشر في أذل ما يكون؛ يحشر في صورة حقيرة يدوسها الناس بأقدامهم وهم في صور الرجال؛ يغشاهم الذل من كل مكان؛ لأن جزاءهم المناسب هو جعلهم في هذه الحال الحقيرة.

⁽١) تكملة شرح الصدور ص ١٨.

وهناك فريق آخر من الناس يأتون إلى الموقف وفي وجوههم خموش أو كدوح، أو يأتون وليس في وجوههم مزعة لحم؛ لأنهم لم يصونوها في الدنيا؛ فعاقبهم الله في الآخرة بما يناسب أعمالهم السيئة.

ومن الناس من يأتي ودمه يسيل من جسده طرياً كأنما جرح في ساعته تلك؛ إكراماً له، وإظهاراً لشرفه وفضل عمله الذي قدمه في الدنيا.

إلى آخر ما ورد من الصفات والمشاهد مما ذكر في الأحاديث الشريفة واستفاضت بها الروايات.

恭 恭 崇

مسائل

١- الدكمة في إعادة الخلق غرل :

عرفنا فيما مضى أن الناس يبعثون على هيئات مختلفة، حفاة عراةً غرلاً، والحفاة والعراة معروفون، والأغرل: هو الذي لم يختتن.

وهنا يعرض سؤال وهو: ما الحكمة التي لأجلها يعاد بنو آدم غرلاً، من اختتن منهم ومن لم يختتن؟

الظاهر من كلام الإمام ابن القيم أنه يرى أن تلك الغرلة التي حدثت فيهم لم تكن في وقت قيامهم من القبور، وإنما حدثت بعد ذلك، وعلى فرض أنهم بعثوا كذلك فإن تلك الغرلة لا يلزم أن تكون معهم دائماً، بل يحتمل أن تبقى ويحتمل أن تزول؛ إذ ليس هناك نص يقطع هذا الاحتمال.

قال ابن القيم في ذلك ما نصه: «لما وعد الله سبحانه وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة ؛ كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأ عليها من تمام أعضائه وكمالها .

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أُوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الانبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿ كُمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وأيضاً فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون؛ فليس هناك نجاسة تصيب الغرلة فيحتاج إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه.

هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها، فإنهم يبعثون حفاة عراة بهما، ثم يكسون، ويمد خلقهم ويزاد فيه، بعد ذلك يزاد في خلق أهل الجنة، وأهل النار.

وإلا ، فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم، وهيئاتهم، وأحوالهم؛ فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كه شاء.

وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول؟ يمكن هذا وهذا، ولا يُعلم بخبر يجب المصير إليه، والله سبحانه وتعالى أعلم الله المعلم ال

وهنا يعرض سؤال آخر وهو: هل تتغير الأجسام في المحشر أو في الجنة؟ قال البرديسي فيما ينقله عن شرح الجوهرة:

«الناس في الموقف يكونون على حالتهم التي خلقوا عليها، فإذا دخلوا الجنة دخلوها جرداً مرداً أبناء ثلاث وثلاثين، على عظم آدم، طول كل واحد ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع، لا يزيدون ولا ينقصون، لا يأكلون لجوع، ولا يلبسون لبرد؛ بل للتلذذ والتنعم»(٢).

قال: «وأما أجسام الكفار فمختلفة المقادير، حتى ورد أن ضرس الكافر مثل أحد، وفخذه مثل ورقان، جبلان بالمدينة»(٣).

ونشير هنا إلى مسألة ظهرت في هذا الزمان في عالم الطب: وهي قضية

⁽١) تحفة المودود ص١٦٣ ـ ١٦٤.

⁽۲)، (۳) تكملة شرح الصدور ص۳۸.

زرع القلوب، فقد أصبح إجراء هذه المسألة أمراً عادياً في البلاد الغربية، والبلاد الأخرى.

هل هذه الأعضاء التي أخذت من جسم وزرعت في جسم آخر ؛ هل ستعاد عند البعث إلى الجسم الأول أم إلى الجسم التي زرعت فيه؟

والذي يظهر أنها ستعاد إلى صاحبها الأول، كما سيعاد العضو التالف الذي أخذ من المريض يعاد إليه؛ فيعاد كل عضو إلى صاحبه. والله أعلم.

وهنا مسألة ثالثة: «وهي أن بعض الناس يولدون بعاهات، ويبقون بها إلى الممات، كمن يولد بغير عينين ويبقى كذلك، أو كمن يولد بغير يدين أو رجلين ويبقى كذلك، فكيف يعاد هذا؟ هل يعاد كما مات من غير أعضائه الناقصة أم يعطى أعضاء جديدة مثل ما نقص منه؟

والجواب :

أن الظاهر من قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ أنه يعاد كما كان عليه، ثم ينشئ الله تبارك وتعالى له الأعضاء التي تكمله. والله أعلم.

نقسراً في بعض الجرائد ونسمع في بعض الأخسسار عن عسجسائب في مخلوقات الله تعالى منها:

١ ـ أن أشخاصاً يولدون تواثم متحدين.

فإذا وجد الأطباء أن لكل واحد قلباً مستقلاً أجريت له عملية انفصال، وكثيراً ما يبقى على قيد الحياة، وأما إذا وجد الأطباء أن القلب واحد؛ فيبقى على ما هو إلى الممات لعدم استطاعة فصله عن توأمه الآخر، فكيف تكون النشأة الآخرة؟ هل العودة تكون بالاتصال أو بالانفصال؟

والله تعالى يقول: ﴿ كُمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ .

٢ ـ كذلك تذكر الجرائد أن بعض المواليد ولدوا برأسين، أو بأربعة أرجل، أو بأربعة أيد، ثم أجريت لبعضهم عمليات الاستئصال هذه الزوائد، فكيف تكون العودة؟

والجواب :

أن هذه المسألة وسابقتها بما لم يتضح الجواب فيها والله تعالى أعلم بذلك.

٢ _ بعث الموتى في أكفانهم:

تفيد الأحاديث الصحيحة المتعددة أن الناس يبعثون حفاة عراة غرلاً لا شيء معهم، وأجسادهم عارية عن كل شيء، وهذا هو الثابت في الصحيحين وغيرهما، ولكن قد وردت بعض روايات أخرى تفيد أن الناس يبعثون في ثيابهم التي ماتوا فيها.

ومن ذلك :

ما أخرجه الإمام أبو داود عن أبي سعيد الخدري، أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها، ثم قال: سمعت رسول الله قلة يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها، (١).

وقد أخرج الإمام أبو داود هذا الحديث مترجماً له بقوله «باب: ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت».

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا: أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن كثير حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح أخبرني سعد بن هانئ عن عمرو بن

⁽۱) سنن أبي داود (۲/ ۱٦۹).

الأسود قال: أوصاني معاذ بامرأته وخرج؛ فماتت، فدفناها؛ فجاءنا وقد رفعنا أيدينا من دفنها؛ فقال: في أي شيء هيأتموها؟ قلنا: في ثيابها، فأمر بها فنبشت، وكفنها في ثياب جدد، وقال: أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها»(۱).

وهاتان الروايتان تعارض ـ كسما هو ظاهر ـ تلك الروايات التي قدمنا ذكرها، والتي تفيد أن الناس يبعثون عراة حفاة غرلاً.

وفي الجمع بين تلك الروايات أجاب البيهقي رحمه الله عن ذلك بشلاثة أجوبة فقال:

أحدها : أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم، فإذا وافوا الموقف يكونون عراة، ثم يكسون من ثياب الجنة.

الشاني: أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون ثم من بعدهم على مراتبهم ؛ فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه، ثم إذا دخلوا الجنة ألبسوا من ثياب الجنة.

الشالث: أن المراد بالثياب ها هنا الأعمال؛ أي يبعث في أعماله التي يوت فيها من خير وشر، قال الله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقُوعَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾.

وقال: ﴿ وَثِيَابُكَ فَطَهِّر ﴾ قال قتادة: عملك فأخلصه (٢) .

ولعل الأرجح من تلك الأجوبة هو الجواب الثالث، وهو ما يشهدله حديث عائشة رضي الله عنها الذي استشهد به بهذا الموضوع، وحديث

⁽١) ذكره ابن كثير في النهاية (١/ ٢٨٨). وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

⁽٢) ذكره ابن كثير في النهاية (١/ ٢٨٨). وعزاه إلى البيهقي.

أم سلمة الواردين في الصحيح في قصة الجيش الذي يغزو الكعبة، ثم يخسف الله بهم جميعهم بما فيهم المكره، ثم يبعثهم الله على نياتهم.

فقد قال عَلَيْ في حديث أم سلمة: «ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته، (۱). وقال عَلَيْ في حديث عائشة: «يبعثهم الله على نياتهم، (۲).

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله حديث بعث الموتى في أكفانهم مترجماً له بقوله: «الإنسان يبعث يوم القيامة في ثياب عمله من خير أو شر»(").

وهذه الترجمة تشعر برأيه في معنى الحديث، وأنه ليس المراد به بعث الميت في الكفن الذي دفن فيه، وإنما المراد بعثه في ثياب عمله من خير أو شر.

٣ ـ هَل نُحشر بقية المخلوقات غير الجن والإنس؟

قد دلت الآيات والأحاديث على أن الجن والإنس سيحشرون، ويجازون بأعمالهم؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهذا أمر معلوم كما قدمنا، ويبقى سؤال وهو: هل المخلوقات الأخرى غير الجن والإنس تحشر أم لا؟

والبسواب: أن هذه المسألة مما وقع فيها الخلاف بين العلماء، فذكر البرديسي:

١ _ أن بعضهم ذهب إلى القول بأنها تحشر ؛ لظاهر حديث «حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء،(٤) .

⁽١) صحيح مسلم (٥/ ٧٣١).

⁽٢) المصدر السابق ص٧٣٣.

⁽٣) النهاية (١/ ٢٨٨).

⁽٤) مسلم (١٩/٨)، والترمذي (٤/ ٦١٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

٢ - وذهب بعضهم إلى القول بأنها لا تحشر ؟ لأنها لا تحاسب. . . وإليه نحا الأقفهسي (١) .

وقد اختلف النقل عن ابن عباس:

قال القرطبي: «فروي عن ابن عباس أن حشر الدواب والطير موتها».

وقال الضحاك: وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر وتبعث. قاله أبو ذر، وأبو هريرة، وعمرو بن العاص، والحسن البصري وغيرهم. قال القرطبي: وهو الصحيح (٢).

وقد استدل القائلون بأنها تحشر بأدلة كثيرة من القرآن والسنة.

أما من القرآن الكريم فمنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّة فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرِ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاامِمُ أَمْثَالُكُم مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمُّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥].

٣ - وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِن دَابَةً وهُو عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

وأما ما استدلوا به من السنة: فمنها ما روي عن أبي ذر: أن رسول الله على كان جالساً وشاتان تقترنان، فنطحت إحداهما الأخرى؛ فأجهضتها، قال: فضحك رسول الله على ، فقيل: له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال: «عجبت لها، والذي نفسى بيده ليقادن لها يوم القيامة، (٣).

⁽١) انظر: تكملة شرح الصدور ص١٤.

⁽٢) التذكرة ص ٣٢٩.

⁽٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله عَلَيَّ : «ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا، (١)

قال القرطبي: ذكر ابن وهب أخبرني ابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن بكر بن سوادة أن أبا سالم الجيشاني حدثه أن ثابت بن طريف استأذن على أبي ذر فسمعه رافعاً صوته يقول: أما والله لولا يوم الخصومة لسؤتك، قال ثابت فدخلت فقلت: ما شأنك يا أبا ذر؟ قال: هذه، قلت: وما عليك إن رأيتك تضربها؟ قال: والذي نفسي بيده ـ أو نفس محمد بيده ـ لتسألن الشاة فيما نطحت صاحبتها، وليسألن الجماد فيما نكب أصبع الرجل».

وروي عن شعبة عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: رأى رسول الله عليه شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر، تدري فيم تنتطحان؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: لكن الله يدري ويقضي بينهما يوم القيامة».

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: إذا كان يوم القيامة؛ مدت الأرض مد الأديم، وحشر الجن والإنس والدواب والوحوش، فإذ ان ذلك اليوم؛ جعل الله القصاص بين الدواب، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء تنطحها، فإذا فسرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها: كوني تراباً، فيراها الكافر فيقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ: ٤٠].

وذكر عبد الكريم الإمام أبو القاسم القشيري في التحبير له، فقال: وفي خبر الوحوش والبهائم تحشر يوم القيامة، فتسجد لله سجدة؛ فتقول الملائكة: ليس هذا يوم سجود، هذا يوم الثواب والعقاب. وتقول البهائم: هذا سجود شكر؛ حيث لم يجعلنا الله من بني آدم.

⁽١) المسند (٢/ ٣٩٠).

ويقال إن الملائكة تقول للبهائم: لم يحشركم الله جل ثناؤه لشواب ولا لعقاب، وإنما يحشركم تشهدون فضائح بني آدم.

وهذه الروايات قد ذكرها الإمام القرطبي في تذكرته(١) وقبال: إنهبا أخيار ثلبتة .

وهنه الروايات مع ما تقدم من الآيات تفيد القطع بحشر البهائم كسائر التخلين، إلا أنها تستوفي قصاصها في الموقف، وليس لها جنة ولا نار كما هو معلوم؛ بل تكون تراباً، ولهذا فإن الكافر يقول: يا ليتني كنت تراباً.

وقد ذهب كثير من العلماء إلى هذا الرأي؛ وهو القول بحشر جميع الحيواتات، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما البهائم فجميعها يحشرها الشميحانه وتعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، ثم ذكر الأدلة على هذا، وهي الآيات السابقة، إلى أن قال: «والأحاديث في ذلك مشهورة، فإن الشاعزوجل يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض، ثم يقول لها كوني تراباً؛ فتصير تراباً، فيقول الكافر حينئذ: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنستُ تُرَاباً ﴾

ومن قال إنها لا تحيا؛ فهو مخطئ في ذلك أقبح خطأ؛ بل هو ضال أو كافره الله .

ويستدل ابن كثير رحمه الله على حشر بقية الحيوانات بما سبق من الآيات وطالأحاديث التي تدل على انتصاف البهائم بعضها من بعض، وبحديث

⁽١) التذكرة ص٢٣٣-٢٣٢. وانظر الباب الثامن المبحث الحساب، الفصل الحادي عشر العدل الله تعالى في القصاص بين الحلق، ذكر الأدلة من السنة.

⁽۲) الفتاري (۲/۸۶۲).

صاحب الغلول ثم قال: «فهذه الأحاديث مع الآيات فيها دلالة على حشر الحيوانات كلها»(١).

وسنعرض بعض الأدلة على ذلك أيضاً في باب الحساب.

وقد فسر أبو هريرة وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص قوله تعالى في شأن الكافر يوم القيامة، وتمنيه أن يكون تراباً، أنه يقول ذلك حينما يشاهد عدل الله تعالى بين الحيوانات، ثم يقول لها: كوني تراباً؛ فإنه يتمنى عند ذلك أن يكون مصيره كمصيرها ويخلص مما ينتظره من العذاب والحزي(٢).

ولقد ذكرنا هذه المسألة وإن لم تكن في موضوعنا إتماماً للبحث، ولما فيها من الفوائد التي تتعلق بالموضوع جملة.

٤- دفع تعارض :

وردت في القرآن الكريم آيات تفيد أن الله تعالى يسلب الكفار أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم؛ فيكونون صماً بكماً عمياً يوم القيامة عند حشرهم.

ووردت آيات تفيد أن الكفار يبصرون ويسمعون ويتكلمون.

أما مثال النوع الأول: فمثل قول الله تعالى:

١ ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُو الْمُهْتَد وَمَن يُضْلُلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِه وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقَيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبَكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

⁽١) النهاية (٢/١١٣).

⁽٢) انظر: التذكرة ص٣٢٩.

٢ - ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذَكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقَيَامَة أَعْمَىٰ (١٢٤)
 قَالَ رَبَ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنسيتَهَا وَكَذَلِكَ أَلْيَوْمٌ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

ومثال النوع الثاني قوله تعالى :

١ _ ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨].

٢ _ ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَطَنُّوا أَنَّهُم مُّوا قِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].

٣_قالوا: ﴿ رَبُّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ [السجدة: ١٢].

ووردت كذلك آيات تفيد أن الكفار لا يحاسبون، ووردت آيات أخرى تفيد أنهم يحاسبون.

ومن أمثلة النوع الأول:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذُ لِأَ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

ومن أمثلة النوع الثاني قوله تعالى:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٦].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنسْأَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٩٢].

فهل بين تلك الآيات تعارض؟

الجواب: ليس بين آيات الله تعالى تعارض، ولا يمكن أن يكون في كلام الله تعارض، ومن لم يعرف المراد من مدلول تلك الآيات يظن أن بينها

تعارضاً، ومعتقد هذا لا شك في كفره.

وقد أجاب العلماء عن ذلك: بأن الناس عند البعث لا يكونون على حالة واحدة من وقت بعثهم إلى وقت تفرقهم إلى الجنة أو النار؛ بل هناك مواقف عديدة وأحوال مختلفة يجتازها الناس.

وهناك من الأحوال: حالة البعث من القبور؛ وفي هذه الحالة يكون الكفار كاملي الحواس والجوارح، فهم يتعارفون، ويتخافتون، وينظر بعضهم إلى بعض، ويتكلمون؛ بنص القرآن.

ومثل تلك الحال: حالة حشرهم إلى موقف الحساب، قال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٣٣) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٣٣) وَقَفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْتُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٤].

وكذلك أيضاً حالة محاسبة الله لهم، فإنهم عندها يكونون في كامل حواسهم وجوارحهم؛ ليسمعوا ما يقال لهم وما يوجه إليهم، وليقرءوا ما في كتبهم من الحسنات والسيئات، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار يوجهون اللوم إلى جوارحهم؛ من أسماعهم وأبصارهم وجلودهم قائلين لهم: لم شهدتم علينا؟ وإلا، فكيف يعقل محاسبة أعمى أصم أبكم؟ ولكن في حالة حشرهم وسوقهم إلى جهنم يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَسُوهُمْ عُمْنًا وَسُمًا مَّأُواهُمْ جَهَنَم ﴾ [الإسراء: ٩٧].

ففي هذه الحالة يسلب الله الكفار أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم؛ زيادة في التنكيل بهم وشدة الأمر عليهم.

أما في حال الخلود في النار والمكث فيها؛ فإنهم إذا انطلقوا من الموقف

إلى النار ـ وهم في حالة سلب الله إياهم الأسماع والأبصار والألسنة ـ فإنهم إذا أوصلوا إلى النار؛ رد الله إليهم تلك الحواس؛ ليشاهدوا جهنم وما أعد الله لهم من العذاب فيها، فهم ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ السَّذُلَ يَسْطُرُونَ مِن طَرْف خَفي ﴾ [الشورى: ٤٥]، ويتكلمون قائلين: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُودُ وَلا نُكَذَبُ بَاللَّهُ وَلَا نُكَذَبُ اللَّهُ وَلَا نُكَذَبُ اللَّهُ وَلَا نُكَذَبُ اللَّهُ وَالمُومِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحدث هناك خصام وتخاطب بين أولاهم وأخراهم: ﴿ كُلَمَا دَخَلَتْ أُمَّةً لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَوُلاءِ أَصْلُونَا لَعَنَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَوُلاءِ أَصْلُونَا فَاتَهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ التَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويعترفون بالسنتهم حينما يسألهم خزنة جهنم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿ قَالُوا اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩].

ويستغيثون بأهل الجنة قائلين لهم: ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ثم يستغيثون بمالك ويستشفعون به إلى ربهم في إهلاكهم قائلين له: ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فلا يجدون عنده إلا الجواب الشديد: ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيتوسلون بخزنة جهنم يقولون لهم: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم يُخفَفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩]، فيجيبونهم بقولهم - توبيخاً وتقريعاً لهم -: ﴿ أَو لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالِ ﴾ [غافر: ٥٠].

فإذا انتهى الأمر إلى خلودهم في النار؛ كانوا فيها لا يسمعون شيئاً ولا يسمع منهم إلا الزفير ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]. لأن الجزاء من جنس العمل، فهم في الدنيا كانوا لا يسمعون الحق ولا يحبون أن يسمعوه، فعاقبهم الله بأن سلب أسماعهم (١١).

وقد أجاب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عن هذا بثلاثة أجوبة فقال: الوجه الأول:

واستظهره أبو حيان: أن المراد بما ذكر من العمى والصم والبكم؛ حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم؛ فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بماحكى الله تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني:

أنهم لا يرون شيئاً يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه.

وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي أيضاً عن الحسن، كما ذكره الآلوسي وغيره، وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به» . . . إلخ.

الوجه الثالث:

أن الله إذا قال لهم: ﴿ اخْسَنُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾؛ وقع بهم ذلك العمى والصم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج، قال تعالى: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴾، وعلى هذا القول؛ تكون الأحوال الخمسة مقدرة، أعنى قوله في طه: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾، وقوله فيها:

⁽١) انظر: التذكرة للقرطبي ص٢٠٥.

﴿ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعَمْمَىٰ ﴾ ، وقوله في الإسراء ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكُمًا وَصُمًّا ﴾ ، وأظهرها عندي الأول() .

وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قول الله تعمالي: ﴿ هَٰذَا يُومُ لا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥].

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١].

وقوله: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقوله: ﴿ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢].

فقال ابن عباس: "ويحك يا ابن الأزرق، إنه يوم طويل، وفيه مواقف؟ تأتي عليهم ساعة لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يكون ما شاء الله يحلفون ويجحدون، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم، وتؤمر جوارحهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا، وذلك قوله: ﴿ وَلا يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا ﴾ (").

وقد أجاب بمثل هذا الجواب عبد الله بن عمرو بن العاص حين سئل عن قبول تعالى عن العالم عن أن يوم القيامة له حالات وتارات؛ في حال لا ينطقون، وفي حال ينطقون» (٣).

وكذلك المساءلة: فإنها تكون في مواطن خاصة، وفي مواطن أخرى لا يسألون.

⁽١) انظر: أضواء البيان ٤/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

⁽٢) انظر: فتح الباري ٢١/ ٦٨٦.

⁽٣) نفس المرجع السابق.

قال القرطبي: «القيامة مواطن: فموطن يكون فيه سؤال وكلام، ومواطن لا يكون ذلك، فعلا يتناقض الآي والأخبار »(١). وقال عكرمة: «القيامة مواطن: يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها »(١).

وقال ابن عباس: «لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ؛ لم عملتم كذا وكذا؟»(٣).

وقد قيل كذلك إن نفي السؤال لهم يراد به: أنهم لا يسألون سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي إن الملائكة لا تحتاج إلى سؤال أحد عن دينه ؛ بل يعرفونهم بعلاماتهم الظاهرة على وجوههم: من الفرح والسرور والبياض، أو سواد الوجوه وزرقة العيون والعبوس والهم والحزن، وهذا خاص بيوم القيامة (1).

ويضاف إلى هذا جواب آخر بالنسبة إلى بعض الآيات التي تنص على السؤال والآيات الأخرى التي تنفي السؤال، وهو: أن السؤال قد ينصب على بعض الخلق من الكفار دون بعضهم؛ فالعتاة منهم كإبليس وفرعون وهامان فهؤلاء لا يسألون؛ بل يساقون إلى جهنم ورداً، أو تتخطفهم جهنم حينما يرونها؛ فهم اللقمة السائغة للعنق الذي يخرج من النار.

وأما السؤال لبعض الكفرة؛ فهم الذين دون ذلك عمن لم يكونوا بمنزلة الأولين، فهؤلاء يسألون تحقيقاً للعدالة الإلهية.

⁽١) التذكرة ص ٣٤٤.

⁽٢) نفس المرجع السابق.

⁽٣) التذكرة ص ٣٤٤.

⁽٤) المصدر السابق ص٣٤٥.

فوائد

١ ـ أول من يحشر من الخلق :

اختلف العلماء في أول من يحشر من الخلق؛ هل هو نبينا محمد الله أو غيره من الأنبياء مثل موسى عليه السلام؟

والصحيح في ذلك: أن نبينا على هو أول من يحشر؛ حيث تنشق عنه الأرض قبل كل مخلوق؛ لقوله على : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، (۱) .

فهو أول الناس يحشر، وأول الخلق تنشق عنه الأرض ، لا غيره من البشر.

قال البرديسي: «وأما أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فنبينا محمد علله ال

ونقل عن شارح الجوهرة قوله: «وأول من يحيا ويحشر نبينا ﷺ، لا موسى على الأصح»(٢).

٢_وأماأول من يكسى من الخلق:

فقد ورد في حديث ابن عباس أن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هو أول من يكسى يوم القيامة ، وذلك في قوله على : ،وإن أول الخلائق

⁽١) أخرجه مسلم ١٣٦/٥.

⁽٢) تكملة شرح الصدور ص١٢.

يكسى يوم القيامة إبراهيم.

وهذا يدل على أن الخلائق يخرجون من القبور دون كسوة كلهم، ثم يكسى بعد ذلك من أراد الله كسوته من أصفيائه، وهذا يعارض ما ورد في حديث أبي سعيد، وما جاء أيضاً عن معاذ بن جبل؛ من أن الأموات يبعثون في ثيابهم التي كفنوا فيها.

وقد جمع الإمام ابن حجر بين هذه الأحاديث «بأن بعضهم يحشر عارياً، وبعضهم كاسياً، أو يحشرون كلهم عراة، ثم يكون أول من يكسى الأنبياء، فأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر ؛ فيحشرون عراة، ثم يكون أول من يكسى إبراهيم.

وحمل بعضهم حديث أبي سعيد على الشهداء؛ لأنهم الذين أمر أن يزملوا في ثيابهم ويدفنوا فيها، فيحتمل أن يكون أبو سعيد سمعه في الشهيد فحمله على العموم.

وممن حمله على عمومه معاذبن جبل؛ فأخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن عن عمرو بن الأسود قال: «دفنا أم معاذبن جبل، فأمر بها فكفنت في ثياب جدد وقال: أحسنوا أكفان موتاكم، فإنهم يحشرون فيها»، قال: وحمله بعض أهل العلم على العمل» إلخ ما أورده ابن حجر(١).

وقد أكثر العلماء من الإجابة حول اختصاص إبراهيم عليه السلام

⁽۱) فتح الباري (۱۱/ ۳۸۳)، وقد أورد ابن كثير هذه الرواية ـ كما تقدم ـ على أنها واردة في حق امرأة معاذ، وأوردها ابن حجر على أنها واردة في أمه، ولم أجد من ينبه على هذا، فقد يحتمل أن تقع الحادثتان معاً لأمه وامرأته، وقد يكون الصحيح أنها أمه فكتبها بعضهم امرأته.

بالكسوة قبل نبينا محمد على ، فهل يكون المراد أن إبراهيم هو أول من يكسى على الإطلاق قبل نبينا محمد على الم أن هناك أمراً آخر لم يبين في الحديث، وأن نبينا على قد كان في ذلك الوقت قد كسي ؛ لأن تقديم إبراهيم في الكسوة يشعر بأنه أفضل من نبينا محمد على ، فهل هنا مفاضلة ؟

أجاب العلماء عن هذه المسألة بأنه: «لا يلزم من تخصيص إبراهيم عليه السلام بأنه أول من يكسى أن يكون أفضل من نبينا عليه الصلاة والسلام مطلقاً».

هذا ما أجاب به العلامة ابن حجر، ثم ظهر له أن هناك احتمالاً آخر، وهو: «أن يكون نبينا عليه الصلاة والسلام خرج من قبره في ثيابه التي مات فيها، والحلة التي يكساها حينئذ من حلل الجنة خلعة الكرامة، بقرينة إجلاسه على الكرسي عند ساق العرش، فتكون أولية إبراهيم في الكسوة بالنسبة لبقية الخلق».

أما الحليمي فإنه يرى أن الخبر يجب أن يمر على ظاهره دون اللجوء إلى التعليل؛ إلا ما يرى من نفاسة حلة نبينا على ، فقد أجاب بقوله: «بأنه يكسى أولا، ثم يكسى نبينا على ظاهر الخبر، لكن حلة نبينا على أعلى وأكمل؛ فتجبر نفاستها ما فات من الأولية»(١).

ويذكر القرطبي في حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة أقوالاً للعلماء منها:

١ ـ أنه لم يكن ـ من الأولين والآخرين ـ لله عزوجل عبد أخوف من إبراهيم

⁽١) فتح الباري ١١/ ٣٨٥.

عليه السلام، فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه.

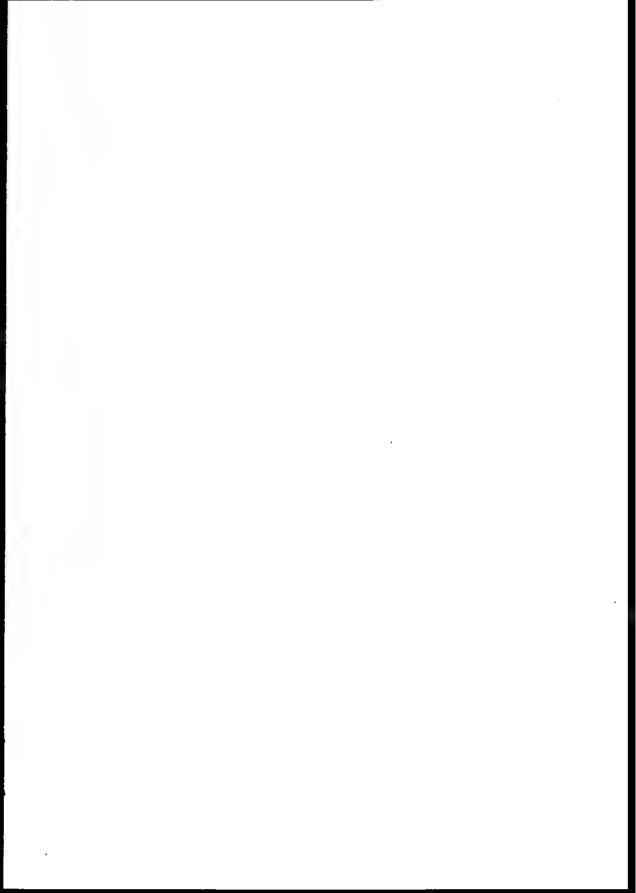
- ٢ ـ وذكر أيضاً أنه تعجل له كسوته لاحتمال أن يكون ذلك لما جاء به الحديث
 من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى ؛ مبالغة في التستر وحفظاً
 لفرجه من أن يماس مصلاه .
- ٣-أو لاحتمال أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس . كما يفعل بمن يراد قتله . . وقال بأن هذا الاحتمال أحسن الأقوال .

وقال البرديسي: «ومن حديث عائشة: أول من يكسى إبراهيم، أي أول من يكسى إبراهيم، أي أول من يكسى -بعدما يحشر الناس كلهم عراة، أو بعد تناثر ثيابهم التي ماتوا فيها وخرجوا من قبورهم - إبراهيم؛ فيكسى من حلل الجنة، أي بعد نبينا محمد (١) عَلَيُهُ ؛ لأنه جرد في ذات الله حين ألقي في النار فجوزي بذلك (٢) .

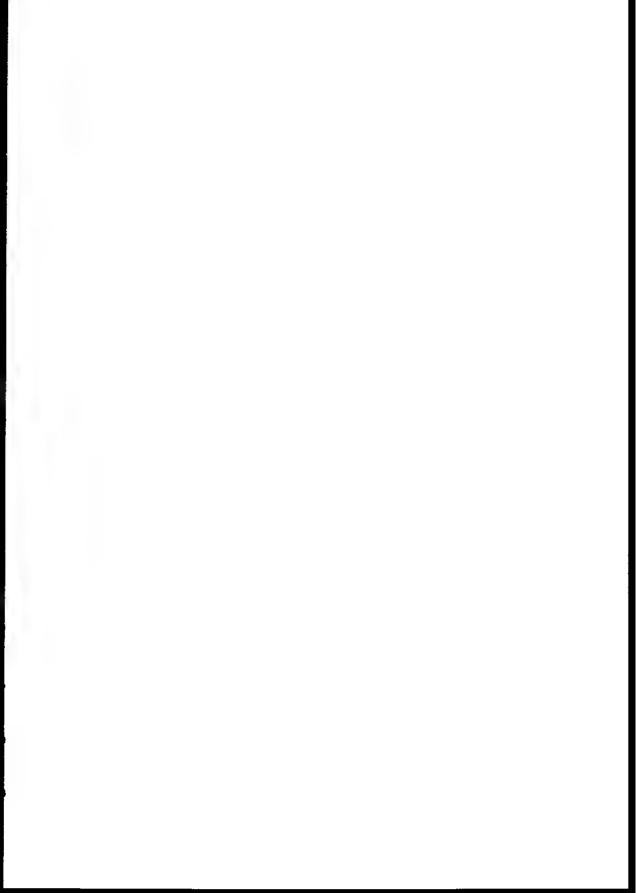
* * *

⁽۱) وقد سبق تقرير أن أول من يكسى هو إبراهيم، ولعل البسرديسي يريد أن الرسول محمد على هو أول من يلبس من حلل الجنة لا أنه أول من يلبس من البشر.

⁽٢) تكملة شرح الصدور ص ١٢.







الفصل الحادي عشر الموقف

تعريفه في اللغة :

الموقف في اللغة: المكان الذي يقف فيه الإنسان.

قال الراغب: «وموقف الإنسان حيث يقف»(١).

وقال الفيروزأبادي: «وقف يقف وقوفاً: دام قائماً»(٢) .

وقال أيضاً: «والموقف محل الوقوف»(٣).

اما معناه في الأصطلاح :

فهو المكان الخاص الذي أعده الله تبارك وتعالى لحشر الناس لحسابهم وفصل القضاء بينهم.

* * *

⁽١) المفردات ص٥٣٠.

⁽٢)، (٣) القاموس المحيط (٣/٢١٢).

صفة حالة الناس وهم في الموقف

- ١ ـ تمهيد.
- ٢ . صفة ذلك في القرآن الكريم.
 - ٣ ـ صفة ذلك في السنة النبوية.
- عليها الخلق.
 - وبيان الخلاف في أرض المحشر.
 - ٥ ـ مدة وقوف الخلق في الموقف.
 - ١ ـ ما جاء في القرآن الكريم.
 - ٢ ـ ما جاء في السنة النبوية.

صفة حالة الناس وهم في الموقف

نەھىد :

إذا انتهى الناس إلى الموقف الذي أعده الله تبارك وتعالى مكاناً لاجتماع خلقه فيه، وشرفه جل وعلا بنزوله فيه لفصل القضاء بين عباده؛ فإن الخلق يكونون فيه على ما لا يتصور ولا يدرك كنهه من القلق والخوف العظيم، وقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة أوصافاً كثيرة لهذا الموقف العظيم.

فالشمس فوق رؤوسهم، والعرق قد بلغ من كل واحد قدر عمله، حتى إن منهم من يلجمه إلجاماً، وهم وقوف حفاة عراة غرلاً، شاخصة أبصارهم إلى السماء؛ ينتظرون فصل القضاء، لا ينظر أحد إلى أحد، يفر الحميم من حميمه، والقريب من قريبه، قد ملئت قلوبهم بما يشغلها، وكيف لا تملاً وهم ينتظرون إما ناراً حامية، وإما جنة عالية.

كل واحد يتذكر ما سعى وما قدم لهذا الموقف العظيم ؛ لا شعل له إلا ذلك، حتى يفصل الله بينهم، ويتبين مصير كل واحد منهم، كما يتبين ذلك من عرض الآيات، والأحاديث الآتية:

١ ـ صفة ذلك في القرآن الكريم :

أما ما جاء في صفته من القرآن الكريم: فهو ما تتحدث عنه الآيات الآتية: قال الله تعالى في وصف خوف وامتلاء الخلائق بالغم، ووقوف قلوبهم

في حناجرهم:

١ _ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غانر: ١٨].

قال قتادة: «وقفت القلوب في الحناجر من الخوف؛ فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها»، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد(١) .

٢ - وقال تعالى مبيناً حال الكفار وما يصيبهم من الفزع الشديد لهول ما يرون وذلتهم وفراغ قلوبهم عن كل شيء: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الطَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (١٤) مُهْطَعِينَ مُقْنِعي(١) رُعُوميهِم لا يَرْتَدُ إِلَيْهِمْ طَرَفْهُمْ وَأَفْتِدَتُهُمْ (١) هَوَاءٌ(١) ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٢].

قيقول تعالى ذكره: إنما يؤخر ربك يا محمد هؤلاء الظالمين-الذين يكنبونك ويجحدون نبوتك-ليوم تشخص فيه أبصار الخلق، وذلك يوم القيامة القيامة القيامة عرفه .

وقال تعالى في بيان حال المؤمنين والكافرين، وما امتاز به كل فريق من علامات الشقاء أو السعادة :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُ وَجُوهُ وَتَسْوَدُ وَجُوهُ فَأَمَّا الَّذِيسَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَنُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (آ) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧، ١٠٦].

⁽١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٧٥.

⁽۲) أي رافعي رؤوسهم.

⁽٣) قاريهم.

⁽٤) أي قلوبهم خالية من العقل لفزعهم.

⁽٥) جامع البيان ١٣٦/٢٣٦.

فقد جعل الله جميع أهل الآخرة فريقين:

«أحدهما: سوداء وجوهه، والآخر: بيضاء وجوهه»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

«قال الليث: الجثو: الجلوس على الركب كما يجثى بين يدي الحاكم».

وقال ابن عباس: «جاثية: مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها، و ﴿ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ أي إلى صحائف أعمالها»(٢).

وقال ابن كثير: «جاثية: أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال إن هذا إذا جيء بجهنم؛ فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه»(٣).

وقــال تعــالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيـــبًا ﴿ اللَّهُ السَّمَاءُ مُنفَطّرٌ بِه كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

يقول تعالى: كيف تقون أنفسكم إن كفرتم؛ أي إن بقيتم على كفركم، ﴿ يَوْمَا ﴾: أي عذاب يوم يجعل الولدان شيباً؛ لشدة هوله، أي يصير الولدان شيوخاً، والشيب: جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة وأنهم يصيرون كذلك، أو تمثيلاً؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة، ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ أي

⁽١) جامع البيان ٤/ ٤٠، وهو في جامع البيان بهذا اللفظ.

⁽٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٧٢.

⁽٣) تفسير القرآن العظيم ١٥١/٤.

متشققة به لشدته وعظيم هوله ١٩٥١).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُوابًا ﴾ [النبأ: ٤٠]، أخرج ابن جرير رحمه الله عدة روايات عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن ذكوان، وسفيان: أن الكافر يقول ذلك حينما يشاهد البهائم وقد أمر الله بها فصارت تراباً؛ فعند ذلك يتمنى أنه صار تراباً مثلها ولم يقف بين يدي الله تعالى (٢) . ﴿ يَوْمَعُذْ يَوَدُ الّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوا الرّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿ لَكُلِّ امْرِئُ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذُ شَأْنٌ يُغْنِيسَهِ ﴿ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذُ مُسْفِرَةٌ ﴿ ۞ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذُ عِلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٤١].

أي يفرّ عن أخيه، وصاحبته: أي زوجته التي كانت زوجته في الدنيا، وبنيه حذراً من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التبعات والمظالم.

و ﴿ غَبَرَةٌ ﴾ ذكر أن البهائم التي يصيرها الله تراباً يومئذ ـ بعد القضاء بينها ـ يحول ذلك التراب غبرة في وجوه أهل الكفر، والقترة بمعنى الغبرة (٣) .

وما هذا الفرار من الأخ والأم والأب والزوجة والأبناء إلا لما يتوقع الإنسان من الأمور العظام التي هو في انتظارها بين لحظة وأخرى ﴿ لِكُلِّ امْرِئَ مِنْهُمْ يَوْمِئِذِ شَأْنٌ يُغْنِيه ﴾ .

⁽١) فتح القدير ٥/٣١٩.

⁽٢) انظر: جامع البيان ٣٠/٢٦.

⁽٣) جامع البيان ٢٠/ ١٢ ـ ٦٣.

وقال تعالى: في بيان حال المشركين الذي كذبوا على الله بنسبة الشريك والولد إليه جل وعلا ومبيناً علامتهم التي يتصفون بها ﴿ وَيَوْمُ الْقَيَامَةِ تَرَى الدينَ كَذَبُوا عَلَى السَلّهِ وُجُوهُهُم مُسُودَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوَى لِلْمُتَكَبِرِينَ ﴾ الذين كذَبُوا عَلَى السَلّهِ وُجُوهُهُم مُسُودَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوَى لِلْمُتَكَبِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

أي يوم القيامة ترى يا محمد هؤلاء الذين كذبوا على الله من قسومك ؟ فرعسموا أن له ولداً وأن له شريكاً، وعبدوا آلهة من دونه وجسوههم مسودة (۱).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواردة في وصف هذا الموقف العظيم وما يقع فيه كذلك للخلق من الكرب وما يقع فيه كذلك للخلق من الكرب الشديد والفزع العظيم، وما يكونون عليه من صفات شتى، بينها القرآن الكريم تمام البيان؛ حتى إنها لتكاد أن تصل إلى أن يتخيلها الإنسان وكأنها قد وقعت؛ لظهورها وكثرة العناية بإبرازها واضحة جلية في أساليب متعددة مؤثرة.

٢ ـ صفته في السنة النبوية :

وأما في السنة النبوية فقد جاء أن العرق يبلغ من الإنسان على مقدار عمله، فمن الناس من يبلغ العرق إلى أنصاف أذنيه، ومنهم من يلجمهم إلجاماً، ومنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، فهم على حالات شتى، ومصداق هذا:

١ ـ ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي على قال: (﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لَرَبّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال: يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه، (٢).

⁽١) تفسير الطبري جامع البيان ٢٢/٢٤.

⁽٢) البخاري ٢١/ ٣٩٢، ومسلم ٥/ ٧١٤.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله على قال: ويعرق الناس يوم القيامة حتى يبلغ القيامة حتى يبلغ أداعاً، ويلجمهم حتى يبلغ أذانهم (1).

وفي رواية مسلم «سبعين عاماً، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس،(٢) .

ولهذا فإن الإنسان ليتمنى من شدة الهول والعرق أن يذهب به ولو إلى النار ويستريح منه، كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي عن قال: وإن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة؛ فيقول: يارب أرحني ولو إلى الناره(٣).

وفي الصحيح من حديث عدي بن حاتم أن رسول الله على قال: «ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تعرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، (٤).

وفي هذا الموقف الرهيب يكون للشمس وقع شديد على الناس، فهي تدنو من رؤوس البشر - رغم حرارتها الهائلة - حتى تكون كمقدار ميل، وللإنسان أن يتصور مدى ما يلحق أهل الموقف من ألم حرارتها.

وهذا ما رواه المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله عَلَيْ يقول: وتدنى

⁽١) البخاري ١١/ ٣٩٢.

⁽۲) مسلم ٥/ ٧١٥.

⁽٣) قال المنذري ٤/ ٣٩٠: رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد، ولعل هذا خاص بغير المؤمنين.

⁽٤) صحيح البخاري ٣/ ٢٨١.

الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل. قال سليم ابن عامر الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون ما يعني بالميل ؛ أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق؛ فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، قال: وأشار رسول الله على الله الله على الله الله على ا

وروى أنس بن مالك قال: «لم يلق ابن آدم قط شيئاً منذ خلقه الله أشد عليه من الموت، ثم إن الموت لأهون عليه مما بعده، إنهم ليلقون من هول ذلك اليوم وشدته حتى يلجمهم العرق؛ حتى لو أرسلت فيه السفن لجرت»(٢).

وربما استشكل بعضهم ما جاء في لفظ الحديث من أن العرق يبلغ آذانهم بأن في الناس الطويل وفيهم القصير وهم وقوف على أرض مستوية ؛ فيلزم من ذلك عدم استوائهم في وصول العرق إلى هذا الحد(٢) .

ويرد هذا الاستشكال ما جاء في لفظ الحديث من بيان درجات الناس في ذلك، واختلافهم في العرق باختلاف أعمالهم، والحديث لم يقصر وصول العرق لجميع من في الموقف إلى آذانهم، وإنما ذكر حالات متعددة مقسماً ذلك كله بحسب العمل.

وهنا قد يرد على أذهان بعضهم سؤال: من أين هذا العرق؛ هل هو من الإنسان نفسه، أم من غيره؟ ثم ما سبب هذا العرق كله؟

وقد أجاب النووي فيما يعزوه إليه البرديسي عن ذلك بقوله:

⁽١) أخرجه مسلم ٥/٧١٥.

⁽٢) ذكره البرديسي في تكملة شرح الصدور ص١٩، ولم يعزه إلى أحد.

⁽٣) انظر: تكملة شرح الصدور ص٢١.

قال النووي: «يحتمل أن المراد بالعرق عرق نفسه وغيره، ويحتمل عرق نفسه خاصة»، قال: «وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ودنو الشمس من رؤوسهم»(۱).

على أنه لا ينبغي أن يستبعد الإنسان مثل هذه الحالات في أهل الموقف؛ فلا يقال مثلاً -: كيف يغرق أحدهم بعرقه ويكون الذي بقربه مثلاً عرقه إلى ركبتيه.

لأنا نقول: إن أحوال الآخرة لا تقاس على أحوال الدنيا؛ فهي أمور غيبية ومردها إلى قدرة الله تبارك وتعالى، فهو القادر أن يجعل واحداً يغرق في عرقه وآخر لا تصيبه قطرة من الماء.

ويقرب لنا هذا المعنى ما حصل لموسى عليه السلام عندما ضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فمشوا فيه ومع ذلك لم يصب الماء أحداً منهم.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لأَ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴿ ﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيهُمْ ﴾ [طه: ٧٧، ٧٧].

﴿ فَأُوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرْقَ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (١٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِيسِنَ (٣) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مُعَهُ أَجْمَعِينَ (٣) ثُمَّ الْعَظِيمِ (١٣) وَأَنْكُنَا مُوسَىٰ وَمَن مُعَهُ أَجْمَعِينَ (٣) ثُمَّ الْعَظِيمِ (١٣) وَأَنْكُنَا مُوسَىٰ وَمَن مُعَهُ أَجْمَعِينَ (٣) ثُمَّ الْعَظِيمِ الْعَلَى الآخَرينَ ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

⁽١) نفس المرجع السابق ص٢٣.

فهذا دليل مشاهد محسوس من قدرة الله تعالى، قوم دخلوا في البحر جميعاً؛ هؤلاء نجوا؛ وأولئك غرقوا، وكل ذلك بقدرة الله تعالى؛ فكذلك العرق في الآخرة.

٣_صفة الأرض التي يقف الخلق عليما :

عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي عَلَي يَقول: ويحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، قال سهل ـ أو غيره ـ: ليس فيها معلم لأحده (١).

ويتبين من معاني تلك الكلمات الواردة في الحديث: أن تلك الأرض التي يقف عليها الخلق غير هذه الأرض، وليس بينهما تشابه، فتلك أرض لها صفات وهذه أرض لها صفات أخرى، وأن هذه الأرض المعهودة قد انتهت وحلت محلها أرض أخرى هي أكبر منها وأشرف.

أما معنى كونها عفراء، فقال الخطابي: «العفر: بياض ليس بالناصع».

وقال عياض: «العفر: بياض يضرب إلى حمرة قليلاً، ومنه سمي عفر الأرض وهو وجهها».

وقال ابن فارس: «معنى عفراء: خالصة البياض».

وقال الداودي: «شديدة البياض»، قال ابن حجر: «كذا قال، والأول هو المعتمد».

ومعنى «كقرصة النقي»: «بفتح النون وكسر القاف: أي الدقيق النقي من الغش والنخالة، قاله الخطابي».

⁽۱) البخاري ۱۱/ ۹۷۲، ومسلم ٥/ ۹٥٩.

ومعنى اليس فها معلم لأحد، أو اعلم، كما في رواية مسلم وهما بمعنى واحد، قال الخطابي: «يريد أنها مستوية، والمعلم بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة هو الشيء الذي يستدل به على الطريق».

وقال عياض: «المراد أنها ليس فيها علامة سكن ولا بناء ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يهتدي بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة».

قال ابن حجر: «وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها »، وقال الداودي: «المراد أنه لا يحوز أحد منها شيئاً، إلا ما أدرك منها».

ويذكر ابن حجر - نقلاً عن ابن أبي جمرة - أن في الحديث إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جداً.

وأن الحكمة في نقاء وصفاء تلك الأرض المبدلة وانبساطها: أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق؛ فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهراً عن عمل المعصية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض طاهرة لعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون الله وحده؛ فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده (١).

وقال عُظَّة : «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر»(٢) .

قال البرديسي: «يريد عليه الصلاة والسلام أرضاً مستوية، لا جبل فيها ولا أكمة ولا ربوة ولا وهدة، أرض بيضاء نقية، لم يسفك عليها دم، ولا

⁽١) فتح الباري ١١/ ٣٧٥. وانظر: تكملة شرح الصدور ص١٧.

⁽٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٨/ ٣٩٥، ومسلم ١/ ٤٦٩.

عمل عليها خطيئة، ولا ارتكب فيها محرمه"، .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي عَلَيْ قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه» ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟، (٢) .

بيان الخلاف في أرض المحشر:

وتبديل هذه الأرض بأرض أخرى جديدة مما وقع الخلاف فيه بين السلف على ضوء قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدُّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٨٤].

«هل معنى تبديلها: تغيير ذاتها وصفاتها، أو تغيير صفاتها فقط؟».

الظواهر من النصوص تشير إلى أن ذلك التغيير يحصل في ذاتها وفي صفاتها، ويستدل له بما يلى:

١ _ حديث سهل بن سعد المتقدم.

٢ ـ ما أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والطبري في تفاسيرهم، والبيهقي في الشعب، من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود . في قوله تعالى : ﴿ يَوْمُ تُبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ الآية . قال : «تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة ، لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة» .

ورجاله رجال الصحيح، وهو موقوف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوعاً. وقال: الموقوف أصح.

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: «أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة» ، ورجاله موثقون أيضاً.

⁽١) تكملة شرح الصدور ص ١٧.

⁽٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١/ ٣٧٢.

ولأحمد من حديث أبي أيوب: «أرض كالفضة بيضاء، قيل: فأين الخلق يومئذ؟ قال: هم أضياف الله لن يعجزهم ما لديه».

وللطبري من طريق سنان بن سعد عن أنس مرفوعاً: ويبدلها الله بأرض من فضة لم يعمل عليها الخطاياء، وعن على موقوفاً نحوه.

ومن طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد: «أرض كأنها فضة والسموات كذلك» ، وعن علي: «والسموات من ذهب»، وعند عبد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا - تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها.

وفي حديث الصور الطويل: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات؛ فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم العكاضي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة؛ فإذا هم في هذه الأرض المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى؛ ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان عليها، (١)

قال ابن حجر: «وهذا يؤخذ منه أن ذلك يقع عقب نفخة الصعق بعد الحشر الأول، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتُ ۞ وَٱلْقَتْ مَا فِيسَهَا وَتَخَلَّتُ ﴾ [الانشقاق: ٣، ٤].

وبعد أن ذكر الحافظ ابن حجر ما سبق نقله من حجج القائلين بأن التغيير يحصل في ذات الأرض هذه وفي صفاتها - ذكر مستند القول الآخر وهو أن التبديل إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها :

⁽١) قال ابن كثير في تفسير الإمتاء: أي «لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف، تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٥.

بما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة؛ مدت الأرض مدّ الأديم، وحشر الخلائق».

ومن حديث جابر رفعه: «تمد الأرض مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه،، ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صنحابيه.

ووقع في تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَوْمُ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ قال: «يزاد فيها وينقص منها، ويذهب آكامها وجبالها، وأوديتها وشجرها، وتمد مد الأديم العكاضي»، وعزاه الشعلبي في تفسيره لرواية أبي هريرة، وحكاه البيهقي عن أبي منصور الأزهري.

قال ابن حجر: « وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول؛ فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا، لكن أرض الموقف غيرها»(١).

وخلاصة الأقوال في أرض المحشر: أن بعضهم ذهب إلى أنها أرض بيضاء كالفضة، ويعزى هذا القول إلى:

عهد الله بن مسعود. وذكر له الطبري عدة روايات.، وإلى عبد الله بن عباس، وإلى مجاهد، وإلى عمرو بن ميمون.

وبعضهم ذهب إلى أنها أرض بيضاء من فضة، ويعزى هذا القول إلى أنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب لكن لم يبين اسم الراوي عنه ، ورواية عن ابن عباس.

وذهب بعضهم إلى أنها تبدل خبزة، ويعزى هذا القول إلى سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، أو عن محمد بن قيس.

⁽۱) فتح الباري ۱۱/ ۳۷۵ ۳۷۱.

وذهب بعضهم إلى: أنها تبدل الأرض بأرض أخرى، ويعزى هذا القول إلى كعب، ورواية عن أبي هريرة مرفوعة، وفي سندها من لم يسم من الرواه. وإلى عمرو بن ميمون الأودي.

وقال بعضهم: إنها تبدل ناراً، ويعزى هذا القول إلى عبد الله بن مسعود، وذكر له الطبري روايتين غير مرفوعة، يذكر فيها أن الأرض تبدل ناراً.

وبعد أن ذكر الطبري رحمه الله تلك الأقوال قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال معناه: يوم تبدل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها، وكذلك السموات اليوم تبدل غيرها؛ كما قال جل ثناؤه، وجائز أن تكون المبدلة أرضاً أخرى من فضة، وجائز أن تكون ناراً، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أي ذلك يكون؛ فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل "(۱).

مدة وقوف الخلق في الموقف :

١ ـ ما جاء في القرآن الكريم.

٢ ـ ما جاء في السنة النبوية.

عرفنا مما سبق أن الناس يقفون في الموقف الذي أعده الله تعسالي، في الأرض الطاهرة التي تطهر لجلال الله سبحانه وتعالى؛ لينزل فيها لفصل القضاء بين المخلوقات.

وقد اختلف العلماء في مقدار تلك المدة التي يقفونها قبل الانتهاء إلى المصير النهائي، وفي مدى مكثهم في الموقف؛ هل له مدة محددة معلومة في القرآن أو السنة أم لا؟

⁽١) جامع البيان ٢٥٤/١٣.

وللإجابة عن هذا السؤال أذكر ما يلي:

١ ــ أما من القرآن الكريم:

فقد جاءت بعض الآيات تفيد التحديد، ولكن ذلك التحديد فيه تباعد جداً، ويظهر ذلك واضحاً في تحديد المدة بألف سنة أو بخمسين ألف سنة ؛ فإن هذا التحديد مما استشكله جماعة من العلماء كما ذكر الشوكاني (١).

فمما ورد في تحديد المدة بألف سنة قول الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَٱلْفِ سَنَةٍ مِّمًا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

وبما ورد من تحديده بخمسين ألف سنة قـوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

وتفصيل تلك الآيات وبيان ما قاله علماء التفسير فيها نبينه فيما يلي:

أما الآية الأولى: فإنها واردة على غير يوم القيامة؛ بل هي حالة من الحالات التي تحصل للملائكة من الهبوط والصعود ما بين الأرض والسماء، كما ذهب إليه كثير من العلماء(٢).

وبعضهم يذهب إلى أنها واردة في تحديد يوم القيامة، ولكن هؤلاء قد أشكل عليهم ما جاء في الآية الثانية التي تحدد مقداره بخمسين ألف سنة.

لأن بين هاتين المسافتين ما لا يخفي من التفاوت، ولهذا كان لابد من

⁽١) فتح القدير ٢٤٨/٤.

⁽٢) انظر: جامع البيان ٢٩/ ٧٠.

الجمع بينهما، على أن العلماء من فسر الآية الثانية أيضاً بحصول تلك المسافة . وهي خمسون ألف سنة ـ بالنسبة للملائكة في الدنيا؛ من صعودهم وهبوطهم ما بين الأرض والسماء(١) .

وسنذكر فقط من الأقوال ما له علاقة بتحديد يوم القيامة فنقول:

١ ـ من العلماء من فسر هذا اليوم بأنه يوم القيامة، وقالوا: إن معنى تقديره
 بخمسين ألف سنة؛ أن الله يفرغ من القضاء بين عباده في يوم واحد قدره
 كخمسين ألف سنة.

ويعزى هذا الرأي فيما يذكر الطبري إلى عكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد(٢).

ويذكر ابن كثير أن الرواية إلى ابن عباس في تفسيره للآية : ﴿ فِي يَوْمُ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةً ﴾ بأنه يوم القيامة، سندها صحر (٣٠) .

٢ ـ ومن السلف من خصص طول هذا اليوم بالنسبة للكفار بخلاف المؤمنين؟
 فإنه يكون قصيراً عليهم رغم أنه خمسون ألف سنة .

ويعزى هذا الرأي إلى: ابن عباس رضي الله عنهما.

ويروى عنه أنه توقف عن بيان هذا اليوم؛ بل وغضب على السائل حينما سأله عن هذا؛ كما أخرج الطبري بسنده إلى ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة، قال: فاتهمه، فقيل له فيه، فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال: إنما سألتك لتخبرني، فقال: هما

⁽١) انظر: جامع البيان ٢٩/٧٠.

⁽٢) جامع البيان ٢٩/ ٢٨.

⁽٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤١٩.

وعن توقف كذلك من السلف: سعيد بن المسيب؛ كما أورد الشوكاني عنه (٢).

أما تلك الرواية عن ابن عباس الدالة على توقفه فإنه يعارضها ما أخرج الطبري - أيضاً - بسنده إلى ابن عباس في قوله: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالسرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾: «فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة» (٣).

وإلى هذا ذهب كثير من العلماء في توفيقهم بين الآيات الواردة في تحديده، وقد ذهب الرازي إلى الجزم بأن تخصيص طول الموقف إنما هو بالنسبة للكفار، وذلك في قوله: «واعلم أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا، والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى: في حق المؤمن فلا، والدليل عليه الآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنّة يَوْمَعُذ خَيْرٌ مُسْتَقَرًا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٤]. واتفقوا على أن ذلك المقيل والمستقر هو الجنة، وأما الخبر فما روي عن أبي سعيد الحدري أنه قال: قيل لرسول الله على أن ذلك المقيل والمستقر عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في يعده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنياه (١).

⁽١) ، (٢) جامع البيان ٢٩/ ٧١.٧٢.

⁽٣) فتح القدير ١/٤ه.

⁽٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٣، والحديث قد أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٧٢.

ومن الأقوال الأخرى :

- ٣ ـ ما ذكره الرازي عن الحسن أنه قال: «المراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ثم بعد ذلك يستقر أهل النار في دركات النيران»(١).
- ٤ ومنها: «أن هذه المدة واقعة في الآخرة؛ لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق، والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الخلق وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة، ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا»(٦).
- ٥ أن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة (٢)، وذا القول ذكره الشوكاني، وفيه تحديد المدة بألف سنة من أيام الدنيا.
- ٦ ـ وقيل: «إن يوم القيامة فيه أيام؛ فمنها ما مقداره ألف سنة، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة»(1).
- ٧ ـ وقيل: «هي أوقات مختلفة، يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة» (٥).
 سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر فيعذب به خمسين ألف سنة» (٥).
- ٨ ـ وقيل: «مواقف القيامة خمسون موقفاً، كل موقف ألف سنة، فيكون معنى ﴿ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة: ٥] أنه يعرج

⁽١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٣.

⁽٢) المصدر السابق ص١٢٤.

⁽٣) ـ (٥) فتح القدير ٤/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

إليه في وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف "(١).

قال البرديسي: "ومقدار ذلك اليوم كما قال تعالى في سورة السجدة: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي في الدنيا، وقال تعالى في سورة سأل: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] وهو يوم القيامة لشدة أهواله بالنسبة إلى الكافر، وأما المؤمن فيكون أخف عليه من صلاة مكتوبة في الدنيا، وقيل يوم القيامة خمسون موطناً، كل موطن ألف سنة »(٢).

ويقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةَ مَمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، وكذا قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ اللَّمْ مَن السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةً مَمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]، وبين قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةً ﴾ الآية. [المعارج: ٤]؛ قال: «اعلم أولاً: يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةً ﴾ الآية. [المعارج: ٤]؛ قال: «اعلم أولاً: أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة (٣) أن حضر كلاً من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات؛ فلم يدر ما يقول فيها؛ ويقول: لا أدري، وللجمع بينهما وجهان:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس: من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة.

⁽١) فتح القدير ٤/٣٤٩.٣٤٨.

⁽۲) كتاب تكملة شرح الصدور ص ٣

⁽٣) انظر جامع البيان جـ ٢٩ ص ٧٧

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها: يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمُتِذَ يَوْمٌ عَسِيسرٌ ① عَلَى الْكَافرينَ غَيْرُ يَسِيرِ ﴾ [المدثر: ٩ - ١٠].

ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان، والعلم عند الله"(١).

وقد وردت أخبار تفيد تحديد مدة الوقوف بأربعين سنة ؛ كما يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن النبي تلك قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياماً أربعين سنة، شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء، (٢).

وكذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا، قياماً أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء»(٢) الحديث.

ووردت أخبار تفيد أن مدة المكث في الموقف ألف سنة ؛ كما جاء عن زيد الرشد، قال: «يقوم الناس يوم القيامة ألف سنة ، ويقضى بينهم في مقدار عشرة آلاف سنة »(١٠).

وهذه الأخبار التي تحدد المدة بأربعين سنة أو بألف سنة ؛ لا تتفق مع ما جاء في كتاب الله وفي الصحيح من تحديد ذلك اليوم بما ذكر ، وتوجيه ذلك ما تقدم ذكره من أقوال العلماء .

وأما التحديد بأربعين سنة فقد جاءت مراداً بها ما بين النفختين لا مدة القيام في الموقف، وحتى هذه المدة ما بين النفختين غير مسلمة أنها أربعون

⁽١) دفع إيهام الاضطراب، مع أضواء البيان ص٧٠٧ جه.

⁽٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب جـ٤ ص ٣٩١، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا، والطبراني من طرق أحدها صحيح، واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

⁽٣) النهاية ١/ ٢٦٥ وعزاه إلى البيهقي.

⁽٤) النهاية ٢/ ١٥ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

سنة؛ على ضوء ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما التحديد بألف سنة قياماً، وعشرة الاف سنة للقضاء بينهم؛ فهو تفصيل فيه نظر لما أسلفنا ذكره.

وفيما يبدو؛ فإن القول: بأن تلك المدة وهي خمسون ألف سنة إنما هي مدة نسبية، إذ هي على الكافر كذلك، بخلاف المؤمن؛ فإنها تكون عليه قصيرة؛ هو القول الذي تجتمع عليه تلك الأقوال.

ومما هو معروف أن الإنسان حينما يكون في بلوى وهم؛ يكون الوقت عليه بطيئاً ثقيلاً وكأن الساعات أيام، بخلاف من كان في سرور وانشراح؛ فإن الوقت يمر عليه خفيفاً مسرعاً.

وفي هذا يقول الشيخ الأمين الشنقيطي رحمه الله: «إن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين، ويشير لهذا قوله تعالى - بعد هذا بقليل - : ﴿ المُلْكُ يَوْمَئِذُ الْحَقُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين؛ يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك، وقوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَعُذُ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، يدل بمفهومه أيضاً على أنه يسير على المؤمنين غير عسير؛ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٨].

ومن المعلوم أن السرور يقصر به الزمن، والكروب والهموم سبب لطوله»(١).

ومما ورد في تقوية هذا الرأي: ما روي عن أبي سعيد قال: قيل لرسول الله عَلَيْ : يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال

⁽١) أضواء البيان جـ٩ ص٢٤٣.

رسول الله على الله على الذي نفسي بيده، إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا، (١)

وقال عبد الله بن عمرو: «إن للمؤمنين يوم القيامة كراسي من نور؟ يحبسون عليها، وتظلل عليهم الغمام، ويكون يوم القيامة عليهم كساعة من نهار أو كأحد طرفيه»(٢).

وعن أبي هريرة قال: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر إلى العصر»، وذكر ابن كثير عن البيهقي أنه قال: «هذا هو المحفوظ، وقد روي مرفوعاً»(۲).

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِلَهِ خَيْرٌ مُسْتَقَرَّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٤]، قال: «لا ينتصف النهاريوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء»(٤).

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة عن النبي تلك قال: «يوم القيامة يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة؛ فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب (٥).

* * *

⁽١) مسند أحمد جـ٣ ص: ٧٥، وقال الهيشمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٣٧: «وإسناده حسن على ضعف في رواية».

⁽٢) ذكره ابن كثير في النهاية جـ١ ص٣٢٤، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

⁽٣) النهاية لا بن كثير جـ١ ص٣٢٦.

⁽٤) القيلولة: هي النوم وقت الظهيرة القاموس ج٤ ص٤٣، وإذا كان النوم وقت الظهيرة في الجحيم كان أشد عذاباً ونكالاً.

 ⁽٥) ذكره الهيشمي في مجمع الزوائد، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبد الله
 وهو ثقة، مجمع الزوائدج ١٠ ص٣٣٧. ثم عزاه إلى أبي يعلى.

٢_الأحاديث الواردة في نحديد محة الموقف

وبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من بعض الروايات التي جاءت من خلال شرح الآيات في تحديد مدة يوم القيامة، فقد وردت أحاديث في الصحيح تنص على تحديد مدة يوم القيامة بخمسين ألف سنة، غير أنها تقبل فيما يظهر - تلك الاحتمالات التي تقدمت في النصوص السابقة، ومن تلك الأحاديث:

ما أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله على:

دما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها؛ إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له
صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما

بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد؛
فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها؛ إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؛ حتى يقضى بين العباد؛ فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي

منها حقها؛ إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها (۱) بقاع قرقر (۲) ، لا يفقد منها شيئًا ، ليس فيها عقصاء (۲) ، ولا عضباء (۵) ؛ تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها (۱) ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؛ حتى يقضى بين العباد؛ فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، (۷)

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله عَلَيْهُ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم؛ فيجعل صفائح؛ فيكوى بها جنباه وجبينه، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى النار.

وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت تستن (^) عليه، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت؛ فتطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء، كلما مضى عليه

⁽۱) بطح لها، قال النووي: «قال جماعة: معناه ألقي على وجهه. قال القاضي: قد جاء في رواية للبخاري: يخبط وجهه بأخفافها، قال: وهذا يقتضي أنه ليس من شرط البطح كونه على الوجه، وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد، فقد يكون على وجهه، وقد يكون على ظهره، ومنه سميت بطحاء مكة لانبساطها».

 ⁽٢) بقاع قرقر: القاع: المستوى الواسع من الأرض يعلوه ماء السماء؛ فيمسكه. والقرقر: المستوي أيضًا من الأرض الواسع، وهو بفتح القافين».

⁽٣) عقصاء: قال أهل اللغة: العقصاء: ملتوية القرنين.

⁽٤) والجلحاء: التي لاقرن لها.

⁽٥) والعضباء: التي انكسر قرنها الداخلي.

⁽٦) وفي رواية: كلما مر عليه أخراها رد عليه أولاها، وبهذا ينتظم الكلام.

⁽٧) أخرجه مسلم جـ٣ ص ١٨.

⁽٨) ئىستىن: أى تجرى.

أخراها ردت عليه أولاها؛ حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار،(١).

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: «قيل لرسول الله عَلَيَّ: ﴿ فِي يَوْمُ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله عَلَيَّة: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنياه (٢).

ولكن في سند هذا الحديث راويان ضعيفان، وهما دراج، وأبو الهيثم (٣٠٠.

وأخرج كذلك عن أبي عمر العداني قال: «كنت عند أبي هريرة؛ فمر رجل من بني عامر بن صعصعة؛ فقيل له: هذا أكثر عامري مالاً، فقال أبو هريرة: ردوه إليّ، فردوه، فقال: نبئت أنك ذو مال كثير، فقال العامري: إي والله، إن لي لمائة حمراء أو مائة أدماء حتى عد من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل؛ فقال أبو هريرة: إياك وأخفاف الإبل وأظلاف الغنم؛ يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير. فقال: ما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: سمعت رسول الله تقلك يقول: من كانت له إبل لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها قلنا: يا رسول الله، ما نجدتها ورسلها؟ قال: في عسرها ويسرها فإنها تأتي يوم يا رسول الله، ما نجدتها ورسلها؟ قال: في عسرها ويسرها فإنها تأتي يوم القيامة كاغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره، حتى يبطح لها بقاع قرقر؛ فتطؤه بأخفافها؛ فإذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين الناس، فيرى سبيله.

⁽۱) صحيح مسلم جـ ۳ ص ۲۱.

⁽٢) المسندج ٣ ص ٧٥، وتفسير ابن جرير جـ ٢٩ ص ٧٢.

⁽٣) ابن کثير في تفسيره جـ ٤ ص ٤١٩ .

وإذا كانت له بقر لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها ؛ فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره، ثم يبطح لها بقاع قرقر ؛ فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس؛ فيرى سبيله.

وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها ؛ فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره، حتى يبطح لها بقاع قرقر، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها، ليس فيها عقصاء ولا عضباء، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقداره خصين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله. . . ، (۱) إلخ الحديث .

ويتبين لنا مما تقدم بحثه: أنه ليس معنى طول ذلك اليوم هو تحديده بزمن ينتهي بنهاية وقته، كما هو الحال في أيام الدنيا إذا انتهى وقت النهار جاء وقت الليل وبالعكس، ليس ذلك اليوم كذلك؛ بل إنه يوم على صفة واحدة، يطوله الله تعالى كيفما يشاء، ينتهى بإكمال الله تعالى فصله بين خلقه.

وهذا ما أشار إليه البرديسي بقوله: «واعلم أن يوم القيامة ليس بطوله كما عهد من طول الأيام؛ بل هو آلاف من الأعوام، وليس يكون كلامهم دفعة واحدة، ولا فراغهم في مرة واحدة؛ بل يتخلصون ويفرغون شيئًا بعد شيء، لكن طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة، فيفرغون بفراغ اليوم، ويفرغ اليوم بفراغهم.

وليس أيضًا هذا اليوم مثل أيام الدنيا التي تكون على حكم دوران الفلك ؟

⁽۱) أخرجه أحمد جـ ۲ ص ۲۶۲، وأبو داود جـ ۱ ص ۳۸۲، والنسائي جـ ٥ ص ۲۴_۲۲.

إذا ذهب الليل جاء النهار، وإذا ذهب النهار جاء الليل، حكمة الله التي حيرت العقول وأكلت الأبصار وأخرست الألسن، ليس هناك ليلي؛ إنما هو وقت واحد على صفة واحدة، وهو الذي يسمى يومًا، إنما هو مقدار من ذلك الوقت يطوله الله عز وجل ما شاء ويقصره إن شاء . . .

واعلم أن هذا اليوم يتلون ألوانًا ويستحيل أحوال الناس فيه أحوالاً؟ فينبعثون فيه من قبورهم، ويساقون فيه إلى محشرهم ومكان القصاص فيهم، ويقفون منه ما شاء الله أن يقفوا، شاخصة أبصارهم إلى السماء، مبهوتين سكارى حيارى؟ من عظم ما أصابهم وهول ما نزل بهم.

ويأتي في ذلك اليوم وقت منه يتكلم فيه المشركون فيقولون: والله ربنا ما كنا مسركين، ويأتي عليهم منه وقت آخر لا يتكلمون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وفيه تكون المحاسبة والمناقشة، وفيه يتعلق الناس بعضهم ببعض، ويطلب بعضهم بعضًا، ويخاصم بعضهم بعضًا» إلى أن يقول: «وبالجملة فليس يتم ذلك اليوم إلا وقد نزل كل إنسان بداره، واستقر في قراره، من جنته أو ناره»(١).

وقال البرديسي أيضًا في كلام نفيس : «واعلم أنه كلما طال قيامك في أيام الدنيا؛ قل تعبك في ذلك اليوم، وكلما كثر تصرفك في طاعة الله تعالى وانتصابك له؛ قصر قيامك في ذلك اليوم، وكلما قصر تصرفك في طاعة الله وإقبالك وإدبارك في قضاء حاجة مسلم ومشيك معه ومشاركتك له؛ تقلل مشيك في ذلك اليوم وتقلل نصبك فيه، وبقدر ما تبذل تعطى، وكما تدين تدان.

⁽١) تكملة شرح الصدور ص ٢٠.

ولعلك يا هذا تستطيل ركعتين تقرأ فيهما جزءاً أو جزأين تقدم فيهما لربك جل جلاله، ولعلك تعجز من ميل في قضاء حاجة مسلم أو ميلين، وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد، والكرب العظيم الشديد، الذي لا يقصر إلا على من أطال التعب لله، ولا يسهل إلا على من تحمل الشدائد في ذات الله.

ولعلك إن صليتهما ليلة عجزت عنهما ليلة أخرى، ولعلك إن مشيت يومًا في قضاء حاجة مسلم برمت من ذلك يومًا آخر وضجرت منه وكسلت عنه، وربحا وقفت لسماع حديث فارغ يكون تقديره أكثر من جزء أو جزأين، وربحا مشيت في فضول الميل والميلين وأكثر من ذلك، ولو تدبرت في أمرك ونظرت فيما يراد بك؛ لسهل عليك من أمرك العسير، وقرب عليك فيه البعيد.

فاعمل وحمل الله في أيام قصار وعمر قصير ؛ لأيام طوال وعمر طويل وعمر فت في فتنفعك وحمل الله في ذلك الزحام، والانضمام، والانشقاق، والتلاق، واجتماع الإنس والجان، ومن يجمع من سائر أصناف الحيوانات، وانتقالهم، وتدافعهم، واختلاطهم، ولا قرار ولا انتهاء، ولا ملاذ ولا انقياد، وقرب الشمس فيهم قبل تكويرها، وكانت كمقدار ميل، وتزيد في حرها، وضوعف في وهجها، ولا ظل إلا ظل عرش ربك بما قدمته من كسبك.

وقد انضاف إلى حر الشمس حر الأنفاس، ومزاحمة الناس، واختراق القلوب لما غشيها من الكروب، واشتد الفرق، وعظم القلق، وسال من الأجسام العرق، وانبعث من كل موضع من الجسد وانبثق، وكان الناس فيه على قدر أعمالهم.

فتفكر في نفسك أيها المسكين وقد ضاق نفسك، وزاد قلقك، وسال عرقك، وجرى من جميع بدنك، من مفرقك إلى قدمك، ووصل منه إلى

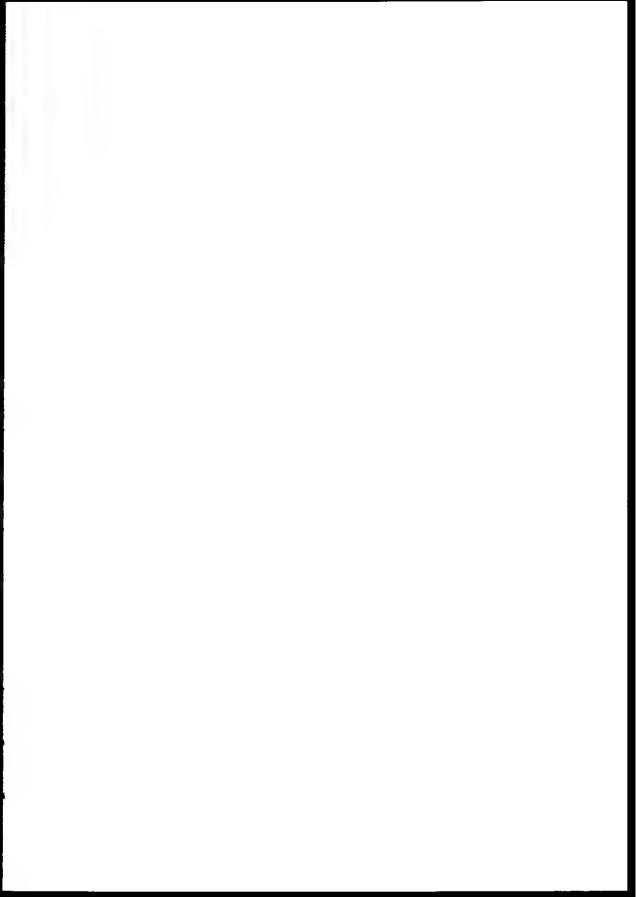
حيث أوصلته بعملك؛ إما إلى كعبك، أو صاعدًا إلى أذنك.

فانظر إلى هذا الحال، وتفكر في هذا الوبال، وسوء هذا المآل، واعلم أنه لو سال عرقك في الدنيا، طول عمرك وأضعاف عمرك، في طاعة ربك وفي رضا سيدك على ألا تعرق في ذلك اليوم؛ لكان ذلك يسيرًا، أو لكنت به جديرًا، ولكانت سلامتك منه مغنمًا كثيرًا، وفوزًا كبيرًا، نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، آمين»(١).

وقد نقلنا هذه العبارات لنفاستها؛ ولأنه لا يستطاع الاطلاع عليها؛ لأنها لا تزال في غياهب المخطوطات.

學 袋 袋

⁽١) تكملة شرح الصدور ص٢١٠٢٠.



الباب الثاني فى الشفاعة

ويتكون من الفصول الآتية :

ئەھىد :

الغصل الأول : تعريف الشفاعة :

١_في اللغة

۲۔فی الشریح

الغصل الثانى : أقسام الشفاعة :

١_الشفاعة المثبتة التي ورد بما النص.

٢_الشفاعة المنفية.

الفصل الثالث : أقسام الشفاعات الثابتة التي ورد بها النص :

1. الشفاعة العظهس.

٢_الشفاعة لقوم استحقوا النار أن لا يدخلوها.

٣ـ الشفاعة في أهل الكبائر.

٤_الشفاعة لأقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٥_ شفاعة الرسول ﷺ لأهل المدينة المنورة.

٦- الشفاعة في دخول المؤ منين الجنة.

٧ـ الشفاعة لرفع درجات أهل الجنة.

٨ ـ شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه.

الفصل الرابع : ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال :

١ـ طلب الوسيلة للرسول ﷺ، واللكثار من الصلاة عليه.

٢ قول الشخص: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، وموته على ذلك.

٣-ال كثار من السجود.

الفصل الخامس : الشفاعات التي لم يرد بما نص صحيح :

زهفید :

١ ـ الشفاعة لهن زار قبر الرسهل ﷺ.

٢_الشفاعة للأقرب فالأقرب منه ﷺ.

٣- الشفاعة لأهل مدن بعينها غير المدينة المنورة.

٤۔ الشفاعة لأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر.

٥-الشفاعة لمن مات في أحد الحرمين.

٣- الشفاعة لمن تآخيا في الله.

٧- الشفاعة لمن قضى حوائج آل البيت.

٨_الشفاعة لهن حفظ أربعين حديثًا.

٩_الشفاعة لمن قضى حوائج الناس.

الفصل السادس : الأمور التي زمنع الشفاعة :

١ـال شراك بالله تعالى.

٢_كثرة تعمد اللعن.

٣_التكذيب بوقوع الشفاعة.

الفصل السابع : ذنهب لم يثبت نفى الشفاعة فيما :

١- القول بهنع الشفاعة عن صاحب البدعة.

٢-المرجئة والقدرية.

٣ ـ من غش العرب.

٤ ـ من سار زدت رايات العباسيين.

الفصل الثامن : أقسام الشفعاء :

أ ـ قسم ثبت صحة شفاعتهم، وهم:

١ ـ شفاعة نبينا محمد ﷺ.

٢ـ شفاعة الأنبياء الأخرين غير نبينا محمد ﷺ.

٣ـ شفاعة الملائكة.

المساعة الشهداء،

٥_ شفاعة الولدان.

٦- شفاعة المؤ منين بعضهم في بعض.

٧_ شفاعة القرآن الكريم.

ب ـ قسم لم تثبت صحة شفاعتهم :

١_شفاعة الحجر الأسود.

٢_شفاعة بعض الأعمال مثل :

أ ـ الصيام.

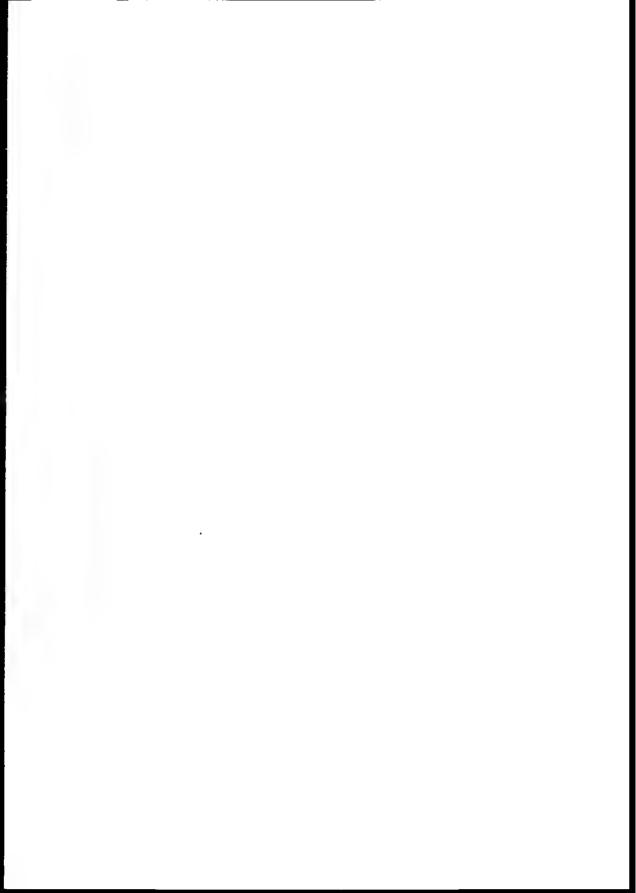
ب ـ قرأءة (قل هو الله أحد) الف مرة .

٣- شفاعة بعض الأشخاص مثل:

أ ـ المؤذنين.

ب ـ الحجاج.

*** 0000 700 900 94: 3 8 2 2 544 ***** **** 93000 الفصل الأول 3485 14000 10 da 4 + + 7.00 تعريف الشفاعة - A D D D 13841 **** 1869.4 34000 نهميد Don. 1124+ Dag. ١_في اللغة. 2000 ·*** Due: 10000 ٢_ في الشرع. **** 3000 - 3 T 🔷 🚳 13000 3420 The Color 30000 ***** ~ O O O



الفصل الأول تعريف الشفاعة

زمميد

بحث الشفاعة في الآخرة من أحب الأبحاث إلى النفس؛ إذ بها يعرف المسلم قدر رحمة الله تعالى، ويعرف تفضله على أنبيائه عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام -، وقد جعلها الله كرامة منه ورفعًا لدرجة الشافع وإظهارًا لمنزلته، وهي بالإضافة إلى أنها لإكرام الشافع؛ فهي كذلك نفع للمشفوع له من أهل المعاصي، الذين توقفت سعادتهم على حصولها، بعد إذن الله ورضاه.

وإذا كان الله قد تفضل بإكرام أقوام فقبل شفاعتهم، وسنذكرهم؛ فإن لنبينا محمد على المقام الأول والحظ الأوفر في كثرة شفاعته لأمته؛ وهو الرؤوف بهم، الصادق في إيصال الخير إليهم على تسليمًا كثيرًا.

وإذا كان أمر الشفاعة من الأمور التي يعتقدها كل مسلم اتخذ الكتاب والسنة هاديًا، وابتعد عن أقوال أهل البدع والزيغ؛ فإن من المؤسف أن يوجد من بين صفوف المسلمين من ينكر بعض جوانب الشفاعة؛ بحجج واهية وأقوال سقيمة.

وإذا كان قد وجد من ينكر بعض جوانب الشفاعة ـ ممن ينتمي إلى أهل القبلة ـ فإن قسمًا آخر منهم قد أثبتوا جوانب أخرى من الشفاعة لم يثبت بها

نص، ولم يقل بها أحد من السلف؛ مبالغة منهم في حب من أثبتوا له تلك الشفاعات، وهؤلاء هم جهلة المسلمين، وكلتا الطائفتين خرجتا عن الحق وعن الاعتقاد السليم.

وقبل التفصيل لأقسام الشفاعات الثابتة وغير الثابتة، نذكر تعريف الشفاعة في اللغة وفي الشرع.

١. معنى الشفاعة في اللغة :

الشفاعة في لغة العرب مشتقة من الشفع الذي هو غير الوتر، أي أن الشفع هو الزوج الذي هو عكس الوتر عند الإطلاق، تقول: أعطيتك كتابًا ثم شفعته بآخر، أي صار ما معك زوجًا بعد أن كان وترًا، قال ابن منظور: "شفع الوتر من العدد شفعًا: صيره زوجًا»(١).

والمشفع ـ بكسر الفاء ـ هو الذي يقبل الشفاعة .

والمشفَّع ـ بفتح الفاء ـ هو الذي تقبل شفاعته .

قال ابن الأثير في النهاية: «قد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفع الذي يقبل الشفاعة والمشفع الذي تقبل شفاعته»(٢).

وعرفها اللقاني بأنها في اللغة هي: «الوسيلة والطلب»(٣) .

⁽۱) لسان العرب ۸/ ۱۸۳.

⁽٢) النهاية ٢/ ٤٨٥.

⁽٣) شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٦.

ومن الشفع أخذت تسمية الشفعة التي هي الزيادة؛ لأن من حقت له الشفعة زاد في ماله ذلك المشفوع؛ فيصير ما معه شفعًا، وكأن ما حصل معه من الملك قبل الشفعة وترًا، وبعد أخذ المشفوع صار شفعًا.

وفي هذا يقول ابن الأثير: «الشفعة في الملك معروفة ، وهي مشتقة من الزيادة؛ لأن الشفيع يضم المبيع إلى ملكه »(١).

وقال الراغب: «الشفع ضم الشيء إلى مثله»، قال: «والشفعة: هو طلب مبيع في شركته بما بيع به ليضمه إلى ملكه، وهو من الشفع»(٢).

وقد سميت المخلوقات بالشفع ـ كما قال أهل التفسير في بيان معنى قول الله تعالى: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ٣] أنهم المخلوقات الذكر والأنثى، على أحد الأقوال التي قيلت في معنى الشفع (٣) ، كما ذكر ابن كثير.

وذكر الراغب أن المخلوقات سميت بالشفع «من حيث إنها مركبات، كما قال: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (٤) [الذاريات: ٤٩]».

ويطلق الشفع كذلك على الشيئين مطلقًا، سواء أكانا في شيء واحد أم في أشياء متفرقة، وذلك كإطلاق لفظ الشفعة على ركعتي الضحى، في قولهم: شفعة الضحى، ومنه: «من حافظ على شفعة الضحى غفر له ذنوبه»، قال ابن الأثير: يعنى ركعتى الضحى ".

⁽١) النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٨٥.

⁽٢) المفردات ص ٢٦٣.

⁽٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٥، ٥٠٦.

⁽٤) المفردات للراغب ص ٢٦٣.

⁽٥) البهاية لابن الأثير ٢/ ٤٨٥

وللشفع معان كثيرة كلها تدور حول معنى لغوي واحد، وهو صيرورة الوتر شفعًا، أي: زوجًا(١)، وقد أطلق الله تعالى في كتابه الكريم على من طلب شيئًا لغيره ـ سواء أكان في فعل الخير أو الشر ـ شفيعًا وشافعًا؛ فقال تعالى: ﴿ مَن يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّعَةً يَكُن لَهُ تَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّعَةً يَكُن لَهُ كُول لَهُ كُولُ مَنْهَا ﴾ [النساء: ٥٥].

يقول ابن كثير في بيان معنى الآية: «أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير؛ كان له نصيب من ذلك، ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّفَةً يَكُن لَهُ كَفُلٌ مِنْهَا ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب عليه سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح عن النبي على لسان نبيه ما الصحيح عن النبي على لسان نبيه ما شاء، »(٢٠).

ويقول الشوكاني في معرض تفسيره للآية: «أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من الشفع، وهو الزوج، ومنه الشفيع؛ لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعًا، والشفع ضم واحد إلى واحد... فالشفاعة ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك»(٣).

وفي لسان العرب: «والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب، يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه»(١)، وكذا قوله عن الشفاعة:

⁽١) انظر: كتب اللغة مادة «شقع».

⁽۲) تفسیر ابن کثیر ۱/ ۵۳۱.

⁽٣) فتح القدير ١/ ٤٩٢.

⁽٤) لسان العرب ٨/ ١٨٤.

«الشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره»(١).

安 安 谷

٢ . معنى الشفاعة في الشرع :

معاني الشفاعة الشرعية متقاربة مع معانيها اللغوية؛ وذلك لأن الشفاعة في اللغة يراد بها معانيها اللغوية من انضمام شيء إلى شيء آخر وزيادته في شيء مخصوص، وأما في الشرع فهي التي يراد بها معناها الواضح الذي ورد به الشرع، مخبرًا عنه ومبينًا أمره، مما يحصل في الدار الآخرة، وهي: طلب الرسول محمد على أو غيره من الله في الدار الآخرة حصول منفعة لأحد من الخلق.

ويدخل تحت هذا التعريف جميع أنواع الشفاعات الخاصة بنبينا محمد وغيره، كالشفاعة العظمى وهي طلب الرسول محمد الله من ربه إراحية الناس من الموقف بمجيئه لفصل القضاء، ويدخل كذلك شفاعته في دخول أهل الجنة الجنة، وشفاعته في تخفيف العذاب عن أبي طالب، وشفاعة الشفعاء في رفع الدرجات في الجنة، وكذا الشفاعة في إخراج قوم من النار وإدخالهم الجنة.

ولوضوح أمر الشفاعة في الآخرة؛ فإن تعريفها تعريفًا خاصًا بها ومحددًا لها لم يرد إلا قليلاً على ألسنة علماء العقائد لظهور المراد منها؛ إذ هي إيصال الخير أو دفع الضرر عن الغير بأي صفة كانت.

⁽١) لسان العرب ٨/ ١٨٤، انظر: تاج العروس ٥/ ٤٠١.

وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار - معرفًا لها في الاصطلاح بعد أن عرفها في اللغة - قال: «وأما في الاصطلاح: فهو مسألة الغير أن ينفع غيره، أو أن يدفع عنه مضرة»(١).

وهذا التعريف عام يشمل جميع أقسام الشفاعة في الدنيا والآخرة، ويعرفها ابن الأثير كذلك بقوله: «وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجراثم بينهم»(٢) أي الخلق:

وقال الراغب: «والشفاعة: الانضمام إلى آخر؛ ناصرًا له وسائلاً عنه»(٣).

وعرفها الجرجاني بأنها: «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه»(٤) .

وعرفها اللقاني بأنها: «سؤال الخير من الغير للغير »(٥).

ومن هنا يتبين لنا العلاقة بين تعريف الشفاعة في اللغة وتعريفها في الاصطلاح، والنسبة بينهما: أن المعنى اللغوي عام يشمل المعنى الاصطلاحي وغيره؛ وذلك أن الشفاعة في اللغة يراد بها كل ما يدل على الانضمام والزيادة، سواء كانت في خير أو شر، وسواء أكانت في الدنيا أو الآخرة.

وأما في الاصطلاح الشرعي: فهي لا تكون إلا في الخير في دار الآخرة كما هو معلوم، وحيث إن الشفاعة في الآخرة أصبح لها مدلولها الخاص بها

⁽١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٨.

⁽٣) النهاية ٢/ ٤٨٥.

⁽٣) المفردات ص ٣٦٣.

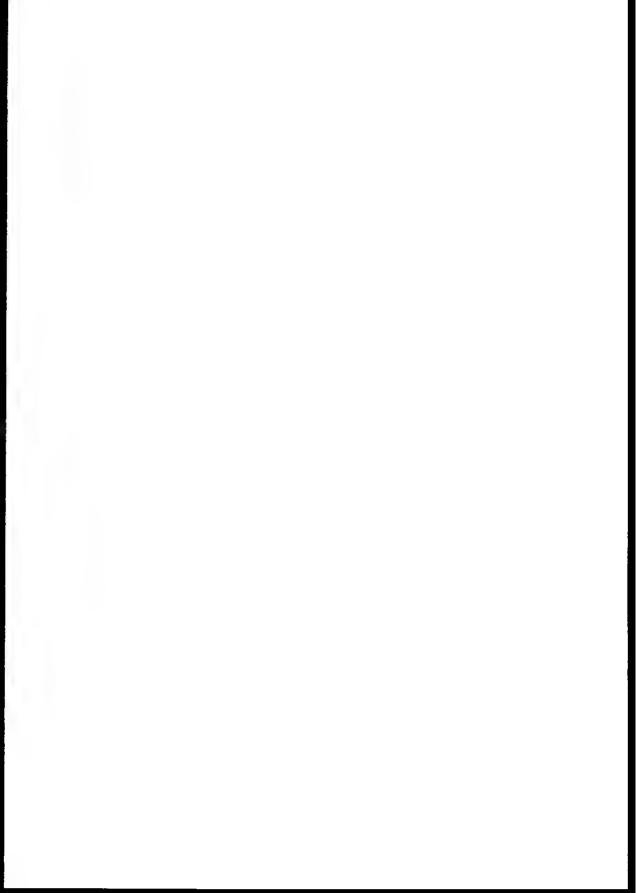
⁽٤) التعريفات ص ١٢٧.

⁽٥) شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٦.

عند الناس؛ فإنهم اختلفوا فيها اختلافًا كثيرًا؛ بين ناف لها، وبين قائل بها، كما سنفصل هذا في موضعه إن شاء الله تعالى.

* * *





الفصل الثاني أقسام الشفاعة

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل ويتجلى على عباده في الموقف بالمجلال والجبروت، وقد تقدم لنا من أحوال الموقف أن الناس يغرقون في عرقهم، وأن الشمس تدنو منهم كمقدار ميل؛ حتى يتمنى بعض الناس الانصراف ولو إلى النار، فيتلفتون يمينًا وشمالاً ليجدوا مخرجًا من هذا الهول العظيم، وهنا تتجلى حكمة الله تعالى في إنقاذ خلقه بإكرامه لمن أذن له بالشفاعة؛ الشفاعة العظمى التي خصها لرسوله على وسيأتي الحديث في ذلك مفصلاً.

والشفاعة في الآخرة تنقسم أولاً إلى قسمين:

١ ـ شفاعة ثابتة .

٢ ـ شفاعة منفية .

الشفاعات الثابتة، والشفاعات المنفية :

ذكر الله سبحانه وتعالى كثيرًا من الآيات في إثبات الشفاعة، وتحقق وقوعها في يوم القيامة، بعد إذنه سبحانه وتعالى للشافع ورضاه عن المشفوع له، كما ذكر آيات أخرى تنفي الشفاعة ووقوعها في يوم القيامة.

فهل هناك تعارض بين إثبات الشفاعة ونفيها ـ حسب ما تقدم من ظواهر الآيات؟ والجواب: أنه لا تعارض بينها، وستعرف أنه ليس هناك تعارض حقيقي، وإنما هو تعارض في الظاهر؛ إذ إن الآيات المثبتة للشفاعة أثبتتها في مكان خاص ولجماعة خاصة، والآيات التي نفت الشفاعة نفتها في مكان خاص ولجماعة خاصة، كما سيأتي تفصيل ذلك.

أ ـ الآيات التي ذكرها الله تعالى لإثبات الشفاعة ووقوعها في يوم القيامة بعد إذنه تعالى ورضاه:

١ ـ قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ مَا مِن شَفِيعِ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣].

٣ ـ وقــال تعــالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيــهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَتِذِ لِأَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ
 قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ الْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦].

٢ ـ ﴿ وَكَم مِن مَّلَك فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

فقد أثبت الله تعالى في هذه الآيات وغيرها أنه يقبل الشفاعة إذا أذن في ذلك؛ وبالتالي فيها إثبات للشفاعة الخالية عن الموانع.

ب وأما الآيات التي ذكرها سبحانه وتعالى في نفي الشفاعة وعدم وقوعها: ١ - فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ منْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مَن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيه وَلا خُلَةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَ لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ هَوُلاءِ شُفَعَازُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنبَّتُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي ستَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيسِعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤].

٥ - وقدال تعدالى: ﴿ وَذَرِ اللَّذِينَ اتَّخَذُوا دِيسنَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوا وَعَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ السُدُنْيَا وَذَكِرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِي وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدَلْ كُلَّ عَدْل لاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئكَ اللَّذِينَ أَبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَميم وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكُفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿ وَأَنذَرْ بِهِ اللَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم
 من دُونه وَلَى وَلا شَفيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٧ ـ وقال تعالى على لسان بعض عباده ـ وهو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ؛ لينصح قومه بهذه النصحية ـ: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ اللَّهِ مَن يُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونَ ﴾ [يس: ٢٣].

٨. وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَهِ نَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ

شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (عَنَى قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيسِعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

٩ ـ وقال تعالى: ﴿ وَأَنذَرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ما للظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

• ١ ـ وقال تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨].

١١ - وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللّه لا يَمْلكُونَ مَثْقَالَ ذَرَة فِي السَّمَوَات وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيسهما مِن شرَّكَ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ ذَرَة فِي السَّمَوَات وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فَيسهما مِن شرَّكَ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ
 (٣٣) وَلا تَسْفَعُ السَّقَفَاعَةُ عِسْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَ وَهُو الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٣٣].

١٢ ـ وقسال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَرْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ونكتفي بما تقدم إيراده من الأدلة في إثبات الشفاعة وفي نفيها المذكورة في القرآن الكريم .

أما القسم الأول: وهي الشفاعات المثبتة:

فهي خاصة بمن كان على التوحيد الخالص، وهي التي تطلب من الله تعالى وبأسبابها المعروفة، وقد ذكر الله تعالى ـ كما في الآيات السابقة ـ أنها لا تتحقق إلا بتحقق شرطين :

الأول : رضاه عن المشفوع له؛ لكونه من أهل التوحيد.

الثاني: إذنه للشافع أن يشفع.

أما الشرط الأول: فقد ذكره الله بقوله: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لَمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا يرتضي الله تعالى إلا من كان موحدًا ـ ويدخل فيه العاصي إذا كان موحدًا ـ قد رضي قوله وعمله، لم يتخذ من دون الله شفعاء، كما فعل المشركون الذين جعلوا مع الله شفعاء يتوسلون بهم إلى الله زلفي .

وأما الثاني: فقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِسَدَهُ إِلاَّ اللَّهِ عِلْمَ اللهِ عَلَى ب اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللهِ اللهِ عَلْمُ اللهِ عَلْمُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللهِ اللهِ اللهُ تَعالَى . تحصل هذه الشفاعة إلا بعد إذن الله تعالى .

وقد جمع الله بين الإذن والرضى في آية واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُم مِن مَلَكِ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذُ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩]، فإذا أذن الله تعالى ورضي؛ وقعت تلك الشفاعة، وإلا لم تقع ولم يتقدم لطلبها أحد، سواء أكان ملكًا مقربًا أم نبيًا مرسلاً.

الشفاعة في الدنيا: يأتي الشافع إلى من يرجى منه النفع فيشفع دون إذن ذلك المرجو أو علمه، فليس من شروط الشفاعة في الدنيا الإذن فيها، بخلاف الشفاعة إلى الله تعالى؛ فإنها لا تكون إلا بتحقق الشرطين السابقين؛ كما دل عليه كتاب الله تعالى: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشفاعة المنفية والمثبتة: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الانبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة ، كما نفاها القرآن الكريم ، وأخبر النبي عَلَي أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ـ لا يبدأ بالشفاعة أولاً ـ ثم يقال له: ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واسأل تعط ، واشفع تشفع .

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: ومن قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، ولا تكون لمن خالصًا من قلبه، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مسواضع، وقسد بين النبي عَلَيْ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص)(١).

فلا شفاعة إذًا من الملائكة لهؤلاء الذين أشركوا مع الله، ولا يستحقون أن

⁽١) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٢٨٨.

يكرمهم الله بقبول شفاعة أحد فيهم، فإن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بقبوله للشفاعة فيهم، فالأمر كله لله لا يشركه فيه أحد، ولا يملك أحد لأحد نفعًا إلا بإذن الله ؛ بل لا يملك الخلق حتى مجرد الكلام بدون إذن الله ـ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرَّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

أما القسم الثاني: وهي الشفاعات المنفية الشركية:

فالمراد بها الشفاعات التي «تطلب من غير الله أو بغير إذنه أو الأهل الشرك»(١).

وهذه هي التي تعلق بها أهل الشرك، وركنوا إلى آلهتهم؛ لتشفع لهم عند الله، ولتكون زلفي لهم إليه سبحانه وتعالى. وقد رد الله عليهم زعمهم هذا في آيات كثيرة، وقطع أطماعهم في شفاعة آلهتهم عنده.

ومن الأدلة على أنها شركية: أن طالبها من غير الله تعالى وتقدس بذوي وبغير أسبابها المعروفة، إن هذا الطالب قد شبه الله تعالى وتقدس بذوي السلطان من الناس الذين يحتجبون غالبًا عنهم، فيجهلون كثيرًا من أمورهم، أو تصرفهم عن قضاء حاجاتهم صوارف عديدة، فينصرف ذوو الحاجات إلى وزرائهم والمقربين إليهم ليشفعوا لهم، وعلى هذا فإن من اتخذ الشفعاء من دون الله؛ قياسًا وتشبيهًا لله عز وجل بهؤلاء؛ فإنه قد كفر، ولأنه جهل الصفات الإلهية كصفات علم الله تعالى وإحاطته بخلقه، التي منها قوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرُبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، وكونه عز وجل يعلم السر وأخفى، ويعلم سرهم وجهرهم وما يكتمون.

⁽¹⁾ انظر: الكواشف الجلية ص ٣٥٢.

وبين تعالى في كتابه الكريم أنه ليس هناك زلفى إلى الله إلا بالعمل الصالح، وأما ادعاؤهم تعظيم الله باتخاذ الوسطاء إليه؛ فإنه من الشرك الذي لم يأمر به، وليس عليه أي حجة إلا اتباع الظن.

وقد أخبر تعالى في كتابه الكريم عن الكفار الذين لا قوه على الكفر أنهم لا تنفعهم شفاعة أحديوم القيامة؛ لأن الشفاعة لا تكون إلا إذا كان المحل قابلاً، وهؤلاء ليسوا محلاً لقبول الشفاعة.

وما تقدم من الآيات التي فيها نص على الشفاعة كلها تفيد أن الشفاعة لله وحده ولمن ارتضى.

梅 俗 培



الفصل الثالث أقسام الشفاعات الثابتة

١ _ الشفاعة العظمى.

٢ ـ الشفاعة في دخول المؤمنين الجنة.

٣. الشفاعة لرفع درجات أهل الجنة.

٤ ـ الشفاعة لقوم استحقوا النار أن لا يدخلوها.

٥ ـ الشفاعة في أهل الكبائر .

٦ ـ شفاعة الرسول على لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه .

٧ ـ الشفاعة لأقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٨ـ شفاعة الرسول ﷺ لأهل المدينة المنورة .

ومن هذه الشفاعات ما هو خاص بالرسول على ومنها ما يكون له وللأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام، ومنها ما يكون لخواص الخلق، إلى غير ذلك مما سنذكر تفصيله.

وحيث إن الشفاعة لمن ذكرناهم؛ فإن الشفاعة لأبي طالب ليست من غرض بحثنا؛ لأن أبا طالب من أهل النار الذين استقروا فيها، وليس لهم مصير غيرها.

وكذا الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة ليست من غرضنا؛ لأنها في

أقوام قد استقر مصيرهم، وإنما ذكرت هذا القسم من الشفاعة من باب التقسيم.

والواقع أن تلك الأقسام السابقة التي ذكرناها للشفاعة ليست من الأمور المتفق عليها بهذا التقسيم؛ بل إن العلماء قد اختلفوا في عد أنواع من الشفاعة ـ مستقلة أو مندرجة مع غيرها ـ كما يتضح ذلك مما يلي :

فمثلاً هي عند ابن كثير ثمان شفاعات:

الشفاعة العظمى، وشفاعته على أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها، وشفاعته على في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وشفاعته على في دخول أقوام الجنة بغير حساب وإن كان هذا النوع من الشفاعة قد تردد فيه، وإنما نقله عن القاضى عياض.

فهو يقول: «ولم أر لهذا شاهداً فيما علمت، ولم يذكر القاضي عياض فيما رأيت مستند ذلك، ثم تذكرت حديث عكاشة بن محصن حين دعا له الرسول على أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب. والحديث مخرج في الصحيحين ـ كما تقدم، وهو يناسب هذا المقام»(١).

وكذا شفاعته على تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وشفاعته على للمؤمنين الذين استحقوا دخول الجنة بدخولها، وأخيرًا شفاعته على في أهل الكبائر من أمته (٢) ، بينما هي عند ابن القيم ست شفاعات (٣) .

⁽١) النهاية ٢/ ٢٧٥، وانظر: ص ٢٦٩ إلى ص ٢٧٥.

⁽٢) نفس المرجع السابق.

⁽٣) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٢٩٤.

ويذكر القرطبي «أن العلماء اختلفوا في شفاعاته ﷺ، وكم هي؟

فقال النقاش: لرسول الله على ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر.

وقال ابن عطية في تفسيره: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء؛ بل يشفعون ويشفع العلماء.

وقال القاضي عياض: شفاعات نبينا على يوم القيامة خمس شفاعات: فذكر الشفاعة العامة، وإدخال قوم الجنة بغير حساب، وشفاعته لقوم استوجبوا النار بذنوبهم أن يخرجوا منها، وشفاعته لأقوام آخرين استحقوا النار أن لا يدخلوها، وشفاعته على في زيادة رفع الدرجات في الجنة (۱). وهكذا عند السفاريني (۱).

ويمكن أن يقال في تلك الشفاعات بأن اعتبار كل نوع من أنواع الشفاعات مستقلاً بنفسه أو مندرجاً تحت غيره من أنواع الشفاعات إنما هو أمر اجتهادي؛ فبعض العلماء يعدد أنواعاً كثيرة، وبعضهم يدرج أنواع الشفاعات في بعضها.

وقد ذكر ابن حجر رحمه الله أنواعًا من الشفاعات، وذكر أن بعض تلك الشفاعات يمكن أن يندرج تحت بعضها الآخر؛ كما فعل حينما استطرد في بيان أنواع الشفاعات(٢٠).

⁽١) انظر: التذكرة ص ٢٤٩.

⁽٢) لوامع الأنوار ص ٢١٦-٢١٢، جـ٢.

⁽٣) فتح الباري ١١/ ٨٢٩.٤٢٨.

وقد أفرد ابن حجر الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، وأفرد كذلك الشفاعة فيمن قال لا إله إلا الله، ولم يعمل خيرًا قط(١).

وسوف نعقد لكل قسم من تلك الأقسام التي تقدمت للشفاعة فصلاً مستقلاً.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أن بحث الشفاعة وأقسامها قد استوفيته في مكان واحد؛ وذلك ليكون بحث الشفاعات مجموعاً مع بعضه في مكان واحد؛ لكي لا يتخلله ما ليس منه، كما لو فرقناه حسب الترتيب الزمني، فإن هذا - وإن كان ممكناً - لكنه يفصل بحث الشفاعات عن بعضها.

فمثلاً الشفاعة العظمى يفصلها عن بقية الشفاعات أشياء أخرى من أمور القيامة ؟ كمجيء الله لفصل القضاء، وما بعده من أمور وهكذا، فلو فرقناه حسب ترتيبه الزمني في يوم القيامة ؟ لتفرق بحث الشفاعة .

وأول ما نبدأ به من بحث تلك الشفاعات، الشفاعة العظمي فنقول:

النوع الأول من أنواع الشفاعات المثبتة: الشفاعة العظمى:

نهفید :

وفي هذا الموقف العظيم - الذي قدمنا الإشارة إليه - الناس في قلق شديد، وكرب عظيم، لا يدرون كيف يهتدون إلى الخلاص عما هم فيه ؛ يلهم الله تعالى بعض عباده طلب الشفاعة من الرسل إلى الله تعالى لفصل القضاء وإراحتهم مما هم فيه .

فيتقدم هؤلاء لطلب الشفاعة، وسواء أكان هؤلاء المتقدمون هم من

⁽١) فتح الباري ١١/ ٤٢٨. ٨٢٩.

العلماء العاملين أم من رؤساء أتباع الرسل أم من سائر من في الموقف؛ فهم يتقدمون بذلك الطلب والإلحاح إلى الرسل، وأولهم آدم عليه السلام، ثم من بعده، وكل رسول يعتذر ويقول: «عليكم بفلان، فإنه كذا وكذا» يمدحه.

وهكذا إلى أن ينتهوا إلى محمد ﷺ، عند ذلك تبدأ الشفاعة وتبدأ أولى علامات الانتهاء من كرب ذلك الموقف الرهيب، وهذا هو المقام المحمود الذي وعده به ربه، فيقول: أنا لها، أنا لها. وما ذلك إلا لأنه ﷺ يعلم أن الله قد وعده بها، والله لا يخلف الميعاد، ولم يقل ذلك اعتداداً بنفسه لما له عند الله أو تطاولاً، فهو أعلم الناس بربه وبما يليق به.

ثم يأتي ربه فيخر ساجداً تحت العرش، يحمد الله ويعظمه بمحامد يلهمه الله تعالى إلى أن يناديه تعالى إلى أن يناديه المولى جلت قدرته: «ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع».

فيغبطه الأولون والآخرون، ويعلمون أنه أفضل البشر وأرفعهم درجة، والظاهر من ترددهم على الأنبياء؛ أنه متتابع، وإن كان القرطبي قد ذكر أن بين إلى المحمد الله عام، وكذا بين كل نبي إلى محمد الله علم.

وذكر أن الذين يطلبون الشفاعة لدى الأنبياء هم العلماء العاملون الذين يجلسون على كراسي من نور، ثم عزا هذا القول إلى أبي حامد الغزالي، وذكر قولاً آخر لابن برجان: أن الذين يلهمون طلب الشفاعة هم رؤوس المحشر، وهم رؤساء أتباع الرسل(۱).

وقد رد السفاريني رحمه الله على قول الغزالي ـ أن بين إتيان أهل الموقف

⁽١) انظر: التذكرة ص ٢٤٥ ٣٢٣.

آدم وإتيانهم نوحًا ألف سنة، وكذا بين كل نبي ونبي بأنه قول لا دليل عليه (١).

وقد قال ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ في هذا الموضوع: «لم أقف لذلك على أصل»، وقال أيضًا عما أورده الغزالي في كتابه كشف علوم الآخرة: «ولقد أكثر في هذا الكتاب من إيراد أحاديث لا أصول لها؛ فلا يغتر بشيء منها»(٢) .

وأمر الشفاعة العظمى معلوم لدى كل مسلم، يقول ابن كثير رحمه الله عند قوله عليه : «واعطيت الشفاعة» يقول: «يعني بذلك الشفاعة العظمى؛ وهي الأولى التي يشفع فيها عند الله عز وجل ليأتي لفصل القضاء، وهي التي يرغب إليه فيها الخلق كلهم، حتى الخليل إبراهيم وموسى الكليم وسائر النبيين والمرسلين، والمؤمنين، ويغبطه بها الأولون والآخرون، فهذه هي الشفاعة التي اختص بها دون غيره، فأما شفاعته في العصاة: فكما ثبتت له ثبتت لغيره من الأنبياء، وكذلك الملائكة وسائر المؤمنين» (٣).

وقال السفاريني: «والشفاعات المختصة به تلك عدة: أولها وأعظمها وأعمها: شفاعته تلك لفصل القضاء بين الورى»(١). وقال أيضًا: «شفاعة المنبي تلك نوع من السمعيات، وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي، وانعقد عليها إجماع أهل الحق من السلف الصالح»(٥).

⁽١) انظر: لوامع الأنوار ص ٢٠٨، جـ ٢.

⁽٢) فتح الباري ١١/ ٤٣٤.

⁽٣) انظر: النهاية ٢/ ٢٦٩.

⁽٤)، (٥) لوامع الأنوار ٢/ ٢١١.

وذكر أن هذه الشفاعة مجمع عليها لا اختلاف فيها بين المسلمين، فقال: «لكن هذه الشفاعة العظمى مجمع عليها لم ينكرها أحد ممن يقول بالحشر؛ إذ هي للإراحة من طول الوقوف، حين يتمنون الانصراف من موقفهم ذلك ولو إلى النار»(١).

وحتى المعتزلة فإنهم يثبتون هذه الشفاعة في أهل الموقف، كما قال القاضي عياض فيما ينقله عنه النووي بقوله: «وهذه أي شفاعته على في رفع درجات أهل الجنة لا ينكرها المعتزلة، ولا ينكرون أيضًا شفاعة الحشر الأول»(1).

ومما يؤخذ على ابن أبي العز شارح الطحاوية رحمه الله: أنه عمم الحكم على المعتزلة في نفيهم لما عدا الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، ومعلوم أنهم لا ينفون الشفاعة العظمى، وهذا التعميم في قوله: «وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات؛ مع تواتر الأحاديث فيها»(٣).

وهذا التعميم لعله يصدق على طائفة من المعتزلة، كما يفيده كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله عن الوعيدية من الخوارج والمعتزلة وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في دفع بعض الدرجات، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقًا»(١٠).

⁽١) ألوامع الأنوار ص ٢٠٨.

⁽٢) انظر شرح النووي لمسلم ١/ ٤٤٣.

⁽٣) انظر: شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

⁽٤) انظر: مجموع الفتاوي ١/ ٣١٤.

وإذا كانت الشفاعة العظمى خاصة به على ، فلماذا لم يبادر إليه أهل الموقف ويطلبون منه التقدم لربه فيها من أول الأمر؟ أو ما السر في تأخيره على في الطلب؟

أجاب عن هذا السؤال السفاريني بقوله:

«وحكمة إلهام الناس التردد إلى غير النبي تلك قبله، ولم يلهموا المجيء إليه من أول وهلة؛ لإظهار فضله وشرفه تلك»(١).

ويقول ابن حجر: «ولعل الله تعالى أنساهم ذلك يعني المجيء إلى الرسول لطلب الشفاعة من أول وهلة للحكمة التي تترتب عليه من إظهار فضل نبينا ﷺ »(٢) .

وفيما يلي نذكر أدلة تلك الشفاعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عَلِيُّ .

أ ـ الأدلة من القرآن الكريم على حصول الشفاعة العظمى :

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه على: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

ولئن كان الخلاف قد اشتد بين العلماء في المراد بالمقام المحمود؛ إلا أن أغلب العلماء على اتفاق أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى، وعلى هذا فإن تلك الآية هي الدليل من القرآن الكريم على اختصاص نبينا على بالشفاعة العظمى، ونذكر فيما يلي-بإيجاز-إيضاح أقوال العلماء في المقام المحمود وهي:

⁽١) لوامع الأنوار ٢/ ٢٠٨.

⁽٢) فتح الباري ١١/ ٤٤١.

ما هو المقام المحمود ؟

- ١ المقام المحمود هو الشفاعة العظمي.
- ٢ ـ المقام المحمود هو إعطاؤه عليه الصلاة والسلام لواء الحمد يوم القيامة.
 - ٣- المقام المحمود هو إخراجه طائفة من النار.
 - المقام المحمود هو شفاعته رابع أربعة .
 - ٥ ـ هو أن يجلس الله تبارك وتعالى نبيه محمدًا على كرسيه(١) .
 - ٦ ـ المقام المحمود هو أخذ الرسول ﷺ بحلقة باب الجنة .
- ٧ ـ هـ و أن النبي على يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل ؛ فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع .

وفي بيان هذه الأقوال نذكر ما يلي :

أما القول الأول. وهو أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى ـ فإن أكثر العلماء قد رجحه، كالطبري، وابن كثير، والقرطبي، وابن حجر، وغيرهم من أهل العلم، وهو القول الذي ينبغي اعتقاده؛ لكثرة من رواه عن الصحابة من السلف.

وقد ذكر الطبري منهم: حذيفة بن اليمان، وابن عمر، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وسلمان، وقتادة.

ومن الأدلة التي تدل على أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى: ما ورد

⁽۱) انظر: جامع البيان ١٥/ ١٤٤ ـ ١٤٨، والتذكرة للقرطبي ص ٢٩٩، ٣٠٠، وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٥_٥٨، وفتح الباري ٣/ ٣٣٩ و ٨/ ٣٩٩.

من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: وإن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد على فيشفع ليقضى بين الخلق؛ فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومنذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم، (١).

وبما جاء عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله عَظَّ في قوله: ﴿ عَسَىٰ أَن يَهْ عَلَكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وسئل عنها؛ فقال: هي الشفاعة، (١٠) .

وبما جاء عن كعب بن مالك أن رسول الله عَلَيْهُ قال: البيعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي تبارك وتعالى حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول؛ فذاك المقام المحمود، (٣).

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهةي في شعب الإيمان، من طريق علي ابن حسن قال: أخبرني رجل من أهل العلم أن النبي على قال: «تعد الأرض يوم القيامة مد الأديم، ولا يكون لبشر من بني آدم فيها إلا موضع قدميه، ثم أدعى أول الناس، فأخر ساجداً ثم يؤذن لي فاقول: يا رب، أخبرني هذا لجبريل وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه جبريل قبلها قط إنك أرسلته إليّ، وجبريل عليه السلام ساكت لا يتكلم حتى يقول الرب: صدقت، ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول: أي رب، عبادك عبدوك في أطراف الأرض، فذلك المقام المحمود، (٤). قال ابن حجر:

⁽۱) صحيح البخاري ٢/ ٣٣٨.

⁽۲) سنن الترمذي ۳/ ٤٥٦.

⁽۳) تفسير الطبري ۱۵/ ۱٤٦.

 ⁽٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٢٥، وعزاه إلى من ذكر، وأخرجه ابن جرير جـ ١٥
 ص ١٤٦ من تفسيره.

«ورجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابيًا»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن الناس يحشرون يوم القيامة فيجيء مع كل نبي أمته، ثم يجيء رسول الله عَلَظ في آخر الأم هو وأمته فيرقى هو وأمته على كوم فوق الناس فيقول: يا فلان، اشفع، ويا فلان، اشفع، فما زال يرددها بعضهم على بعض يرجع ذلك إليه وهو المقام المحمود الذي وعده الله إياه»(٢).

وعن حذيفة قال: «يجمع الناس في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قيامًا لا تكلم نفس إلا بإذنه ينادي: يا محمد، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، عبدك بين يديك وبك وإليك، لا ملجاً ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت. فهذا المقام الذي ذكره الله تعالى "(").

ولعله لا تنافي بين تلك الأقوال، فهي متقاربة في المعنى؛ ذلك أن القول الثاني لا ينافي القول بأنه الشفاعة العظمى، فإن لواء الحمد يكون بيده، وهو كذلك أول شافع، وكذلك القول الثالث؛ فإن إخراج طائفة من النار بسببه مقام عظيم وشرف جليل، وأما القول الرابع، وهو شفاعته رابع أربعة، وكذا القول الخامس أن الرسول على يجلس على كرسي الله تعالى، وكذا القول السادس، وهو أنه أخذ الرسول على بحلقة باب الجنة، والقول السابع، وهو وقوفه على بين الجبار وجبريل؛ فلاشك أن كل ذلك يعتبر مقامًا محمودًا، لكن

⁽١) فتح الباري ٨/ ٤٠٠.

⁽٢) جامع البيان ١٥/ ١٤٦.

⁽٣) جامع البيان ص ١٤٤.

الأكثرون على القول الأول.

ومعنى القول الرابع وهو أن المقام المحمود هو شفاعة الرسول على رابع أربعة معناه أن يسبق الرسول على ثلاثة فيشفعون، ثم يأتي على فيشفع فيكون ترتيبه الرابع ، وإذا كان كذلك فمن هم الثلاثة الذين سبقوه بالشفاعة ؟ يقول القرطبي عن جواب ذلك: «وذكر ابن السماك أبو عمرو عثمان بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن جعفر بن الزبرقان قال: أخبرنا علي بن عاصم قال: حدثنا خالد الحذاء عن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبي الزعراء قال: قال عبد الله بن مسعود: يشفع نبيكم رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى أو عيسى، ثم نبيكم على ثم الملائكة ، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء».

قال القرطبي: «قال المؤلف رحمه الله: وقيل: إن هذا هو المقام المحمود لنبينا على ، خرجه أبو داود الطيالسي قال: حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه ، عن أبي الزعراء ، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام، ثم يقوم إبراهيم خليل الله على ثم يقوم موسى أو عيسى عليهما السلام، قال أبو الزعراء: لا أدري أيهما، قال: ثم يقوم نبيكم على رابعًا فيشفع لا يشفع لأحد بعده في أكثر مما يشفع وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَنَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مُحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]» (١) .

وأما القول الخامس؛ وهو أن يجلس الله تبارك وتعالى نبيه محمداً على معه على كرسيه، فإن ابن جرير الطبري - رحمه الله - قد ذكر كلامًا كثيرًا حول

⁽١) انظر: التذكرة ص ٤١٣.

معنى هذا وتوجيهه، وهذا القول يحكى عن مجاهد. وفيه يقول ابن جرير: «إن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمدًا على عرشه قول غير مدفوع صحته لا من جهة خبر ولا نظر؛ وذلك لأنه لا خبر عن رسول الله على ولا عن أحد من أصحابه ولا عن التابعين بإحالة ذلك».

ثم ذكر أن القاتلين بذلك لا يقولون بمماسة الرسول و لا العسرش والكرسي لله سبحانه وتعالى فسواء أقعد محمدًا و على الكرسي أو على الأرض فهو غير محاس له، وبعضهم ذهب إلى أن الله تعالى ـ وإن كان محاسًا للعرش باستوائه عليه لكن جلوس الرسول و معه ليس موجبًا له صفة الربوبية، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه(١).

وقد أعرض بعض العلماء عن ذكر هذا القول، بل وقال فيه بعضهم ـ وهو القرطبي ـ: «إنه قول مرغوب عنه»، قال: «وإن صح الحديث ـ أي الحديث الذي استدلت به الطائفة التي قالت هذا القول ـ فيتأول على أنه يجلسه مع أنبيائه وملائكته».

ثم استشهد القرطبي بقول ابن عبد البر في مجاهد الذي نسهب إليه هذا القول وهو قوله: «ومجاهد وإن كان أحد الأثمة في تأويل القرآن، فإن له قولين مسه جورين عند أهل العلم؛ أحدهما هذا، والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذُ نَاضِرَةٌ (٣٣) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال: تنتظر الثواب وليس من النظر »(٢).

وأما القول السادس؛ فقد استدل القائلون به بحديث ابن عمر السابق:

⁽١) انظر: جامع البيان ١٥/ ١٤٧، ١٤٨.

⁽٢) التذكرة ص ٣٠٠.

«فيشفع ليقضي بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم «(١).

وأما القول السابع؛ فيستدل له بما رواه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن أبي هلال، أنه بلغه أن المقام المحمود الذي ذكره الله أن النبي عَلَيْهُ يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل، فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع، قال ابن حجر: ورجاله ثقات لكنه مرسل(٢).

ومهما كثرت الأقوال في بيان المقام المحمود، فإن القول بأنه الشفّاعة العامة لإراحة الناس من كرب الموقف يبقى هو الأقوى.

ب ـ الأدلة من السنة على ثبوت الشفاعة العظمى لنبينا محمد ﷺ :

ووردت في السنة النبوية عدة أحاديث في إثبات الشفاعة العظمى التي أكسرم الله بها نبيه محمداً عَلَي حيث يلبي طلبه فيأتي تبارك وتعالى لفصل القضاء في أهل الموقف، ومن تلك الأدلة ما يلي :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتي رسول الله على بلحم فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة ، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر (٣) ، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الفم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم؟

⁽١) فتح الباري ٣/ ٣٣٨، ٣٣٩.

⁽٢) المصدر السابق ٨/ ٤٠٠.

⁽٣) أي يحيط بهم الراثي؛ لا يخفى عليه منهم شيء لاستواء الأرض.

فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام؛ فيقولون له: أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح.

فياتون نوحاً في قولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قن كانت لي دعوة؛ دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات _ فذكر هن أبو حيان (۱) في الحديث _ نفسي نفسي، أذهبوا إلى غيري، أذهبوا إلى موسى.

فياتون موسى فيتقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسًا لم أو مر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيس فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله عُظَّة ، وكلمته ألقاها إلى مريم،

⁽١) هو أحدرواة الحديث.

فيأتون محمدًا عَلَيْ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى، (١).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي على قال: «يجمع الله المؤمنين يوم القيامة، فيهتمون لذلك فيقولون؛ لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون؛ يا آدم، أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول؛ لست هناك، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن انتوا نوحًا؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

فيأتون نوحًا فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب، ولكن انتوا إبراهيم خليل الرحمن.

فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناكم. ويذكر لهم خطاياه التي أصابها. ولكن انتوا

⁽١) البخاري ٨/ ٣٩٥، وأخرجه مسلم ١/ ٤٦٩.

موسى عبدًا؛ آتاه الله التوراة وكلمه تكليمًا.

فيأتون موسى فيقول: لست هناكم. ويذكر لهم خطيئته التي أصابها. ولكن انتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه.

فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن انتوا محمدًا عَلَي عبدًا غفر له ما تقدم من ذنيه وما تأخر.

فيأتونني، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعظه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعظه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعظه واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعظه واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود.

فقال النبي عَنَّهُ: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة، (۱) .

وقال البخاري رحمه الله: «حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن

⁽۱) البخاري ۱۱/ ۳۹۲، وأخرجه أيضاً في ص ٤٢٢ ببعض الزيادات، وفيه قول قتادة: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم علم أخرجه كذلك في جر ١١ ص ٤١٧، وأخرجه مسلم ١/ ٤٥٩.

زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بشابت البناني إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة.

فقال: حدثنا محمد عَلَيْهُ قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها ولكن عليكم ببإبراهيم؛ فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد عَلَيْهُ.

فيأتونني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا يحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع.

فأقول: يا رب، أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدًا فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجهم من النار، فأنطلق فأفعل.

فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل أبي خليفة فحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: فلم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثنا وهو جميع منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا.

فقلنا: يا أبا سعيد؛ فحدثناه، فضحك وقال: خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أحدثكم به، حدثني كما حدثكم به قال: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب، انذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله، (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عَلَا : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع، (٢) .

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله عَلَيّة : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عند يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر، (٢).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «أصبح رسول الله علي ذات يوم

⁽١) البخاري ١٣/ ٤٧٣، ومسلم ١/ ٤٦٥.

⁽٢) صحيح مسلم جـ٥ ص ١٣٦.

⁽٣) ابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٤٠، وبنحوه أخرجه أبو داود جـ ٢ ص ٥٢١ عن أبي هريرة، ولم يذكر لواء الحمد.

وأخرجه الترمذي جـ ٥ ص ٥٨٧ عن أبي سعيد بزيادة: «وما من نبي يومسَدَّ الم قمن سواه إلا تحت لواني».

فصلى الغداة ثم جلس، حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله على ، ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلم، حتى صلى الخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبي بكر: ألا تسأل رسول الله على ما شأنه؟ صنع اليوم شيئًا لم يصنعه قط، قال: فسأله فقال:

نعم، عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد، ففظع الناس بذلك حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام، والعرق يكاد يلجمهم، فقالوا: يا آدم، أنت أبو البشر، وأنت اصطفاك الله عز وجل، اشفع لنا إلى ربك، قال: لقد لقيت مثل الذي لقيتم، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم؛ إلى نوح، إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.

قانت فينطلقون إلى نوح عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارًا، فيقول: ليس ذاكم عندي، انطلقوا إلى إبراهيم عليه السلام، فإن الله عز وجل اتخذه خليلاً.

فينطلقون إلى إبراهيم فيقول: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى موسى عليه السلام، فإن الله عز وجل كلمه تكليمًا.

فيقول موسى عليه السلام: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى عيسى بن مريم، فإنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى.

فيقول عيسى: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، انطلقوا إلى محمد عَلَيْكُ فيشفع لكم إلى ربكم عز وجل.

قال: فينطلق، فيأتي جبريل عليه السلام ربه، فيقول الله عز وجل: انذن له وبشره بالجنة، قال: فينطلق به جبريل فيخر ساجدًا قدر جمعة، ويقول الله عز وجل: ارفع رأسك يا محمد، وقل يسمع، واشفع تشفع، قال: فيرفع رأسه، فإذا نظر

إلى ربه عز وجل، فخر ساجدًا قدر جمعة أخرى، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، قال: فيذهب ليقع ساجدًا فيأخذ جبريل عليه السلام بضبعيه، فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئًا لم يفتحه على بشر قط، فيقول: أي رب، خلقتني سيد ولد آدم ولا فخر، وأوز من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، حتى إنه ليرد على الحوض أكثر مما بين صنعاء وأيله، ثم يقال: ادعوا الصديقين فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الأنبياء.

قال: فيجيء النبي عَلَى ومعه العصابة، والنبي ومعه الخمسة والستة، والنبي وليس معه أحد، ثم يقال: ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا، وقال: فإذا فيعلت الشهداء ذلك، قال: يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين، أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئًا، قال: فيدخلون الجنة، قال: ثم يقول الله عز وجل: انظروا في النار، هل تلقون من أحد عمل خيرًا قط؟، قال: فيجدون في النار رجلًا، فيقول له: هل عملت خيرًا قط؟ فيقول: لا، غير أني كنت أسامح الناس في البيع والشراء، فيقول الله عز وجل: اسمحوا لعبدي كإسماحه إلى عبيدي.

ثم يخرجون من النار رجلاً فيقول له: هل عملت خيراً قط؟ فيقول: لا، غير أني قد أمرت ولدي إذا مت فأحرقوني بالنار ثم اطحنوني، حتى إذا كنت مثل الكحل فاذهبوا بي إلى البحر فأذروني في الريح، فوالله لا يقدر علي رب العالمين أبداً، فقال الله عز وجل: لم فعلت ذلك؟ قال: من مخافتك، قال: فيقول الله عز وجل: انظر إلى ملك أعظم ملك، فإن لك مثله وعشرة أمثاله. قال: فيقول: لم تسخر بي وأنت الملك؟ قال: وذاك الذي ضحكت منه الضحى، (١).

ونكتفي بما تقدم ذكره من عرض أحاديث الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد على الأخاديث فيها كثيرة، ثم هي من القضايا المسلمة لدى كل مسلم.

⁽١) المستد ١/ ٤.

وقد وردت بعض الإشكالات في أحاديث الشفاعة العظمى وهي: 1 ـ الإشكال الأول:

أن أحاديث الشفاعة العظمى قد جاءت على أشكال مختلفة، وذلك أن أولها يذكر الشفاعة العظمى لإراحة الناس من هول الموقف بنزول الله تعالى لفصل القضاء، وآخرها يذكر الشفاعة لإخراج أقوام من النار.

وهذا هو السبب الذي جعل بعض الرواة لا يذكرون الشفاعة العظمى في أهل الموقف في نزول الله لفصل القضاء فيما بينهم، بل يأخذون بعد سرد أحاديثها في الرد على الخوارج وغيرهم ممن ينكر إخراج عصاة المؤمنين من النار، ومعلوم أن الشفاعة العظمى إنما هي لإراحة الناس من الموقف، لا لإخراجهم من النار؛ لأنهم لم يدخلوها بعد، وإنما هم في الموقف ينتظرون نزول الله تعالى لفصل القضاء بينهم.

وقد تعجب العلامة ابن أبي العز أشد العجب بمن أغفل الكلام عن الشفاعة العظمى، ولم يأخذ من أحاديثها إلا إثبات شفاعة الرسول على في في الحراج طائفة دخلوا النار أن يخرجوا منها، كما في قوله: "والعجب كل العجب من إيراد الأثمة لهذا الحديث من أكثر طرقه لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى في مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصور(١)، فإنه المقصود في هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث.

فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار،

⁽١) حديث الصور حديث طويل ذكره ابن كثير في النهاية ١/ ٢١٤. وقد أخرجه الطبري في تفسيره جـ ٢ ص ٣٣٠ ، وسيأتي الكلام عنه .

وكأن مقصود السلف في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج، ومن تابعهم من المعتزلة الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث»(1).

وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف صار الحديث في الشفاعة العظمى مشتملاً على الشفاعة في إخراج عصاة المؤمنين من النار وهما متغايرتان؟

وهذا الاستشكال أثاره الداودي كما ينقل عنه ابن حجر ذلك، حيث شرح قوله في الحديث: «ثم أخرجهم من النار»، فقال: «قال الداودي: كأن راوي هذا الحديث ركب شيئًا على غير أصله، وذلك أن في أول الحديث ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار، يعني وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف، والمرور على الصراط، وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج والى ابن حجر: وهو إشكال قوي».

ثم ذكر الإجابة عن هذا الإشكال بجواب عياض والنووي وغيرهما «بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله: فيأتون محمدًا فيقوم ويؤذن له ـ أي في الشفاعة ـ وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يمينًا وشمالًا، فيمر أولكم كالبرق، الحديث.

قال عياض: فبهذا يتصل الكلام؛ لأن الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها هي الإراحة من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج، وقد وقع في حديث أبي هريرة ـ يعني الأثر في الباب الذي يليه ـ بعد ذكر الجمع في الموقف ـ

⁽١) شرح الطحاوية ص ٢٥٥.

الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف، قال: وبهذا تجتمع متون الأحاديث وتترتب معانيها».

وعزا ابن حجر هذا الاختلاف في وقائع الشفاعة العظمى إلى الرواة بقوله: «قلت: فكأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر»(١).

قال ابن حجر: «فظهر منه أنه تلله أول ما يشفع ليقضي بين الخلق، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك»(٢).

وقد جاء من طريق حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه بلفظ: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد عَلَيْهُ؛ فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى ياخذ بحلقة الباب، فيومنذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم، (٣).

قال ابن حجر: «وتعرض الطيبي للجواب عن الإشكال بطريق آخر فقال: يجوز أن يراد بالنار الحبس والكرب والشدة التي كان أهل الموقف فيها، من دنو الشمس إلى رؤوسهم، وكربهم بحرها وسفعها، حتى ألجمهم العرق، وأن يراد بالخروج منها خلاصهم من تلك الحالة التي كانوا فيها».

وهذا تأويل لا يتبادر إلى الفهم من نص الحديث، ولهذا فإن ابن حجر لم يوافق على هذا الجواب من الطيبي، ووصفه بأنه: «احتمال بعيد».

⁽۱)، (۲) فتح الباري ۱۱/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

⁽٣) صحيح البخاري ٣/ ٣٣٨.

«إلا أن يقال: إنه يقع إخراجان؛ وقع ذكر أحدهما في حديث الباب على اختلاف طرقه، والمراد به الخلاص من كرب الموقف.

والثاني في حديث الباب الذي يليه، ويكون قوله فيه: «فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، بعد تمام الخلاص من الموقف، ونصب الصراط، والإذن في المرور عليه، ويقع الإخراج الثاني لمن يسقط في النار حال المرور فيتحدا»(١).

٢ ـ الإشكال الثاني:

ومما يستشكل كذلك في أحاديث الشفاعة العامة؛ قول الرسول على الحينما قيل له: «ادفع دأسك وقل يسمع واشفع تشفع»: «أمتي أمتي»، إذ إن المقام يقتضي أن يكون طلب الشفاعة عامًا لجميع الخلق دون أن يخص أمته بذلك، وهو يطلب الشفاعة لإراحة الخلق من كرب الموقف وفصل القضاء بينهم.

وقد أجيب عن ذلك:

١ ـ بأنه لعل هذه اللفظة غير واردة في الحديث، وهذا على سبيل الظن.

٢ - أن هذه اللفظة ليست من نص الحديث؟ بل هي زيادة خارجة عنه على
 سبيل الجزم، ولكن ابن حجر العسقلاني لم يرتض هذا الجواب؟ لأن الحديث
 متصل بهذا السياق.

٣- وبعضهم أجاب بأن السياق من أول الحديث ينتهي عند قوله: ،فاستاذن على دبي فيؤذن لي، أي في الشفاعة العامة ، وقوله بعد ذلك: «ويلهمني معامد» إلى آخر الحديث كلامًا مستأنفًا.

⁽١) فتح الباري ١١/ ٤٣٨.

وفيما يلي نص كلام ابن حجر ونقله عن العلماء إجاباتهم عن هذا الإشكال:

قال ابن حجر: «فأقول أمتي أمتي» قال الداودي: «لا أراه محفوظًا؛ لأن الخلائق اجتمعوا واستشفعوا، ولو كان المراد هذه الأمة خاصة؛ لم تذهب إلى غير نبيها، فدل على أن المراد الجميع، وإذا كانت الشفاعة لهم في فصل القضاء؛ فكيف يخصها بقوله: «أمتي أمتي، ثم قال: وأول هذا الحديث ليس متصلاً بآخره، بل بقي بين طلبهم الشفاعة وبين قوله: «فاشفع، أمور كثيرة من أمور القيامة.

قلت: وقد بينت الجواب عن هذا الإشكال عند شرح الحديث بما يغني عن إعادته هنا(١).

وقد أجاب عنه القاضي عياض بأن معنى الكلام: فيؤذن له في الشفاعة الموعود بها في فصل القضاء، وقوله: «ويلهمني» ابتداء كلام آخر، وبيان للشفاعة الأخرى الخاصة بأمته، وفي السياق اختصار.

وادعى المهلب أن قوله: «فأقول: يا رب أمتي، بما زاد سليمان بن حرب على سائر الرواة، كذا قال، وهو اجتراء على القول بالظن الذي لا يستند إلى دليل؛ فإن سليمان بن حرب لم ينفرد بهذه الزيادة؛ بل رواها معه سعيد بن منصور عند مسلم، وكذا أبو الربيع الزهراني عند مسلم، والإسماعيلي ولم يسق مسلم لفظه و يحيى بن حبيب بن عدي عند النسائي في التفسير، ومحمد بن عبيد بن حساب، ومحمد بن سليمان كلاهما عند الإسماعيلي ومحمد بن سليمان كلاهما عند الإسماعيلي و

⁽١) لعله يشير إلى ما سبق من قوله: «فكأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر».

كلهم عن حماد بن زيد شيخ سليمان بن حرب فيه بهذه الزيادة، وكذا وقعت هذه الزيادة في هذا الموضع من حديث الشفاعة في رواية أبي هريرة الماضية في كتاب الرقاق، وبالله التوفيق»(١١).

وأخيرًا، وبعد عرض ما تقدم، فإنه اتضح من بحث الشفاعة العظمى أنها تتلخص فيما يلي:

- ١ ـ أنها أولى الشفاعات.
- ٢ . أنها خاصة بنبينا محمد على .
- ٣ ـ أنه لم يخالف فيها أحد ممن يقول بالحشر.
- أنها تكون لخلاص الناس مما هم فيه من كرب الموقف بنزول الله تعمالي لفصل القضاء.
 - ٥ ـ أنها هي المقام المحمود.
 - ٦ ـ أنها قد رواها عدد كثير من الصحابة.
- ٧ ـ أن بعض الرواة أغفلها بتحويل أنظارهم إلى الشفاعة لإخراج أقوام من
 النار دون التركيز على الشفاعة العامة .
- ٨ أن الرسول على قد تحدث بأحاديث الشفاعة في مناسبات عديدة ، وكل مناسبة يحضرها من لم يكن حضر في المناسبة التي قبلها ، ولابد أن يحصل نوع اختلاف في أشكال الشفاعة ، فيحدث كل شخص بما سمعه ؛ فحصل فيها الاختلاف .

⁽١) فتح الباري ١٣/ ٤٧٦.

- ٩ ـ أو لعل ذلك يرجع إلى الرواة أنفسهم؛ بحيث إنهم يختلفون في الحفظ،
 فلابد أن يختلف ذكر وقائع أحاديث الشفاعة؛ لأن كل راو حفظ ما لم
 يحفظه الآخر، كما ذكر ابن حجر(١٠).
- ١٠ يؤخذ من مجموع تلك الروايات والوقائع المختلفة: أن شفاعة خاصة للرسول على المستقع في يوم القيامة لفصل القضاء، وهي أولى الشفاعات، والمقام المحمود الذي وعد به نبينا محمد على كما تقدم.

٢ ـ الشفاعة لأناس قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلهما :

يذكر كثير من العلماء أن هذا النوع من الشفاعة ثابت لنبينا محمد علله ، كباقى الشفاعات الثابتة الأخرى .

وهي في أقوام قد استحقوا النار بأعمالهم أن لا يدخلوها، ولكن العلماء وهم يقررون ثبوت هذه الشفاعة لم يذكروا لها دليلاً ثابتًا لوقوعها، غير أن تضافرهم على ذكرها يوحي بأن لها دليلاً استندوا إليه في إثباتها لم يذكروه، وهذا الاستئناس هو ما يستند إليه القائل بإثبات هذه الشفاعة.

فمن أقوالهم في إثباتها:

- ١ قال النووي رحمه الله في تعداده لأنواع الشفاعات: «الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم نبينا محمد ﷺ ومن شاء الله تعالى ١٠٠٠.
- ٢ وقال القرطبي نقلاً عن القاضي عياض: «الثالثة: في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع فيهم نبينا على ومن شاء أن يشفع،

⁽۱) فتح الباري ۱۱/ ٤٣٨.

⁽٢) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٤٣.

ويدخلون الجنة»^(١) .

٣ ـ وقال السفاريني: «ثالثها: شفاعته ﷺ في قوم استوجبوا النار بأعمالهم،
 فيشفع فيهم؛ فلا يدخلونها»(٢).

ويقول ابن أبي العز: «النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته عَلَيْهُ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها»(٣).

ولكونه لم يرد في هذه الشفاعة نص صريح في إثباتها لأناس استحقوا النار أن لا يدخلوها؛ فقد كانت محل توقف عند بعض العلماء.

فالإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ـ فيما ينقله عنه صاحب عون المعبود ـ يذكر أن نوعين من الشفاعة لم يجد فيهما نصًا عن المصطفى عَلَي الا ذكر الناس لها، وأنه لم يقف لهما على دليل ثابت، وهما الشفاعة فيمن استوجب النار أن لا يدخلها، والشفاعة لقوم في زيادة ثوابهم، وذلك في قوله: «ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس:

أحدهما: في قوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم أن لا يدخلوها، وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه، وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول؛ فلا يدخلون؛ فلم أظفر فيه بنص "(3).

⁽١) التذكرة ص ٣٠١.

⁽٢) لوامع الأنوار ٢/ ٢١١.

⁽٣) شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

⁽٤) عون المعبود ١٣/ ٧٧.

وقد ذكر الإمام ابن حجر أن دليل هذا النوع من الشفاعة ما جاء في حديث حذيفة عند مسلم وفيه: وونبيكم على الصراط يقول: رب سلم (١)

ومعنى هذا أن دعاء الرسول عَلَيُه على الصراط يقوله: «اللهم سلم سلم» ـ هو شفاعة لمن هو مستحق للنار وشاء الله أن ينفعه هذا الدعاء، أما من شاء الله أن ينفعه هذا الدعاء، أما من شاء الله أن يدخلها من عصاة المؤمنين فإنه تنفعه الشفاعة الأخرى، وهي الشفاعة في الإخراج من النار التي تواترت بها النصوص.

وقد ورد أن الناس في مرورهم على الصراط منهم من يسقط في النار، ومنهم من يمر عليه كالبرق، ومنهم من يمر عليه كالريح، ومنهم من يمر عليه كأجاويد الخيل؛ كما سنبين هذا إن شاء الله في مبحث الصراط.

ومع ما تقدم، فإنه لا يزال بعض الغموض باقيًا حول الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت تلك الشفاعة، ولم يصرح بذكر هذه الشفاعة مرفوعة إلى الرسسول عَلَيْ إلا الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه «الأهوال» ـ كما عزاه إليه ابن كثير ـ في الحديث الآتي :

عن ابن عباس قال: قال رسول الله عَلَيّة: «ينصب للأنبياء يوم القيامة منابر من ذهب فيجلسون عليها، قال: ويبقى منبري لا أجلس عليه، قائمًا بين يدي الله عز وجل منتصبًا؛ مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي، فأقول: يا رب أمتي، فيدعى فيقول الله: يا محمد، وما تريد أن أصنع بأمتك؟ فأقول: يا رب عجل حسابهم، فيدعى بهم فيحاسبون، فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله، ومنهم من يدخل بشفاعتي، وما أزال أشفع حتى أعطى فكاكًا. وفي رواية: صكاكًا. برجال قد بعث بهم إلى النار، حتى

⁽١) فتح الباري ١١/ ٤٢٨، والحديث أخرجهمسلم ١/ ٤٧٥.

إن مالكًا. خازن جهنم. ليقول: يا محمد، ما تركت لغضب ربك لأمتك من نقمة،(١).

فهذا الحديث صريح في هذا النوع من الشفاعة ـ لو صح، لكن الحديث فيه علة من جهة السند، فقد ضعف من قبل أحد الرواة، وهو محمد بن ثابت البناني البصري ؟ الذي تكلم عليه العلماء بالتجريح، يقول فيه ابن حجر: «محمد بن ثابت بن أسلم البناني البصري ضعيف»(٢).

وذكر ابن كثير حديثًا آخر عزاه إلى ابن مردويه من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله بن مسعود إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن سفيان عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا قال: قال رسول الله على: ﴿ فَيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ١٧٣]، ﴿ أَجُورَهُمْ ﴾ قال: أدخلهم الجنة، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ ﴾ قال: أدخلهم الجنة، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ ﴾ قال: الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم».

ولكنه ذكر أن إسناده لا يثبت، وأنه إذا روي عن ابن مسعود موقوفًا فهو جيد (٣) .

ومما تقدم يتضح أنه ليس هناك نص قاطع يعتمد عليه في إثباتها غير ما اشتهر عند العلماء من ذكرها، وعدها نوعًا من أنواع الشفاعات الثابتة.

⁽١) النهاية لابن كثير ٢/ ٢٧١ حيث يعزوه إلى ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال، ولم أجد هذا الكتاب، وقد ذكره أيضاً المنذري في الترغيب والترهيب، وعزاه إلى الطبراني والبيهقي، ثم قال: وليس في إسنادهما من متروك.

⁽۲) تقریب التهذیب ۲/ ۱٤۸.

ولعل الصحيح أن هذا القدح في محمد بن ثابت البناني لا يتم الاستدلال به على رد الحديث المذكور، وذلك لعدم اتهام الراوي المذكور بالكذب والوضع، ولأخذ أهل العلم عنه وأخذه عنهم، وعلى هذا فإن النفس تميل إلى عدم رد هذا الحديث لاسيما أن متنه شبيه في جزالته وأسلوبه ومعانيه بالأحاديث النبوية الكثيرة الصحيحة التي لا تشبه الأساليب العادية.

⁽٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٩٢.

وقد وقع الخلاف بين المثبتين لها في اختصاص الرسول على بها أو عدم اختصاصه بها على رأيين متقابلين.

وسبب ذلك هو عدم وجود نص يقطع ذلك الخلاف، وحاصل الخلاف أنه: جزم القاضي وابن السبكي بعدم اختصاصها به تلله، وتردد النووي في ذلك، قال السبكي: لأنه لم يرد نص صريح بثبوت الاختصاص ولا بنفيه.

قال السفاريني: «وجزم في «الأنموذج»(١) بأنها من خصائصه عَلَيْ ١٥٠٠).

أما من ناحية وقوع هذا النوع من الشفاعات: فإن المعتزلة قد نفوها، وبالغوا في الإنكار على من يعتقدها.

فإذا كانوا ينفون الشفاعة في إخراج قوم دخلوا النار أن يخرجوا منها مع ورود النصوص الصريحة فيها؛ فكيف الحال بهذا النوع من الشفاعة التي خفي دليلها.

٣_ الشفاعة في أهل الكبائر:

عهيد:

الشفاعة في أهل الكبائر من أهم مواضيع بحث الشفاعة، وقد اشتد النزاع في إثباتها وعدم إثباتها بين الفرق الإسلامية؛ فأهل السنة والجماعة في جانب، وغيرهم من أهل البدع في جانب آخر.

ويتمثل ذلك الخلاف في هذا السؤال: «هل لأهل الكبائر(٣) الذين دخلوا

⁽١) للقرطبي.

⁽٢) لوامع الأنوار ٢/ ٢١١.

⁽٣) ومعلوم أنهم من أهل التوحيد.

النار بذنوبهم شفاعة فيخرجون منها؟ أو ليست لهم شفاعة بحيث إن من دخلها لا يخرج منها أبدًا؟

تفصيل الكلام حول هذا السؤال سيكون موضوع بحثنا فيما يلي، وأول ما نبدأ من ذلك ببيان آراء الفرق واختلافهم حول هذه الشفاعة.

آراء الفرق في الشفاعة لأهل الكبائر، وإخراجهم من النار:

ذكرنا فيما مضى أن الخلاف في هذه القضية يتمثل بين أهل الحق من جانب آخر.

أما الرأي الأول: وهو رأي أهل القول الحق: فهو الاعتقاد الجازم بأن أهل الكبائر هم تحت المشيئة؛ إن شاء عز وجل عذبهم وإن شاء غفر لهم، وأن من دخل النار من أهل التوحيد فإنه يخرج منها بعد أن يعذبه فيها المدة التي يشاؤها الله عز وجل؛ تطهيرًا له، ثم يرحمه ويحسن إليه ويدخله الجنة، وأن لا يخلد في النار مثل خلود أهل الكفر والشرك بالله تعالى.

وقد استند أهل هذا القول إلى ما جاء في كتاب الله تعالى من الآيات البينات، وإلى ما جاء في السنة النبوية، ولهذا فقد أجمعوا على القول بها، وأن نبينا محمدًا على للقام الأعلى في ذلك، كما أنه يشفع غيره أيضًا ممن ارتضاهم الله تعالى.

وقد كانت هذه المسألة قضية مسلمة بين الصحابة يثبتونها على ضوء ما جاء في كلام الله عز وجل وكلام رسوله على .

وسنذكر فيما يلي بعض النصوص الواردة عن السلف في صحة ما قدمنا من النقل عنهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة، حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، قال: فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين»(۱).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد عَلَيُهُ، وهل يدخلون الجنة أم لا؟ فأجاب بقوله:

"إن أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة متواترة عن النبي على ، وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأئمة المسلمين، وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة »(٢).

وهو يجزم بأن الشفاعة لأهل الذنوب من المسائل المتفق عليها بين الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسائر الأثمة والعلماء، ويؤكد هذا بقوله عن ثبوت شفاعة الرسول على فيهم: «وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته؛ فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها»(٣).

وفي ثبوت هذه الشفاعة واشتراك الأنبياء وغيرهم ـ ممن ارتضى الله ـ فسى

⁽١) انظر: التفسير الكبير ١٩١/ ١٥٤.

⁽۲) مجموع الفتاوي ٤/ ٣٠٩.

⁽٣) التوسل والوسيلة ص ١٠.

طلبها يقول: «وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم؛ فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها»(١).

ويقول السفاريني في لوامع الأنوار: «اتفق أهل السنة والجماعة على أن النار لا يخلد في أحد من أهل الإيمان والتوحيد، كما ثبت ذلك في الأحاديث؛ أنه يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ونحوه، لكن لابد أن يدخل النار من أهل التوحيد طائفة بذنوبهم، ويعاقبون على مقدار ذنبوهم، يدخل النار من أهل التوحيد طائفة بذنوبهم، ويعاقبون على مقدار ذنبوهم، ثم يخرجون بشفاعة النبي على أو غيره، أو برحمة أرحم الراحمين»(٢).

ويقول في شرح ثلاثيات المسند عنهم: «وقال أهل الحق: هم في مشيئة الله تعالى؛ لا يقطع لهم بعقاب ولا نجاة، إلا أنهم اتفقوا على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان والتوحيد، كما ثبت ذلك في الأحاديث؛ أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»(٣).

وقال الآجري فيمن يكذب بالشفاعة في العصاة ويتأول النصوص الواردة في ذلك على غير وجهها:

"قال محمد بن الحسين رحمه الله: إن المكذب بالشفاعة أخطأ في تأويله خطأ فاحشًا، خرج به عن الكتاب والسنة؛ وذلك أنه عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر - أخبر الله عز وجل أنهم إذا دخلوا النار أنهم غير خارجين منها ـ فجعلها المكذب بالشفاعة في الموحدين، ولم يلتفت إلى إخبار

⁽۱) مجموع الفتاري ٣/ ١٤٧.

⁽٢) لوامع الأنوار جد ٢ ص ٧٧٣.

⁽٣) شرح ثلاثيات المسند ٢/ ٥٣٧.

الرسول ﷺ في إثبات الشفاعة؛ أنها إنما هي لأهل الكبائر . . . الانا إلخ .

ويقول ابن حزم: «قد نص الله تعالى على صحة الشفاعة في القرآن؛ فقال تعالى: ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧].

فأوجب عز وجل الشفاعة لمن اتخذ عنده عهدًا بالشفاعة، وصحت بذلك الأخبار المتواترة المتناصرة بنقل الثقات لها.

قَــال تعــالى: ﴿ يَوْمَتِذْ لِا تَسْفَعُ السُّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الـرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَنفَعُ الشُّفَاعَةُ عِندُهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

فنص تعالى على أن الشفاعة يوم القيامة تنفع عنده عز وجل بمن أذن له فيها ورضي قوله ، ولا أحد من الناس أولى بذلك من محمد على الأنه أفضل ولد آدم عليه السلام .

وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكُم مِن مَّلَك فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

وقــال تعــالى: ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ السَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ الْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿ مَا مِن شَفِيعِ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣].

فقد صحت الشفاعة بنص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

⁽١) الشريعة ص ٣٣٤.

خلفه، فصح يقينًا أن الشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي غير الشفاعة التي أثبتها عز وجل، وإذ لاشك في ذلك؛ فالشفاعة التي أبطل عز وجل هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار (١) إلخ كلامه في الاستدلال على الشفاعة وإثباتها للعصاة، ونفيها عن الكفار الذين قد حكم الله عليهم بالخلود في النار وأبعدهم عن رحمته على الدوام.

ويقول الباقلاني: «والأخبار في الشفاعة أكثر من أن يؤتى عليها، وهي كلها متواترة متوافية على خروج الموحدين من النار، وقد أطبق سلف الأمة على تسليم هذه الرواية - يعني رواية شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي وصحتها، مع ظهورها وانتشارها، والعلم بأنها مروية عن الصحابة والتابعين»(٢).

وأما ما ورد من اختلاف في بعض الروايات في أحاديث الشفاعة وإخراج أقوام من النار، مثل قوله على في بعض الروايات أنهم يخرجون «بعدمسا امتحشوا(۲) فيه وعادوا حممًا(٤)، وفي خبر آخر أنهم يخرجون من النار «ضبائر فسيسائر»(٥)، وكذا ما جاء أنهم يدخلون الجنة مكتوبًا على جباههم:

⁽١) الفصل ٤/ ٦٣ ـ ٦٥ .

⁽٢) التمهيد ص ٣٦٧.

 ⁽٣) هذه الرواية مخرجة في البخاري ١١/ ٤١٦، ومسلم ١/ ٤٤٤.
 ومعنى امتحشوا: أي احترقوا، فتح الباري ١١/ ٤٥٧.

⁽٤) والحمم: قريب من معنى امتحشوا.

⁽⁰⁾ وضبائد ضبائده: هذه الرواية أخرجها مسلم ١/ ٤٤٥، وضبائر: «بفتح الضاد المعجمة، وحو جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها لغتان»... قال أهل اللغة: الضبائر: جماعات في تفرقة، (شرح النووي ١/ ٤٤٦).

«الجهنميون، (١) وفي بعض الروايات: «عتقاء الرحمن، (٢) وغير ذلك.

فلا ينبغي أن يعد ذلك قادحًا في ثبوت الشفاعة للعصاة بزعم أن ذلك فيه تناقض، فالواقع أنه ليس فيه تناقض ولا اضطراب، وإنما هو من باب اختلاف الألفاظ.

قال الباقلاني: «إن كل ما ورد في هذه الروايات إنما هو من اختلاف الألفاظ، ولا يقدح في صحة الشفاعة أي قادح، ولو كان هناك أي مطعن على أخبار الشفاعة؛ لكان الصحابة أول الناس تحذيرًا من اعتقادها أو روايتها، ولكان الأمر بعكس الحال»(").

وغني عن القول فإن هذه المسألة ـ أي عدم تخليد أهل الكبائر في النار وثبوت الشفاعة لهم ـ تعتبر من المسائل المشهورة المعلومة لدى جميع علماء السلف وعامتهم، فالكل على إثباتها وإثبات بقية الشفاعات الأخرى، كالشفاعة العظمى وغيرها مما وردبه النص، وشفاعة من وردبهم النص كالملائكة والشهداء والصالحين، وما ورد كذلك من شفاعة القرآن وغيره، كما سيأتي ذلك مفصلاً.

ولا ينفي السلف أي نوع من أنواع الشفاعات التي جاء بها النص؛ بل المنفي عندهم هو ما نفته النصوص من الشفاعة في الكفار الذين ماتوا على الكفر، وهذا هو ما تشهد به النصوص الثابتة من كتاب الله عنز وجل، وسنة نبيه علله، وهم قد استندوا في رأيهم هذا إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة

⁽١) أخرج هذه الرواية البخاري ١٣/ ٤٣٤.

⁽٢) أخرجها البخاري ١٣/ ٤٢٢.

⁽٣) انظر: التمهيد ص ٣٦٧.

نبيه ﷺ، وفيما يلي نعرض بعض الأدلة في ذلك.

أدلة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر من القرآن الكريم :

ذكــر الله في كتابه الكريم كثيرًا من الآيات التي تفيد إثبات الشفاعة لكل عاص عمومًا، غير من كان عصيانه هو الشرك بالله تعالى.

ومن تلك الآيات نذكر ما يلي(١):

- ١ قول الله تعالى حكاية عن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 11٨].
- ٢ ـ قوله تعالى ـ حكاية عن إبراهيم عليه السلام ـ : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦].
- ٣ ـ قوله تعالى: ﴿ يُوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْهً اللَّهُ عَنِي التَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [لَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٠ ٨٥].
- ٤ ـ وقوله تعالى ـ في صفة الملائكة ـ : ﴿ وَلا يَشْفُعُونَ إِلاَ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾
 [الأنبياء: ٢٨].
- ٥ ـ قوله تعالى ـ في حق الكفار ـ : ﴿ فَمَا تَسْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ السَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨].

⁽١) هذه الآيات استدل بها الرازي ـ كما في تفسيره في الجزء الثالث ـ وغيره من العلماء ، على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر من القرآن الكريم .

٢ - وقوله تعالى لمحمد على: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُوْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
 لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

٨ ـ وقوله تعالى في صفة الملائكة: ﴿ اللَّذِينَ يَحْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٧].

إلى غير ذلك من الآيات(١).

ثم إن كل آية فيها نفي الشفاعة عن المشركين أو الكفار فإنها تفيد إثباتها للمؤمنين وللعصاة منهم، وكذا الآيات التي فيها نفي الشفاعة إلا بعد إذن الله تعالى، وسنبين ما ذكره العلماء من وجه الاستدلال بالآيات السابقة على ثبوت الشفاعة فيما يلى:

وجه الاستدلال بالآيات السابقة على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر:

أما الآية الأولى، فإن وجه الاستدلال بها: أن هذه الشفاعة من عيسى عليه السلام، إما أن يقال:

١ - إنها كانت في حق الكفار.

٢ ـ أو في حق المسلم المطيع .

٣- أو في حق المسلم صاحب الصغيرة.

٤ ـ أو المسلم صاحب الكبيرة بعد التوبة.

⁽١) انظر: حجج القرآن ص ٧٧.

٥ ـ أو المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة .

والقسم الأول باطل؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الماندة: ١١٨] لا يليق بالكفار ؛ لأنه لا شفاعة لهم.

والقسم الثاني، والثالث، والرابع باطل؛ لأن المسلم المطيع، والمسلم صاحب الصغيرة، والمسلم صاحب الكبيرة، لا يجوز بعد التوبة تعذيبه عقلاً عند الخصم، وإذا كان كذلك، لم يكن قوله: ﴿إِن تُعَدِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ﴾ لائقًا بهم.

وإذا بطل ذلك؛ لم يبق إلا أن يقال: إن هذه الشفاعة إنما وردت في حق المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة، وإذا صح القول بهذه الشفاعة في حق عيسى عليه السلام؛ صح القول بها في حق محمد شك ضرورة؛ فإنه لا قائل بالفرق»(١).

ومثل ما سبق في الآية الأولى يقال في الآية الثانية؛ فإن وجه الاستدلال بها هو أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ما كان يريد عصيانه في توحيد الله والانقياد له سبحانه، فهو لا يطلب الشفاعة إلى ربه في الكفار ويتوسل إليه بأنه غفور رحيم، فهو يعلم جزاء الكفار عند الله أنهم مخلدون في النار.

وقد قيل في معنى الآية ثلاثة أوجه وهي:

ا أن إبراهيم على قال هذا القول قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به، كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك، ويعزى هذا القول إلى ابن الأنباري.

⁽١) التفسير الكبير: ٣/ ٥٩.

٢ ـ وقيل: المراد هنا عصيانه فيما دون الشرك.

٣- وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك(١).

وخلاصة تلك الأقوال أنها تفيد نفي الشفاعة عن المشرك فقط، لا نفيها عمن عداه.

ويقول الرازي: إن قول إبراهيم: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لا يجوز حمله على الكافر؛ لأنه ليس أهلاً للمغفرة بالإجماع، ولا حمله على صاحب الصغيرة، ولا على صاحب الكبيرة بعد التوبة؛ لأن غفرانه لهم واجب عقلاً عند الخصم؛ فلا حاجة له إلى الشفاعة، فلم يبق إلا حمله على صاحب الكبيرة قبل التوبة »(٢).

ثم استدل لتأكيد دلالة قول الله تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقول عيسى: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ﴾ على الشفاعة ؛ بما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أن النبي عَلَي تسلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَصْلَلُنَ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ فَمَن تَبِعني قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَصْلَلُنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعني فَإِنَّهُمْ مَا إبراهيم: ٣٦] ، وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١٨٨].

فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي، وبكى؛ فقال الله عز وجل: «يا جبريل، الهجب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام

فتح القدير ٣/ ١١٢.

⁽۲) التفسير الكبير ۳/ ٥٩.

فسأله، فأخبره رسول الله عَلَيْ عَالَمُ عَلَيْهُ عَا قال وهو أعلم .، فقال الله: ويا جبريل اذهب الى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك (١) .

ووجمه الاستدلال في الآية الثالثة: أن الله تعالى قد أخبر أن الشفاعة لا يملكها ولا يستحقها، إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا بطاعته وتوحيده.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في معناها: «إن المجرمين ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ـ كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠١، ١٠١] وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عَنِدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧] وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها.

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنهُ السَرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال: «العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحسول والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل».

وذكر ابن كثير عن الأسود بن يزيد أنه قال: «قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ثم قال: اتخذوا عند الله عهدًا، فيإن الله يقول يوم القيامة: من كان له عند الله عهد فليقم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فعلمنا، قال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ألا تكلني إلى عمل يقربني من الشر ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدا تؤديه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد»(٢).

⁽۱) صحيح مسلم : ۱/ ۱۹۱ .

⁽٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٨.

وقال الإمام الرازي ـ رحمه الله ـ :

«الآية تدل على حصول الشفاعة لأهل الكبائر؛ لأنه قال عقيبه: ﴿ إِلاَّ مَنِ التَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾، والتقدير: أن المجرمين لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم إلا إذا كانوا اتخذوا عند الرحمن عهدًا، فكل من اتخذ عند الرحمن عهدًا؛ وهو عهدًا وجب دخوله فيه، وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدًا؛ وهو التوحيد والإسلام؛ فوجب أن يكون داخلاً تحته»(١).

ووجه الاستدلال من الآية الرابعة: هو أن الله تعالى قد أخبر أن الملائكة لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله تعالى من عباده، وصاحب الكبيرة ليس خارجًا عن رضى الله خروجًا كاملاً؛ لأنه ليس بكافر، ورضى الله تعالى عنه يكون بحسب إيمانه وتوحيده، «فثبت أن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله، وإذا ثبت هذا؛ وجب أن يكون من أهل الشفاعة».

«وإذا ثبت أن صاحب الكبيرة داخل في شفاعة الملائكة؛ وجب دخوله في شفاعة الأنبياء وشفاعة محمد على ضرورة؛ لأنه لا قائل بالفرق (٢٠).

ووجه الاستدلال بالآية الخامسة: أن الله تعالى أخبر أن الكفار لا تنفعهم شفاعة أحد؛ لأنهم ليس معهم أي مرجح لرحمتهم، بخلاف غيرهم من عصاة الموحدين؛ فإن الشفاعة تنفعهم، وإلا لتساووا مع الكفار في عدم انتفاعهم بالشفاعة (٢).

وقال شيخ الإسلام. بعد أن ذكر بعض الآيات التي احتج بها منكرو

⁽۱)، (۲)، (۳) التفسير الكبير ۳/ ٦٠.

الشفاعة، ومنها هذه الآية ـ قال:

«جواب أهل السنة: أن هذا لعله يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى في نعتهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمُ وَ سَقَرَ ﴿ وَ كُنّا فِي سَقَرَ ﴿ وَ كُنّا فَكُ مُنَ الْمُصَلِينَ ﴿ وَ كُنّا فَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿ وَ كُنّا فَكُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿ وَ كُنّا نُكَذّب بِيَوْمِ السَدِّيسِ ﴿ وَ كُنّا الْيَقِينُ ﴿ وَ كُنّا فَكُذّب بِيَوْمِ السَدِّيسِ ﴿ وَ كُنّا الْيَقِينُ ﴿ وَ كُنّا فَكُذّب بِيَوْمِ السَدِّيسِ فَ حَتَى حَتَى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿ وَ كُنّا فَكُذّب بِيَوْمِ السَدِّيسِ فَ عَتَى حَتَى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿ وَ كُنّا فَكُذّب بِيَوْمِ السَدِّيسِ فَ عَتَى حَتَى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿ وَ كُنّا فَكُذّب بِيوهِ مِ السَدِّيسِ فَ عَنَى حَتَى مَنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ وَقَلَاء فَقَى عَنْهُم نَفْعَ شَفَاعَة الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٨]، فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي أثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض، فيقبل المشفوع إليه شفاعة الشافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة»(١).

وأما وجه الاستدلال بالآية السادسة: فهو أن الله تعالى قد أمر نبيه محمداً الله بأن يستغفر لكل المؤمنين والمؤمنات، وصاحب الكبيرة يدخل في هذا الأمر لأنه من جملة المؤمنين، ويكون قد استغفر له الرسول تلك كما أمره الله تعالى، إذ لو لم ينفعه دعاء الرسول تك واستغفاره له؛ لما كان للأمر له بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات معنى، وهو شبيه بالسخرية؛ إذ كيف يأمره بأمر لا فائدة من ورائه، وهذا لا يليق بالله تعالى ورسوله تكك .

⁽١) التوسل والوسيلة: ص ١٠ـ١١.

وفي هذا يقول الرازي حول هذه الآية:

"وقد بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿ اللَّذِينَ يُوْمَنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ أن صاحب الكبيرة مؤمن، وإذا كان كذلك؛ ثبت أن محمداً عَلَى استغفر لهم، وإذا كان كذلك؛ ثبت أن الله تعالى قد غفر لهم، وإلا لكان الله تعالى قد أمره بالدعاء ليرد دعاءه؛ فيصير ذلك محض التحقير والإيذاء، وهو غير لائق بالله تعالى ولا بحصم ولا بحصم التحقير والإيذاء، وهو غير لائق بالله تعالى الله تعالى الله أمر محمداً بالاستغفار لكل ولا بحصم فقد استجاب دعاءه، وذلك إنما يتم لو غفر لهم، ولا معنى للشفاعة إلا هذا (١٠).

أما وجه الاستدلال بالآية السابعة: فهو أن الله تعالى قد أخبر أن استغفار الرسول على للعصاة والمذنبين من أمته ودعاءه لهم ينفعهم عند الله، وقد على الله قبول التوبة وحصول الرحمة للمذنب باستغفاره لنفسه وباستغفار الرسول على له، وهذا في الدنيا (٢) ، فإذا كان دعاؤه واستغفاره للمذنبين ينفعهم في الدنيا فكذلك شفاعته.

قال الإمام الرازي بعد ذكر هذه الآية: «وليس في الآية ذكر التوبة، والآية تدل على أن الرسول متى استغفر للعصاة والظالمين فإن الله يغفر لهم، وهذا يدل على أن شفاعة الرسول في حق أهل الكبائر مقبولة في الدنيا؛ فوجب أن تكون مقبولة في الآخرة؛ لأنه لا قائل بالفرق»(٣).

وأما وجه الاستدلال بقول الله تعالى في صفة الملائكة ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٦١.

⁽٢) انظر: التوسل والوسيلة ص ٥٠، ٧٧، ١٣٧.

⁽٣) التفسير الكبير ٣/ ٦١.

الْعُرْش ﴾ إلخ. . . الآية: «فهو أن صاحب الكبيرة يشمله هذا الدعاء بما معه من الإيمان لأنه ليس بكافر، وأما تقييده بالتوبة ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ فإن هذا دعاء آخر ومزيد دعاء لهم بزيادة الغفران، وهو ـ الاستثناء ـ لا يقتضي تخصيص ذلك العام ؟ لما ثبت في أصول الفقه أن اللفظ العام إذا ذكر بعده بعض أقسامه فإن ذلك لا يوجب تخصيص ذلك العام بذلك الخاص»(١).

وفي الختام يجمل الرازي الجواب عن أدلة المعتزلة في نفيهم الشفاعة عن أهل الكبائر ومثبتاً أدلة حصول الشفاعة فيهم بقوله:

"والجواب على جميع أدلة المعتزلة بحرف واحد وهو: أن أدلتهم على نفي الشفاعة تفيد نفي جميع أقسام الشفاعات، وأدلتنا على إثبات الشفاعة تفيد إثبات شفاعة خاصة، والعام والخاص إذا تعارضا قدم الخاص على العام؛ فكانت دلائلنا مقدمة على دلائلهم (٢٠).

وبعد عرض ما سبق من الأدلة على إثبات الشفاعة للمذنبين من القرآن الكريم نعرض لذكر إثبات الشفاعة لهم من السنة في الفصل الآتي.

أدلة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر من السنة :

رأينا مما سبق عرضه كيف أثبت القرآن الكريم في أكثر من آية حصول الشفاعة للمذنبين واستحقاقهم لها، وأنهم ليسوا بمنزلة الكفار والمشركين في ذلك، وأنه لم يوحد الحكم عليهم أحد من السلف؛ بل المعتزلة ومن قال بقولهم من الفرق المبتدعة هم الذين ساووا بينهم.

⁽١) تفسير الرازي ٣/ ٦٢.

⁽٢) التفسير الكبير ٣/ ٦٥.

واستكمالاً للأدلة نذكر هنا بعض ما جاء في السنة النبوية من التصريح بحصول الشفاعة للمذنبين، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، الذين سعدوا بتضافر النصوص الكثيرة عن المصطفى على لما ذهبوا إليه من ثبوت تلك الشفاعة في المذنبين، الذين هم أحوج ما يكونون إليها في وقت لا يملكون فيه أي شيء من وسائل الطاعة والثواب، وحين لم يبق لهم من أمل في النجاة من النار إلا ما قدموا، وإلا ما تفضل الله به عليهم من قبول شفاعة أوليائه وأحبائه فيهم، ممن ارتضاه من الأنبياء أو من غيرهم من خلقه، فرحمة الله واسعة ولا يأس منها إلا القوم الكافرون.

وإن تيئيس المذنبين من الشفاعة بعد ثبوتها؛ لهو من أكبر الخطأ وأعظم الغلط، فمن ذا الذي قد كتبت له العصمة من الذنوب أو ارتكاب الآثام ـ غير الأنبياء ـ ، وهل أولئك الذين نفوها عن أهل الكبائر قد ثبتت عصمتهم من الذنوب؟ إن القول بهذا يشير إلى ادعاء صاحبه أنه مبرأ من الذنوب والآثام(١٠).

وسنورد فيما يلي ما نستدل به على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر، شفاعة نبينا محمد ﷺ وغيره ممن يرتضيهم الله تعالى.

ولا يفوت التنبيه إلى أن الأحاديث التي وردت في ثبوت الشفاعة كثيرة في الصحيحين وفي السنن وفي المسانيد، وسنقتصر على بعض ما يتضح به ثبوت أمر هذه الشفاعة، ومن ذلك ما يلى :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله عَلَي : «شفاعتي لأهل

⁽١) انظر: آراء الخوارج ص ١٣٩.

الكبائر من أمتى (١).

ومثله ما جاء عن جابر بن عبد الله، وزاد فيه: قال الراوي محمد بن على: فقال لي جابر: "يا محمد، من لم يكن من أهل الكبائر فما له وللشفاعة»(٢).

وعن جابر قال: سمعت رسول الله تَقَطُّ يقول: «إن شفاعتي يوم القيامة الأهل الكبائر من أمتى» (٣).

وعن كعب بن عجرة قال: قلت: يا رسول الله، الشفاعة؟ قال: «الشفاعة الأهل الكبائر من أمتى»(٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي عَلَظ قال: «خيرت بين الشفاعة أو يدخل نصف أمني الجنة؛ فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمتلوثين الخطاءون، (٥٠).

وعن عمران بن حصين عن النبي على قال: اليخرجن قوم من أمتي من

⁽١) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٢٥، وأبو داود ٢/ ٥٣٧، وابن ماجه ٢/ ١٤٤١.

⁽٢) أخرجه الترمذي ٤/ ٤٥.

⁽٣) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١٤٤١، وأبو داود ٢/ ٥٣٧، والترمذي ٤/ ٦٢٥.

 ⁽٤) الآجري في الشريعة ص ٢٣٨، وأخرج تلك الأحاديث عن أنس وجابر بن عبد الله، وكعب
 بن عجرة، وحذيفة بن اليمان. انظر: ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

⁽٥) أخرجه أحمد ٢/ ٧٥.

وقال زياد: «أما إنها لحن ـ الخطاؤن ـ ، ولكن هكذا حدثنا الذي حدثنا . وأخرج الحديث ابن ماجه ٢/ ١٤٤١ من حديث أبي موسى الأشعري بنحوه ، وقال المعلق : "إسناده صحيح ورجاله ثقات».

النار بشفاعتي يسمون جهنميون، ^(١) .

أخبر عليه الصلاة والسلام أن أهل النار ـ الذين هم أهلها ـ يخلدون فيها ولا يخرجون أبدًا، وأن الذين ينجون منها هم قوم من أهل الكبائر يعذبون فيها مدة ثم يخرجهم الله بعد أن يأذن بالشفاعة فيهم.

فقد جاء عن أبي سعيد أنه قال: قال رسول الله على: وأما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا؛ أذن بالشفاعة؛ فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم؛ فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله على قد كان بالبادية »(۱).

وهذه الأحاديث صريحة في دلالتها على حصول الشفاعة لأهل الكبائر وإذا كان للرسول على المقام الأرفع والمزية العظمى في الشفاعة لأهل الكبائر؟ فإن هذه الشفاعة لم يختص بها وحده؛ بل يشركه فيها المؤمنون والملائكة، كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: دحتى إفا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار؛ يقولون: ربنا، كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم؛ فتحرم صورهم على النار؛ فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى

⁽۱) أخرجه الترمذي ٤/ ٧١٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه ٢/ ١٤٤٣ ، وأبو داود ٢/ ٥٣٧ .

⁽٢) أخرجه مسلم ١/ ٤٤٥، وابن ماجه ٢/ ١٤٤١.

ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه؛ فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا؛ فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه؛ فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه؛ فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها خيرًا،

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث؛ فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ السَّلَهُ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةً وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لُدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين؛ فيقبض قبضة من النار؛ فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا؛ فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة؛ فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، الحديث (۱).

وقال الأجري: «فيشفع الأنبياء والملائكة والشهداء والعلماء والمؤمنون فيمن دخل النار من المسلمين، فأخرجوا منها على حسب ما أخبرنا رسول الله على على طبقات شتى فدخلوا الجنة»(٢).

وأخسس على الكل نبي دعوة مستجابة دعا بها، إلا هو عليه الصلاة والسلام فقد ادخرها شفاعة لأمته يوم القيامة، فلم يتعجل حصولها؛ بل جعلها لما هو أنفع لأمته.

⁽١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٤٣٨.

⁽٢) الشريعة ص ٢٣٥.

كما جاء عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: الكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتى في الآخرة، (١٠) .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله عَلَيّة: ولكل نبي دعوة، فأريد. إن شاء الله. أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتى يوم القيامة، (٢).

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله عَلَيْهُ: ولكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا، (٢).

وقد استشكل معرفة وجه التنصيص على هذه الدعوة المستجابة، مع أن الأنبياء يستجاب لهم في دعوات كثيرة؟

والجواب كما ذكر النووي: «أن معناه أن كل نبي له دعوة متبقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب، (٤).

ونقل عن القاضي عياض أنه قال: «يحتمل أن يكون المراد لكل نبي دعوة الأمته»(٥).

وذكر العلامة ابن حجر عدة أجوبة حول هذا الإشكال هي:

١ ـ أن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من

⁽١) البخاري ١١/ ٩٦.

⁽٢) المبخاري ١٣/ ٤٤٧، ومسلم ١/ ١٨٨ . ١٩٠، عن أبي هريرة وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله.

⁽۳) مسلم ۱/ ۱۸۸.

⁽٤)، (٥) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٧٨.

دعواتهم فهم على رجاء الإجابة. وقد سبق هذا الجواب للنووي رحمه الله.

٢ ـ أن معنى قوله: الكل نبي دعوة أي أفضل دعواته، ولهم دعوات أخرى.

٣- لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته، إما بإهلاكهم، وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب.

٤ ـ لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، كقول نوح: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، وقول زكريا: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلَيًّا ۞ يَرِثُنِي ﴾ [مريم: ٥، ٦]، وقول سليمان: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لاَّحَد مِّنْ بَعْدِي ﴾ [ص: ٣٥]» (١).

وخلاصة تلك الأحاديث أن فيها دلالة على فضل نبينا على ومحبته لأمته، وحرصه على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وإيثاره لمصلحتهم على مصلحة نفسه، ومدى صبره على أذاهم؛ فلم يدع عليهم بالهلاك؛ بل على العكس من ذلك كان دائمًا يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

雅 🍖 雅

⁽۱) فتح الباري ۱۱/ ۹۷.

آراء الفرق الأخرس

وبعد عرض رأي السلف وأدلتهم، فإننا نتابع عرض بقية الآراء الأخرى، فهناك فرق تنتسب إلى الإسلام تزعم أن الشفاعة منفية عمن دخل النار من أهل الكبائر، وتزعم أن من دخل النار منهم لا يمكن أن يخرج منها؛ لأن الله قد توعدهم بالعذاب، وتلمسوا لهذا القول المبتدع أدلة حملوها ما لم تدل عليه من نفي الشفاعة، ولم ينظروا بالقبول إلى ما ورد من الأحاديث الكثيرة المتعددة التي تثبت الشفاعة، ولا إلى ما قاله علماء السلف من تفسير تلك الأحاديث، لم ينظروا لههذا كله؛ بل ذهبسوا إلى تأويل ما ورد من تلك النصوص، كما هو حال أهل البدع حينما لا يستطيعون دفع النصوص وردها. ومن تلك الفرق ما يلي:

١ - المعتزلة :

تنكر المعتزلة ـ كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ـ أن يخرج أحد من النار بعد أن دخلها ؛ لا بشفاعة ولا بغيرها ، وكذلك لا يجوز عندهم الشفاعة في أهل الكبائر الذين أمر بهم إلى النار ، وما ورد من أحاديث الشفاعة فإنما هي في أهل الجنة ، وبإعطائهم فوق ما يستحقون من الفضل ، وأن ثبوتها إنما هو خاص بالتائبين لا بالمذنبين من الناس ، كما زعموا ، وهذا ما تواتر به النقل عنهم .

ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

قال القاضي عبد الجبار مقرراً أن الشفاعة لا تكون إلا للتائبين من المؤمنين فقط دون غيرهم وأن الفساق أهل الكبائر مخلدون في النار، قال: «فعندنا أن

الشفاعة للتائبين من المؤمنين، وعند المرجئة أنها للفساق من أهل الصلاة».

ثم استمر في التدليل على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر إلى أن يقول: «وأيضًا فقد دلت الدلالة على أن العقوبة تستحق على طريق الدوام، فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي عليه السلام»(١).

وقال أيضاً: «وقد دل السمع من جهة الاستدلال على أن الفاسق ما لم يتب؛ يستحق النار مع أهلها مخلداً فيها»(٢).

وقال بعد أن ذكر آيات في الوعيد : «والذي يدل على أن الفاسق يخلد في النار ويعذب فيها أبداً ؛ ما ذكرناه من عمومات الوعيد ، فإنها كما تدل على أن الفاسق يفعل به ما يستحقه من العقوبة ، تدل على أنه يخلد ، إذ ما من آية من هذه الآيات التي مرت إلا وفيها ذكر الخلود والتأبيد أو ما يجري مجراهما "(").

ومن أقوال علماء الإسلام في تقرير مذهب المعتزلة، ما قاله ابن القيم في معرض أمثلته لمن يرد النصوص المحكمة بالمتشابه قال: «المثال الخامس: رد الخوارج والمعتزلة النصوص الصريحة غاية الإحكام في ثبوت الشفاعة للعصاة وخروجهم من النار (1).

وقال الأشعري عنهم: «واختلفوا في شفاعة رسول الله على: هل هي الأهل الكبائر؟ فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله، وقال بعضهم: الشفاعة من النبي على للمؤمنين أن يزادوا في منازلهم من باب التفضل»(٥).

⁽١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦ إلى ص ٦٩٣.

⁽٢) رسائل العدل والتوحيد ١/ ٢٤٤.

⁽٣) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦.

⁽٤) أعلام الموقعين ٢/ ٢٩٥.

⁽٥) المقالات ٢/ ١٦٦.

ويقول الآجري: «قال محمد بن الحسين رحمه الله: اعلموا ـ رحمكم الله أن المنكر للشفاعة يزعم أن من دخل النار فليس بخارج منها، وهذا مذهب المعتزلة، إلى أن يقول فيهم: «إنهم لا يلتفتون إلى سنن الرسول عله، ولا إلى سنن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما يعارضون بمتشابه القرآن، وبما أراهم العقل عندهم»(۱).

وقال السفاريني: «الشفاعة التي تنكرها المعتزلة وتجحدها هي فيمن استحق النار من المؤمنين أن لا يدخلها، وفيمن دخلها منهم أن يخرج منها، فكذبت بها المبتدعة ونفتها، مع ثبوت أدلتها وتضافر حججها بما يتعسر إحصاؤه ويتعذر استقصاؤه»(٢).

وبعد أن تبين رأي المعتزلة بالنسبة لإخراج العصاة من النار، فإننا وبعد عرض آراء بقية الفرق سنذكر ما استندوا إليه من نصوص في نفيهم الشفاعة، سواء أكانت تلك النصوص آيات من القرآن الكريم أو أحاديث أخذوها على ظاهرها، وقصروا معناها على ما يريدون من حكم، غير ملتفتين إلى غيرها من الآيات والأحاديث التي تثبت الشفاعة.

٢_الخوارج:

ومثل المعتزلة في إنكار الشفاعة لأهل الكبائر الخوارج؛ فقد قال هؤلاء بأن من يدخل النار لا يخرج منها أبدًا، ومعلوم أن الخوارج والمعتزلة قد اتفقوا على الحكم الأخروي بالنسبة لأهل الكبائر، وهو القول بتخليدهم في النار أبدًا، وإن كانوا قد اختلفوا في التسمية في الدنيا، فالخوارج يسمونه كافرًا،

⁽١) الغنية ١/ ٩٢.

⁽٢) لوامع الأنوار ٢/ ٢١٢. وشرح ثلاثيات المسند ٢/ ٥٣٧.

والمعتزلة يسمونه فاسقًا أو في منزلة بين المنزلتين، «فالخلاف بينهم لفظي فقط»(١).

وقد استفاض النقل عن الخوارج في قولهم بتخليد العصاة في النار وعدم شفاعة أحد فيهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة: فزعموا أن شفاعته إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع الدرجات، ومنهم من أنكر الشفاعة مطلقًا»(١٠).

وقال أيضًا: «وعند الخوارج والمعتزلة أنه لا يشفع لأهل الكبائر؛ لأن الكبائر عندهم لا تغفر، ولا يخرجون من النار بعد أن يدخلوها، لا بشفاعة ولا بغيرها»(٣).

ويقول العلامة علي بن علي بن أبي العز في شرح الطحاوية: «والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا علله وغيره في أهل الكبائر (١٠).

وقال ابن حزم: «اختلف الناس في الشفاعة، فأنكرها قوم وهم المعتزلة والخوارج وكل من تبع أن لا يخرج أحد من النار بعد دخوله فيها»(٥).

ويقول المرداوي: «شفاعة النبي على نوع من السمعيات قد وردت بها

⁽١) شرح الطحاوية ص ٣٦٢.

⁽٢) مجموعة الرسائل والمسائل ١/ ١٠.

⁽٣) المصدر السابق ١/ ١١، وانظر: التوسل والوسيلة ص ١٣١.

⁽٤) شرح الطحاوية ص ١٨١.

⁽٥) الفصل ٤/ ٦٣.

الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي(١) ، وانعقد عليها إجماع أهل الحق قبل ظهور الخوارج الذين ينكرون الشفاعة ١٠٠٠ .

ومثل إنكار الخوارج للشفاعة في العصاة؛ إنكار فرقة الإباضية لها وهم في الواقع فرقة من الخوارج كما قرره علماء الفرق، وإن كانوا ينكرون أشد إنكار أن يكونوا من الخوارج (٣) وأيًا ما كان، فقد ذهبت هذه الفرقة إلى أن الشفاعة لا تكون للعصاة، وإنما هي للمتقين، كما هو الحال عند المعتزلة.

ومن الأدلة على ذلك ما قاله صاحب كتاب الأديان وهو إباضي -: «والشفاعة حق للمتقين وليس للعاصن»(١) .

ويقول السالمي كذلك:

وما الشفاعة إلا للتقي كما قدقال رب العلا فيها وقد فصلا(٥)

وقد استشهد الربيع بن حبيب لهذا الرأي في مسنده بما رواه عن جابر بن زيد ـ إمام الإباضية ـ عن رسول الله تلك أنه قال: «ليست الشفاعة الأهل الكبائر

⁽١) التواتر ينقسم إلى قسمين:

١ - تواتر لفظي: وهو ما تواتر لفظه ومعناه، مثل حديث: ممن كنب علي متمملًا فليتبوا مقعده من الناره.

٢- وتواتر معنوي: وهو ما تواتر معناه دون لفظه، مثل أحاديث المسح على الخفين ورفع
 الأيدي في الدعاء. . .

⁽٢) اللآلئ اليهية ص ٩٤.

⁽٣) الإباضية تنكر أشد إنكار أن تكون فرقة من الخوارج، وفي كتابات على يحيى معمر ـ وهو إباضي ـ ما يبين ذلك، كما في كتابه «الإباضية بين الفرق الإسلامية» وغيره من كتب الإباضية.

⁽٤) كتاب الأديان ص ٥٣. (مخطوط).

⁽٥) غاية المرادص ٩.

من أمتي، ويحلف جابر بن زيد عند ذلك: ما لأهل الكبائر شفاعة؛ لأن الله قد أوعد أهل الكبائر النار في كتابه، وإن جاء الحديث عن أنس بن مالك أن الشفاعة لأهل الكبائر، فوالله ما عنى القتل والزنى والسحر وما أوعد الله عليه النار».

ويقول الربيع أيضاً: «حتى بلغنا أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته إذا كانوا مؤمنين متقين».

واستشهد الربيع بن حبيب لهذا الرأي أيضاً بما رواه من قوله عَلَيْهُ: «يا بني عبد المطلب إن الله أمرني أن أنذركم، فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا، ألا إن أولياني منكم المتقون، ألا لا أعرفن ما جاء الناس غدًا بالدين فجئتم بالدنيا تحملونها على رقابكم، يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد، اشتريا أنفسكما من الله؛ فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا، (١).

وهذا ما قرره الحارثي الإباضي أيضًا في نفي الشفاعة في كتابه العقود الفضية (٢).

ويقول د. عمار الطالبي: «وتنكر الإباضية أيضًا الشفاعة؛ لأنها لا تنال عندهم أصحاب الكبائر »(۳).

٣ ، الزيدية :

وبمن أنكر الشفاعة في أهل الكباثر وقال بعدم خروجهم من النار: فرقة

⁽١) الجامع الصحيح ٤/ ٣١. ٣٤.

⁽٢) العقود الفضية ص ٢٨٦.

⁽٣) آراء الخوارج ص ١٨٠.

الزيدية أيضًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين بإحسان وسائر أثمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج، والمعتزلة، والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها، لا بشفاعة ولا غيرها»(١).

٤ ـ الجهمية :

تنكر الجهمية الشفاعة مطلقًا، سواء أكانت لرفع الدرجات في الجنة أم لإخراج العصاة من النار، وهم بذلك يخالفون أهل السنة والمعتزلة والزيدية والخوارج. ويعرضون إعراضًا كاملاً عما ورد في إثباتها من نصوص، وفي هذا يقول الملطي: «وأنكر جهم الشفاعة وأن قومًا يخرجون من النار»(٢).

وقال أيضًا عن الجهمية: «وأنكروا الشفاعة؛ أن يشفع رسول الله عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلِيهُ اللهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهُولِي اللهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْ

وهذا غلو في النفي، ورد للنصوص الصريحة بذلك.

٥_المرجئة :

أما مذهب المرجئة ـ وهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة ، ثم فتحوا للناس أبوابًا من الأماني الفارغة ، وكسلوا الناس عن الطاعات ، وأطمعوهم فيما لم يوصل إليه إلا بالعمل والجد ـ فإن

⁽١) التوسل والوسيلة ص ١٠.

⁽٢) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ١٢٨.

⁽٣) المصدر السابق ص ٩٦.

من مذهبهم في باب الشفاعة: أنه لا حاجة إليها، كما نقل ذلك البرديسي عن الفاكهاني(١).

وبطلان هذا القول ظاهر كبطلان هذا المذهب في مسألة الإيمان والكفر.

: قديشا ـ ٦

وإذا كنا قد عرضنا آراء الفرق في الشفاعة مذهب السلف وبقية المذاهب الأخرى ورأينا أن الفرق السابقة تنفي ثبوت الشفاعة ؛ فإننا الآن بصدد بيان مذهب يعتبر نقيض تلك المذاهب، وهو مذهب الشيعة .

فإن هؤلاء قد تجاوزوا في إثباتها إلى الخروج عن الحق، ذلك أنهم قد ركنوا إلى وهم خاطئ؛ وهو التعلق بآل البيت ـ وخصوصًا على رضي الله عنه وأولاده من فاطمة رضي الله عنهم أجميعن ـ، فقد ذهبوا إلى أن هؤلاء لهم مطلق الحق في الشفاعة لشيعتهم، فلا ترد لهم شفاعة.

واختلقوا لهذا القول أحاديث كثيرة، وروايات عديدة، وقصصاً مكذوبة، يستدلون بها على أن الشيعة كلهم داخلون في ضمان شفاعة آل البيت مهما بلغ جرم المتشيع، فهو لا خوف عليه ولا ينبغي أن يحزن؛ فإن أمله وعمله إمامه، وهو من يتشيع لهم(٢).

ومن النصوص التي تثبت ذلك عنهم ما ذكره الخوني الشيعي عن معاوية ابن وهب أنه قال: «سألت أبا عبد الله ع عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]. قال: نحن والله

⁽١) انظر: تكملة شرح الصدور ص ٣٦.

⁽٢) انظر: عقيدة الشيعة ص ٣٣٦.

المأذون لهم في ذلك والقاتلون صوابًا، قلت: جعلت فداك، وما تقولون إذا كلمتم؟ قال: نمجد ربنا، ونصلي على نبينا، ونشفع لشيعتنا، فلا يردنا ربنا»(۱).

وقال أيضاً: «وروى محمد بن يعقوب في الكافي بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام مثله» (٢).

وتحت عنوان: «أحاديث الشفاعة عند العامة» يذكر الخوني المفسر وهو من أثمة الشيعة وواية عن أبي هريرة في كتابه «البيان في تفسير القرآن» في معرض عده للشفعاء فيقول: «وروى أيضًا، قال: قال رسول الله عَلَيّة: «الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيكم، وأهل بيته، . . إلى أن يقول: «ومن هذه الروايات يستكشف أن الاستشفاع بالنبي عَلَيّة وبأهل بيته الكرام ع أمر ندب إليه الشرع، فكيف يعد ذلك من الشرك؟»(").

بل يروي الشيعة عن أثمتهم الجزم القوي بحصول الشفاعة منهم الأتباعهم من الشيعة، حتى إن الناس يحسدونهم على هذا الفضل الذي امتازوا به عن غيرهم من الناس، كما نتبينه في الرواية الآتية عن محمد الباقر وجعفر الصادق أنهما قالا وبكل تأكيد : «والله لنشفعن والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا، حتى يقول أعداؤنا - إذا رأوا ذلك - ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ (أ) [الشعراء: ١٠٠]».

ويقول الملطى عن فرقة المغيرية الشيعية :

⁽١)، (٢) البيان في تفسير القرآن ص ٥١٥.

⁽٣) البيان في تفسير القرآن ص ٥١٦.

⁽٤) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩، نقلاً عن تفسير على بن إبراهيم.

«ومنهم صنف يقال لهم المغيرية زعموا أنه من ظلم نفسه من عترة علي ؟ فلا حساب عليه ولا عذاب ولا وقوف عليه ولا سؤال ، وإن ترك الفرائض وركب العظائم وأشرك بالله »(١) .

ومعلوم أن هذا غلو فاحش وجهل بحقيقة الإسلام؛ بل وصل الحال بالشيعة الإمامية إلى أن مايزوا بين شفاعة الرسول فله وبين شفاعة على بن أبي طالب والأثمة من آل محمد، الذين يستمدون عصمتهم وسموهم الروحي من النبي فله ، وجعلوا للإمام على رضي الله عنه خصوصية له وحده في شفاعته لأهل شيعته، وفي هذا يذكر الشيخ المفيد أن الإمامية على اتفاق أن رسول الله فله يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين عني على بن أبي طالب يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأن آل محمد لله يشفعون كذلك، وينجي الله بشفاعتهم كثيرًا من الخاطئين (٢).

وللحسين بن علي رضي الله عنهما كذلك منزلة في الشفاعة عند الشيعة لا تقل عن منزلة أبيه، وقد نسجوا حوله مزايا عديدة، وسبب ذلك هياج العواطف نحوه؛ لما كان لوفاته من وقع شديد على القلوب، وفاجعة عظيمة في النفوس، فهو يقول فيما يزعمون: «الزموا مودتنا أهل البيت؛ فإن من لقي الله وهو يودنا دخل في شفاعتنا»(٣).

وقد بلغ الغلو بالشيعة في إثبات شفاعة آل البيت إلى حد أنهم في زيارتهم لقبور الأولياء من آل البيت لا يذكرون ما جاء به الشرع من السلام عليهم

⁽۱) التنبيه والردص ۱۵۲ ـ ۱۵۳ .

 ⁽٢) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩، وهو ينقل عن أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ٤٧.

 ⁽٣) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩، وهو ينقل عن المناوي في الكواكب الدرية ١/ ٥٥.

وطلب المغفرة لهم؛ بل يعكسون الأمر فيطلبون المغفرة منهم، ويتوسلون إليهم بشتى التضرع؛ ليكونوا في حماهم ومن حزبهم الذين يشفعون له.

فمن تعليماتهم أن يقول الشيعي إذا زار تلك القبور: «بأبي أنتم وأمي ونفسي وأهلي، اجعلوني في حماكم، وصيروني من حزبكم، وأدخلوني في شفاعتكم، واذكروني عند ربكم»(١).

وقد ذكر الآجري بعض الروايات في إثبات الشفاعة لآل البيت، بعضها يوردها دون سند، وعلى صيغة التضعيف أيضًا، كقوله: «قال محمد بن الحسين رحمه الله: وقد روي أنه «ما من أهل بيت نبي إلا وله شفاعة».

وعن عطية العوفي: «أن كعبًا أخذ بيد العباس رضي الله عنه فقال: إني أدخر هذا للشفاعة، فقال: وهل شفاعة إلا للأنبياء؟ ـ أو قال: هل لي شفاعة؟ ـ قال: نعم، ليس من أهل بيت نبي إلا كانت له شفاعة».

وذكر رواية أخرى عن عطية بن سعد بمثل ما تقدم، ورواية ثالثة عن عطية ـ دون ذكر الاسم كاملاً ـ تثبت شفاعة أهل بيت الأنبياء(٢) .

وهذه الروايات ـ سواء صحت أم لم تصح ـ فإنها تدل فقط على أن المؤمنين الصالحين من آل البيت يشفعون إن أذن الله لهم ، كما يشفع من لم يكن من آل البيت من أتباع الأنبياء ، فلا متمسك للشيعة في اختصاص آل البيت بمثل هذه الروايات .

وآل البيت عند الله مثلهم كمثل غيرهم من الناس؛ من كان صالحًا منهم ثبتت شفاعته بما ثبتت به شفاعة صالحي المؤمنين، ومن كان غير ذلك فلا وزن

⁽١) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٩٩ نقلاً عن تحفة الزائرين للمحلى ص ٣٦٣.

⁽٢) الشريعة ص ٣٥١ـ٣٥٢.

له عندالله.

وقد صرح الرسول على نفسه بذلك حين دعا أهل بيته وناداهم بأسمائهم وأخبرهم أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا؛ بل عليهم أن يتقوا الله إذا أرادوا الرحمة والمغفرة، أي إن شأنهم شأن غيرهم من الناس. فقال على : ديا بنسي عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني بما شنت لا أغني عنك من الله شيئًا، ".

ذلك أن الله تعالى هو الواحد الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، فالشفاعة لا يملكها أحد إلا بعد إذن الله تعالى له، كما هو معلوم، ﴿ قُل لِلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرَّجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٤].

إذ ليست الشفاعة عند الله كالشفاعة في الدنيا؛ يأتي الشافع إلى من تطلب الشفاعة منه دون إذنه ورضاه، ثم يأخذ في التوسل إليه لتلبية ما يريد، فالشفاعة عند الله ليست كهذه؛ بل هي لا تقع إلا كما أخبرنا الله تعالى:

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿ مَا مِن شَفِيعِ إِلاًّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣].

ولعل هناك سببًا آخر جعل الشيعة يعتقدون هذا الاعتقاد الخاطئ في هذه القضية ؛ فبالإضافة إلى غلوهم في حب آل البيت غلوًا شديدًا ـ كما يدعون بزعمهم ـ يعتقدون كذلك أنهم معصومون عن الخطأ الذي يقع فيه الناس،

⁽١) صحيح مسلم ١/ ٤٨٣.

وأن الله قد اختارهم وأفاض عليهم من أنواع المعارف وظهور المعجزات، إلى آخر ما وصفوهم به، فهم إذًا يعتبرون عصمتهم استمرارًا لعصمة النبي على الذي ثبت له الشفاعة، وبالتالي فإنها تثبت لهم تلقائيًا، وهذا ما حدا بهم إلى ذلك الغلو الشديد.

ونحن - مع احترامنا الشديد لآل البيت - نقول: إنهم لا يختلفون بأي مزية من المزايا التي تجعلهم أهلاً للشفاعة دون غيرهم من خلق الله، سواء كانوا هم أو من يشفعون لهم، فكما أنه لا مزية لآل البيت في الشفاعة ؛ كذلك لا خصوصية للشيعة في وصول الشفاعة إليهم أكثر من غيرهم من الناس، وإنما هم كأي أمة أخرى أمام الله تعسالي ﴿ إِنَّ أَكْرَ مَكُمٌ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولعل السبب في فتور الشيعة عن العبادة والجد فيها ـ بمقارنتهم بفرقة الخوارج ـ هو اتكالهم القوي ـ على حصول الشفاعة فيهم ـ على ما كانوا عليه من العمل، لاعتمادهم على شفاعة من يتشيعون له من آل البيت .

وأما بالنسبة لاستدلالهم بالآية ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ على أنها في مخالفي الشيعة فهو استدلال ساقط، بل الصحيح ـ كما يذكر أهل العلم ـ : «أن أهل الكفر لما دخلوا النار، ورأوا العذاب الأليم، وأصابهم الهوان الشديد؛ نظروا إلى قوم هم من الموحدين معهم في النار، فعيروهم بذلك وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم في الدنيا وأنتم معنا في النار، فزاد أهل التوحيد من المسلمين حزنًا وغمًا، فاطلع الله عز وجل على ما نالهم من الغم بتعيير أهل الكفر لهم، فأذن في الشفاعة.

فيشفع الأنبياء والملائكة، والشهداء والعلماء والمؤمنون فيمن دخل النار

من المسلمين، فأخرجوا منها على حسب ما أخبرنا رسول الله على على طبقات شتى، فدخلوا الجنة، فلما فقدهم أهل الكفر؛ ودوا أن لوكانوا مسلمين، وأيقنوا أن ليس لهم شافع يشفع لهم، ولا صديق حميم يغني عنهم من عنداب الله شيئًا، قال الله عز وجل في أهل الكفر لا نضجوا بالعذاب وعلموا أن الشفاعة لغيرهم قالوا: ﴿ فَهَل لّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُ فَعَمَلَ غَيْرَ الّذي كُنًا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقال عز وجل: ﴿ فَكُبُّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۞ قَالُوا وَهُمْ فِيسسهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَاللَّه إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلال مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِ الْعَالَمِينَ ۞ وَمَا أَضَلَنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ۞ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿ ۞ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿ ۞ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٩٤ - ١٠١] (١٠).

وقال الآجري في معنى قول الله تعالى: ﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢]: «وإنما ود الكفار أن لو كانوا مسلمين عندما رأوا معهم في النار قومًا موحدين، فعيروهم، وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار، فحزنوا من ذلك، فأمر الله عز وجل الملائكة والأنبياء ومن سائر المؤمنين أن يشفعوا فيهم، فشفعوا، فأخرج من النار أهل التوحيد، ففقدهم أهل الكفر، فسألوا عنهم، فقيل: شفع فيهم الشافعون لأنهم كانوا مسلمين،

⁽١) الشريعة ص ٣٣٦-٣٣٥.

فعندها ودوا لو كانوا مسلمين حتى تلحقهم الشفاعة»(١).

أدلة نفأة الشفاعة في أهل الكبائر من القرآن الكريم والجواب عنما:

وفيما يلي نعرض بعض أدلة أولئك النفاة للشفاعة من معتزلة وخوارج وغيرهم، ممن ينكر ثبوت الشفاعة في أهل الكبائر وإخراجهم من النار.

«فمما احتجت به المعتزلة لمذهبهم في نفي الشفاعة:

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مَنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٌ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غانر: ١٨].

وزعموا أن من دخل جهنم يخلد فيها؛ لأنه إما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبة، هذا رأيهم ومن وافقهم؛ وهو رأي فاسد ومذهب باطل»(٢).

ويلخص شيخ الإسلام ابن تيمية الآيات التي استدل بها نفاة الشفاعة ، فيقول: «واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

وبقوله: ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وبقوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فيه وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

⁽١) الشريعة ص ٣٣٥.٣٣٥.

⁽٢) لوامع الأنوار ص ٢١٧ ج ٢.

وبقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]. وبقوله: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، (١) .

ونضيف إلى ما سبق من استدلال المعتزلة على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر وإخراجهم من النار ما ذكر الرازي من الآيات التي استدلوا بها إضافة إلى ما تقدم وهي قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقوله: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۞ يَصْلُونَهَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِدِينَ ﴾ [الانفطار: ١٤ – ١٦].

﴿ مَا مِن شَفِيعِ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣].

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذَنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِيسَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشُ وَمَنْ حَوْلُهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبَّهِمْ وَيَوْمُنُ حَوْلُهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبَّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِيسِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر: ٧].

ومن أدلتهم كذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: ٧٤].

⁽١) التوسل والوسيلة ص١٠-١١.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١].

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ [الماندة: ٣٧].

إلى غير ذلك من الآيات التي فيها دلالة في الظاهر على تخليد العصاة الفساق في النار بزعمهم، بحجة أن الله قد حكم عليهم بالخلود في النار وعدم الشفاعة فيهم (١).

ونكتفي بما أوردناه من شبههم من القرآن الكريم، وإن كان لهم شبة أخرى أيضًا من القرآن الكريم - قد تمسكوا بها كذلك أيضًا من القرآن الكريم - قد نسبها إليهم أهل العلم - قد تمسكوا بها كذلك لإبطال الشفاعة في أهل الكبائر، وعدم خروجهم من النار(٢)، تركناها لخوف الإطالة واكتفاءً بالمهم من أدلتهم.

ونبين فيما يلي وجه استدلالهم بتلك الآيات على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، والجواب عن كل دليل استدلوا به.

⁽١) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٩.

⁽٢) حجج القرآن ص ٧٧.

لوامع الأنوار ص ٢١٧ ج ٢.

تذكرة القرطبي ص ٣٤٤.

القصل لابن حزم ٤/ ٦٥.

التوسل والوسيلة ص ١٠ ـ ١١ .

مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١١٦.

شرح الأصول الخمسة ص ١٧٨ ـ ٦٨٩ .

رسائل العدل والتوحيد ١/ ٢٤٤.

الشريعة للآجري ص ٣٣٣ـ٣٣٢.

وجه استدلالهم بالأيات السابقة والجواب عنه :

أما وجه استدلالهم بتلك الآيات، وما في معناها مما يدل بظاهره على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر وخلودهم في النار، والرد عليهم، فهو كما يلي :

قالوا: إن قول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْعًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُوْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨] يدل على نفي السفاعة؛ وذلك أن الله أخبر أنه لا تحمل نفس عن نفس شيئًا من الآثام، ولا تؤثر في إسقاط العقاب عنها، «ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العقاب؛ لكان قد أجزت نفس عن نفس شيئًا»(١) ، وهو بخلاف ما دلت عليه الآية في زعمهم، قالوا: وقد أخبرنا الله أنه لا يقبل منها شفاعة، «وهذه نكرة في سياق النفي، فتعم جميع أنواع الشفاعة»(١) .

وقالوا كذلك: إن الله تعالى أخبر أنهم لا ينصرون، لا بشفاعة ولا بغيرها، «ولو كان محمد شفيعًا لأحد من العصاة لكان ناصرًا له، وذلك على خلاف الآبة»(٣).

والجواب عن هذا الدليل: أن المعتزلة أخطأوا في فهم المراد من الآية ؛ وذلك أن نفيهم الشفاعة عن العصاة وجعلها للمتقين المستحقين للثواب، لزيادة المنافع على قدر ما استحقوه (٤) عذا أمر غير مسلم به ؛ إذ لا يجوز أن يكون المراد من الآية نفي الشفاعة في زيادة المنافع ؛ لأنه تعالى حذر من ذلك اليوم بأنه لا تنفع فيه شفاعة ، وليس يحصل التحذير إذا رجع نفي الشفاعة إلى

⁽¹⁾ ـ (٤) التفسير الكبير للرازي ٣/ ٥٦.

تحصيل زيادة النفع؛ لأن عدم حصول زيادة النفع ليس فيه خطر ولا ضرر.

يبين ذلك أنه تعالى لو قال: اتقوا يومًا لا أزيد فيه منافع المستحق للثواب بشفاعة أحد؛ لم يحصل بذلك زجر عن المعاصي، ولو قال: اتقوا يومًا لا أسقط فيه عقاب المستحق للعقاب بشفاعة شفيع؛ كان ذلك زجرًا عن المعاصي؛ فثبت أن المقصود من الآية نفي تأثير الشفاعة في إسقاط العقاب، لا نفي تأثيرها في زيادة المنافع().

ثم إن إخبار الله تعالى بأنه لا تجزي نفس عن نفس شيئًا، ظاهر في أن المراد: لا تحمل نفس عن نفس من ذنوبها، ولا تزيد في درجاتها، ولا يغني فيه أحد عن أحد، ﴿ لِكُلِّ امْرِئُ مِنْهُمْ يَوْمَئِذُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٧]، إلا إذا أذن الله بالشفاعة، وهذا لا تنفيه الآية؛ بل تنفي الشفاعة في الكفار، وأنه لا ناصر لهم من الله، لا قريب ولا بعيد، ولا نبي ولا غيره، بأي وجه من وجوه النصرة، سواء أكانت تلك النصرة هي الشفاعة أم غيرها، فهذا منفي عن الكفار لا عن أهل الكبائر.

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ مَن نَفْسٍ مَن الْمَنْعَةُ سُيًّا ﴾ [البقرة: ٤٨]، قال: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئًا(٢).

فنفي الشفاعة إنما هو عن الكفار وليس عن أهل الكبائر؛ لثبوت ما يخصص هذا العموم في الآية بما ورد في السنة المطهرة، من نصوص صحيحة في ثبوت الشفاعة في أهل الكبائر.

تفسير الرازي ٣/ ٥٦.

⁽۲) فتح القدير ۱/ ۸٤.

وقال السفاريني - في رده لاستدلال المعتزلة بهذه الآية -: «وأجابوا عن الآية الكريمة: أن المراد بقوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ﴾: الكفار؛ للآيات الواردة والأخبار الثابتة في الشفاعة. قال القاضي البيضاوي: تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار، ويؤيد هذا أن مساق الخطاب معهم، والآية نزلت ردًا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم»(١).

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَّاعُ ﴾ [غافر: ١٨]: أن الله تعالى نفى عن الظالمين وجود صديق أو شفيع ينفعهم، وهذا الوصف وهو الظلم يتناول الكافر وغيره، فأثبت الله انتفاء الشفاعة عن الظالم، وهذا يدل بزعمهم على أنه لا فرق بينهما من ناحية انتفاء الشفاعة .

ويجاب عن هذا: بأن الآية واردة على المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وغيره من الذنوب، وليست واردة على المؤمن الذي يتصف أحيانًا بالظلم، والاتصاف بالظلم يختلف أهله فيه اختلافًا كبيرًا، لكن الظالم على الإطلاق هو الكافر، ومعنى هذا: أن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافر.

قال ابن كثير عن معنى الآية: «أي ليس للذين ظلموا أنفسهم-بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم؟ بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير *(٢).

⁽١) أوامع الأنوار ص ٢١٧.

⁽٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٧٥.

وقال السفاريني - بعد أن ذكر استدلال المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة . : «المراد بالظالمين الكفار ؛ فإن الظالم على الإطلاق هو الكافر »(١) .

وذهب الرازي - في الجواب عن شبهة المعتزلة في الآية - إلى أن الله تعالى «نفى أن يكون للظالمين شفيع يطاع، ولم ينف شفيعاً يجاب، ونحن نقول بموجبه، فإنه لا يكون في الآخرة شفيع يطاع؛ لأن المطاع يكون فوق المطيع، وليس فوقه تعالى أحد يطيعه الله تعالى؛ لأنا نقول: لا يجوز حمل الآية على ما قلتم من وجهين:

الأول: أن العلم بأنه ليس فوقه تعالى أحد يطيعه متفق عليه بين العقلاء، أما من أثبته سبحانه فقد اعترف أنه لا يطيع أحدًا، وأما من نفاه؛ فمع القول بالنفي استحال أن يعتقد فيه كونه مطيعًا لغيره، فإذا ثبت هذا كان حمل الآية على ما ذكرتم حملاً لها على معنى لا يفيد.

الشاني: أنه تعالى نفى شفيعًا يطاع، والشفيع لا يكون إلا دون المشفوع إليه؛ لأن من فوقه يكون آمرًا له وحاكمًا عليه، ومثله لا يسمى شفيعًا، فأفاد قوله ﴿ يُطَاعُ ﴾ على من قوله ﴿ شُفِيعٍ ﴾ كونه دون الله تعالى، فلم يمكن حمل قوله ﴿ يُطَاعُ ﴾ على من فوقه، فوجب حمله على أن المراد به أنه لا يكون لهم شفيع يجاب»(٢).

ومن هذه الأجوبة يتضح أنه لا دليل للمعتزلة في الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر .

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزُقْنَاكُمْ مَن

⁽١) - لوامع الأنوار ٢/ ٢١٧.

⁽۲) التفسير الكبير ۳/ ٥٦.

قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ... ﴾ [البسق رة: ٢٥٤] إلخ الآية ، ما قاله الرازي من أن «ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعات بأسرها»(١).

وهم لا يقولون بذلك؛ بل يثبتون بعض الشفاعات كما هو معلوم من منده بهم، كإثبات الشفاعة العظمى، والشفاعة في رفع الدرجات، واستدلالهم بهذه الآية على نفي أي نوع من الشفاعة لا يتفق مع إثباتهم لبعضها.

ويجاب عن هذا أيضًا، بأن الآية واردة على الكفار المتصفين بالظلم على الإطلاق، لا على الظالمين من أهل الإيمان؛ فإنها لا تشملهم لشبوت ما يخصصهم، وقد تقدم أنه ليس كل ظالم كافر، بخلاف الكافر فإنه ظالم ولابد، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: «الحمد لله السذي قال: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون»(٢).

ويقول الطبري: «وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص، وإنما معناه: من قبل أن يأتي يوم، لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، لأهل الكفر بالله؛ لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض (٢٠٠٠)، فهم ليسوا بمنزلة الكفار الذين يقولون: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠٠) وَلا صَدِيسَةٍ حَمِيسِمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠١، ١٠٠]، أي فيشفع لنا إلى ربنا للخروج من النار؛ لأنهم ليس لهم من يؤملونه للشفاعة، لا من الملائكة ولا من الأقارب، وإن

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٥٦.

⁽٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٠٤، فتح القدير ١/ ٢٧١.

⁽٣) تفسير الطبري ٣/ ٣.

كانوا يعلمون والله، أن الصديق إذا كان صالحًا دفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع، كما قال قتادة (١).

ولكن هؤلاء كفار يائسون من رحمة الله لانقطاع رجائهم، أما أهل المعاصي من المؤمنين فلا يزال أملهم قويًا في الخروج منها، لما يرون من رحمة الله وإخراجه من النار لمن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وإلا لتساوى في النار من كان معه أصل الإيمان وجزء منه، ومن كان بعيدًا عن الإيمان وليس في قلبه مثقال ذرة منه، ويأبى الله هذا الحكم، وقد نفاه تعالى عن نفسه.

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ رَبُّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ... ﴾ [آل عمران: ١٩٢] إلى الآية، إن الله قد بين أنه ليس للظالم في يوم القيامة أي ناصر ينصره من الله؛ لا من قرابة، ولا من الرسل «ولو كان الرسول يشفع للفاسق من أمته لوصفوا بأنهم منصورون؛ لأنه إذا تخلص بسبب شفاعة الرسول عن العذاب فقد بلغ الرسول النهاية في نصرته»(٢).

ويجاب عن هذا، بأن الآية ليست في مجرد الدخول؛ بل إنها في حق من هو أهل للخلود في النار على التأبيد؛ وهم الكفار، قال القرطبي: «ولا نقول كما قال أهل حروراء فيكون قوله على هذا ﴿ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ على بابه من الهلاك؛ أي: أهلكته وأبعدته ومقته، ولهذا قال سعيد بن المسيب: الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار، دليله قوله في آخر الآية: ﴿ مَا لِلظَّالْمِينَ مِنْ أَنصَارِ ﴾؛ أي الكفارة (٣).

ومعلوم أن هذه الآية وإن كان ظاهرها العموم، لكنها خصصت بأدلة

⁽١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٤٠.

⁽۲) تفسير الرازي ۳/ ۵۷.

⁽٣) التذكرة ص ٣٤٤.

أخرى، ولا تفيد أن الظالم كافر لا يستحق الشفاعة فيه أبدًا.

ويقول السفاريني:

«وقالت المعتزلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدُخِلِ السَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ ، ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَ لَمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الانبياء: ٢٨] ، ﴿ وَكَم مِن مَلَك فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦] ، ومن أخزاه الله لا يرتضيه ومن ارتضاه لا يخزيه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [النحريم: ٨] .

والجواب عن الآية الأولى: قال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله على: معنى ﴿ مَن تُدْخِلِ النَّارَ ﴾: من تخلد، وقال قتادة: تدخل مقلوب تخلد، ولا نقول كما قالت أهل حروراء (يعني الخوارج)؛ فعلى هذا قوله: ﴿ فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ ﴾ على بابه من الهلاك؛ أي أهلكته وأبعدته ومقته، ولهذا قال سعيد بن المسيب: الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار، دليله قوله في آخر الآية ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي الكفار.

وإن سلم أن الآية في عصاة الموحدين فالمراد بالخزي: الحياء، يقال: خَزِيَ يَخْزَى خَزاية إذا استحى، فهو خزيان، وامرأة خزيا، فخزي المؤمنين يومنذ: استحياؤهم من دخول النار ودار البوار، مع أهل الشرك والكفار، ثم يخرجون بشفاعة النبي عَلَيْكُ، ورحمة الرؤوف الرحيم.

ونفي النصرة لا يستلزم نفي الشفاعة؛ لأنها طلب مع خضوع، والنصرة ربما تبنى على المدافعة والممانعة والاستعلاء، على أنا نقول: لا يسلم لهم زعمهم أن الفاسق غير مرضي مطلقًا، بل هو مرضي من جهة الإيمان والعمل الصالح، وإن كان مبغوضاً من جهة الذنوب والعصيان وارتكاب القبائح؟ بخلاف الكافر؟ فإنه ليس بمرضي مطلقاً، لعدم الأساس الذي تبنى عليه الحسنات والاعتداد بالكمالات؟ وهو: الإيمان (١٠).

ووجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لَمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] على نفي الشفاعة للعصاة بأنه: «أخبر تعالى عن ملاثكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عز وجل، والفاسق ليس بمرتضى عند الله تعالى، وإذا لم تشفع الملائكة له، فكذا الأنبياء عليهم السلام؛ لأنه لا قائل بالفرق»(٢).

وإذا كان الفساق عندهم ممن لم يرض الله عنهم؛ فسإنهم يكونون ممن غضب عليهم، وإذا كان قد غضب الله عليهم فإنهم من أهل النار.

ويجاب عن هذا، بأنه لا يصح القول بأن العاصي قد خرج عن رضى الله تعالى، كما خرج عنه المشرك، الذي مات على غير التوحيد، ويتبين هذا الخطأ الذي ارتكبوه، بمساواتهم أهل الكبائر بالكفار والمشركين، في الخلود في النار، حينما نقارن بين موحد لله تعالى معترف بوحدانيته، وبين آخر مشرك جسعل مع الله آلهة أخرى؛ ليس له أي عمل صالح يتقرب به إلى الله، هسل يستوي عقلاً وشرعًا أن يتساوى جزاء هذا بهذا؟

لابد أن يكون الجواب بالنفي، فهذا معه من الإيمان بالله، والأعسال الصالحة الأخرى، ما يطمعه في رضى الله تعالى عنه، فهو تحت المشيئة؛ إن شاء الله عذبه بذنوبه وأخرجه إلى الجنة، وإن شاء عفا عنه و دخل الجنة مباشرة فإن الله تعالى ﴿ لا يَغْفِرُ أَن يُشُوكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: 117].

⁽١) انظر: لوامع الأنوار ص ٢١٧.

⁽٢) التفسير الكبير ٣/ ٥٧.

ومن الواضح أن المؤمن العاصي قد جمع بين الإساءة والإحسان؛ فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، يحب على ما عنده من إيمان، ويبغض على ما عنده من فسوق وعصيان، وأمره في الآخرة إلى الله؛ إن شاء عفا عنه وإن شاء على معصيته، ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة ـ كما دلت النصوص الكثيرة على ذلك من الكتاب والسنة.

وأما وجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَسْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ السَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، فهو أن الله قد أخبر عن العصاة الفساق بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تغني عنهم شيئًا، «ولو أثرت الشفاعة في إسقاط العقاب لكانت الشفاعة قد تنفعهم ؟ وذلك ضد الآية »(١) ، وهو إثبات لما نفته الآية بزعمهم .

ويجاب عن هذا بأن استدلالهم بها يصح فيمن كانت هذه صفته؛ لأن عدم نفع الشفاعة لا يصح إلا على الكفار، أما شمول النفي لغيرهم من عصاة أهل القبلة، فإنه غير داخل في النفي الوارد في الآية.

قال ابن كثير في تفسيره للآية: أنها واردة على «من كان متصفًا بمثل هذه الصفات يعني الكفر بالله ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع ؛ لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها»(٢).

والمؤمن العاصي قابل للشفاعة، بل هو أحق ما يكون بها من غيره؛ لأن من عداه، إما كافر لا تنفعه الشفاعة، وإما فائز لا يحتاج إليها ـ إلا لرفع درجاته.

وأما وجه استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ... ﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٦]

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٥٧.

⁽٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٧.

إلخ على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، وذلك أن الله قد حكم على الفجار بأنهم في جحيم لا يغيبون عنه مخلدين فيه، وأن معنى الآية في زعمهم «يدل على أن كل الفجار يدخلون النار وأنهم لا يغيبون عنها، وإذا ثبت أنهم لا يغيبون عنها ثبت أنهم لا يغيبون عنها ثبت أنهم لا يخرجون منها، وإذا كان كذلك، لم يكن للشفاعة أثر؛ لا في العفو عن العقاب، ولا في الإخراج من النار بعد الإدخال فيها»(١)، فالقول بعد ذلك بأنهم يخرجون من النار بالشفاعة أو لا يدخلونها لا يتفق مع معنى الآية حسب ما ذهبوا إليه.

وهذه الشبهة كغيرها من الشبه التي أوردوها؛ فهي لا تدل على نفي الشفاعة مطلقًا، وإنما تدل على أن قسمًا من الناس يدخلون النار ويعذبون فيها؛ فإما أن تشملهم رحمة الله بالشفاعة خصوصًا وإنه لم يذكر تأبيد خلودهم - أو لا ؛ فإن كانوا من أهل الشفاعة فلابد أن تشملهم، وإلا فهم في النار لا يخرجون منها، إذا كان المراد بالفجار هنا الكفار؛ وعلى هذا فالآية لا تدل على نفي الشفاعة عن جميع الناس العصاة.

وقد فسر الطبري الفجار هنا بأنهم الكفار^(٢) ، وحينئذ فلا خلاف في أنهم لا يغيبون عنها.

وأما وجه استدلالهم بالآيات، التي تدل على نفي الشفاعة لأحد إلا بإذن الله؛ مثل: قوله تعالى: ﴿ مَا مِن شَفِيعِ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣]، ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ مِنْ أَذِنَ لَهُ السَّرَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ السَّرَّ مَنْ

نفسير الرازي ٣/ ٥٥.

⁽۲) تفسير الطبري ۳۰/ ۸۹.

وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]، فقالوا: إن الله تعالى نفى الشفاعة عمن لم يأذن في شفاعته، وأنه تعالى لم يأذن في الشفاعة في حق أصحاب الكبائر.

ثم استداوا على عدم وجود الإذن بالشفاعة فيهم، بأن هذا الإذن لو عرف لعرف إما بالعقل أو بالنقل؛ «قالوا: أما العقل فلا مجال له فيه، وأما النقل فإما بالتواتر أو بالآحاد، والآحاد لا مجال له فيه؛ لأن رواية الآحاد لا تفيد إلا الظن، والمسألة علمية والتمسك في المطالب العلمية بالدلائل الظنية غير جائز(۱)، وأما بالتواتر فباطل؛ لأنه لو حصل ذلك لعرفه جمهور المسلمين، ولو كان كذلك لما أنكروا هذه الشفاعة، فحيث أطبق الأكثرون على الإنكار علمنا أنه لم يوجد هذا الإذن(۱).

وقالوا كذلك: إن الله لا يأذن بالشفاعة في العصاة؛ لأنهم ليسوا من أهل رضوانه.

ويجاب عن هذا بأن ما ذهبوا إليه في هذه الآيات فيه خطأ وصواب؛ أما الصواب الذي فيه فهو أنه لا أحد يشفع إلى الله إلا بعد أن يأذن الله تعالى له فيمن شاء من عباده، وأنه لا أحد يجترئ على طلب الشفاعة إلا إذا أذن الله له، فعند ذلك يشفع.

وأما الخطأ الذي فيه فهو: القول بأن الله لا يرضى ولا يأذن أن يشفع أحد في أهل الكبائر؛ لأنهم خارجون عن رضى الله، وقد تقدم أن أهل الكبائر ليسوا خارجين عن رحمة الله ورضاه كخروج الكفار، ثم إن القول بأن أهل

 ⁽١) سيأتي الكلام عن ثبوت الاعتقاد بخبر الآحاد في مبحث الرؤية .

⁽٢) انظر: التفسير الكبير ٣/ ٥٨.

الكبائر لا يؤذن لأحد بالشفاعة فيهم ليس عليه دليل، بل إن الأدلة كلها تفيد إثبات الشفاعة فيهم.

وأما وجه استدلالهم بقول الله تعالى ـ عن دعاء حملة العرش ـ : ﴿ رَبُّنَا وَسَعْتَ كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلُكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيم ﴾ [غافر: ٧] إلِخ الآية .

فقالوا: «لو كانت الشفاعة حاصلة للفاسق لم يكن لتقييدها بالتوبة ومتابعة السبيل معنى»(١) ، فهذا يدل بزعمهم على أن الفاسق الذي مات دون توبة لا يستحق الثواب ولا الشفاعة فيه ؛ لأن الملائكة قيدوا دعاءهم وشفاعتهم إلى ربهم بالتوبة ، فإذا لم يكن الشخص من أهل التوبة فإنه لا حق له في الشفاعة ؛ وإلا لما كان لتقييد الملائكة بالتوبة معنى.

ويجاب عن هذا، بأن دعاء الملائكة ليس فيه دليل على حرمان العصاة من الشفاعة والدعاء لهم، وقد تقدم أن كل لفظ عام ورد في القرآن الكريم، يدل على نفي الشفاعة عن الكفار، أنه لا يدخل فيه أهل الذنوب من المؤمنين، ويخصصه كذلك ما ثبت في السنة المطهرة من وقوع الشفاعة لأهل الذنوب؛ غاية الأمر أن الملائكة خصوا بدعوتهم لزيد العناية والاهتمام قسما خاصا من الناس وهم من اتصف بالتوبة والاستغفار، وهذا الخصوص لا ينافي العموم السابق وهو استغفارهم للذين آمنوا؛ فلاشك أن مرتكب الكبيرة لا يسمى كافراً، بل هو مؤمن بإيانه، فاسق بكبيرته، ودعاء الملائكة يشمله بما معه من الإيان.

وذكر القاضي عبد الجبار المعتزلي بعض الآيات التي يستدلون بها على

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٥٨.

نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، ونفي خروجهم أيضًا من النار بقوله: «فمن جملة ما يمكن الاستدلال به على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ١٤].

ثم قال عن وجه استدلالهم بالآية: «فالله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون بالنار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعًا، فيجب حمله عليهما؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على ما ذكرناه»(١).

وللإجابة عن استدلاله نقول: إن العاصي المذكور هنا هو الشخص الذي حسادً الله ورسوله، وشك في حكم الله في الميراث لأنهما واردة في حق المواريث فلم يمتثل أمر الله في الميراث، بل عصى الله فيه وعانده وجحد فرض الميراث، فبذلك يكون كافرًا محادًا لله ورسوله.

قال ابن جرير: "فإن قال قائل أويخلد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة المواريث؟ قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكًا في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحاد الله ورسوله في أمرهما، على ما ذكر ابن عباس من قول من قال حين نزل على رسول الله على قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِللّهَ مِثْلُ حَظّ الله نَبْكَ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِللّهَ مِثْلُ حَظّ الله نَبْكَ وَ النساء: ١١، ١٢] إلى تمام الآيتين: أيورث من لا يركب الفرس، ولا يقاتل العدو، ولا يحوز الغنيمة، نصف المال أو جميع المال؟؟ السنكارًا منهم قسمة الله ما قسم لصغار ولد الميت ونسائه وإناث ولده . . . الله آخر كلامه رحمه الله .

وهؤلاء هم المنافقون: «الذين فيهم نزلت وفي أشكالهم هذه الآية، فهو

 ⁽١) شرح الأصول الخيسة ص ٦٥٧.

من أهل الخلود في النار؛ لأنه باستنكاره حكم الله في تلك، يصير بالله كافرًا، ومن ملة الإسلام خارجًا»(١).

ومن أدلتهم كذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣].

قال القاضي عبد الجبار عن وجه استدلالهم بالآية: «ووجه الاستدلال هو أنه تعالى بين أن من قتل مؤمنًا عمدًا، جازاه وعاقبه وغضب عليه ولعنه، وفي ذلك ما قلنا»(۲).

ويجاب عن معنى هذه الآية - التي استدل بها عبد الجبار - بأن الخلاف قائم بين أهل العلم في معنى هذا الجزاء الذي ذكره الله تعالى .

ومن أقوال العلماء في ذلك:

١ ـ أن هذا الجزاء هو جزاؤه إن جازاه.

٢ ـ أن من قتل مؤمنًا متعمدًا مستحلاً قتله فهذا هو جزاؤه .

٣ ـ أن هذا الحكم هو فيمن لم يتب.

ولعل الأرجح من ذلك: هو القول الأول؛ كما رجحه ابن جرير ـ رحمه الله بقوله: "قال أبو جعفر: وأولى القول في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه ـ إن جازاه ـ جهنم خالدًا فيها، ولكنه يعفو أو يتفضل على أهل الإيمان به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها ولكنه ـ عز ذكره ـ إما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إياها ثم يخرجه منها

⁽١) انظر: جامع البيان ٤/ ٢٩١.

⁽٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٥٩.

بفضل رحمته لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: ﴿ يَا عِبَادِيَ اللَّهِ يَسْ فَولَه: ﴿ يَا عِبَادِيَ اللَّهِ ا أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (١) أي ما عدا الشرك بالله الذي هو أكبر الجراثم على الإطلاق.

ومن أدلتهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤].

قال القاضي عن وجه استدلالهم بهذا النص: «ووجه الاستدلال به هو أن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعًا: فيجب أن يكونا مرادين بالآية معنيين بالنار؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على أنه أرادهما جميعًا»(٢).

ويجاب عن هذا بأن المجرمين المذكورين هنا ليسوا هم عصاة أهل التوحيد، وإنما هم الكفار، بدليل أن الله وصف عذابهم بالخلود، وليس من لازم إرادة الكفار أن يبين أن جرمهم كان الكفر بالله تعالى، وقد نص علماء السلف على أن هؤلاء المجرمين هم الكفار الذين اجترموا في الدنيا الكفر بالله ".

وقال القاضي عبد الجبار - بعد ذكر الآيتين السابقتين -: «ومما يمكن الاستدلال به من عمومات الوعيد في كتاب الله تعالى كثير ؛ فإنه يمكن أن يستدل بقوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣]، ويمكن أن يستدل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ، «وفي ذلك كثرة ما ذكرناه» .

⁽١) جامع البيان ٥/ ٢٢١.

⁽٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٠.

⁽٣) انظر: جامع البيان ٢٥/ ٩٨.

«وطريقة الاستدلال بالكل والاعتراض عليها ما نبهنا عليه، فلا تطول به الكلام»(١).

ولم يذكر وجه استدلالهم بالآيتين الأخيرتين؛ لأنه كما يذكر لا يختلف الحكم والمراد منهما عما سبقهما من إعطاء حكم الفاسق والعاصي حكم الكافر، وسنبين ما قاله أهل الحق من التفريق بينهما، وأن حكم العاصي ليس كحكم الكافر إلا عند المعتزلة والخوارج.

وأما وجه استدلالهم بالآيات التي تفيد تخليد أهل الكبائر من الفساق في النار وعدم الشفاعة فيهم؛ فقد سبق الجواب عنه فيما مضي من الآيات.

وبهذا يتضح لنا عما سبق أن استدلال نفاة الشفاعة ببعض الآيات التي تقدم ذكرها أنه استدلال خاطئ، وأن تلك الآيات التي تقدمت إنما تدل على نفي الشفاعة عن أهل الشرك أو نفي الشفاعة التي يشبتها الكفار لشركائهم من الأصنام أو نفي الشفاعة التي تكون بغير إذن الله ورضاه كما تدل على ذلك ظواهر تلك الآيات (٢)، لا نفيها عن أهل المعاصى من أهل القبلة.

وليس في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة، ولا في أقوال علماء السلف، ما يفيد إبطال الشفاعة للعصاة، وأن ما ورد سواء في الكتاب أو السنة يفيد نفيها عنهم فإن له معنى غير ما تمسك به نفاة الشفاعة، وإلا لأدى ذلك إلى ضرب النصوص بعضها بعضا، وليس هذا من طريقة السلف، بل طريقتهم البحث والتمحيص للوصول إلى ما تلتقي عنده الأدلة.

وقد رأينا فيما سبق عرضه كيف أن المعتزلة والخوارج أيضًا قد خلطوا بين

⁽١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٣.

⁽٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية ص ١٢٨.

حكم الفاسق وحكم الكافر، ثم تسميتهم كذلك للفاسق كافرًا، فخلطوا في التسمية بين العاصي والكافر والفاسق؛ حيث جعلوا الكل لمسمى واحد، وهذا بخلاف ما جاء في القرآن الكريم، فإن الله تعالى قد مايز بين الكفر والفسق والعصيان بقوله تعالى: ﴿ وَكُرَّهُ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئكُ هُمُ الرَّاشدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧].

فقد فصل الله تعالى بين الكفر والفسق، وجعل كل واحد مستقلاً بنفسه، والمعطوف غير المعطوف عليه، فصار الكفر نوعًا والفسق نوعًا آخر والعصيان كذلك، فكرهها جميعًا إلى قلوب المؤمنين، وحبب إليهم الإيمان، وفي بيان هذه الأنواع يقول محمد بن نصر المروزي: «لما كانت المعاصي بعضها كفر وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع:

منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق، وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين، ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الإيمان وليس فيها شيء خارج عنه، لم يفرق بينها، فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: حبب إليكم الإيمان فدخل في ذلك جميع الطاعات، الناخ.

وقد أثبت الله - كما هو معلوم - الإيمان للعصاة الفسقة في أحكام كثيرة، نذكر منها - على سبيل المثال - ما ورد في آية اللعان بين الزوجين؛ فإن مما لاشك فيه أن أحد الزوجين كاذب فيما نفاه عن نفسه، وإذا كان كاذبًا - والكذب كبيرة - فإنه فاسق كما نص القرآن الكريم على فسقه إن كان كاذبًا، وقد شرع الله بينهما اللعان؛ لأن بقاء الزوجية قبل اللعان غير منتف مع فسق أحد الزوجين، وفي

⁽١) نقلاً عن كتاب الإيان لابن تيمية ص ٣٤.

هذا يقول صاحب كتاب إبانة المناهج؛ جعفر بن أحمد: فلو كان الفسق كفراً والكافر فاسقًا لكانت الزوجية مرتفعة بينهما، إذ لا مناكحة بين مؤمن وكافر سيما إذا كان كفره ردة بعد إسلام متقدم، فكان يجب أن لا يصح وقوع الملاعنة بينهما؛ لأن الملاعنة إنما شرعت بين الزوجين لا بين الأجنبيين، فلما علمنا صحة اللعان بين القاذف وزوجته، علمنا أنه لم يكفر واحد منهما مع أن أحدهما فاسق بلا مرية، وذلك يوضح بطلان مذهب الخوارج في أن كل فاسق كافر، وفي ذلك غنى لكل منصف (١).

ثم إنه لم ينقل عن الصحابة ولا عن التابعين أنهم حكموا في الفساق بحكم الكفار في الحقوق والواجبات، بل اعتبروا الفاسق مسلمًا وعاملوه معاملة المسلمين في جميع الحقوق، «ومما يدل على ذلك ما ظهر من إجماع الصحابة والتابعين، فإنه معلوم من أحوالهم أنهم لم يحكموا في الفاسق بأحكام الكفار؛ فلم يحرموا ميراثه من المسلمين، ولا حكموا بحرمة زوجته عليه لأجل فسقه، ولا منعوا من دفنه في مقابر المسلمين، وهذا أظهر من أن يخفى على متأمل لولا شدة الميل عن الصواب والانحراف، وقوة التعصب للرباء والأسلاف، (1).

نعم، كيف يجوز أن يسوى بين حكم مؤمن بالله تعالى مصدق بوعده وعده اقترف ذنبًا لطبيعته البشرية، وبين كافر ملحد مكذب لوعد الله ووعيده، قد استعذب المعاصي والشهوات وأحل ما حرم الله.

⁽١) إيانة المناهج ص ١٦٤.

⁽٢) إبانة المناهج ص ١٦٤. وانظر: الخوارج تاريخهم وأراؤهم الاعتقادية وموقف الإسلام منها ص ٣٥١. لكاتب هذه الأسط.

لاشك أن الفرق بينهما بعيد جداً ؛ «فالمؤمن - كما قال الشيخ محمد نمر الخطيب - ولو كان عاصياً فإنه لا يخلو عن مراقبة الله تبارك وتعالى، ولا يخلو عن ندامة، ولا يخلو عن وخز الضمير »، وأما الكافر فلا يرهب إلا القانون، وربما احتال عليه، ولا يرهب إلا الناس، وسرعان ما يستطيع أن يختفي عنهم ويبتعد عن أنظارهم إذا أراد المعصية، والكافر بعد معصيته لا يجد حاجة إلى الندم، ولا يشعر بشيء من الألم، بل يتمتع بأحلى الذكريات وأشدها عصياناً للرب (۱).

وقال أيضاً: «وبعبارة أخرى: إذا اشترك مؤمن وكافر بمعصية واحدة أو تشابها في معصية واحدة فهل يكون جزاؤهما سواء؟ لاشك أن الإجابة تكون بالنفي، صحيح أن الذنب واحد والمعصية واحدة ولكنهما اختلفا في المنشأ واختلفا في المبدأ؛ فالمؤمن وإن عمل المعصية أو اقترف الذنب فإنه مع ذلك مسلم، بأنه قد عصى ومعترف بأنه قد خالف إلهه وحاد عن طريق مولاه، أما الكافر أو المشرك فإنه ليس كذلك؛ فإنه عندما اقترف المعصية أو قارف الذنب لم يكن مقراً بأنه قد خالف ولم يكن معترفاً بصاحب هذا النظام، لذلك تباينت رتبتهما لاختلاف المنشأ والمصدر»(٢).

فكيف يصح أن يقال: إن حكم المؤمن والكافر سواء في حرمانه من الشفاعة وفي خلوده في النار؟

وإذا كان الحكم بتخليد العصاة في النار خاطئًا فلاشك أن هذا الخطأ كان سببه الخطأ في الحكم عليهم بالكفر أيضًا، ومعلوم أن تكفيرهم أمر عظيم؛ إذ

⁽١) مقدمات وأبحاث تمهيدية في العقيدة الإسلامية ص ٧٤.

⁽٢) المصدر السابق ص ٧٢.

كيف نكفر من لم يكفره الله؟ فقد قال تعالى - في المتقاتلين من المؤمنين -: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتُلُوا فَأَصْلُحُوا بَيْنَهُما ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِي لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِي لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [الجقرة: ١٧٨]، فلم يخرجهم الله عن الإيمان، وسمى القاتل والمقتول أخوين، والنصوص في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه على عدم كفر العاصي أشهر من أن تذكر.

على أن ما ورد في بعض النصوص مما يفيد تكفير العاصي وبالتالي تخليده في النار قد أجاب عنه العلماء بأجوبة كثيرة، منها: أنها تمر كما جاءت ونكل حقيقة المراد منها إلى الله عز وجل، أو نقول إنها من أحاديث الزجر والوعيد، أو تكون واردة في حق المستحل لتلك المعاصي، وغير ذلك من أقوال أهل العلم(١).

قال النووي عن معنى حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسربها مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يسرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، إلخ، قال: "إن هذا الحديث عما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون: أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كسماله ومختاره؛ كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة.

وإغا تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق، وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور: أنهم

⁽١) انظر: شرح النووي لمسلم ١/ ٣١٣.

«بايعوه على أن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا» إلى آخره، ثم قال لهم على أن لا يسرقوا ولا يعصوا» إلى آخره، ثم قال لهم على أن الله على الله، ومن فعل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه،

فهذان الحديثان، مع نظائرهما في الصحيح، مع قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر عير الشرك لا يكفّرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان؛ إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة؛ فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة، وكل هذه الأدلة تضطرنا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه، ثم إن هذا التأويل ظاهر سائغ في اللغة، مستعمل فيها كثيراً، وإذا ورد حديثان مختلفان ظاهراً وجب الجمع في اللغة، مستعمل فيها كثيراً، وإذا ورد حديثان مختلفان ظاهراً وجب الجمع بينهما، وقد وردا هنا فيجب الجمع وقد جمعنا» (١).

ثم قال عن أقاويل العلماء في معنى هذا الحديث وشبهه مما يدل على كفر أهل المعاصي : «وتأول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بورود الشرع بتحريمه»، وذكر أقوالاً أخرى؛ كالقول بأن معناه «ينزع منه اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم المذم فيقال: سارق، وزان، وفاجر، وفاسق.

أو القول بأنه ينزع منه نور الإيمان، أو تنزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى، ثم قال: «وذهب الزهري إلى أن هذا الحديث وما أشبهه يؤمن بها ويمر

⁽١) شرح النووي ١/ ٢٤٢.

على ما جاءت، ولا يخاض في معناها، وأنا لا نعلم معناها، وقال: أمروها كما أمرها من قبلكم، وقيل في معنى الحديث عير ما ذكرته عاليس بظاهر بل بعضها غلط فتركتها، وهذه الأقوال التي ذكرتها في تأويله كلها محتملة، والصحيح في معنى الحديث ما قدمناه أولاً $^{(1)}$. ولا يمنع أن يقال أيضًا: إن معنى الأحاديث المانعة للشفاعة ترد في حق أناس دون أناس، أو في حصولها في بعض الأماكن دون بعض، وهكذا.

وبهذا يتبين لنا بوضوح أن الحكم على العصاة من المؤمنين بحكم الكفار وبالتالي تخليدهم في النار أنه قول خاطئ وبعيد عن الصواب غاية البعد، وأن السبب الذي حذا بالخوارج والمعتزلة ومن سار على طريقتهم إلى القول بتخليد أهل المعاصي في النار وعدم جواز الشفاعة فيهم هو هذا الحكم الخاطئ بإخراجهم من الإيمان، وعدم تقبل ما ورد من نصوص صحيحة تخصص أهل الكبائر من عموم التخليد في النار وإخراجهم منها إلى الجنة.

ونختم الكلام بما قاله الباقلاني ـ رحمه الله ـ :

«ولولا العناد والميل إلى سبيل الضالين ووساوس المردة والشياطين لم يعدلوا عن إثبات الشفاعة المذكورة في نص الكتاب والمأثور وفي الأخبار إلى الترهات، وطريق التأويلات، وتلفيق الجهل والضلالات»(٢).

أدلة نفاة الشفاعة عن أهل الكبائر من السنة، والجواب عنها:

ظهر مما سبق عرضه أن استدلال نفاة الشفاعة ـ من المعتزلة والخوارج ـ

⁽۱) ج ۱ ص ۲٤۲.

⁽٢) التمهيد ص ٣٧٥.

بتلك الآيات التي استندوا عليها في نفيهم وقوع الشفاعة في أهل الكبائر وخروجهم من النار أنه استدلال غير سديد، وإذا كانوا قد استندوا إلى تلك الآيات التي أبطلنا احتجاجهم بها على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر ؛ فإنهم قد استندوا كذلك إلى أحاديث جعلوها شاهدة لهم على ما يذهبون إليه في اعتقادهم ذلك.

وفيما يلي نذكر بعض ما استدلوا به من السنة ووجه احتجاجهم بها وإبطال ذلك الاحتجاج.

ا ـ جماء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله تلك المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وودت أني قد رأيت إخواننا قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا النين لم يأتوا بعد، قالوا: يا رسول الله، كيف تعرف من يأتي من أمتك؟ قال: أرأيت إن كان لرجل خيل غر محجلة في خيل دهم، فهل لا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا فلينادن رجال عن حوضي كما يناد البعير الضال، أناديهم ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: فسحقًا فسحقًا، (١).

ورجه استدلالهم من هذا الحديث على نفي الشفاعة ، هو أنهم قالوا: «لو كان شفيعًا لهم لم يكن يقول: فسحقًا ؛ لأن الشفيع لا يقول ذلك وكيف يجوز أن يكون شفيعًا لهم في الخلاص من العقاب الدائم وهو يمنعهم شربة ماء؟»(٢).

أخرجه مسلم 1/ ٥٣٦.

⁽٢) التفسير الكبير ٣/ ٥٨.

وهذا الحديث لا دلالة لهم فيه على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر ؛ لأن هؤلاء الذين دعا عليهم ليسوا من المسلمين ؛ وإنما هم أهل ردة وكفر ، وفي هذا يقول القاضي عياض عن هذا الدعاء: «هذا دليل لصحة تأويل من تأول أنهم أهل الردة ، ولهذا قال فيهم: سحقًا سحقًا ، ولا يقول ذلك في مذنبي الأمة ؛ بل يشفع لهم ، ويهم لأمرهم ».

قال: «وقيل: هؤلاء صنفان: أحدهما: عصاة مرتدون عن الاستقامة لا عن الإسلام، وهؤلاء مبدلون للأعمال الصالحة بالسيئة، والثاني: مرتدون إلى الكفر حقيقة، ناكصون على أعقابهم، واسم التبديل يشمل الصنفين»(١).

٢ ـ واستدلوا كذلك (٢) بما جاء عن جابر بن عبد الله أن النبي عَلَيْه قسال لكعب بن عجرة: «يا كعب بن عجرة؛ أعيذك بالله من إمارة السفهاء» قال: وما ذاك يا رسول الله ؟ ، قال: «أمراء سيكونون من بعدي، من دخل عليهم فصدقهم بحديثهم وأعانهم على ظلمهم، فليسوا مني ولست منهم، ولم يردوا علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بحديثهم ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم وأولئك يردون علي الحوض، يا كعب بن عجرة، الصلاة قربان، والصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، يا كعب بن عجرة، لا يدخل الجنة من نبت لحمه من سحت؛ النار أولى به ...، (٣) الحديث.

ووجه استدلالهم بهذا الحديث ما جاء فيه من ألفاظ تفيد نفي الشفاعة عن أهل الكبائر ـ بزعمهم ـ وهي:

⁽١) شرح النووي لمسلم ٥/ ١٦٢.

⁽٢) التفسير الكبير ٣/ ٥٨.

⁽٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٩٩.

* قـوله ﷺ: وفليس مني ولست منه، ومعنى هذا «أنه إذا لم يكن من النبي ولا النبي منه فكيف يشفع له؟ (١) ، فتبرأ النبي ﷺ منه ينفي شفاعته له.

* قوله عَلَى نفي الشفاعة ؛ الم يرد علي العوض، قالوا: إنه «دليل على نفي الشفاعة ؛ الأنه إذا منع من الوصول إلى الرسول حتى لا يرد عليه الحوض، فبأن يمتنع الرسول من خلاصه من العقاب أولى (٢).

* قوله ﷺ: الا يدخل الجنة لحم نبت من السحت،، قالوا: إن هذا "صريح في أنه لا أثر للشفاعة في حق صاحب الكبيرة" ، لنفيه ﷺ دخولهم الجنة لارتكابهم الكبائر.

وهذا الحديث لا دلالة فيه، على نفي الشفاعة عن جميع أهل الكبائر، وفي جميع مواطن القيامة؛ فإن الرسول على يشفع في بعض الناس، ويؤخر شفاعته عن بعضهم، ثم يشفع لهم، كذلك لا يشفع لبعضهم في مكان من أمكنة يوم القيامة، ثم يشفع لهم في مكان آخر، كما ورد عن أهل العلم.

وهؤلاء الذين يمنعون من الشرب من الحوض، قد تقدم في جواب النووي أنهم المرتدون، فمما المانع من اتصاف هؤلاء بأنهم مرتدون؟ وأنهم تحت إمرة سفهاء لا يبالون بشرع الله، وكم وقع في التاريخ من أمراء سفهاء يأمرون بمحاربة الله ودينه وشرعه بكل ما يملكون من وسائل.

ثم على فرض أن هؤلاء ليسوا من المرتدين، فقد يجوز أن يمنعوا من الشرب من الحوض، لاتصافهم بتلك الصفة، ثم لا يحرمون الشفاعة في دخول الجنة.

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٥٨، وصحة الحديث: فليسوا مني واست منهم.

⁽٢) المصدر السابق.

⁽٣) المصدر السابق.

وأما تصريحه عليه الصلاة والسلام بعدم دخول من أكل السحت الجنة ، فإن هذا الوصف ينطبق على شخص يستحل ذلك ، ولا يبالي بأكل الحرام ، فمطعمه كله من السحت ، ومعلوم أن المسلم ـ مهما كان حاله ـ لا يصل إلى أن يأكل من السحت مستحلاً له طول حياته ؛ لا يميز بين الحلال والحرام .

٣- ومن أدلتهم كذلك ما جاء عن النبي تلك من نفيه عدم استطاعته حصول النفع لبعض أهل الكبائر، كالغال مثلاً، الوارد فيه الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: قال عليه الصلاة والسلام: «لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فاقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد بلّغتك، (١).

ووجه استدلالهم بهذا الحديث - الذي سرهم كثيرًا؛ لأن الرسول على صرح بعدم استطاعته غوث أحد - أنهم قالوا: إن هذا الحديث «صريح في المطلوب (نفي الشفاعة)، لأنه إذا لم يملك له من الله شيئًا فليس له في الشفاعة نصيب (٢٠).

وهذا الحديث لا دلالة لهم فيه كذلك، وإن كان قد أخبر عليه الصلاة والسلام، عن عدم استطاعته نفع من ارتكب كبيرة الغلول بالشفاعة فيه، فإن الحديث وارد للإخبار بمقت من ارتكب تلك الكبيرة، ثم بعد ذلك تشمله الشفاعة في عموم الموحدين لصراحة النصوص في ذلك.

قال القاضي عياض في معنى قوله عَلَى : «لا أملك لك من الله شيئًا، قال: «معناه من المغفرة والشفاعة إلا بإذن الله تعالى، قال: ويكون ذلك أولاً غضبًا

⁽١) أخرجه البخاري ٦/ ١٨٥، ومسلم ٤/ ٤٩٥.

⁽٢) التفسير الكبير ٣/ ٥٨.

عليه لمخالفته، ثم يشفع في جميع الموحدين بعد ذلك، قال النووي: «كما سبق في كتاب الإيمان في شفاعات النبي الله النبي الله المن حجر - في بيان معنى الحديث أيضًا -: «وكأنه الله أبرز هذا الوعيد في مقام الزجر والتغليظ، وإلا فهو في القيامة صاحب الشفاعة في مذنبي الأمة»(٢) .

٤ ـ ومن أدلتهم أيضًا ما جاء في بعض الأحاديث من تصريحه على بأنه خصيم لبعض أهل الكبائر، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله على: «ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره، (٣).

ووجه استدلالهم بالحديث هو أنهم قالوا: «إنه عليه الصلاة والسلام لما كان خصيمًا لهؤلاء، استحال أن يكون شفيعًا لهم (٤) ؛ إذ لا يمكن أن يكون خصيمًا لهم وشفيعًا في آن واحد لامتناع هذا.

وهذا الحديث الذي استدلوا به هو ما جاء في لفظ ابن ماجه ، حيث أسند خصومتهم إلى الرسول علله ، بينما هو في الصحيح جاء بإسناد الخصومة إلى الله تعالى ، حيث قال البخاري في روايته له : عن أبي هريرة عن النبي علله قسال : «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر …» إلى الحديث (٥) .

⁽١) شرح النووي لمسلم ٤/ ٤٩٥.

⁽٢) فتح الباري ٦/ ١٨٦.

⁽٣) ابن ماجه في سننه ٢/ ٨١٦.

⁽٤) التفسير الكبير ٣/ ٥٨.

⁽٥) أخرجه البخاري ٤/ ٤١٧ ٤٧٠ .

فعلى رواية البخاري لم يقل الرسول على أنه خصيم لهؤلاء، وعلى رواية ابن ماجه فإن الحديث يعتبر من باب الزجر والتشديد في التحذير، وليس فيه معارضة لما ثبت من حصول الشفاعة لأهل الكبائر، فربما أن هؤلاء يعذبهم الله تعالى، ثم يصدق عليهم ما ثبت من دخولهم في الشفاعة إذا كانوا من أهل التوحيد، وما المانع من أن يكون خصمًا لهم، ثم يعفو عنهم وهو أرحم الراحمين؟.

ولا مانع كذلك أن تصدر هذه الكبائر من غير أهل التوحيد، فإذا كانوا على غير التوحيد وفعلوا هذه الكبائر، فلا مانع أن يقال: إن الله تعالى ـ وهو خصمهم ـ سيحل بهم مزيداً من نقمته وتعذيبه لهم، زيادة على تعذيبهم على الكفر.

قال الرازي-بعد أن ذكر تلك الأدلة للمعتزلة ـ: «فهذا مجموع وجوه المعتزلة في هذا الباب»(١) .

ومن أدلتهم كذلك ما روي من قوله تَلَاثُه : «لا تنال شفاعتي أهل الكبائر
 من أمتي، (٦) .

ووجه استدلالهم بهذا الحديث على نفي الشفاعة ظاهر، ويجاب عن هذا بأن الحديث لم يصح بهذا التحريف ولله الحمد، وقد ورد الحديث بالإثبات فحولوه إلى النفي؛ إذ الوارد هو قوله على : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، (٣) ، فأوردوه على ما أرادوا من تقوية مذهبهم.

وقد رد علماء الحديث هذه الرواية بهذا اللفظ وحكموا عليها بالوضع،

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٥٩.

⁽٢) أخرجه الربيع بن حبيب، في مسنده الجامع الصحيح ٤/ ٣١.

⁽٣) قد تقدم تخریجه.

ومن ذلك ما قاله البرديسي، فقد قال حين أورده: «وأما حديث: والتنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي، فموضوع مطروح عند سائر النقلة، وإن سلمنا صحته فهو محمول على من ارتد منهم (١١).

وقد أشار القاضي عبد الجبار إلى بعض الأحاديث، الدالة على إخراج أقوام أدخلوا النار بسبب ذنوبهم ثم أخرجوا منها، فذكر بأنها معارضة بأحاديث أخرى. ومما يجدر ذكره أن تلك الأحاديث التي عارض بها بعضها بعضاً كلها ثابتة، وبعضها في الصحيح.

ونذكر هنا بعضاً مما أورده من تلك الأحاديث، والتي زعم أن المرجئة يتمسكون بها لإثبات إخراج أقوام من النار بعد أن دخلوها ، قال: «ثم إنا نعارضهم بأخبار رويت عن النبي علله في هذا الباب، من جملتها: قوله على الا يدخل الجنة مدمن خصر ولا نمام ولا عاق، (*) قال: «وهذا يدفع ما احتجوا به في المسألة».

ثم قال: «ومن ذلك ما روي عن النبي عَلَيْهُ أنه قال: «من تردى من جبل فهو يتردى من جبل في نار جهنم خالدًا مخلدًا» ، ومن ذلك قوله عَلَيْهُ: «من قتل نفسه بحديدة فعديدته في يده يجأ بطنه في نار جهنم خالدًا أبدًا» (أن أو قوله أيضًا: «من يحتسي سمًا يحتسي سمًا في نار جهنم خالدًا أبدًا» (أن) ، إلى غير ذلك من الأخبار المروية في هذا الباب» (١) .

⁽١) تكملة شرح الصدور ص ٣٦.

⁽٢) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١١٢٠ في الأشربة، مسند أحمد ١/ ٢٧٢.

⁽٣)، (٤)، (٥) أخرجه مسلم ١/ ٣٠٧.

⁽٦) شرح الأصول الخمسة ص ٦٧٣ - ٦٧٤ ، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٣/٢.

ثم استدل كذلك بما روي عن رسول الله على أنه مر بمؤذن يؤذن ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: «على الفطرة»، فقال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال على : «خرج من النار، أي من عمل أهل النار، كذلك الحال هاهنا، ولا يجوز غير ما ذكرناه».

والواقع أن هذا الحديث وما في معناه ليس فيه متمسك للمعتزلة في نفي الشفاعة عن أهل الكبائر.

وقد أجاب العلماء عن هذا الحديث وما جاء في معناه بأقوال:

أحدها : أنه محمول على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بالتحريم، فهذا كافر وهذه عقوبته.

والشاني: أن المراد بالخلود: طول المدة والإقامة المتطاولة، لاحقيقة الدوام ـ كما يقال: خلد الله ملك السلطان.

والثالث: أن هذا جزاؤه، ولكن تكرم سبحانه وتعالى فأخبر أنه لا يخلد في النار من مات مسلمًا(١)، كذلك فإن في الحديث الأول: «لا يدخل الجنة مدمن خصر، فيه راو مختلف فيه؛ وهو سليمان بن عتبة (٢)، وقد قال النووي رحمه الله عن معنى الحديث: «لا يدخل الجنة نمام،(١): «وأما قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام، ففيه التأويلان المتقدمان في نظائره.

أحدهما: يحمل على المستحل بغير تأويل مع العلم بالتحريم.

⁽۱) شرح النووي لمسلم ۱/ ۳۱۳.

⁽٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١١٢٠ ، تعليق محمد فؤاد.

⁽٢) صحيح مسلم ١/ ٣٠٢.

والثاني: لا يدخل دخول الفائزين،(١) .

وهذا هو المسلك الأسلم الموافق للنصوص، لا الاجسسراء على رد النصوص أو تأويلها، كما فعلت المعتزلة حينما ردوا بعض الأحاديث وقووا بعضها الآخر بالتحريفات والتأويلات المخالفة للحق وللواجب نحو النصوص والتوفيق بينها، كما في تأويل عبد الجبار المعتزلي للحديث السابق وخرج من المناره قال: «أي من عمل أهل النار»، وكذا تأويله لقول الرسول تلك عسمن دخل النار من أهل الكبائر ثم أخرج منها: ويغدو والمتحشوا وعادوا حممًا، (٢) الثابت في الصحيحين والمثبت لإخراج العصاة من النار بعدما امتحشوا وعادوا وعادوا حممًا.

يجيب عن هذا الحديث الصريح في إثبات ذلك بقوله:

«وجوابنا: أن هذا الخبر لم تثبت صحته، ولو صح فإنه منقول بطريق الآحاد، وخبر الواحد مما لا يوجب القطع، ومسألتنا طريقها العلم، فلا يمكن الاحتجاج به»، وقال أيضًا: «إنا نتأول هذا الخبر الذي أوردوه على وجه يوافق الأدلة، فنقول: إن المراد «يخرج من الناره أي يخرج من عمل أهل النار قوم»(۳).

وقد جاء عن أنس كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل ناس الجحيم حتى إذا كانوا حممًا أخرجوا، فأدخلوا الجنة، فيقول أهل الجنة؛ هؤلاء الجهنميون»(١٠) ،

⁽١) شرح النووي لمسلم ١/ ٣٠٣.

⁽٢) صحيح البخاري ٧/ ٢٠٢، ومسلم ١/ ٤٤٤.

⁽٣) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٦٧٣ . ٦٧٣.

⁽٤) شرح ثلاثيات المسند ١/ ٧٦٧.

فهل يلغى مدلول هذا الحديث في صراحته ووضوحه في إخراج أهل الكبائر من النار بتأويلات المعتزلة؛ بأن معناه: يخرج من عمل أهل النار ـ كما أجاب القاضي عبد الجبار؟ لاشك أن هذا إبعاد للمعنى الحق أيما إبعاد! وكيف يخرج العاصي ـ على هذا التأويل ـ بعدما امتحش وعاد حممًا؟ مع أن الحديث واضح بأن ذلك يحصل في الآخرة وليس في الدنيا؟

وتأويلهم بأنه يخرج من عمل أهل النار لا يتصور إلا في الدنيا عندما يتوب العاصي من عمل أهل النار، ويعمل بعمل أهل الجنة، ويستمر على ذلك، وبين المراد من الحديث وتفسيرات المعتزلة ما لا يخفى من البعد.

ومثل تأويل القاضي عبد الجبار للحديث السابق ورده له، رده كذلك لقول الرسول على: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، (١) . بأنه «خبر لم تثبت صحته أولاً، ولو صح؛ فإنه منقول بطريق الآحاد عن النبي عَلَيْهُ .

قال: ومسألتنا طريقها العلم، فلا يصح الاحتجاج به"(٢).

ثم زعم أنه على فرض صحته فإنه يؤول معناه ليصبح هكذا: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا»، وهذا التأويل يريد به موافقة مذهبهم في أن الشفاعة خاصة بالمؤمنين الذين تابوا عن الكبائر أو لم يقترفوها، ولا تنال غيرهم.

ومن اعتسراضاتهم على هذا الحديث أيضاً أنهم قالوا عن الحديث: «شفاعتى الأهل الكبائر من أمتى»:

⁽١) أخرجه أبو داود ص ٥٣٧ جـ ٢.

⁽٢) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٦٩١ ـ ٦٩١.

1 - «أنه خبر واحد ورد على مضادة القرآن؛ فإنا بينا أن كثيرًا من الآيات يدل على نفي هذه الشفاعة ، وخبر الواحد إذا ورد على خلاف القرآن وجب رده .

٢ ـ أنه يدل على أن شفاعته ليست إلا لأهل الكبائر، وهذا غير جائز؛ لأنه
 لا أقل من التسوية.

٣- أن هذه المسألة ليست من المسائل العملية، فلا يجوز الاكتفاء فيها بالظن، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن؛ فلا يجوز التمسك في هذه المسألة بهذا الخبر»(١).

وهذه الاعتراضات كلها غير مسلمة.

فإن أخبار الآحاد غير مردودة ، بل هي مقبولة عند أهل الحق ، ومن الخطأ رد أخبار الآحاد مطلقًا ؛ إذ هي حجة يحتج بها في العقائد والأحكام ، فالقدح فيها غير مقبول ؛ بل هي حجة المبطلين حينما لا يجدون في الحديث مطعنًا ، يقولون : هو من رواية الآحاد تنفيرًا للناس عنه ، وسنذكر هذه المسألة بجزيد من التفصيل في مبحث الرؤية .

وأما كون هذا الخبر يضاد الآيات التي تنفي الشفاعة عن أهل الكبائر، فإن هذا التضاد ليس له وجود إلا في زعمهم؛ لما سبق من أن القرآن لا يدل على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر.

وأما اعتراضهم بأن الحديث على رواية الإثبات يدل فقط على حصر شفاعته في أهل الكبائر؛ فهذا غير مقبول؛ وذلك أن الحديث لم يدل على

⁽١) التفسير الكبير ٣/ ٦٢ ـ ٦٣.

الحصر، وإنما هو خبر من الرسول على ، وبشارة منه لأمته أنه يشفع في أهل الكبائر، ولغيرهم من باب أولى، وقد بينت أحاديث أخرى شفاعاته على ، وهي ثابتة بطريق التواتر في أهل الكبائر وفي غيرهم.

وذكر الرازي أن الأحاديث، وإن كان بعضها مرويًا بطريق الآحاد؛ إلا أنه يصل إلى مرتبة التواتر، وأن مطاعن المعتزلة لردها غير مسلمة؛ فقال:

«كل واحد من هذه الأخبار، وإن كان مرويًا بالآحاد؛ إلا أنها كثيرة جدًا، وبينها قدر مشترك واحد، وهو خروج أهل العقاب من النار بسبب الشفاعة؛ فيصير هذا المعنى مرويًا على سبيل التواتر فيكون حجة»(١).

وقبد أجاب الرازي عن شبهة المعتزلة في الأحاديث السابقة مجملاً للجواب عنها جميعًا بجواب واحد، فقال:

«وأما الأحاديث فهي دالة على أن محمدًا عَلَيَّ لا يشفع لبعض الناس ولا يشفع في بعض مواطن القيامة، وذلك لا يدل على أنه لا يشفع لأحد البتة من أصحاب الكبائر، ولا أنه يمتنع من الشفاعة في جميع المواطن.

والذي نحققه أنه تعالى بين أن أحداً من الشافعين لا يشفع إلا بإذن الله؛ فلعل الرسول لم يكن مأذوناً في بعض المواضع وبعض الأوقات، فلا يشفع في ذلك المكان ولا في ذلك الزمان، ثم يصير مأذوناً في موضع آخر وفي وقت آخر في الشفاعة فيشفع هناك»(٢).

وفي الختام، فإن استدلال المعتزلة على نفي الشفاعة في أهل الكبائر أو في

التفسير الكبير ٣/ ٦٥.

⁽۲) التفسير الكبير ٣/ ٦٦.

إخراجهم من النار؛ سواء كان ذلك الاستدلال قد تلمسوه من ظواهر بعض الآيات، أو بعض الأحاديث؛ أنه استدلال خاطئ ومعارضة للنصوص، وقد رأينا من عرض ما سبق في الآيات والأحاديث قوة دلالة تلك النصوص على ثبوت هذه الشفاعة.

ورأينا كذلك كيف أن أحاديث الشفاعة جاءت على أشكال ووقائع مختلفة، وينبغي على من خفي عليه فهم نص من تلك النصوص التي تدل بظاهرها على نفي الشفاعة أن يلتمس فيه الحق وما سار عليه سلف الأمة؛ في الجمع بينها من أن الرسول على يكن أن يشفع في مكان دون مكان وفي وقت دون وقت ولقوم دون آخرين.

وهكذا فإذا وجدنا نصًا عن رسول الله على ثبوت الشفاعة كقوله: اسحقًا سحقًا، لأقوام غيروا وبدلوا بعده؛ فليس من الحق أن نتخذ هذا الحديث حجة على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر دون البحث عن حقيقة المراد منه، ثم نعرض عن النصوص الأخرى الصريحة الواضحة في ثبوت شفاعته على الكبائر وإخراجهم من النار، وإنما الواجب هو النظر والتوفيق بين النصوص لاستخراج الحق الذي تدل عليه.

شفاعة الرسول عَلَيْ لطائفة من المؤمنين بدخول الجنة بغير حساب:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن طائفة من أمة محمد على يدخلون الجنة بغير حساب بشفاعة الرسول على ، لما امتازوا به عمن عداهم من صفات جعلتهم أهلاً لهذا الإكرام .

ومصداق هذا ما جاء عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال. «حدثني ابن عباس قال: قال رسول الله على الله على الأمم، فأخذ النبي

يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتى؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق؛ فنظرت فإذا سواد كشير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى دبهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن، فقال: يعترقون ولا يتحلني منهم. قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة، (۱).

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله على يقول: ويدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر. وقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: اللهم اجعله منهم. ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكاشة، (٢).

وعن سهل بن سعد قال: قال النبي عَنْ : «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون السفّاء أو سبعمائة ألف؛ شك في أحدهما متماسكين آخذ بعضهم بيعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدر،(٣).

وبالتأمل في أحاديث السبعين ألفًا المتقدمة الذين يدخلون الجنة من أمة محمد على بغير حساب؛ نجد أنه مجرد إخبار من الرسول على بأنهم يدخلون الجنة بغير حساب، وليس نصًا صريحًا في أنهم استحقوا ذلك الجزاء بشفاعة

⁽۱) أخرج هذا الحديث البخاري في صحيحه. انظر: فتح الباري ١١/ ٤٠٦.٤٠٥، ومسلم ١/ ٤٩٦.٤٩٠.

⁽٢)، (٣) صحيح البخاري، انظر: فتح الباري ١١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ومسلم ١/ ٤٩٦ ـ ٤٩٦.

الرسول ﷺ.

والواقع أن محل الشاهد من هذا الاستدلال هو دعاء الرسول تلك لعكاشة بأن يكون منهم؛ فإن هذا الدعاء هو شفاعة منه تلك لعكاشة.

وأما توقف ابن كثير فيها فهو يذكر أنه قد استبان له بعد رجوعه إلى · حديث عكاشة بأنه يصلح دليلاً لهذا النوع من الشفاعة .

وقد نقل عن القاضي عياض إثباته لهذا النوع من الشفاعات الثابتة لنبينا على على ذلك بقوله:

«وقد ذكر القاضي عياض وغيره نوعًا آخر من الشفاعة، وهو خامس وهي في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ولم أر لهذا شاهدًا فيما علمت، ولم يذكر القاضي عياض - فيما رأيت - مستند ذلك، ثم تذكرت حديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله عَلَيُهُ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب . والحديث مخرج في الصحيحين، كما تقدم، وهو يناسب هذا المقام»(۱) .

ونقل القرطبي(٢) والسفاريني(٣) قول القاضي عياض في عد هذه الشفاعة

⁽١) النهاية ٢/ ٢٧٥.

⁽٢) التذكرة ص ٣٠١.

⁽٣) لوامع الأنوار ٢/ ٢٠٨.

نوعًا من الأنواع الخمسة من أقسام الشفاعات الثابتة.

وقال ابن أبي العز في معرض تعداده لأقسام الشفاعة :

«النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله عَلَيُ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب»(١).

وإضافة إلى ما سبق؛ فإن مما يدل كذلك على أن هؤلاء يدخلون الجنة بشفاعة الرسول على ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله على أنه قال: «سألت ربي عز وجل فوعدني أن يُدخل من أمتي سبعين ألفًا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا، (٢).

وسند هذا الحديث جيد كما قال ابن حجر (٣) .

وعن أبي هريرة عن رسول الله على عنال: «سألت الله الشفاعة لأمتي، فقال: لك سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قلت: رب زدني، فحثا لي بيديه مرتين عن يمينه وعن شماله،(١).

وقد ذكر في المسند أحاديث كثيرة تدل على استشفاع الرسول علي إلى ربه

⁽١) شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

⁽Y) Ihmit Y/ POT.

⁽٣) فتيح الباري ١١/ ٤١٠ .

⁽٤) الجامع الصغير ٤/ ٧٨ مع شرحه فيض القدير للمناوي، وقد عزاه السيوطي إلى هناد، ورمز لحسنه، قال المناوي: «ضرب المثل بالحثيات؛ لأن من شأن المعطي إذا استزيد أن يحثي بكفيه بغير حساب، وربما ناوله بلاكف، وقال بعضهم: هذا كناية على المبالغة في الكثرة». ط. أولى سنة ١٣٥٦ هـ.

في الزيادة فوق السبعين الآلف الذين ذكروا، إلا أن تلك الأحاديث لا تخلو من ضعف.

شفاعة الرسول ﷺ لمن سكن في المدينة المنورة ومات بها:

ثبت هذا النوع من أنواع الشفاعات التي أكرم الله بها نبينا محمدًا على أ

وهذه الشفاعة فيها كذلك إكرام للمدينة المنورة ولمن سكن بها صابراً على الأواثها مفضلاً لها على غيرها، وقد شرفها الله بميزات عديدة ليس هنا موضع ذكرها ومن ذلك أن جعلها مهاجر رسول الله على وعاصمة الإسلام الأولى، وأنه يأرز إليها الإيمان كما تأرز الحية إلى جحرها(١١).

ثم ميزها الله تعالى عن سائر البقاع بثبوت شفاعة نبيه عَلَّ الأهلها اعتناء خاصًا بهم ومزيد تشريف لها .

ومن الأدلة على ذلك ما جاء عن عامر بن سعيد عن أبيه قال: قال رسول الله عَلَي أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها، وقال: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوانها وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة، (٢).

وعن أبي سعيد مولى المهدي أنه جاء أبا سعيد الخدري ليالي الحرة فاستشاره في الجلاء عن المدينة، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره أن

⁽١) أخرجه البخاري ٤/ ٩٣.

⁽٢) صحيح مسلم ٢/ ٩٩٢، اللابتان: الحرتان الشرقية والغربية، والعضاه: كل شجر فيه شوك.

لا صبر له على جهد المدينة ولأواثها. فقال له: ويحك لا آمرك بذلك؛ إني سمعت رسول الله على يقول: ولا يصبر أحد على لأوانها فيموت إلا كنت له شفيعًا أو شهيئًا يوم القيامة إذا كان مسلمًا (١).

وعن يُحنس مولى الزبير أخبره أنه كان جالساً عند عبد الله بن عمر في الفتنة فأتته مولاة له تسلم عليه ، فقالت: إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن ، اشتد علينا الزمان ، فقال لها عبد الله: اقعدي لكاع ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقسول: «لا يصبر على لأوانها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة، (٢).

وعن أبي هريرة أن رسول الله عَلَيْهُ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شغيعًا يوم القيامة أو شهيدًا» .

ومن تلك النصوص السابقة يتبين ثبوت شفاعة الرسول تَلَيُّهُ لأهل المدينة، وأنه يكون شهيدًا وشفيعًا لهم .

وقد ورد الحديث بإثبات «أو»، وفي هذا إشكال؛ هل «أو» هنا جاءت لشك من الرواة، أم إنها صحيحة ثابتة عن الرسول علله ، ويكون إيرادها هكذا للتقسيم؛ بمعنى أن الرسول علله يكون شهيدًا لبعض أهل المدينة وشفيعًا لبقيتهم، أو يكون شفيعًا للعاصين وشهيدًا للمطيعين، أو شهيدًا لمن مات في حياته وشفيعًا لمن مات بعده، أو تكون «أو» هنا بمعنى الواو، ويكون المعنى أنه يكون شفيعًا وشهيدًا لهم.

⁽١) صحيح مسلم ص٣٠٠١، اللأواء: الشدة والجوع.

⁽۲) صحیح مسلم ۲/ ۲۰۰۶.

⁽٣) نفس المصدر السابق.

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بجواب امتدحه القاضي عياض كما نقله عنه النووي بأنه جواب مقنع يعترف بصوابه كل من وقف عليه، فقال: «سألت قديمًا عن معنى هذا الحديث، ولم خص ساكن المدينة بالشفاعة هنا، مع عموم شفاعته وادخاره إياها لأمته؟ قال: وأجيب عنه بجواب شاف مقنع في أوراق - اعترف بصوابه كل واقف عليه.

قال: وأذكر منه هنا لمعًا تليق بهذا الموضع؛ قال بعض شيوخنا: «أو» هنا للشك، والأظهر عندنا أنها ليست للشك؛ لأن هذا الحديث رواه جابر بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وأسماء بنت عميس، وصفية بنت أبي عبيد، عن النبي تلك بهذا اللفظ، ويبعد اتفاقهم جميعهم، أو رواتهم على الشك، وتطابقهم فيه على صيغة واحدة.

بل الأظهر أنه قاله على هكذا؛ فإما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا، وإما أن يكون «أو» للتقسيم، ويكون شهيدًا لبعض أهل المدينة وشفيعًا لبقيتهم: إما شفيعًا للعاصين وشهيدًا للمطبعين، وإما شهيدًا لمن مات في حياته وشفيعًا لمن مات بعده، أو غير ذلك.

قال القاضي: وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعالمين في القيمة وعلى شهداء أحد: «أنا شهيد على هؤلاء»، فيكون لتخصيصهم بهذا كله مزية أو زيادة منزلة وحظوة.

قال: وقد يكون «أو» بمعنى الواو؛ فيكون لأهل المدينة شفيعًا وشهيدًا. قال: وقد روي: «إلا كنت له شهيدًا أو له شفيعًا».

قال: وإذا جعلنا «أو» للشك كما قاله المشايخ؛ فإن كانت اللفظة

الصحيحة «شهيدًا» اندفع الاعتراض؛ لأنها زائدة على الشفاعة المدخرة المجردة لغيره، وإن كانت اللفظة الصحيحة «شفيعًا» فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء من عمومها وادخارها لجميع الأمة أن هذه شفاعة أخرى غير العامة التي هي لإخراج أمته من النار، ومعافاة بعضهم منها بشفاعته على في القيامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة بزيادة الدرجات، أو تخفيف الحساب، أو عاشاء الله من ذلك، أو بإكرامهم يوم القيامة بأنواع من الكرامة كإيوائهم إلى ظل العرش، أو كونهم في روح وعلى منابر، أو الإسراع بهم إلى الجنة، أو غير ذلك من خصوص الكرامات الواردة لبعضهم دون بعض»(۱).

وذكر هذه الشفاعة لساكني المدينة لاشك أنها مزية عظيمة لهم، ولكن ليس معنى هذا أن الشفاعة تعم كل من سكن المدينة على ما كان من العمل، كما قد يركن إليه بعض أهل الأماني، بل هذه المزية خاصة بمن سكن المدينة مؤمنًا بالله ورسوله، عاملاً بما أوجبه الله عليه، صابرًا على ما يصيبه فيها من آلام ومشاق؛ حبًا فيها وتقديًا لها على غيرها؛ فهذا هو الذي يستحق مزية الاعتناء به والاهتمام بالشفاعة فيه كما أشار إليه الحديث.

أما من سكن فيها، ولم يشكر تلك النعمة؛ فأفسد فيها بما يتنافى مع حرمتها؛ فقد توعده الرسول عليه باللعن، كما في قوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة، قال: «المدينة حرم فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا في عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف، (٢).

شرح النووي لمسلم ٣/ ٥١٣.

⁽۲) أخرجه مسلم ٣/ ٥٢٠ بشرح النووي.

واختلف العلماء في معنى الصرف والعدل على أقوال: «فقيل: الصرف: الفريضة. =

٦ ـ شفاعته عَلَي للمؤمنين بدخول الجنة :

هذا النوع من أنواع الشفاعات الثابتة التي ورد بها النص، يتقدم لها نبينا محمد على يحبس المؤمنون على القنطرة ـ التي سيأتي ذكرها في مبحث الصراط ـ لياذن الله لهم بدخول الجنة، وذلك بعد أن يستشفعوا بآدم ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد على ، يقوم عليه الصلاة والسلام فيطلبها من ربه فيكرمه الله بالإجابة .

وقد ذكرنا فيما سبق أن بعضهم ذهب إلى أن هذه الشفاعة هي المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى، وقد بينا الراجح في ذلك.

ومن الأدلة على حصول الشفاعة للمؤمنين بدخول الجنة:

ا ـ ما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الشفاعة ، وفيه أن رسول الله عَلَيْ قال: وفيه أن عمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، (١) .

٢ ـ ما جاء في حديث أنس رضى الله عنه، وفيه: وفأحمد دبي بمحامد

والعدل: النافلة. وقال الحسن البصري: الصرف: النافلة. والعدل: الفريضة؛ عكس قول الجمهور.

وقال الأصمعي: الصرف: التوبة. والعدل: الفدية؛ روي ذلك عن النبي على . وقسال يونس: الصرف: الاكتساب. والعدل: الفدية. وقال أبو عبيدة: العدل: الحيلة. وقيل: العدل: المثل. وقيل: الصرف: الدية.

والعدل: الزيادة. قال القاضي: وقيل: المعنى لا تقبل فريضته ولا نافلته قبول رضا، وإن قبلت قبول جزاء إلغ. انظر: شرح النووي ٣/ ٥١٦.

⁽۱) البخاري ٨/ ٣٩٥، ومسلم ١/ ٤٦٩.

علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم قال: ارفع محمد، قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، (١) الحديث.

٣- وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله عَلَى :

المجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله. قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعملوا إلى موسى عَلَى السني كلمه الله تكليمًا، فيأتون موسى، فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمدًا عَلَى فيقوم، فيؤذن له، (٢) إلخ الحديث في وصف المرور على الصراط.

⁽١) البخاري ١٣/ ٣٩٢، ومسلم ١/ ٤٥٩.

⁽٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٤٧٤، (النووي).

ومعنى تزلف: أي تقرب، وقوله: «من وراء وراء»؛ قال النووي في معناها ناقلاً عن صاحب التحرير: هذه كلمة تذكر على سبيل التواضع؛ أي لست بتلك الدرجة الرفيعة، قال: وقد يقع لي معنى مليح فيه، وهو أن معناه أن المكارم التي أعطيتها كانت بواسطة سفارة جبريل على، ولكن التوا موسى؛ فإنه حصل له سماع الكلام بغير واسطة. قال: وإنما كرر وواء وراء لكون نبينا محمد على حصل له السماع بغير واسطة، وحصل له الرؤية. قال إبراهيم: وراء موسى الذي هو وراء محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله عَلَي : «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا، (١) .

وهو عليه السلام أول من يقرع باب الجنة ، كما جاء عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله عليه : وأنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة، (٢) .

وجاء عنه أيضاً قال: قال رسول الله عَلَظ : «آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن؛ من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك، (٣).

وعن أنس قال: قال النبي عَلَيْهُ: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته رجل واحد، (1).

وقد جعلها ابن أبي العز نوعًا سابعًا من أنواع الشفاعات الثابتة لنبينا

٧ ـ شفاعة الرسول ﷺ في رفع درجات أهل الجنة :

هذه الشفاعة الثابتة هي إحدى أنواع الشفاعات التي أكرم الله بها نبينا محمدًا عَلَيْ ، وهي ثابتة عند السلف وعند غيرهم من الفرق كالمعتزلة ؛ لأنهم يقولون بها ، وهي زيادة خير لأهل الجنة كغيرها من الشفاعات الأخرى التي يقصد بها إيصال الخير للغير .

⁽١)-(٤) أخرجها الإمام مسلم ١/ ٤٧٦ بشرح النووي.

⁽٥) شرح الطحاوية ص ٢٥٧.

وقد ذكرت هذه الشفاعات هنا وإن كانت خارجة عن موضوع البحث بقصد استكمال بيان أنواع الشفاعات، ومن أدلتها ما يأتي:

أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: «لما فرغ النبي عَلَيْهُ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرمي أبو عامر في ركبته ؛ رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته.

فانتهيت إليه فقلت: يا عم، من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له فلحقته، فلما رآني ولى، فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه الماء. قال: يا ابن أخي أقرئ النبي منه السلام وقل له: استغفر لي.

واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي عَنْ في بيته على سرير مرمل (۱) وعليه فراش، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له: استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس. فقلت: ولي، فاستغفر، فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً. قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى (۱) .

 ⁽١) براء مهملة ثم ميم ثقيلة: أي معمول بالرمال، وهي حبال الحصر التي تضفر بها الأسرة.
 فتح الباري ٨/ ٤٣.

⁽٢) صحيح البخاري ٨/ ٤١-٤٢، ومسلم ٥/ ٣٦٨.

وكذا حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر، فضح ناس من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه، (۱).

وأخرجه مسلم كذلك عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله على قال: «أننا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته رجل واحد، (٢).

وبالتأمل في هذه الأحاديث يظهر - والله أعلم - أنها ليست نصاً صريحاً في زيادة رفع الدرجات في الجنة ، وإنما هي احتمال لذلك ، غير أن العلماء حينما يستدلون لإثبات تلك الشفاعة يستدلون بما تقدم من النصوص ولم يعترض أحد يعتد بقوله على ثبوت هذه الشفاعة .

وقد ذكر الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن نوعين من الشفاعة لم يجد فيهما نصاً إلا ذكر الناس لهما ، وأنه لم يقف لهما على دليل ثابت ، وهما : الشفاعة فيمن استوجب النار أن لا يدخلها ، والشفاعة لقوم في زيادة ثوابهم .

ثم قال عن النوع الثاني: «والنوع الثاني شفاعته عَلَيْهُ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات، وهذا قد يستدل عليه بدعاء النبي عَلَيْهُ لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وقوله في

⁽١) مسلم ٢/ ٨٤٥.

⁽۲) مسلم ۱/ ۲۷3.

حديث أبي موسى: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، وقوله على في حديث أبي هريرة: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله الالله»(١).

ويقول النووي في إثبات هذه الشفاعة وإثبات المعتزلة لها: «الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها؛ وهذه لا ينكرها المعتزلة، ولا ينكرون أيضًا شفاعة الحشر الأول»(۲).

ويقول ابن أبي العز عنها:

"النوع الرابع: شفاعته على في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الأحاديث (٢٠).

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على رفع الدرجات في الجنة كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعْتُهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانِ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢١].

وهذا إخبار من الله تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم

⁽١) ذكره عنه صاحب عون المعبود ١٣/ ٧٨.

⁽۲) شرح النووي لمسلم ۱/ ٤٤٣.

 ⁽٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٧، وانظر: النهاية لابن كثير ٢/ ٢٧٤، والتذكرة للقرطبي
 ص ٢٤٩، وكذا لوامع الأنوار ص ٢١١ ج٢.

على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك.

وقد ساق الحافظ الطبراني بسنده إلى ابن عباس على الظن في رفعه عن النبي عَنِّ قال: وإذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب، قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقهم به وقرأ ابن عباس: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتُهُمْ فُرِيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ .

وورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله على أنه قال: وإن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك، قال ابن كثير: وإسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله على : وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، (1).

وسبب إثبات المعتزلة لهذه الشفاعة هو رأيهم في أن الشفاعة لا تكون إلا للمتقين التائين في زيادة ثوابهم؛ لأن استحقاق المؤمنين لها إنما هو نتيجة لأعمالهم؛ لأن منع الثواب عمن استحقه أو إعطاءه غير من يستحقه قبيح، والله لا يتصف بذلك؛ إذًا فلا شفاعة إلا في زيادة الثواب والتفضل من الله عليهم في الجنة.

وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي :

«إن الرسول إذا شفع لصاحب الكبيرة؛ فلا يخلو إما أن يشفع أو لا؛ فإن

⁽١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٢٠٢٤١. والحديث في صحيح مسلم ٤/ ١٦٧.

لم يشفع لم يجز لأنه يقدح بإكرامه، وإن شفّع فيه لم يجز أيضًا، لأنا قد دللنا على أن إثابة من لا يستحق الثواب قبيح، وأن المكلف لا يدخل الجنة تفضلاً.

وأيضاً فقد دلت الدلالة على أن العقوبة تستحق على طريق الدوام، فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي عَلَي والحال ما تقدم؟!»(١) .

وقد سبق بيان مذهبهم في هذه القضية .

٨ ـ شفاعة الرسول عَن الله لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه:

وهذه الشفاعة وإن كانت غير مقصودة بالبحث أيضاً ؛ إلا أننا نذكرها على سبيل استكمال ذكر الشفاعات، وهي تختلف عن غيرها من سائر الشفاعات؛ فهي خاصة في أبي طالب دون غيره، نظراً لمواقفه العظيمة مع الرسول على ومساندته له في دعوته ومناصرته والذب عنه، وهي أعمال فاضلة لولا أنه قد كتبت عليه الشقاوة ؛ إذ لم يؤمن بالنبي على .

وقد وردت أحاديث صحيحة في تخفيف العذاب عنه بشفاعة الرسول علله ؟ شفاعة تخفيف لا شفاعة إخراج من النار .

كما جاء عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي على : «ما أغنيت عن عمك ؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال : «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار، (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي عَلَي عَلَي عنده عمه ـ فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه

⁽١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٩.

⁽٢) البخاري ٧/ ١٩٣، ومسلم ١/ ٤٨٦.

یغلی منه دماغه،(۱) .

ومع أنه في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه؛ لكنه في الواقع أهون أهل النار عذابًا، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله على قال: وأهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه، (٢).

ومما ينبغي ملاحظته أن قول الرسول عَلَيْهُ في عسمه: العله تنفعه شفاعتيه؛ يشكل عليه قول الله تعالى في شأن الكفار: ﴿ فَمَا تَسْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (٣) .

وأبو طالب كافر، فكيف تنفع الشفاعة فيه، وهي منفية عن الكفار؟ وقد أجيب عن هذا بأجوبة منها:

١ ـ أن هذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ في أبي طالب بخصوصه دون غيره.

٢ ـ أن معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث؛ فالمراد بها
 في الآية الإخراج من النار، وفي الحديث المنفعة بالتخفيف.

قال القرطبي: «فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿ فَمَا تَنسَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ قيل له: تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة».

⁽١) البخاري ٧/ ١٩٣، ١١/ ٤١٧، ومسلم ١/ ٤٨٧.

⁽٢) مسلم ١/ ٤٨٧.

⁽٣) فتح الباري ١١/ ٤٣١.

وقال البيهتي فيما يعزوه إليه ابن حجر: "صحت الرواية في شأن أبي طالب، فلا معنى للإنكار من حيث صحة الرواية، ووجهه عندي أن الشفاعة في الكفار إنما امتنعت لوجود الخبر الصادق في أنه لا يشفع فيهم أحد، وهو عام في حق كل كافر، فيجوز أن يخص منه من ثبت الخبر بتخصيصه. قال: وحمله بعض أهل النظر على أن جزاء الكافر من العذاب يقع على كفره وعلى معاصيه، فيجوز أن الله يضع عن بعض الكفار بعض جزاء معاصيه تطييبًا لقلب الشافع لا ثوابًا للكافر؛ لأن حسناته صارت بموته على الكفر هباء"(١).

ولعل هذا هو الراجح؛ فإن الأحاديث ثابتة والآيات محكمة ، فينبغي المصير إلى القول بالتخصيص؛ فتكون الأحاديث خاصة في إخراج أبي طالب عن معنى الآيات من قوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨] ، وقسوله تعالى: ﴿ وَالَّذِيسَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخفَف عَنهُم مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] ، ويبقى عموم دلالتها على جميع الكفار.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض أهل الرفض قد جمع جزءًا أكثر فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب، وكلها لا يثبت منها شيء، كما ذكر الحافظ ابن حجر(٢).

وقد زعمت المغيرية من الشيعة أن أبا طالب في الجنة^(٣) .

والنصوص تدل على خلافهم وأنه في النار، ومات على شركه، ومما

⁽١) فتح الباري ١١/ ٤٣١.

⁽٢) فتح الباري ٧/ ١٩٥.

⁽٣) التنبيه والرد للملطى ص ١٥٢.

يؤيد عدم إسلامه ما جاء عن ابن المسيب عن أبيه «أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي عَلَيْ وعنده أبو جهل فقال: أي عم، قل: لا إله إلا الله؛ كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي عَلَيْهُ: لاستغفرن لك ما لم أنه عنه. فنزلت: ﴿مَا كَانَ للنبي وَ الله عنه أَنْهُم أَنْهُم أَنْهُم أَنْهُم أَنْهُم أَصْحَاب ألْجَحِيم ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَن أَجْبَت ﴾ [القصص: ٥٦]»(١).

فدل على أنه مات كافراً وأنه في النار، ويخفف عنه من عذابها بشفاعة المصطفى عَلَيْهُ ؟ كما ثبت ذلك عنه عليه الصلاة والسلام.

وقد أخرج الطبري-رحمه الله-في أسباب نزول الآية ١١٣ من سورة التوبة عدة أقوال، أولها: القول بأنها نزلت في نهي الرسول على أن يستغفر لعمه، وقد مات على شركه(٢).

وعن الآية الأخرى: ٥٦ من سورة القبصص، يقول ابن حبر: «لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب»(٢).

والحقيقة أن موته على غير التوحيد مع مواقفه الطيبة مع الرسول على «الله حكمة في ذلك، كما قاله ابن كثير (١٠) .

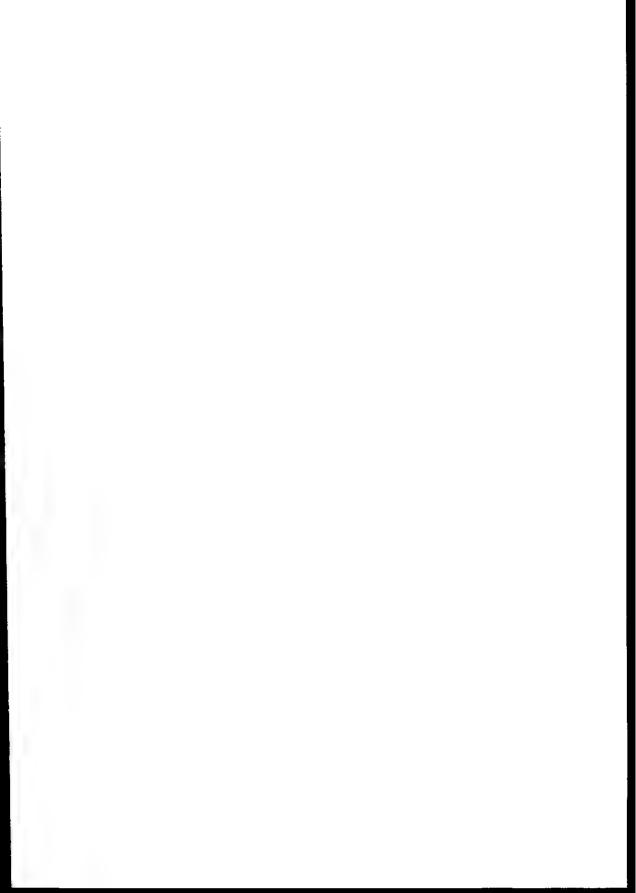
⁽١) صحيح البخاري ٣/ ٢٢٢، ٨/ ٣٤١، ٥٠٦، ومسلم ١/ ٢١٤، ٢١٦.

⁽٢) جامع البيان ١١/ ٤١.

⁽٣) فتح الباري ٨/ ٥٠٦.

⁽٤) تفسير ابن کثير ٣/ ٣٩٤.





الفصل الرابع ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال

وقد وردت أحاديث تثبت الشفاعة لمن يتصف بأحد الأسباب الآتية:

ا ـ طلب الوسيلة للرسول عَلَيه ، والإكثار من الصلاة عليه ، فمن فعل ذلك فقد ووجبت له الشفاعة ».

ومن الأدلة على ثبوت هذه الشفاعة ما أخرج الإمام البخاري عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما، عن رسول الله على أنه قال: امن قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة، (۱).

وكذا ما أخرجه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي عَلَي يقول: وإذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة، (٢).

وأدلة إثبات هذه الشفاعة أحاديث كثيرة، غير أن في بعضها ضعفاً، ونكتفي بما تقدم في الصحيحين.

⁽١) صحيح البخاري ٢/ ٩٤.

⁽٢) صحيح مسلم ١٢/٢.

ومعنى حلت له شفاعتي: قال النووي: «أي وجبت. وقيل: نالته»(١).

وقال ابن حجر: «أي استحقت ووجبت، أو نزلت عليه (٢٠). ولا يجوز أن يكون حلت من الحل؛ لأنها لم تكن قبل ذلك محرمة (٣٠).

وهنا إشكال لبعض الناس؛ وهو أن شفاعة الرسول تُلَقَّ عامة في جميع المذنبين؛ فكيف جعل ثواب هذا الدعاء استحقاق قائله للشفاعة؟

قال ابن حجر: «وأجيب بأن له ﷺ شفاعات أخرى، كإدخال الجنة بغير حساب، وكرفع الدرجات؛ فيعطى كل أحد ما يناسبه».

ونقل عياض عن بعض شيوخه أنه كان يرى اختصاص ذلك بمن قاله مخلصاً مستحضراً جلال النبي على ، لا من قصد بذلك مجرد الثواب ونحو ذلك .

ولكن هذا التفصيل لم يشر إليه الحديث؛ بل ورد عاماً في كل من قال ذلك، وحيث إنه لم يرد في الحديث ما يشير إلى التفصيل الذي ذكره القاضي عياض عن بعض شيوخه؛ فقد تعقبه ابن حجر فوصفه بقوله: «وهو تحكم غير مرضي، ولو كان أخرج الغافل اللاهي لكان أشبه»(1).

يريد ابن حجر بذلك توسيع دائرة المشفوع لهم ممن يسألون الله الوسيلة للرسول على .

وتجدر الإشبارة إلى أنه قبد وردت بعض الروايات تفييد تحيديد عبدد

⁽١) شرح النووي لمسلم ٢/ ١٤.

⁽٢) ، (٣) فتح الباري ٢/ ٩٥.

⁽٤) فتح الباري ٩٦/٢.

الصلاة على النبي على بعدد مخصوص، مثل ما أخرج الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله على : • من صلى علي حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً، أدركته شفاعتي يوم القيامة، (١١).

Y _ومن أسباب الشفاعات الثابتة كذلك، قول الشخص: لا إله إلا الله وموته عليها موحداً، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: فقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه، (۲).

وكلمة السعد الواردة في الحديث على بابها من المفاضلة، وهي تشير إلى تفاوت انتفاع أهل التوحيد بتلك الكلمة حين تحل الشفاعة فيهم، وهم في النار؛ حيث يخرج منها أولاً من كان إيمانه قوياً، ثم من دونه، وهكذا.

قال ابن حجر: «والمراد بهذه الشفاعة المسئول عنها هنا: بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول على المتعامتي فيقال له: أخرج من النار من في قلبه وزن كذا من الإيمان. فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل عن دونه.

وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف؛ فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة، وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم؛ وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من

⁽١) ذكره السفاريني في لوامع الأنوار ٢/ ٢١٦، وعزاه إلى الطبراني ، وقال: «إن سنده جيد».

⁽٢) صحيح البخاري ٢١/ ٤١٨ .

يصيبه لفح من النار ولا يسقط.

والحاصل أن في قوله: «أسعد» إشارة إلى اختلاف مراتبهم في السبق إلى الدخول باختلاف مراتبهم في الإخلاص؛ ولذك أكده بقوله: «من قلبه» مع أن الإخلاص محله القلب؛ لكن إسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ في التأكيد»(۱).

وهذا هو القول الذي ارتضاه في معنى السعد، من أنها على بابها من التفضيل، ورد على من قال: إنها هنا بمعنى السعيد.

وأيضاً يشفع عليه الصلاة والسلام لمن قال: لا إله إلا الله ، وإن دخل النار بذنوبه ؛ فقد ورد من حديث أنس بن مالك في صفة الشفاعة: «ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع. فأقول: يارب انذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله، الله،

وفي حديث آخر عن أنس رضي الله عنه أخبر على عن خروج أهل لا إله إلا الله مهما كانت قلة عملهم، وإن كان شيئاً حقيراً لا قيمة له؛ فإن الله يجعل فيه البركة؛ فيحل به رضى الله تعالى فلا يستهن أحد بعمل الخير مهما كان قليلاً؛ فقد قال على : «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير

⁽١) فتح الباري ١١/٤٤٣.

⁽٢) صحيح البخاري ٤٧٣/١٣ ، ومسلم ١٨٤/.

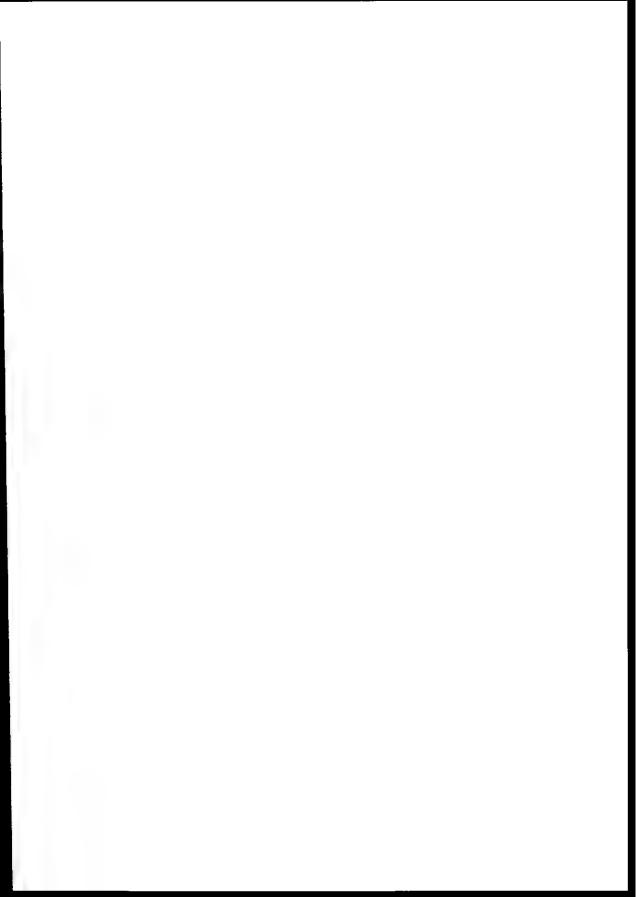
مايزن ذرة،(١)

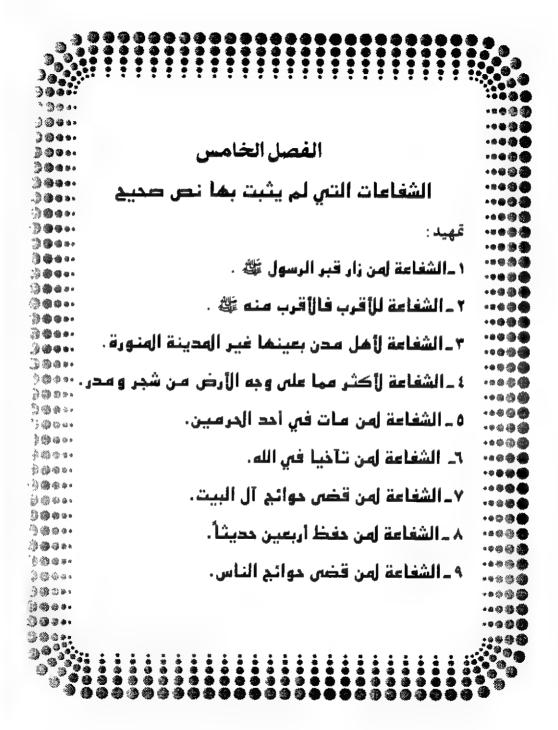
٣ ـ وورد كذلك أن الشفاعة تستحق بالإكثار من السجود، كما ورد عن زياد بن أبي زياد مولى بني مخزوم عن خادم النبي ﷺ قال: «كان النبي ﷺ ما يقول للخادم: ألك حاجة؟ حتى كان ذات يوم قال: يا رسول الله، حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة، قال: فأعني بكثرة السجود، (٢).

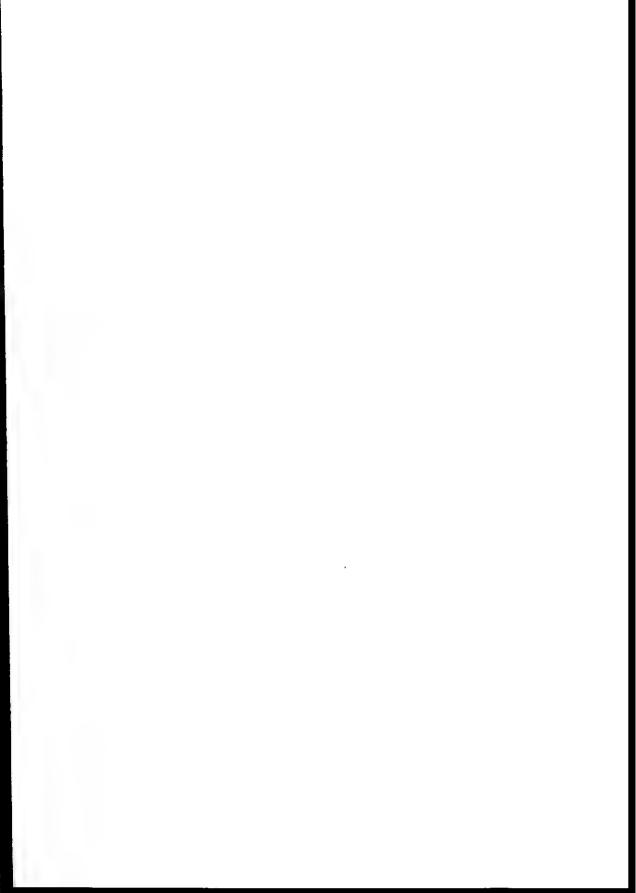
* * *

⁽١) صحيع البخاري ٣٩٢/١٣، والترمذي ٧١٢/٤.

⁽٢) أخرجه الإمام أحمد ٣/ ٥٠٠، وقال السفاريني في لوامع الأنوار ٢/ ٢١٦: •إن سنده صحيع».







الفصل الخامس الشفاعات التي لم يثبت بها نص صحيح

زمغيد:

عرفنا فيما مضى أنواع الشفاعات الثابتة؛ سواء منها ما كان خاصاً بنبينا محمد على ، أو له مع غيره من الشفعاء .

ونذكر في هذا الفصل ما اعتقده بعض الناس من التعلق بأسباب يطلبون بها الشفاعة إلى الله تعالى؛ هي في الواقع غير ثابتة، وسبب تعلقهم واغترارهم بها ورود مرويات بإثباتها؛ فظنوا أنها أحاديث صحيحة ثابتة عن المصطفى على بينما الواقع هو خلاف ذلك؛ فهي إما أحاديث ضعيفة، وإما موضوعة رويت في غير الصحاح والسنن.

وسنعرض فيما يلي بعض تلك الشفاعات وهي:

١ _ اعتقاد شفاعة الرسول عَلَي لن زار قبره من الناس بعد موته.

ومن الآثار التي يستدل بها من يثبت تلك الشفاعة؛ الأحاديث الآتية:

ا ـ عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله على ، يقول: «من ذاد قبري ـ أو قال: من ذارني ـ كنت له شفيعاً أو شهيداً، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة،

٢ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله على: دمن زادني

بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً، أو شفيعاً يوم القيامة،

٣ ـ «من زارني حتى ينتهي إلى قبري ؛ كنت له يوم القيامة شهيداً ـ أو قال : شفيعاً .

٤ ـ ١من زار قبري وجبت له شفاعتي،

٥ ـ دمن جاءني زائراً، لا تعمله حاجة إلا زيارتي؛ كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.

٦ ـ دمن زار قبري حلت له شفاعتي،

٧ ـ دمن زارني متعمداً كان في جواري يوم القيامة، .

٨ ـ ١من أتى المدينة زائراً لي وجبت له شفاعتي يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعث آمناً.

وتلك الأحاديث كلها لم يثبت منها شيء عن الرسول على بسند صحيح، وآفتها في رواتها؛ فهم ما بين ضعيف أو كذاب أو مجهول أو وضاع، لا يعتمد على روايتهم، ولا يركن إليها، ولم يروها كذلك إلا من لم يشترط الصحة في نقل الحديث.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في رده على القائلين بمشروعية زيارة القبر الشريف :

«فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة، لا يعتمد على شيء فيها في الدين؛ ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها، وإنما يرويها من يروي الضعاف؛ كالدارقطني والبزار وغيرهما»(١).

⁽١) القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة ص٧٧.

أما الحديث الأول: فإن إسناده فيه جهالة، وفيه اضطراب، وقد أخرجه البيهقي في سننه وحكم عليه بجهالة إسناده (١).

ويقول ابن عبد الهادي: «هذا الحديث ليس بصحيح؛ لانقطاعه وجهالة إسناده واضطرابه»(٢).

أما الحديث الثاني: ومن زارني بالمدينة محتسباً، فقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وأورده السيوطي^(٦) في «الجامع الصغير» ورمز لحسنه، لكن المناوي رد عليه هذا التحسين، وقال بأنه «ليس بحسن؛ ففيه ضعفاء؛ منهم أبو المثنى سليمان بن يزيد الكعبي. قال الذهبي: ترك. وقال أبو حاتم: منكر الحديث (٤٠).

ويقول ابن عبد الهادي في الحكم على هذا الحديث: «هذا الحديث ليس بصحيح ولا ثابت، بل هو حديث ضعيف الإسناد منقطع، ولو كان ثابتاً لم يكن فيه دليل على محل النزاع، ومداره على أبي المثنى سليمان بن يزيد الكعبي الخزاعي المديني، وهو شيخ غير محتج بحديثه، وهو بكنيته أشهر منه باسمه، ولم يدرك أنس بن مالك؛ فروايته عنه منقطعة غير متصلة، وإنما يروي عن التابعين وأتباعهم، وقد ذكره ابن حبان في كتاب «الثقات في أتباع التابعين»، وذكره أيضاً في كتاب «المجروحين» (٥).

ثم ذكر ما قاله ابن حبان فيه في كتاب الثقات، وما قاله فيه في كتاب

⁽١) السنن الكبرى ٥/ ٣٤٥.

⁽٢) الصارم المنكي في الرد على السبكي ص٨٦.

⁽٣) الجامع الصغير ٢/ ١٧٢.

⁽٤) فيض القدير ٦/ ١٤١. ١٤١.

⁽٥) الصارم المنكى في الردعلي السبكي ص١٦٢.

المجروحين من تضعيف.

ويقول فيه ابن حجر: «أبو المثنى الخزاعي اسمه سليمان بن يزيد: ضعيف»(١).

وأما الحديث الثالث، وهو: «من زارني حتى ينتهي إلى قبري، إلخ؛ فقد ذكره السبكي في كتابه «شفاء السقام»، وقال: «ذكره الحافظ أبو جعفر العقيلي في كتاب «الضعفاء» في ترجمة فضالة بن سعيد بن زميل المازني إلى أن يقول: وذكره الحافظ ابن عساكر من جهته أيضاً . . . وفضالة بن سعيد قال العقيلي في ترجمته: حديثه غير محفوظ، ولا يعرف إلا به . هكذا رأيته في كتاب العقيلي .

وذكر الحافظ ابن عساكر عنه أنه قال: لا يتابع على حديثه من جهة تثبت ولا يعرف إلا به (٢٠٠٠ .

وقد بين العلامة ابن عبد الهادي أن هذا الحديث «حديث منكر جداً، ليس بصحيح ولا ثابت؛ بل هو حديث موضوع على ابن جريج».

ويذكر كذلك أنه وقع تصحيف في متنه وفي إسناده أيضاً «أما التصحيف في متنه؛ فقوله: «من زارني، من الزيارة، وإنما هو «من رآني في المنام كان كمن زارني في حياتي».

⁽١) تقريب التهذيب ٢/٤٦٩.

⁽٢) شفاء السقام ص٣٨.

أما التصحيف في إسناده فقوله: سعيد بن محمد الحضرمي، والصواب: شعيب بن محمد، كما في رواية ابن عساكر، والحديث ليس بثابت على كل حال سواء كان بلفظ الزيارة أو الرؤية، وراويه فضالة بن سعيد بن زميل المازني شيخ مجهول، لا يعرف له ذكر إلا في هذا الخبر الذي تفرد به، ولم يتابع عليه (١).

وأما الحديث الرابع: وهو: «من زار قبري وجبت له شفاعتي،؛ فقد أورده السيوطي (٢) ورواه البزار (٢) والدارقطني (١) .

وقد رمز السيوطي لضعف الحديث، وفي إسناده كذلك راو ضعيف، وهو عبد الله بن إبراهيم الغفاري؛ قال الهيشمي: «وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري، وهو ضعيف»(٥).

ويقول ابن حجر عن هذا الراوي: «عبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو الغفاري، أبو محمد المدني: متروك، نسبه ابن حبان إلى الوضع الان .

وقال ابن عبد الهادي عن الحديث: «وهو حديث منكر ضعيف الإسناد واهي الطريق لا يصلح للاحتجاج بمثله، ولم يصححه أحد من الحفاظ المشهورين، ولا اعتمد عليه أحد من الأثمة المحققين» (٧) .

⁽١) الصارم المنكى ص: ١٦٧.

⁽٢) الجامع الصغير ٢/ ١٧٢ ورمز لضعفه.

⁽٣) كشف الأستار في زوائد البزار ٢/ ٥٧، ثم قال: «قال البزار: عبد الله بن إبراهيم لم يتابع على هذا؛ وإنما يكتب ما يتفرد به».

⁽٤) الدارقطني ٢/ ٢٧٨.

⁽٥) مجمع الزوائد ٤/٢.

⁽٦) تقريب التهذيب ١/٤٠٠.

⁽٧) الصارم المنكي ص: ١٣٠.

وفيه كذلك من جهة الإسناد راو تكلم فيه العلماء وضعفوه؛ وهو عبد الله بن عمر العمري؛ يقول ابن عبد الهادي: «وقد تكلم في عبد الله العمري جماعة من أثمة الجرح والتعديل، ونسبوه إلى سوء الحفظ والمخالفة للثقات في الروايات».

ثم نقل كلام العلماء في تجريحه (١) وأن هذا الحديث لا يثبت به شيء، ولا يعتمد عليه محقق.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الحديث: «وأما قوله: معن ذالا قبري فقد وجبت له شفاعتي، وأمثال هذا الحديث عما روي في زيارة قبره على فليس منها شيئاً صحيح، ولم يرو أحد من أهل الكتب المعتمدة منها شيء ولا أصحاب السنن كأبي داود لا أصحاب السنن كأبي داود والنسائي، ولا الأئمة من أهل المسانيد كالإمام أحمد وأمثاله، ولا اعتمد على ذلك أحد من أئمة الفقه كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي والليث بن سعد، وأمثالهم وبل عامة هذه الأحاديث مما يعلم أنها كذب موضوعة».

إلى أن يقول عن سند الحديث: «ومداره على عبد الله بن عمر العمري وهو ضعيف (7) إلخ.

أما الحديث الخامس: وهو: «من جاءني زائراً لا تعمله حاجة إلا زيادتي ··· إلخ. وفي رواية ذكرها الذهبي: «لا تنزعه حاجة إلا زيادتي، فقد

⁽¹⁾ انظر: الصارم المنكى ص 11 . ٢٨.

⁽٢) كتاب الزيارة ضمن الجامع الفريد ص٣٨٢. وانظر: مجموع الفتاوي ٢٧ / ٢٢١.

أخرج هذا الحديث الطبراني (١) والدارقطني (٢) ، وهو من الأحساديث التي أوردها السبكي في كتابه «شفاء السقام»(٢) وانتصر لها.

وهذا الحديث غير ثابت بسند صحيح؛ قال فيه ابن عبد الهادي: "ليس فيه ذكر الزيارة للقبر، ولا ذكر الزيارة بعد الموت، مع أنه حديث ضعيف الإسناد، منكر المتن، لا يصلح الاحتجاج به، ولا يجوز الاعتماد على مثله، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولا رواه الإمام أحمد في مسنده، ولا أحد من الأثمة المعتمد على ما أطلقوه في رواياتهم، ولا صححه إمام يعتمد على تصحيحه.

ثم ذكر ابن عبد الهادي علة أخرى لضعف الحديث؛ وهو أنه ضعيف الإسناد، لأنه قد تفرد به شيخ لم يعرف بنقل العلم، ولم يشتهر بحمله، ولم يعرف من حاله ما يوجب قبول خبره، وهو مسلمة بن سالم الجهني الذي لم يشتهر إلا برواية هذا الحديث المنكر (٤٠).

ويقول فيه ابن حجر (٥): «مسلم بن سالم الجهني بصري، كان يكون بحكة، ضعيف، ويقال فيه: مسلمة، بزيادة هاء».

وأما الحديث السادس: وهو: «من زار قبري حلت له شفاعتي»؛ فقد أخرجه البزار في مسنده (١٦) ، وقد عزاه عبد الحق إلى الدارقطني أيضاً فيما

⁽۱) انظر: مجمع الزوائد ٤/٢. وقد عزاه للطبراني، ثم قال: •وفيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف».

⁽٢) سنن الدارقطني ٢/ ٢٧٨.

⁽٣) شفاء السقام ص١٦.

⁽٤) الصارم المنكى ص٣٨.

⁽٥) تقريب التهذيب ٢/ ٢٤٥.

⁽٦) كشف الأستار ٢/ ٥٥.

يذكر السبكي (١) ، وفيه راويان ضعيفان؛ تكلم فيهما العلماء بالتجريح، وهما عبد الله بن إبراهيم الغفاري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

ويقول ابن عبد الهادي في رده على السبكي: «واعلم أن هذا الحديث الذي ذكره من رواية البزار، حديث ضعيف منكر ساقط الإسناد، لا يجوز الاحتجاج بمثله عند أحد من أثمة الحديث وحفاظ الأثر... وأما عبد الله بن إبراهيم؛ فهوابن أبي عمرو الغفاري، أبو محمد المدني يقال: إنه من ولد أبي ذر الغفاري، وهو شيخ ضعيف الحديث جداً منكر الحديث، وقد نسبه بعض الأثمة إلى الكذب ووضع الحديث.

ثم ذكر ما قاله العلماء في تجريحه إلى أن قال: «وأما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ فضعيف غير محتج به عند أهل الحديث».

ثم ذكر كذلك ما قاله العلماء في تجريحه من أوصاف(٢) ترد روايته.

وأما الحديث السابع، وهو: «من زارني متعمداً» إلنح الحديث. فقد أخرجه أبو جعفر العقيلي كما ذكر السبكي (٣).

يقول ابن عبد الهادي: «إن هذا الحديث ضعيف مضطرب مجهول الإسناد، من أوهى المراسيل وأضعفها»(٤).

وأما الحديث الأخير وهو الثامن: ومن أتى المدينة زانراً ...، إلخ الحديث،

⁽١) شفاء السقام ص: ١٤.

⁽٢) الصارم المنكى ص: ٣٠.

⁽٣) شفاء السقام ص: ٣١.

⁽٤) الصارم المنكى ص: ٩٢.

فإن السبكي(١) عزاه إلى يحيى الحسيني في أخبار المدينة، ثم ساق الحديث دون أن يبين السبكي درجة الحديث عنده ولا الرجل المبهم في السند.

قال ابن عبد الهادي عن هذا الحديث: «حديث باطل لا أصل له، وخبر معضل لا يعتمد على مثله، وهو من أضعف المراسيل وأوهى المنقطعات، ولو فرض أنه من الأحاديث الثابتة؛ لم يكن فيه دليل على محل النزاع»(٢).

وبعرض ما تقدم: يتضح أنه لم يثبت شيء عن النبي على في استحقاق الشفاعة لزائر قبره الشريف على .

٢ ـ الشفاعة للأقرب فالأقرب منه ع الله على :

ورد في ذلك حدبث ضعيف يدل على ترتيب شفاعة الرسول على ، وأنه يبتدئ بالأقرب فالذي يليه ، إلى أن ينتهي بالعجم ، وهذا ما يفيده حديث ابن عمر الذي أخرجه الطبراني والدارقطني أن رسول الله على قال: وأول من أشفع له من أمتي أهل يبتي، ثم الأقرب فالأقرب، ثم الأنصاد، ثم من آمن بي من أهل اليمن، ثم سائر العرب، ثم سائر الأعاجم، ومن أشفع له أولاً أفضل، (٣) .

وقد قال الدارقطني بعد أن أخرجه: «تفرد به حفص عن ليث، وقد ضعف الحديث بسبب هذين الراويين؛ لأن ليثاً ضعيف، وحفص كذاب وهو المتهم به كما يذكر السيوطي(١٠)، فالحديث من رواية كذاب عن ضعف.

⁽١) شفاء السقام ص٤٠.

⁽٢) الصارم المنكي ص ١٧١.

⁽٣) ذكره الهيشمي في منجسمع الزوائد • ١/ ٣٨١، وقبال: قرواه الطبيراني ، وفسيه من لم أعرفهم».

⁽٤) انظر: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/ ٥٥٠.

ويقول ابن الجوزي في كتابه «الموضوعات» في باب ذكر الشفاعة بعد أن أخرج الحديث قوله:

«قال المصنف: قلت: أما ليث فغاية في الضعف عندهم، إلا أن المتهم بهذا حفص. قال أحمد ومسلم والنسائي: هو متروك (١٠).

ويقول ابن حجر: «ليث بن أبي سليم بن زنيم ـ بالزاي والنون مصغراً ـ واسم أبيه أيمن . وقيل غير ذلك ، صدوق اختلط أخيراً ، ولم يتميز حديثه فترك »(٢) .

ويقول عن حفص: «حفص بن أبي داود القارئ، صاحب عاصم، ويقال له: حفيص، متروك الحديث مع إمامته في القراءة»(٢).

وبهذا نعلم أن تلك الرواية ضعيفة وغير مقبولة، وأن الوارد والثابت من أحاديث الشفاعة أنه يشفع لكل مؤمن عندما يأذن له الله بالشفاعة فيه دون نظر إلى جنسه أو نسبه.

٣ - ومن الشفاعات غير الثابتة أيضاً: القول بأن الرسول على خص بشفاعته أهل مدن بعينها ؟ كمكة والمدينة والطائف وغيرها من المدن:

فإن هذا لم يثبت عنه على أنه حدد الشفاعة لأهل مدن معينة، أو ذكر أهل بلدان يخصهم بالشفاعة، غير ما ورد عن أهل المدينة فيمن فضلها على غيرها وسكن بها صابراً على لأوائها وشدتها، ومات بها.

⁽١) الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ٢٥٠.

⁽٢) تقريب التهذيب ١٣٨/٢.

⁽٣) تقريب التهذيب ١٨٦/١.

أما الحديث الذي يروى هنا في شفاعة الرسول على الأهل مدن بعينها ؛ فهو عن عبد الملك بن عباد بن جعفر أنه سمع رسول الله على يقول: «أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الطائف، (١) ؛ وهذا الحديث في إسناده مجاهبل، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد. .

٤ ــ ومن الشفاعات التي لم تثبت كذلك عن رسول الله عَلَيْة :

ما ذكر من شفاعته عليه الصلاة والسلام لأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر:

كما جاء عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله على يقول: وإني أشفع يوم القيامة الأكثر مما على وجه الأرض من شجر ومدر».

قال السفاريني: «وأخرجه الطبراني في الأوسط عن أنيس الأنصاري، ولفظه: «اكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر» .

وروى الإمام أحمد عن بريدة قال: «دخلت على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يا معاوية، أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، وهو يرى أنه سيتكلم بمثل ما قال الآخر، فقال بريدة: سمعت رسول الله تلك يقول: وإني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة، قال: أفتر جوها أنت يا معاوية ولا يرجوها على بن أبي طالب رضي الله عنه الله عنه "".

ولكن في سند الحديث أبو إسرائيل الملائي، وهو ضعيف، قال الهيثمي

⁽١) قال الهيشمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨١: «أخرجه البزار والطبراني، وفيه جماعة لم أعرفهم».

⁽٢) لوامع الأنوار ص٢٠٥، والمدر: «القرى والأمصار». (النهاية لابن الأثير ٢٠٩/٤).

⁽٣) المبند ٥/ ٣٤٧.

بعد أن أورد الحديث عن أحمد. قال: «ورجاله وثقوا على ضعف كثير في أبي إسرائيل الملائي»(١).

وأورد الهيشمي حديثاً عن بريدة، قال: سمعت رسول الله على يقول: «كثير الحجر والشجر، ثلاث مرات. قلنا: نعم. قال: والذي نفسي بيده، لشفاعتي أكثر من الحجر والشجر، قال الهيثمي: وفيه سهل بن عبد الله بن بريدة وهو ضعيف (۱).

0-الشفاعة لمن مات في أحد الحرمين:

وهذه الشفاعة لم أجد فيها حديثاً صحيحاً، ويستدل من يقول بها بما روي عن سلمان عن النبي عَلَيْ أنه قال: •من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي، وكان يوم القيامة من الأمنين، (٣) .

وهذا الحديث لا يتم الاستدلال به كذلك على ثبوت هذه الشفاعة؛ لأن في سنده عبد الغفور بن سعيد، وهو متروك كما يذكر الهيثمي⁽¹⁾.

أما من مات بالمدينة فقد تقدم الكلام فيه.

٦-ومن الأسباب الأخرى في الشفاعات غير الثابتة:

ما جاء عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله على : «أنا شفيع لكل رجلين تآخيا في الله من مبعثي إلى يوم القيامة، (٥) .

⁽۱) ، (۲) مجمع الزوائد • ۱/ ۳۷۹ ۳۷۹.

⁽٣) الطبراني ٦/ ٢٩٤ في الكبير.

⁽٤) مجمع الزوائد ٢/٩/٢.

⁽٥) أبو نعيم في الحلية ٣٦٨/١.

والحديث ضعيف؛ لأن في سنده عمرو بن خالد الكوفي، وهو أبو خالد الواسطي، وهو كذاب كما قال عنه وكيع، وقال ابن حجر: «إنه متروك»(١).

والتآخي في الله أمر مطلوب، وقد حث عليه الشرع ورغب فيه، والمؤمنون يشفع بعضهم في بعض، كما صرحت بذلك النصوص النبوية، لكن القول بأن التآخي مما يوجب الشفاعة؛ هو الذي يتوقف القول به على ثبوت صحته.

٧ ـ ومنها كذلك ما روي عن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، قال :

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة أنا شفيع لهم يوم القيامة: الضارب بسيغه أمام ذريتي، والقاضي لهم حوانجهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه، (٢).

ومن تأمل القصد من وراء هذا الحديث؛ يرى أن وضع الشيعة ظاهر عليه.

والحديث غير ثابت؛ لأن في سنده داود بن سليمـان الجرجـاني، وهو مجهول.

قال فيه ابن أبي حاتم: «داود بن سليمان الجرجاني. . . سمعت أبي يقول: هو مجهول، (٢٠) .

وقال الذهبي: «داود بن سليمان الجرجاني الغازي عن علي بن موسى الرضا وغيره، كذبه يحيى بن معين، ولم يعرفه أبو حاتم، وبكل حال

⁽١) تقريب التهذيب ٢/ ٦٩.

⁽٢) عزاه في الشفاعة ص٢٥٣ إلى أبي طالب في الأمالي.

⁽٣) الجرح والتعديل ٣/ ٤١٣.

فهوشيخ كذاب، له نسخة موضوعة على الرضاء(١).

وقال الشوكاني عن الحديث: إنه موضوع، وقد أورده بلفظ: «أدبعة أنا شفيع لهم يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوانجهم، والساعي لهم في أمورهم ما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه، (١).

ومثل الحديث السابق ما روى الطبراني عن أبي سعيد عن رسول الله عَلَيْكُ أنه قال: وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل؛ من دخله غفر له، (٣)

وفي سنده مجاهيل.

قال الهيثمي عن سنده: «وفيه جماعة لم أعرفهم»(٤).

ومثله الحديث الآخر: «من أصبني فليحب علياً» ومن أحب علياً فليحب فاطمة، ومن أحب علياً فليحب فاطمة، ومن أحب فاطمة فليحب الحسن والحسين، وإن أهل الجنة ليتباشرون ويسارعون إلى رؤيتهم ينظرون إليهم، محبتهم إيمان، وبغضهم نفاق، ومن أبغض أحداً من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي؛ فإنني نبي مكرم بعثني الله بالصدق؛ فأحبوا أهلى وأحبوا علياً، (٥).

وهذا الحديث موضوع وباطل والذي وضعه عبد الله بن حفص(٦).

⁽١) ميزان الاعتدال ٢/٨.

⁽٢) الفوائد المجموعة ص٣٩٧.

⁽٣) المعجم الصغير ٢٢/٢.

⁽٤) مجمع الزوائد ٩/ ١٦٨.

⁽٥) الفوائد المجموعة ص٣٩٥.

⁽٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص: ٥٧.

٨ ـ ومنها كذلك:

ما يروى من الأحاديث التي تدل على استحقاق الشفاعة بحفظ أربعين حديثاً من السنة؛ مثل ما يروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله على الله على أمتي أربعين حديثاً يعلمهم بها أمر دينهم إلا جيء به يوم القيامة، فقيل له: اشفع لمن شنت، (۱).

وفي سند هذا الحديث يزيد بن أبان الرقاشي، وهو راو متروك، كما ذكر النسائي وغيره(٢).

وفيه كذلك عمرو بن الأزهر، وكان يضع الحديث، كما ذكر الإمام أحمد، وقال البخاري: «يرمى بالكذب»، وقال النسائي وغيره: «متروك»(۳).

وهذا الحديث هو أحد الأحاديث التي ذكرها ابن عبد البر في إثبات الشفاعة لمن حفظ أربعين حديثاً، وقدذكر ابن الجوزي عدة أحاديث في ثبوت الشفاعة لمن حفظ أربعين حديثاً، ثم عقب عليها بالتضعيف(1).

٩_ومنها كذلك:

ما يروى عن استحقاق الشفاعة لمن قضى حواثج الناس؛ مثل ما يروى عن ابن عمر قال: قال رسول الله على : «من قضى الخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه؛ فإن رجح وإلا شفعت له،(٥).

⁽١) ميزان الاعتدال ١٨/٤.

⁽٢)، (٣) المصدر السابق ٣/ ٢٤٥.

⁽٤) انظر: العلل المتناهية ١/ ١١١ . ١٢١.

⁽٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٥٣/٦.

وهذا الحديث لا يتم به الاستدلال على ثبوت تلك الشفاعة؛ لأن في سنده راوياً وضّاعاً، وهو عبد الله بن إبراهيم الغفاري، يقول عنه الذهبي: «نسبه ابن حبان إلى أنه يضع الحديث، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وقال الدارقطني: حديثه منكر»(١).

ومثله كذلك ما عزاه الإمام ابن كثير إلى ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود، قال: «قال رسول الله على قي قول الله تعالى: ﴿ لِيُوفِيهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيسِدُهُم مِّن فَصْلُهِ ﴾ [فساطر: ٣٠] قسال: ﴿ أَجُورَهُمْ ﴾: يدخلهم الجنة ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَصْلُهِ ﴾: الشفاعة لمن صنع إليهم المعروف في الدنيا(٢٠).

وهذا الحديث لا يتم به الاستدلال؛ لأن في سنده إسماعيل بن عبد الله الكندي، ذكر الهيشمي في مجمع الزوائد أنه ضعفه الذهبي من عند نفسه، فقال: «أتى بخبر منكر، وبقية رجاله وثقوا» (٣).

وقال ابن كثير: «هذا إسناد لا يثبت»(٤) .

وأورده السيوطي من حديث طويل عن أبي هريرة وابن عباس عن النبي على خدد النبي على ظهر طريق يهوي إليه عابروا السبيل؛ بعثه الله يوم القيامة على نجيبة من در ووجهه يضيء لأهل الجمع حتى يقول أهل الجمع: هذا ملك من الملائكة لم ير مثله، حتى يزاحم إبراهيم في قبته، ويدخل الجنة بشفاعته أربعون ألف رجله.

⁽١) ميزان الاعتدال ٢/ ٣٨٨.

⁽٢) ذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٩١ ـ ٥٩٢ ، وعزاه إلى ابن مردويه .

⁽٣) مجمع الزوائد ٧/ ١٣.

⁽٤) ابن كثير ١/ ٥٩٣ من تفسيره.

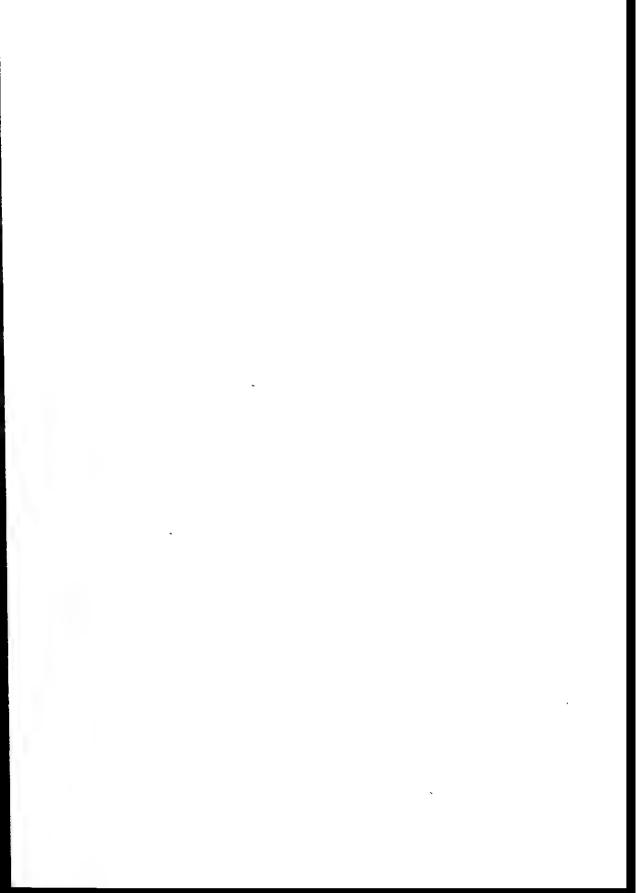
وفيه كذلك: ،ومن احتفر بنراً حتى يبسط ماؤه فيبذلها للمسلمين، كان له كأجر من توضأ منها وصلى، وله بعدد شعر من شرب منها حسنات: إنس أو جن أوبهيمة أو سبع أو طائر وغير ذلك، وله بكل شعرة من ذلك عتق رقبة، ويرد في شفاعته يوم القيامة حوضي عدد نجوم السماء. قيل: يا رسول الله ، وما حوض القدس؟ قال: حوضي حوضي حوضي، «١) .

قال ابن حجر: «هذا الحديث بطوله موضوع على رسول الله على ، والمتهم به ميسرة بن عبد ربه، لا بورك فيه»(٢) .

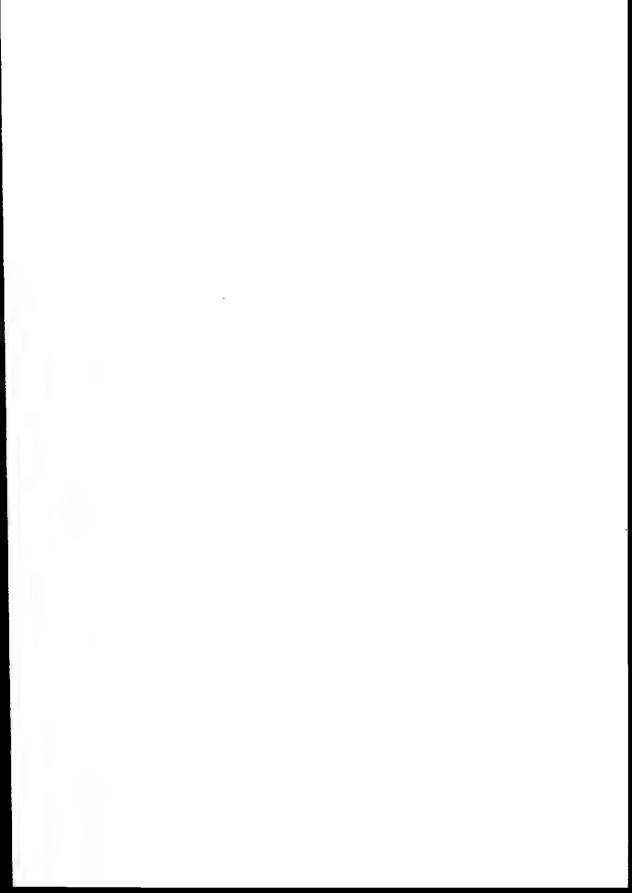
* * *

⁽١) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

⁽٢) المطالب العالية ٢/ ٣٦٤.







الفصل السادس الأمور التس نمنع الشفاعة

ا فأول الأشياء التي تمنع من الشفاعة وأعظمها هو الإشراك بالله تعالى، كما نص عليه كتاب الله عز وجل وسنة نبيه على ؛ فالمشرك لا شفاعة فيه، ولم يخالف في هذا أحد عن ينتمى إلى الإسلام.

ويكفي أن نذكر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

فإذا حرم الكافر من الغفران؟ فمن باب أولى أن يحرم من الشفاعات.

٢ - كثرة تعمد اللعن؛ فإن اللعان لا يستحق أن يكون شافعاً؛ لأنه في الدنيا كان يدعو على الخلق بالطرد والإبعاد عن رحمة الله ؛ فيجازى يوم القيامة بعدم إكرامه بالشفاعة فيهم.

كما أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله على يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة،(١).

قال النووي في معنى: ولا يكونون شفعاء: «أي لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار».

⁽¹⁾ أخرجه مسلم ٢٠٠٦/٤.

وأما قوله : ولا يكونون شهداء، فقال النووي: «إن فيه ثلاثة أقوال:

أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات.

والثانى: لا يكونون شهداء في الدنيا، أي لا تقبل شهادتهم، لفسقهم. والثالث: لا يرزقون الشهادة، وهي القتل في سبيل الله (١٠).

ولعل الأرجح هوالقول الأول؛ وذلك لظاهرالحديث؛ حيث قرن عدم الشهادة وعدم الشفاعة بيوم القيامة جزاء له.

وقد ورد الحديث بصيغة التكثير، أي «لعانون»، ولم يقل: لاعناً؛ لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن أكثر من اللعن، لا لمرة ونحوها؛ ولأنه يخرج منه أيضاً اللعن المباح، وهو الذي ورد الشرع به، وهو لعنة الله على الظالمين: لعن الله اليهود والنصارى، ولعن الله الواصلة والواشمة، وشارب الحمر، وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، والمصورين، ومن انتمى إلى غير أبيه وتولى غير مواليه، وغير منار الأرض، وغيرهم عمن هو مشهور في الأحاديث الصحيحة (٢).

٣-التكذيب بالشفاعة، كما نص عليه السلف:

ذكر الآجري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «من كذب بالشفاعة فليس له فيها نصيب»(٣).

⁽١)، (٢) شرح النووي لمبلم ٥/٢٥٦.

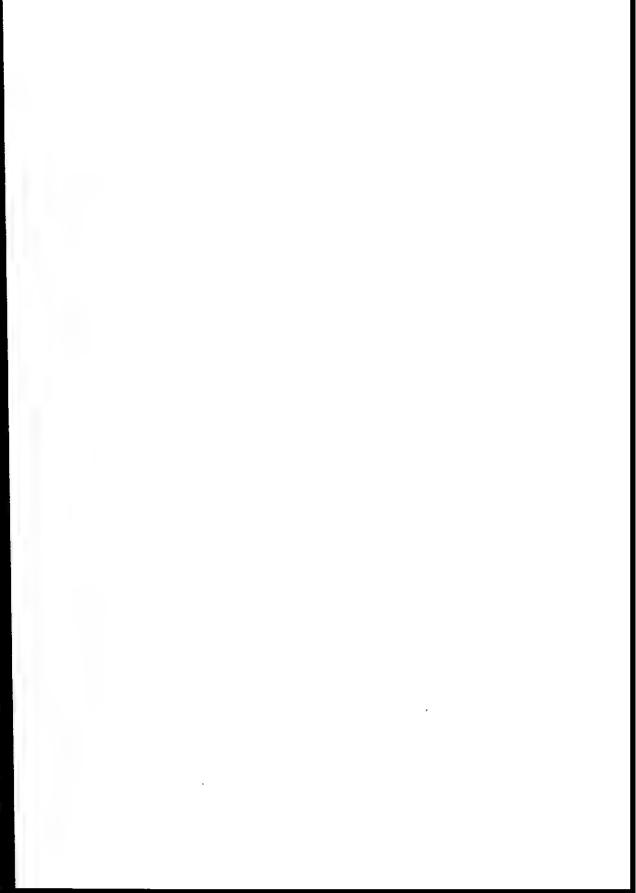
⁽٣) الشريعة للآجري ص: ٣٣٧.

قال ابن حجر: «وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن أنس قال: «من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها»(١).

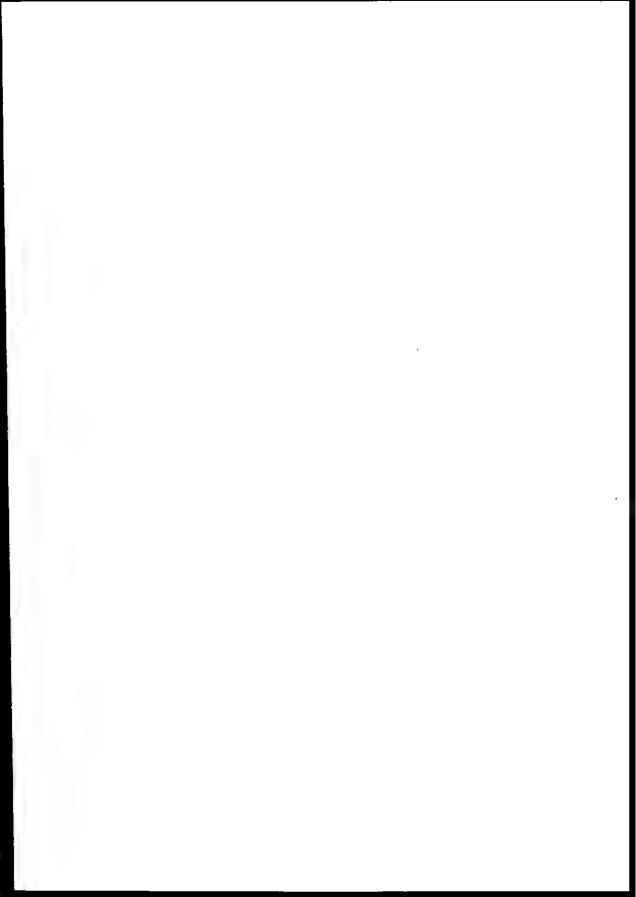
والجزاء من جنس العمل، فكما أنه نفى حصول الشفاعة؛ فإنه يحرم منها.

张 泰 恭

⁽١) فتح الباري ٢١/٢٦٦.







الفصلالسابع ذنوب لم يثبت نغي الشفاعة فيها

يتبين بما قدمنا في مبحث الكبائر أن السلف لا يختلفون في أن الشفاعة تعم كل من اقترف ذنباً من الذنوب، بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، مهما كان ذلك الذنب، إلا ما ورد به النص، إلا ذنباً واحداً، فإنه لا شفاعة لصاحبه مطلقاً؛ وهوالشرك بالله تعالى، فإنه لا أحد من السلف يقول بالشفاعة في صاحبة بالاتفاق.

ومن الجدير بالذكر أن هناك أحاديث ضعيفة، تعارض ما تقدم من دلالة النصوص الصحيحة في ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر، قد رويت وتقبلها بعض الناس، وهي تقضي بحرمان من اتصف بارتكاب ذنب من الذنوب التي سنذكرها فيما يلي لأجل التنبيه عليها وبيان منزلتها، وهي القول بمنع الشفاعة عن صاحب البدعة؛ والمرجئة والقدرية، ومن غش العرب، ومن سار تحت رايات العباسيين.

ا - أما القول بسمنع الشفاعة عن المبتدع؛ فيستدل من يقول بها بما يروى عن ابن عبد السلام (واسمه صالح بن رستم الهاشمي)(١) عن بكر ابن عبد المزنى أن النبي على قال: «حلت شفاعتي لأمتي إلا صاحب بدعة،(٦).

⁽١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢٤٦/١.

⁽٢) أخرجه ابن وضاح القرطبي في كتابه االبدع والنهي عنها ا ص٣٦.

والاستدلال بهذا الحديث على حرمان المبتدع من الشفاعة لا يتم؛ لأن الحديث منكر، وفي سنده إرسال؛ لأن بكراً تابعي، ولم يدرك النبي ﷺ (۱)، ومع إرساله فالسند إليه ضعيف؛ لأن أبا عبد السلام مجهول.

يقول الحافظ ابن حجر: «صالح بن رستم الهاشمي، مولاهم، أبو عبد السلام الدمشقي: مجهول»(٢).

٢ ـ نفى الشفاعة عن المرجئة والقدرية:

ويستدل النافون لها بما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله على الله على الله على الله على المرجنة والقدرية،

وهذا الحديث ذكره السيوطي في «الجامع الصغير»($^{(7)}$ ، وعزاه إلى أبي نعيم، وذكره السفاريني في «لوامع الأنوار $^{(1)}$.

وفي سند الحديث عبد الحكم بن ميسرة، وهوضعيف، قال الدارقطني: «إنه يحدث بما لا يتابع عليه»(٥).

وفيه كذلك سعيد بن بشير، قال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «هذا لا يصح عن رسول ﷺ. قال يحيى: سعيد بن بشير ليس بشيء»(١).

⁽١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١٦/١.

⁽٢) تقريب التهذيب ١/ ٣٥٩.

⁽٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٤٦، وعزاه إلى أبي نعيم.

⁽٤) لوامع الأنوار ٢/٦١٦.

⁽٥) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢/١١٦.

⁽٦) العلل المتناهية ١٥٦/١.

وبما روي عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله عَلَيْ : دصنفان من هذه الأمة لا تنالهما شفاعتي: المرجئة والقدرية، (١) .

وفي هذا الحديث محمد بن محصن، وهو متروك، كما قال الهيثمي (٢).

وقال ابن حجر في التقريب: «كذبوه»(٣) .

ومثل الحديث السابق ما روي عن جابر عن النبي عَظَهُ أنه قال: وصنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: المرجنة والقدرية، (٤) .

وهذا الحديث فيه كذلك بحر بن كنيز السقاء، وهو متروك (٥) كما يذكر الهيثمي. ويقول فيه ابن حجر: «بحر بن كنيز السقاء، أبو الفضل البصري: ضعيف (١).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية يقولون:الخير والشر بأيدينا؟ ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أنا منهم ولا هم مني ».

قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح. وقال ابن حبان: سعيد بن ميسرة يروى الموضوعات»(٧).

⁽١) مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٦، ويعزوهما الهيثمي، والسيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٤٦ إلى الطبراني في الأوسط.

⁽٢) مجمع الزوائد ٧/٧٠٢.

⁽٣) تقريب التهذيب ٢/٥٠٣.

⁽٤) مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٦، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط.

⁽٥) مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٦.

⁽٦) التقريب ٩٣/١.

⁽٧) العلل المتناهية ١٥٦/١.

وعن أنس مرفوعاً: دصنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: القدرية والمرجنة. قلت: يا رسول الله ، ما المرجئة؟ قال: قوم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل. قلت: فما القدرية؟ قال: الذين يقولون: المشيئة إلينا، (١).

وفي سند هذا الحديث أبو عمران سعيد بن ميسرة.

قال البخاري: «عنده مناكير». وقال أيضاً: «منكر الحديث». وقال ابن حبان: «يروي الموضوعات»، وقال الحاكم: «رؤى عن أنس موضوعات، وكذبه يحيى القطان»(۲).

وقد ذكر الرازي في ترجمته أنه «منكر الحديث، ضعيف الحديث، يروي عن أنس المناكير» (٣) .

٣ ـ حرمان من غش العرب من الشفاعة ، ومن مودة الرسول عَلَيْ :

ويستدل القائل بهذا بما يروى عن عشمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من غش العرب لم يدخل في شفاعتي، ولم تنله مودتي، (١٠) .

والاستدلال بهذا الحديث على نفي الشفاعة عن غاش العرب لا يتم كذلك؛ لأن في سنده حصين بن عمر الأحمسي، وقد قال الترمذي عن هذا الحديث: إنه «حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حصين بن عمر الأحمسي عن مخارق، وليس حصين عند أهل الحديث بذاك القوى»(٥).

⁽۱) سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢/ ١١٥ ، ١١٦ ، وعزاه إلى الخطيب، وقد ذكر الذهبي الحديث بلفظ: «القدرية يقولون: الخير والشر بأينينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب.

⁽٢) ميزان الاعتدال ٢/ ١٦٠.

⁽٣) كتاب الجرح والتعديل ٤/ ٦٣ .

⁽٤) رواه الترمذي ٥/ ٧٣٤، والإمام أحمد في المسند ١/ ٧٧.

⁽۵) سنن الترمذي ٥/ ٧٢٤.

ويقول ابن حجر عن هذا الراوي: «حصين بن عمر الأحمسي الكوفي: متروك»(١).

وهذا الحديث يعارض ما ثبت من النصوص الصحيحة في استحقاق أهل الكبائر للشفاعة، ومعلوم أن الغش وإن كان كبيرة من الكبائر؛ لكنه لا يخرج صاحبه عن نطاق الإيمان، فهو مؤمن وهو من أهل الكبائر.

على أنه قد ورد في الصحيح قوله ﷺ: دمن غشنا فليس منا،(٢).

ولكن هذا النص لا يدل على أن الغاش كافر، وطريقه طريق النصوص التي تدل في ظاهرها على تكفير مرتكبي بعض الذنوب من أحاديث الزجر: تمر كما جاءت، أو أنها واردة في شأن المستحل لذلك كما أجاب به علماء السلف^(٣).

٤ - ومن الموانع التي لم تثبت كذلك: القول بنفي الشفاعة عمن سار في
 رايات العباسيين حين يقبلون من خراسان.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن المسيب قال: «لما فتحت أدنى خراسان بكى عمر، فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال: مايبكيك يا أمير المؤمنين، وقد فتح الله مثل هذا الفتح؟ فقال: مالي لا أبكي، والله لوددت أن بيني وبينهم بحراً من نار؛ سمعت رسول الله على يقول: وإذا أقبلت رايات ولد العباس من عقاب خراسان جاءوا بنعي الإسلام، فمن سار تحت لوانهم لم تنله شفاعتي يوم القيامة، (١).

⁽١) تقريب التهذيب ١/١٨٣.

⁽۲) أخرجه مسلم ۲۹۹/۱.

⁽٣) انظر: شرح النووي لمسلم ٢٩٨/١.

⁽٤) الحلية ٥/ ١٩٢.

وهذا الحديث في سنده عمرو بن واقد، وهومتروك.

قال ابن حجر: «عمرو بن واقد الدمشقي، أبو حفص مولى قريش: متروك»(١).

وقال ابن الجوزي في «الموضوعات» عن هذا الحديث: «هذا حديث موضوع بلا شك، وواضعه ممن لا يرى لدولة بني العباس»(٢).

ثم نقل تضعيف العلماء لعمرو بن واقد، فقال: «قال أبو مسهر: عمرو بن واقد ليس بشيء، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: يقلب الأسانيد، ويروي المناكير عن المشاهير؛ فاستحق الترك»(٣).

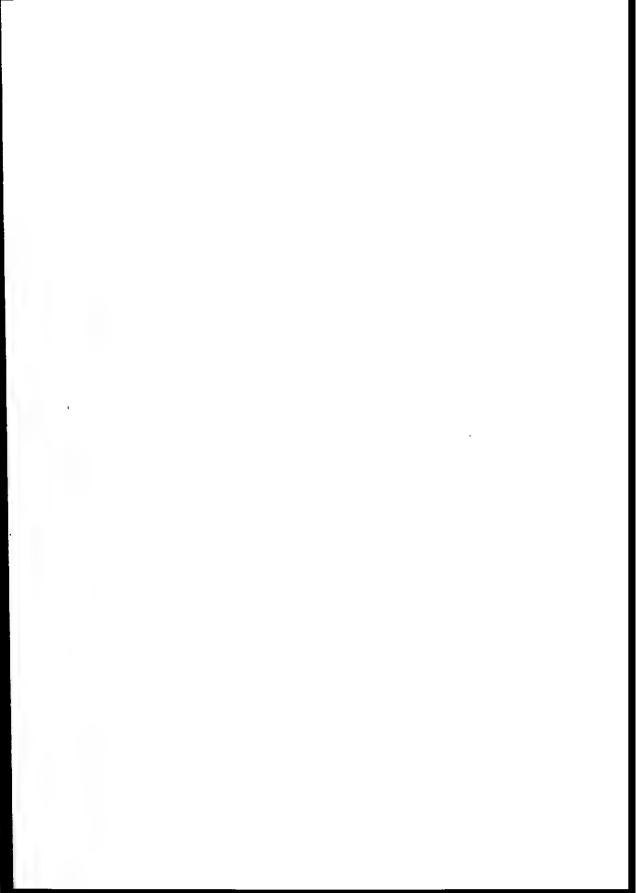
وبما تقدم يتضح أن تلك الذنوب التي قيل بنفي الشفاعة فيها أنها موانع لم تثبت صحتها.

* * *

⁽١) تقريب التهذيب ٢/ ٨١.

⁽۲)، (۲) الموضوعات ۲۸/۲.





١ - أقسام الشفعاء الذين ثبتت صحة شفاعتهم ويشمل ذلك ما يلي:

تمهيد:

١ ـ شفاعة نبينا محمد على أ

٢ ـ شفاعة الأنبياء الأخرين غير نبينا على .

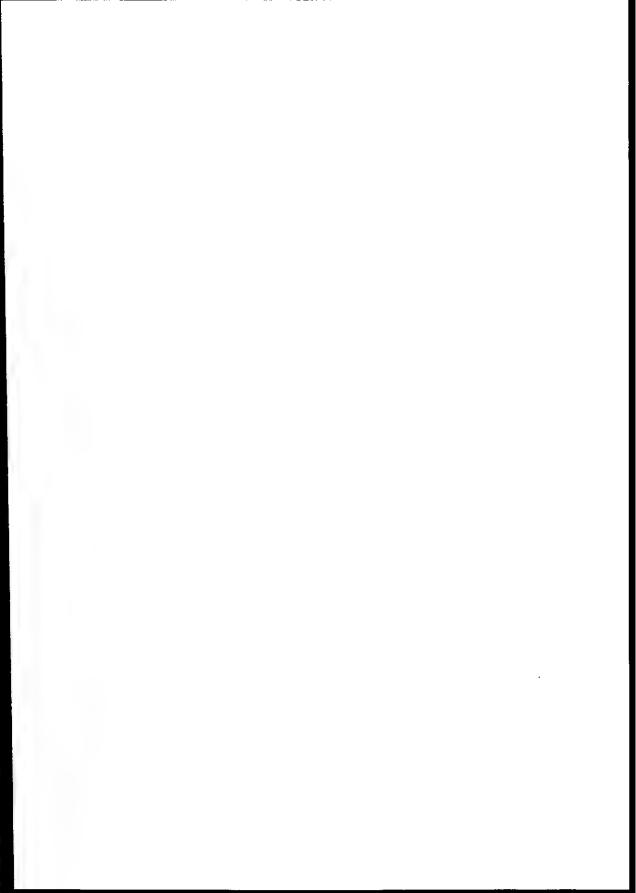
٣ ـ شفاعة الملائكة.

2 - شفاعة الشهداء.

٥ - شفاعة الولدان.

٦ ـ شفاعة المؤمنين بعضهم في بعض.

٧ ـ شفاعة القرآن الكريم.



الفصل الثامن أقسام الشفعاء

تهيد:

لقد تكرم الله تعالى فجعل أمر الشفاعة واسعاً؛ فبالإضافة إلى ثبوتها لنبينا محمد على وإعطائه فيها المقام الأعلى ثبتت كذلك لغيره من الخلق كالأنبياء الآخرين على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، وكذا الملائكة والشهداء والصالحين، والأولاد لآبائهم، وثبتت كذلك للقرآن الكريم.

قال البرديسي: «أجمع أهل السنة على ثبوت الشفاعة له على ولسائر الرسل والملائكة والعلماء والشهداء، يشفع كل واحد بقدر جاهه عند الله تعالى»(١).

وذكر البيجوري أن الله تعالى يقبل شفاعة الأخيار كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين (٢).

ونفصل فيما يلي أقسام الشفعاء المقبولة شفاعتهم:

الشفاعات الثابتة له ﷺ، فقد قدمنا في ذكر أقسام الشفاعات الثابتة له ﷺ، فقد قدمنا في ذكر أقسام الشفاعات الثابتة له بكثرة شفاعاته، كما اتضح ذلك في عرضنا السابق للشفاعات الثابتة مدعمة بأدلة إثباتها.

⁽١) تكملة شرح الصدور ص٣٦.

⁽٢) شرح جوهرة التوحيد ص١٨٧.

٢ ـ شفاعة الأنبياء الآخرين غير نبينا محمد عَلَّ :

ومن إكرام الله تعالى لأنبيائه وأصفيائه قبول شفاعتهم فيمن يشفعون له من سبقت لهم الرحمة، فيتقدمون بطلب شفاعتهم إلى ربهم في إخراج أقوام من النار دخلوها بذنوبهم ليخرجوا منها.

وقد ثبتت هذه الشفاعة بما جاء في الصحيحين من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه قوله على : «فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين؛ فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً، (١).

وليس معنى هذا أن الله يخرجهم من النار وهم كفار؛ بل المعنى أنهم «لم يعملوا خيراً سوى الشهادتين»(٢) ولولاهما لما خرجوا؛ شأنهم شأن غيرهم من الكفار.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي على الصراط يوم القيامة فتقادع بهم جنبة الصراط يوم القيامة فتقادع بهم جنبة الصراط تقادع الفراش في النار، قال: فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء. قال: ثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء أن يشفعوا فيشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون، ويشفعون من كان في قلبه ويخرجون، وزاد عفان مرة: فقال أيضاً: «ويشفعون ويخرجون من كان في قلبه مايزن ذرة من إيمان، (٣).

⁽١) أي صاروا فحماً. والحديث أخرجه البخاري ١٣/ ٤٢١، ومسلم ١/ ٤٤٠.

⁽٢) فتح الباري ٤٢٩/١٣، ومعنى شفاعة الله سبحانه وتعالى: عفوه. انظر: شرح جوهرة التوحيد ص١٨٦.

⁽٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٣.

وقد بوب الهيثمي في كتابه «موارد الظمآن»، لإثبات شفاعة الأنبياء والملائكة بقوله: «باب في شفاعة الملائكة والنبيين» ثم أورد الحديث الآتي:

عن صالح بن أبي طريف قال: «قلت لأبي سعيد الخدري: أسمعت رسول الله على يقول في هذه الآية: ﴿ رُبُّما يَوَدُ اللَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢](١)؟

نقال: نعم، سمعته يقول: ويخرج الله أناساً من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم، قال: ولما أدخلهم الله النار مع المشركين؛ قال المشركون؛ اليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياؤه، فما لكم معنا في النار؟، فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة فتشفع لهم الملائكة والنبيون، حتى يخرجوا بإذن الله، فلما أخرجوا قالوا: يا ليتناكنا مثلهم فتدركنا الشفاعة، فنخرج من النار. فذلك قول الله: ﴿ رَبَّما يَودُ الّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ قال: فيسمون الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربنا أذهب عنا هذا الاسم فيغتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك منهم، (٢).

وقد أورده أيضاً الآجري (7)، ويذكر الرازي أن أكثر المفسرين على هذا القول (3).

وروى مجاهد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: دما يزال الله يرحم

⁽١) انظر: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص٦٤٦.

⁽٢) انظر: الشريعة ص٣٣٧.

⁽٣) الأجري هو الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الأجري، المتوفى سنة ٣٦٠هـ.

⁽٤) التفسير الكبير ١٥٤/١٩.

المؤمنين، ويخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة، بشفاعة الأنبياء والملانكة، حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة. قال: فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، (١)

وهذا المعنى هو الذي يوافق مذهب السلف لا المعتزلة؛ ولهذا فإن القاضي فيما ذكره عنه الرازي يقول: ﴿إِنْ هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار ، وعلى أن شفاعة الرسول على مقبولة في إسقاط العقاب، وهذان الأصلان عنده مردودان».

قال الرازي: فعند هذا حمل هذا الخبر(٢) على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه؛ وهو أنه تعالى يؤخر إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن الكفرة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة، ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم، وهناك يودون لو كانوا مسلمين (٣).

وهذا تكلف من القاضي ظاهر سببه عدم الإيمان بوقوع الشفاعة في أهل النار.

ومن أين له الدليل على أن الله يؤخرهم وقتاً لأجل غم الكفرة ثم يسمح لهم بدخول الجنة؟!

وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين عند شرح هذه الآية: ﴿ رُبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ كثيراً من النصوص التي تدل على

⁽١) نفس المصدر السابق.

⁽٢) أي القاضي عبد الجبار . فيما يظهر . .

⁽٣) التفسير الكبير ١٥٤/١٩.

أن الله يُخرج من النار أقواماً بفضل رحمته وشفاعة الشافعين لهم (١٠) ، من الأنبياء وغيرهم.

٣ ـ شفاعة الملائكة:

ومن الشفعاء كذلك الملائكة عليهم السلام، ولا خلاف في ذلك بين الفرق الإسلامية فقد ثبتت شفاعتهم بالأدلة الصحيحة من كتاب الله تعالى وسنة نيبه عَلَي ؛ ثبت أنهم يشفعون إذا أذن الله لهم ورضي.

وقبل أن نذكر الأدلة على ثبوت شفاعتهم؛ نذكر أولاً أن الملائكة جنس من خلق الله تبارك وتعالى، خلقهم من نور، وأسكنهم السموات؛ خلقهم لعبادته، وللقيام بمصالح البشر، وغير ذلك مما يريد الله تعالى.

والقول بأنهم خلقوا من نور هو ما بينه الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله تلك قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم (٢).

وهذا الحديث الصحيح يبين لنا أصل نشأة الملائكة وأن مصدر ذلك هوالنور، وقد خلقهم الله تعالى قبل أن يخلق آدم بوقت لا يعلمه إلا الله عزوجل ؛ لعدم ورود نص بتحديد ذلك، وأما أسبقية خلقهم على آدم فهو ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم من أمرالملائكة بالسجود له بعد أن يتم خلقه، ومن إخبارهم أولاً بأنه سيخلقه، والكلام الذي حصل منهم وجواب الله تعالى لهم.

⁽١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٦.

⁽٢) أخرجه مسلم ٥/ ٨٤٢.

وقد خلقهم الله تعالى على صور مختلفة كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّشْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ١].

وأعظمهم جبريل عليه السلام وحملة العرش، فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، وورد أن جبريل عليه السلام له ستماثة جناح.

ولهم مقامات مختلفة؛ فبعضهم أرفع من بعض، كما قال تعالى في وصف مراتبهم وقولهم عن أنفسهم: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ [الصافات: ١٦٤].

ومن رؤسائهم جبريل عليه السلام، وقد ذكر الله تعالى منزلته فقال: ﴿ إِنَّهُ لَقُولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٦ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وأفضل الملائكة على العموم، من أخبر الرسول على عنهم بما جاء عن رفاعة بن رافع، أن جبريل جاء للنبي على فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»(١).

ولهم قوة عظيمة، وعددهم لا يحصيه إلا الله تعالى لكثرتهم، ولهم أسماء؛ بعضها أخبرنا الله ورسوله به، وبعضها لا نعلمه، وقد جعل الله لهم قوة عظيمة على طاعته وعبادته؛ فمنهم الساجد ومنهم القائم ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

⁽١) البخاري ٧/ ٣١٢.

وسيأتي بإذن الله مزيد بيان لهذا في مبحث الحساب.

أما الأدلة على إثبات شفاعتهم من القرآن الكريم فهي:

١ ـ قوله عز وجل مبيناً درجتهم في الشفاعة: ﴿ وَكُم مَن مَلَكِ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وفي هذه الآيات يشبت الله سبحانه وتعالى أن الملائكة يشفعون في المذنبين، وأن شفاعتهم تقبل بعد إذنه ورضاه في يوم القيامة.

وقد حصل خلاف في ثبوت شفاعة الملائكة لأهل الكبائر؛ أيشفعون لهم أم لا؟ ـ بعد اتفاق الجميع على ثبوت شفاعتهم في الجملة:

١ ـ فذهب الكعبي من المعتزلة إلى عدم ثبوت شفاعة الملاثكة في أهل
 الكباثر.

٢ ـ وذهب أهل القول الحق إلى أنها تقع.

وخلافهم يدور حول معنى قول الله تعالى، مخبراً عن دعاء الملائكة للمؤمنين بالجنة: ﴿ الله يَسْبَحُونَ بِحَمْدُ رَبّهِمْ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسْبَحُونَ بِحَمْدُ رَبّهِمْ وَيُومْنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفُرُونَ لِللَّه يَسْبَعُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسْبَحُونَ بِحَمْدُ رَبّهِمْ وَيُؤْمنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفُرُونَ لِللَّه يَسَنَ آمَنُوا رَبّنا وَسَعْتَ كُلُّ شَيْء رَحْمَةً وَعِلْما فَاغْفُرْ لللَّه يَنَ تَابُوا وَاتّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ () رَبّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَاتِ عَدْنَ اللَّذِينَ تَابُوا وَاتّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ () رَبّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَاتِ عَدْنَ اللَّذِينَ تَابُوا وَاتّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرّبًا تِهِمْ إِنّكَ أَنسَتَ الْعَزِيسِزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر: ٧، ٨].

حيث أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن دعائهم واستشفاعهم

للمؤمنين ولأولاد المؤمنين وزوجاتهم بأن يدخلهم الله جنات عدن، وهذا الدعاء لهم بظهر الغيب، استشفاع منهم إلى الله تعالى، في أن يرحم المؤمنين ويغفر لهم ما صدر منهم من الذنوب.

قال ابن كشير عن معنى قول الله تعالى عن وصف الملائكة: ﴿ وَيَسْتَفْفُرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾: «أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «من دعا لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل، (۱) ، وهذا من تمام محبتهم الخير للبشر وعطفهم عليهم ورغبتهم في ثوابهم.

أما اعتراض الكعبي الذي استنبطه من هذه الآية بزعمه؛ ليرد به على من يقول من أهل السنة بحصول الشفاعة في المذنبين بحجة أن الشفاعة ـ كما هو رأي المعتزلة ـ لا تكون إلا في وقوع زيادة الثواب للمؤمنين لا في إسقاط العقاب عن المذنبين ـ قال: «وذلك لأن الملائكة قالوا: ﴿ فَاغْفِرْ للَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبُعُوا سَبِيلَكَ ﴾ ". قال: «وليس المراد: فاغفر للذين تابوا من الكفر(") . سواء أكان مصراً على الفسق أم لم يكن كذلك؛ لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعاً سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه ».

⁽١) أخرجه مسلم ٥/ ٥٧٧، وأبو داود ١/ ٣٥٢.

 ⁽٢) أي إن التوبة إنما كانت في حق المؤمنين دون من سواهم، وأن الآية كذلك ـ حسب ما ظهر
 للكعبي ـ لم تفرق بين الفاسق المصر ولا غير المصر ؛ بل ذكرت الذين تابوا دون غيرهم من
 الكفار والفساق ـ

ثم ذكر اعتراضاً آخر فقال: «وأيضاً إن الملائكة يقولون: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَّتُهُمْ ﴾، وهذا لا يليق بالفاسقين؛ لأن خصومنا يعني القائلين بالشفاعة في المذنبين لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك، فثبت كما يقول : «إن شفاعة الملائكة لا تتناول إلا أهل الطاعة»(١).

هذا ما يتعلق باعتراضه واحتجاجه بهذه الآية على نفي شفاعة الملائكة للمذنبين.

وقد أجاب الرازي عن تلك الشبهة فقال: «إن هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملاثكة للمذنبين»، ثم ذكر الوجوه التي تدل على هذا بقوله:

الأول: قوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، والاستغفار: طلب المغفرة ، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب، أما طلب النفع الزائد(٢) فإنه لا يسمى استغفاراً.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهذا يدل على أنهم يستخفرون لكل أهل الإيمان؛ فإذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن؛ وجب دخوله تحت هذه الشفاعة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ ؛ طلب المغفرة للذين تابوا، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة ؛ لأن ذلك واجب

⁽١) التفسير الكبير ٢٧/ ٣٤.

⁽٢) كالشفاعة في رفع الدرجات.

على الله عند الخصم (١)، وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء قبيحاً، ولا يجوز أيضاً أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر؛ لأن ذلك واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء، ولا يجوز أن المراد طلب زيادة منفعة على الثواب؛ لأن ذلك لا يسمى مغفرة، فثبت أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة (١)، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء لانعقاد الإجماع على أنه لا فرق.

ثم قال الرازي متابعاً رده على الكعبي: «أما الذي يتمسك به الكعبي وهو أنهم طلبوا المغفرة للذين تابوا، فنقول: يجب أن يكون المراد منه، الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان.

وقوله: إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائباً، ولا متبعاً سبيل الله .

قلنا: لا نسلم قوله؛ بل يقال: إنه تائب عن الكفر، وتابع سبيل الله في الدين والشريعة، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب؛ ألا ترى أنه يكفي في صدق وصفه بكونه ضارباً وضاحكاً، صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه؟، فكذا هاهنا»(٢).

وإذا ثبتت شفاعة الملائكة للذين آمنوا وثبت كذلك اهتمامهم بالدعاء

⁽١) كالكميي.

⁽٢) لأنها بعد التوبة تكون مسقطة.

⁽٣) التفسير الكبير ٢٧/٣٤.

لهم، فيحسن أن يعرف السر في هذا الاهتمام والاستشفاع إلى الله في طلب العفو والمغفرة للبشر.

هذا ما يتعلق بالاستدلال من القرآن الكريم على ثبوت شفاعة الملاثكة.

أما فيما يتعلق بورود ذلك في السنة، فقد قدمنا في بحث شفاعة الأنبياء بعض الأحاديث التي تثبت شفاعة الأنبياء والملائكة في مساق واحد، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الثابت في الصحيحين^(۲)، وكذا حديث أبي بكرة الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده^(۳)، وكذا حديث صالح بن أبي طريف عن أبي سعيد الخدري⁽³⁾.

وما جاء عن ابن عباس كما ذكره الرازي(٥) ، مما لا نود الإطالة بإعادة

⁽١) التفسير الكبير ٢٧/ ٣٤.

⁽۲) البخاري ۱۳/ ۱۳، ومسلم ۱/ ٤٤٠.

⁽٣) المستده/٣.

⁽٤) موارد الظمآن ص٦٤٦، والشريعة ص٣٣٧.

⁽٥) التفسير الكبير ١٥٤/١٩.

ذكره هنا.

4 - شفاعة الشهداء:

ومن الشفعاء الذين أكرمهم الله تعالى بقبول شفاعتهم: الشهداء. وقبل أن نذكر الأدلة المثبتة لذلك، نحب أن نعرف أولاً:

١ ـ معنى الشهيد في اللغة؟

٢ ـ معناه في الاصطلاح؟

٣-لم سموا شهداء؟

٤ - من هم الشهداء الذين حصل لهم هذا الشرف العظيم في قبول شفاعتهم؟

١ ـ معنى الشهيد في اللغة :

الشهيد له معان في اللغة كثيرة منها:

١ ؞الحيّ:

قال الأزهري في ما ينقله عن ابن شميل، في تفسير الشهيبد الذي يستشهد، أنه قال: «الشهيد: الحيّ».

قال الأزهري: «قلت: أراه تأول قبول الله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَ الَّذِينَ قَتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُّواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، كأن أرواحهم احضرت دار السلام أحياء، وأرواح غيرهم أخرت إلى يوم البعث. وهذا قول حسن ١.

«والشهيد في أسماء الله وصفاته؛ قال أبو إسحاق: هو الأمين في

شهادته. قال: وقيل: الشهيد: الذي لا يغيب عن علمه شيء. . . ٠.

وشهد فلان بحق فهو شاهد، وشهيد إذا مات شهيداً.

ويقال للشاهد: شهيد، ويجمع شهداء ومنه قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. أي أشهدوا شاهدين الله .

ويأتي بمعنى الحضور؛ يقال: شهد فلان مكان كذا وكذا؛ إذا حضره(٢).

٢_ معنى الشهيد في الاصطلاح:

الواقع أن عبارات العلماء في تعريف الشهيد، كلها تتفق حول معنى أنه القتيل في سبيل الله تعالى في حرب الكفار.

قال ابن حجر في تعريف الشهيد: «وهو من يقتل في حرب الكفار مقبلاً غير مدبر مخلصاً»(٣) .

وقال الجرجاني: «وهو كل مسلم طاهر بالغ قتل ظلماً، ولم يجب بقتله مال، ولم يرتث، (٤) .

وأما سبب تسميته شهيداً، فقد ذكر العلماء عدة أسباب، وكلها تدور حول إثبات صفة مدح ومزية تعظيم لمن قتل في سبيل الله تعالى، ومن ذلك:

قال النووي: «قال النضر بن شميل: سمى بذلك لأنه حي؛ لأن

⁽١) انظر: تهذيب اللغة ٦/ ٧٧.٧٧.

⁽٢) النهاية لابن الأثير ٢/ ١٣٥.

⁽٣) فتح الباري ٦/ ٤٤.

⁽٤) التعريفات ص١٢٩.

أرواحهم شهدت دار السلام، وأرواح غيرهم لا تشهدها إلا يوم القيامة.

وقال ابن الأنباري: لأن الله تعالى وملائكته عليهم السلام، يشهدون له بالجنة؛ فمعنى شهيد مشهود له.

وقيل: سمي شهيداً؛ لأنه يشهد عند خروج روحه ما له من الثواب والكرامة.

وقيل: لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه.

وقيل: لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله.

وقيل: لأن عليه شاهداً يشهد بكونه شهيداً، وهو دمه؛ فإنه يبعث وجرحه يثعب دماً»(١).

وزاد ابن حجر فذكر أسباباً أخرى، منها قوله:

«وقيل: لأنه يشهد له بالأمان من النار.

وقيل: لأن الأنبياء تشهد له بحسن الاتباع.

وقيل: لأن الله يشهد له بحسن نيته وإخلاصه.

وقيل: لأنه يشاهد الملكوت من دار الدنيا ودار الآخرة».

قال ابن حجر: «وبعض هذه يختص بمن قتل في سبيل الله ، وبعضها يعم غيره، وبعضها قد ينازع فيه»(٢) .

وقال الراغب: «الشهيد: هو المحتضر، فتسميته بذلك لحضور الملائكة

⁽۱) شرح النووي لمسلم ۲/۳٤۷.

⁽٢) فتح الباري ٦/ ٤٣ ـ ٤٣ .

إياه، إشارة إلى ما قال: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَ تَخَافُوا ﴾ [فصلت: ٣٠]، قال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩].

أو لأنهم يشهدون في تلك الحالة ما أعد لهم من النعيم. أو لأنهم تشهد أوراحهم عند الله كما قال: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَ اللَّهِ عَنْد الله كما قال: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَ اللَّهِ عَنْد رَبِهم اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ عَنْد رَبِهم اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَنْد رَبِهم اللَّهُ اللَّهُ عَنْد رَبِهم اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَنْد رَبِهم اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَنْد رَبِهم اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّالَّا اللّهُ اللَّلَّا اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الل

وقال الفيروزآبادي: «والشهيد . . . القتيل في سبيل الله ؛ لأن ملائكة الرحمة تشهده، أو لأن الله تعالى وملائكته شهود له بالجنة ، أو لأنه ممن يستشهد يوم القيامة على الأم الخالية ، أو لسقوطه على الشاهدة أي الأرض ، أو لأنه يشهد ملكوت الله وملكه»(٢) .

وهناك أقوال للعلماء كلها بمعنى ما سبق.

أما الأدلة على ثبوت شفاعة الشهداء:

فمنها ما جاء في حديث الوليد بن رباح الذماري عن غران بن عتبة الذماري قال: «دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام، فقالت: أبشروا؛ فإني سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله على : يشفع الشهيد في سبعين من أهليته»(٣).

وقد بوب الإمام أبسو داود على هذا الحديث بقوله: «باب في الشهيد يشفع»، ثم أشار إلى السند بأن الصواب في اسم الوليد بن رباح أنه «رباح بن الوليد».

⁽١) المفردات ص: ٢٦٩.٢٦٨.

⁽٢) القاموس المحيط ٣١٦/١، وانظر: شرح جوهرة التوحيد ص: ١٩٠.

⁽٣) أخرجه أبو داود ٢/ ١٥.

وعن المقدام بن معدي كرب، قال: قال رسول الله عنه : «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه (۱) .

وعن عشمان بن عفان قال: قال رسول الله تَكَلَّة : ميشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء، ثم الشهداء، ثم السهداء، ثم الس

وذكر الآجري حديثاً عن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله على قال:
وللشهيد عند الله تسع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحود العين، ويجاد من عذاب القبر، ويأمن من الغزع الأكبر، ويوضع على دأسه تاج الوقاد، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج النتين وسبعين زوجة من الحود العين، ويشفع في سبعين من أقاديه، ". ومثله ما جاء عن عبادة بن الصامت عن النبي تنافي الله المناه عن عبادة بن الصامت عن النبي تنافي الله المناه عن عبادة بن الصامت عن النبي النبي الله المناه عن عبادة بن الصامت عن النبي الله المناه عن عبادة بن الصامت عن النبي المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن النبي المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن النبي المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن عبادة بن المناه عن عبادة بن الصامة عن النبي المناه عن عبادة بن المناه عن النبي عبادة بن المناه عن عبادة بن العباء عن عبادة بن المناه عن عبادة بن المناه عن عبادة بن المناه عن عبادة بن المناه عن النبي عبادة بن المناه عن عبادة بن عبادة بن المناه عن عبادة بن المناه عن عبادة بن عبادة بن المناه عن المناه عن عبادة بن عبادة بن

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ثم يقال: ادعوا الصديقين ؛ فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الأنبياء، قال: «فيجيء النبي ومعه العصابة(») ، والنبي ومعه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد . ثم يقال: ادعوا الشهداء؛ فيشفعون لمن أرادوا،، وقال: «فإذا فعلت الشهداء ذلك»؛ قال:

⁽١) أخرجه الترمذي ١٨٨/٤، وقال: فهذا حديث حسن صحيح غريب.

⁽٣) الشريعة ص: ٣٤٩.

⁽٤) الشريعة ص: ٣٤٩.

⁽٥) العصابة: هم الجماعة من الناس إلى الأربعين . النهاية لابن الأثير ٣/٣٤٣.

«يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين؛ أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئاً...،(١) الحديث.

وعن أبي بكرة عن النبي عَلَيْ ، قيال: ويحيمل الناس على المسراط يوم القيامة فتقادع بهم (٢) جنبتا الصراط تقادع الفراش في الناره، قال: وفينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء، قال: وثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء أن يشفعوا، فيشفعون ويخرجون، ويشفعون ويخرجون، وراد عفان مرة نقال أيضاً: ويشفعون ويخرجون، من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان، (٣).

وإذا كنا قد قدمنا أن الشهيد هو من قُتل في سبيل الله تعالى؛ فإن هذا هو الأكثر في استعمال لفظة الشهيد، وهو أول ما يتبادر إلى الذهن.

على أنه قد ورد صحة إطلاق الشهيد على من لم يكن بذلك الوصف، ومن أدلة ذلك:

ما أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله عليه : من قتل دون ماله فهو شهيد، (١) .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عَلَى قال: الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في

⁽١) مسئد الإمام أحمد ١/٥.

 ⁽٢) قال ابن الأثير عن معنى العبارة: «أي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض، وتقادع القوم؛
 إذا مات بعضهم إثر بعض، وأصل القدع: الكف والمنع».

⁽٣) المسند ١/٥.

⁽٤) البخاري ٥/ ١٢٢، ومسلم ١/ ٣٤٨.

سبيلالله،(١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الطاعون شهادة الكلمسلم» (٢٠).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله ، من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتي إذا لقليل» قالوا: فمن هم يا رسول الله ؟ قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد، ").

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله عَلَى فقال: يا رسول الله عَلَى قال: وفلا تعطه مالك، يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: وفلا تعطه مالك، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: وفانت قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: وهو في النار»(١٠).

وعن أبي الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم - قال: سمعت رسول الله على يقول: من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون اهله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، (٥).

وأخرج النسائي عن جابر بن عتيك «أن النبي عَلَيُّ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه، فصاح به فلم يجبه، فاسترجع رسول الله عَلَيْهُ،

⁽١) ، (٢) البخاري ٦/ ٤٢ ، ومسلم ٤/ ٥٨٠ .

⁽r) رواه مسلم ٤/ ٥٧٩.

⁽٤) مسلم ١/٣٤٧.

⁽٥) رواه أبو داود ٢/ ٥٤٦، والترمذي ٤/ ٣٠، وقال: حديث حسن صحيح.

وقال: قد غلبنا عليك أبا الربيع، فصحن النساء وبكين، فجعل ابن عتيك يسكتهن. فقال رسول الله على: «دعهن، فإذا وجب فلا تبكين باكية» قالوا: وما الوجوب يا رسول الله ؟ قال: «الموت». قالت ابنته: إن كنت لأرجو أن تكون شهيداً، قد كنت قضيت جهازك. قال رسول الله على: «فإن الله عز وجل قد أوقع أجره عليه على قدر نيته، وما تعدون الشهادة ؟ قالوا: القتل في سبيل الله عز وجل. قال رسول الله على في سبيل الله عز وجل. قال رسول الله على الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله عز وجل؛ المطعون شهيد، والمبطون شهيد، والمعرف شهيد، والمرأة تموت بجمع في المحدة شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة، (۱).

ونشير هنا إلى إيضاح مسألة وردت في هذا الحديث، يقع فيها الناس وهي مسألة البكاء على الميت والنياحة عليه، هل ذلك جائز أم لا؟

والجواب بإيجاز: أن البكاء على الميت من غيرنياحة لا بأس به، أما النياحة وتعداد محاسن الميت؛ فهذا هو الممنوع، وقد عده رسول الله على أمر الجاهلية، وأخبر عن عذاب النائحة وأنها تبعث في أقبح صورة.

ومن ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله عَلَيْه : اليس منا من ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية،

⁽١) سنن النسائي ٤/٤.

⁽٢) الصالقة: هي التي ترفع صوتها عند المصيبة.

والحالقة(١) ، والشاقة(٢).

وفي رواية: «أغمي على أبي موسى، وأقبلت امرأته أم عبد الله تصيح برنة. قالا: ثم أفاق، قال: ألم تعلمي. وكان يحدثها. أن رسول الله ﷺ قال: النابريء ممن حلق، وصلق، وخرق، ؟ .

أما البكاء بغير نياحة ولا تعداد لمحاسن الميت فهذا ما حدث لرسول الله على ؛ فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دخلنا مع رسول الله على أبي سيف القين ـ وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام ـ فأخذ رسول الله على إبراهيم فقبله وشمه . ثم دخلنا عليه بعد ذلك ـ وإبراهيم يجود بنفسه ـ فجعلت عينا رسول الله على تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟! فقال : «يا بن عوف إنها رحمة» . ثم أتبعها بأخرى . فقال على العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» (٣) .

قال ابن بطال وغيره: «هذا الحديث يفسر البكاء المباح والحزن الجائز؟ وهو ما كان بدمع العين ورقة القلب من غير سخط لأمر الله ، وهوأبين شيء وقع في هذا المعنى»(٤).

⁽١) الحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة.

⁽٢) الشاقة: هي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

وقيل: الصلق ضرب الوجه .

ودعوى الجاهلية؛ قال القاضي: «هي النياحة وندبة الميت والدعاء والويل وشبهه». انظر: شرح النووي لمسلم ١/ ٣٠٠.

والأحاديث مخرجة في البخاري ٣/ ١٦٣ ـ ١٦٦ ، ١٦٦ ، ومسلم ١/ ٣٠٠.٣٠٠.

⁽٣) أخرجه البخاري ٣/ ١٧٢ .

ومعنى يجود بنفسه: أي يخرجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ماله. وتذرفان: أي يجري دمعهما.

⁽٤) فتح الباري ٣/ ١٧٤ .

والذي يتلخص مما قدمنا ذكره بالنسبة للشهداء، أنه يلحق في التسمية بهم أصناف، وهم إضافة إلى المقتول في سبيل الله :

١ ـ من قتل دون ماله .

٢ ـ المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم.

٣ ـ الذي يموت في سبيل الله .

٤ ـ من قتل دون ماله أو دمه، أو دينه، أو أهله.

٥ ـ صاحب ذات الجنب(١) .

٦ ـ المرأة التي تموت بجُمع^(٢) .

وقد ذكر ابن حجر رحمه الله روايات في إثبات الشهادة لغير من سبق ذكرهم وهم:

١ ـ من مات بالسلِّ ، وهو بكسر المهملة وتشديد اللام، وهو من حديث راشد بن حبيش عند الإمام أحمد.

٢ ـ من وقصه فرسه أو بعيره، أولدغته هامة، أو مات على أي حتف شاء
 الله تعالى، من حديث أبى مالك الأشعري مرفوعاً (٣) .

٣ ـ موت الغريب، من حديث ابن عمر وصححه الدارقطني.

٤ ـ من مات مرابطاً، من حديث أبي هريرة عند ابن حبان.

⁽١) مرض معروف ويقال له: الشوصة. فتح الباري ٦/٣٤.

 ⁽۲) هو بضم الجيم وسكون الميم، وقد تفتح الجيم وتكسر أيضاً، وهي النفساء، وقيل: التي
 عوت ولدها في بطنها، ثم تموت بسبب ذلك. وقيل: التي تموت بمزدلفة، وهو خطأ
 ظاهر. وقيل: التي تموت عذراه، والأول أشهر. فتح الباري.

⁽٣) انظر: «باب من ينكب في سبيل الله». (من صحيح البخاري) ١٩/٦.

اللديغ، والشريق، والذي يفترسه السبع، والخار عن دابته،
 لورودها في حديث ابن عباس مرفوعاً عند الطبراني.

٦ - الماثد (١) في البحر الذي يصيبه القيء، من حديث أم حرام عند أبي داود.

٧- من طلب الشهادة بنية صادقة (١) ، ويستدل لهذا بما أخرجه النسائي عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، حدثه عن أبيه عن جده، أن رسول الله عن الله عن وجل الشهادة بصدق؛ بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه، (٣) .

٨ ـ من تردى من رءوس الجبال، من حديث ابن مسعود عند الطبراني .

ثم قال: «ووردت أحاديث أخرى في أمور أخرى، لم أعرج عليها لضعفها».

ونقل عن ابن التين قوله: «هذه كلها ميتات فيها شدة، تفضل الله على أمة محمد علله بأن جعلها تمحيصاً لذنوبهم وزيادة في أجورهم، يبلغهم بها مراتب الشهداء».

وعن التفاوت بين درجات هؤلاء في الأجر يقول ابن حجر: «والذي يظهر أن المذكورين ليسوا في المرتبة سواء»(٤).

وأما إخبار الرسول عَلَي بأن الشهداء خمسة، كما في بعض الروايات،

⁽١) أي «الذي يدار برأسه من ربح البحر واضطراب السفينة بالأمواح». النهاية لابن الأثير ٢٧٤/٤.

⁽٢) انظر: باب تمني الشهادة (من صحيح البخاري) ٦/ ١٦.

⁽٣) سنن النسائي ٦/ ٣٧.

⁽٤) فتح الباري ٦/ ٤٤ ـ ٤٤ .

وفي بعضها الآخر سبعة، وفي بعضها أكثر من ذلك، فليس فيه تناقض؛ لأنه ليس من باب إرادة الحصر؛ ولأن الله تعالى لم يخبره بهم جملة بل أخبره بشيء بعد شيء.

وفي هذا يقول ابن حجر: «والذي يظهر أنه ﷺ أعلم بالأقل، ثم أعلم زيادة على ذلك فذكرها في وقت آخر، ولم يقصد الحصر في شيء من ذلك». قال: «وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة».

ولما كانت لفظة الشهيد إنما تطلق حقيقة على المقتول في سبيل الله؛ فقد تنازع الناس في تسمية من عداه؛ فبعضهم يسميه شهيداً على الحقيقة.

وقد قسم ابن حجر الشهداء إلى قسمين حسب ما جاء في النصوص فقال: «ويتحصل مما ذكر في هذه الأحاديث أن الشهداء قسمان:

 ١ - شهيد الدنيا، وشهيد الآخرة؛ وهو من يقتل في حرب الكفار مقبلاً غير مدبر مخلصاً.

٢ ـ وشهيد الآخرة، وهو من ذكر بمعنى أنهم يعطون من جنس أجر الشهداء ولا تجري عليهم أحكامهم في الدنيا».

ثم استدل لهذا بحديث العرباض بن سارية عند النسائي، وأحمد، ولأحمد من حديث عتبة بن عبد نحوه، مرفوعاً: «يختصم الشهداء والمتوفون على الفرش في الذين يتوفون من الطاعون، فيقول: انظروا إلى جراحهم فإن أشبهت جراح المقتولين فإنهم معهم ومنهم، فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم، (۱).

وقسمهم النووي إلى ثلاثة أقسام فقال: «اعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام:

⁽١) انظر: فتح الباري ٦/٤٤.٤٣.

أحدها: المقتول في حرب بسبب من أسباب القتال، فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا، وهو أنه لا يغسل ولايصلى عليه.

والثاني: شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا، وهو المبطون، والمطعون، وصاحب الهدم، ومن قتل دون ماله، وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيداً، فهذا يغسل ويصلى عليه، وله في الآخرة ثواب الشهداء ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول.

والثالث: من غل في الغنيمة وشبهه، ممن وردت الآثار بنفي تسميته شهيداً إذا قتل في حرب الكفار، فهذا له حكم الشهداء في الدنيا فلا يغسل ولا يصلى عليه وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة (١١).

وهم عند البيجوري ثلاثة:

١ ـ شهيد الدنيا والآخرة .

٢ ـ شهيد الدنيا .

٣ ـ شهيد الآخرة فقط.

أما الشهيد الأول: فهو شهيد الحرب، وهو الذي قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى.

وأما الشهيد الثاني: وهوشهيد الدنيا، فهو الذي قاتل لأجل الغنيمة، فإنه ليس له الثواب الكامل وإن جرت عليه أحكام الشهداء في الدنيا.

وأما الشهيد الثالث: وهو شهيد الآخرة فقط، فهو كالمطعون والمبطون ونحوهما، وهو كالأول في الثواب، لكنه دونه في الحياة والرزق، ولا تجري

⁽۱) شرح مسلم ۳٤۸/۱.

عليه أحكام الشهداء في الدنيا فإنه يغسل ويصلى عليه»(١).

وإذا كان وصف الشهيد قد اشترك فيه أولئك الأصناف الذين قدمنا ذكرهم، فهل هم يشاركون شهداء المعركة في سبيل الله، في حصول تلك المزايا العظيمة بالنسبة للشفاعة أم لا؟

لم أجد في ذلك نصاً صريحاً، والذي يظهر لي أنهم، وإن اشتركوا معهم في التسمية، فإنما هو لتشابههم في حصول الثواب، ولا يلزم من ذلك إثبات شفاعتهم.

وفي الختام فإن مما ينبغي الإشارة إليه، ما حصل عند الناس من التساهل والتوسع في إطلاق لفظة الشهيد على من لا يستحقها، وربحا يعود سبب ذلك إلى أن لفظة الشهيد، حيث كانت محبوبة عند جميع الناس؛ فقد صارت تطلق كرمز شرف لكل من يرون أنه قتل بغير حق، سواء كان ذلك صحيحاً في الواقع أو في نظرهم.

ولهذا تعجب حين تسمع بعض أناس لا يؤمنون بالله تعالى يطلقون على قتلاهم أنهم شهداء، بل توسعوا في هذا؛ فنسبوا الاستشهاد إلى بعض الأفكار، مثل: شهداء الحرية، وشهداء الثورة، وشهداء الوطن، وما إلى ذلك من أقوال مبتدعة، فماذا يقصدون من إطلاق لفظة الشهيد أو الاستشهاد؟! هل هو إثبات الشهادة لهم في سبيل الله ؟. الواقع غير ذلك؛ لأن بعض هؤلاء غير مؤمنين، أم يريدون من ذلك إثبات صفة مدح فحسب؟!، فلعل هذا هو الذي يريدونه.

⁽١) شرح جوهرة التوحيد ص١٩٠.

٥ ـ شغاعة الولدان:

ومن الشفاعات الثابتة ما جاء في شفاعة الولدان في آبائهم وأمهاتهم إذا احتسبوهم عند الله تعالى بنية صادقة؛ رحمة من الله تعالى وكرماً منه؛ ليجبر قلوب الآباء والأمهات بما لحقهم من فقد أولادهم.

ومن الأدلة على ذلك ما قاله تلك فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا يموت لمسلم ثلاث من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم(١).

وعنه أيضاً أن رسول الله على قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة. فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله ؟ قال: أو اثنين "

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي علله : اجعل لنا يوماً، فوعظهن، وقال: «أيما^(٣) امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا له حجاباً من النار، قالت امرأة: واثنان؟ قال: واثنان، (٤) وفي رواية: «لم يبلغوا العنث».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي على : مما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم (٥٠).

وعن أبي هريرة قال: «جاءت امرأة إلى النبي تلك بابن لها فقالت: يا رسول الله ، إنه يشتكي، وإني أخاف عليه؛ قلد دفنت ثلاثة. قال: ولقد

⁽١) أخرجه البخاري ٣/ ١١٨، ومسلم ٥/ ٤٨٦.

⁽٢) مسلم ٥/ ٧٨٤.

⁽٣) لأن الخطاب حينئذ كان للنساء فخصهن بالذكر.

⁽٤) البخاري ١١٨/٣، ومسلم ٥/ ٤٨٧.

⁽٥) صحيح البخاري ٣/ ١١٨ (الفتح).

احتظرت بعظار(١) شديد من الناره.

وأورد مسلم أيضاً رواية أخرى عن أبي هريرة بمعنى ما تقدم(٢) .

وعن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول الله عَلى بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: قال: معم صغارهم دعاميص (٢) الجنة يتلقى أحدهم أباه، أو قال أبويه، فيأخذ بثوبه، أو قال: بيده، كما آخذ أننا بصنفة (١) ثوبك هذا فيلا يتناهى، أو قال: فلا ينتهي، حتى يدخله الله وأباه الجنة، (٥).

وعن شرحبيل بن شفعة عن بعض أصحاب النبي عَلَى يقول: ايقال للولدان يوم القيامة: ادخلوا الجنة قال: فيقولون: ياربنا حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا. قال: فيأبون. قال: فيقول الله عز وجل: مالي أراهم معبنطئين(١٦) ؛ ادخلو الجنة. قال: فيقولون: يارب آباؤنا وأمهاتنا. قال: فيقول: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم،(٧).

وقد أخرج هذا الحديث الإمام أحمد، ورجاله رجال الصحيح سوى شرحبيل وهو ثقة (^).

⁽١) معنى احتظرت أي امتنعت بمانع وثيق فشرح النووي ٥/ ٤٤٨٩.

⁽٢) صحيح مسلم ٥/ ٤٨٦ (النووي).

⁽٣) أي صغار أهلها، وأصل الدعموص دويبة تكون في الماء لا تفارقه أي أن هذا الصغير في الماء لا تفارقها.

⁽٤) بصنفة ثوبك: أي طرفه.

⁽٥) أخرجه مسلم ٥/ ٤٨٨.

⁽٦) المحبنطئ المتغضب المستبطئ للشيء. وقيل: هو الممتنع امتناع طلبه لا امتناع إباء.

⁽٧) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٥.

 ⁽A) انظر : ٣/ ٨ من مجمع الزوائد، وانظر : تقريب التهذيب ج٢ ص : ٣٤٩.
 وهو شرحبيل بن شفعة ـ بضم المعجمة وسكون الفاء ـ الشامي أبو يزيد .

وهذا الموقف من الأبناء لوالديهم هو كرد الجميل إليهم حيث كانوا في الدنيا يولونهم العطف والشفقة.

ولهذا جاء في الحديث أن امرأة أعتقت من النار وأدخلت الجنة بمجرد حصول عطف منها على ابنتين لها؛ حيث أطعمتهما وصبرت هي على الجوع، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله تلك فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النان (۱).

وقد بوب الهيشمي لإثبات شفاعة الولدان هذه بقوله: «باب شفاعة الولدان»(۲) .

وقد جعل الله قبوله لهذه الشفاعة من الأبناء لآبائهم تفضلاً منه؛ لزيادة أسباب ثوابهم ورفع درجاتهم؛ حيث عوضهم الله من فقد ثمرة أكبادهم صغاراً بقبول شفاعتهم فيهم.

فمن مات له ثلاثة من الأولاد، أو اثنان فليبشر ببشارة رسول الله تَلَكُ له بأنه لا تمسه النار إلا تحلة القسم، وأنهم يكونون له حجاباً من النار، وأن الله يدخله الجنة بفضل رحمته إياهم.

وقوله ﷺ : وإلا تحلة القسم، هذه إشارة إلى القسم المقدر في قوله تعالى :

⁽١) صحيح مسلم ٥/ ٤٨٦.

⁽۲) مجمع الزوائد ۱۰/ ۲۸۴.

﴿ وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ أي النار، بحيث لا يدخل المسلم الذي مات له ثلاثة من الولد النار إلا تحلة لقسم الله تعالى بأن كل شخص يردها(١).

وقد ذكر الله في كتابه الكريم أنه يجمع بين الآباء وأبنائهم إذا اختلفت درجاتهم في الجنة إكراماً للآباء لتقر أعينهم بذلك.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَتُهُم بِإِيمَانٍ ٱلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

وهذه البشارة للمؤمنين تشير إلى سعة فضل الله وكرمه وامتنانه ولطفه وكمال إحسانه إليهم.

قال ابن كثير: «فإذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم؛ فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك»(٢).

وينبغي مراعاة أن هذا الجزاء العظيم الذي ذكره رسول الله على الأحاديث السابقة لمن فقد أولاده إنما هو لمن صبر واحتسب الأجر عند الله ، ولم يتسخط بل قال ما يرضي ربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ وَبَشِرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]؛ لأن الثواب إنما يقع على النية، فلا يحصل ذلك الفضل لمن قدم من صلبه ثلاثة أو اثنين أو واحداً . كما في بعض الروايات . لا يحصل ذلك العضل إلا إذا كان هناك احتساب وطلب للثواب من الله على

⁽١) سيأتي تفصيل القول في الورود في بابه الخاص «مبحث الورود».

تلك المصيبة، فهؤلاء هم الذين أمر الله نبيه أن يبشرهم بقوله تعالى: ﴿ وَبَشِرِ اللهُ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ومن هم الصابرون؟ هم الذين قال الله فيهم: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتُهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ وَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فلا قلق ولا جزع، بل يسلمون له الأمر ويرضون بقضائه؛ إيماناً منهم بأن الله تعالى سيثيبهم ويجزيهم خيراً بما أصابهم به من المصائب، والتي منها فقد الولد.

واشتراط الاختساب هو ما تضمنته بعض الروايات المرفوعة ، على أن في بعضها الآخر إطلاق ثبوت الأجر من دون تقبيد الاحتساب، ويجمع بينها بحمل الأحاديث المطلقة على المقيدة .

يقول ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا: «وقد عرف من القواعد الشرعية أن الثواب لا يترتب إلا على النية ، فلابد من قيد الاحتساب، والأحاديث المطلقة محمولة على المقيدة (١) .

وإذا كانت النصوص تثبت ذلك الثواب العظيم وحصول الشفاعة بفقد ثلاثة من الأولاد أو اثنين ـ فهل مفهوم العدد مقصود للرسول عَنْ أم لا؟

والجواب: إن هذه المسألة محل نظر بين العلماه:

قال ابن التين تبعاً لعياض: «هذا يدل على أن مفهوم العدد ليس بحجة ؟ لأن الصحابية من أهل اللسان ولم تعتبره ؟ إذ لو اعتبرته لانتفى الحكم عندها عما عدا الثلاثة ، لكنها جوزت ذلك فسألته ».

قال ابن حجر: «كذا قال، والظاهر أنها اعتبرت مفهوم العدد إذ لو لم

⁽١) فتع الباري ١١٩/٣.

تعتبره لم تسأل، والتحقيق أن دلالة مفهوم العدد ليست يقينية وإنما هي محتملة؛ ومن ثم وقع السؤال عن ذلك (١٠) .

وعلى كل حال؛ فسواء كان مفهوم العدد معتبراً أم غير معتبر، فإنه قد ثبت أن من فقد اثنين من الأولاد فإنه يلحق في الأجر بمن فقد ثلاثة؛ لورود روايات تدل على ذلك، منها ما تقدم في حديث أبي هريرة، ومنها ما جاء عن أم سليم الأنصارية والدة أنس بن مالك حيث قالت: «قال رسول الله تشخ ذات يوم وأنا عنده: ما من مسلمين بموت لهما ثلاثة لم يبلغوا الحلم إلا أدخلهما الجنة بفضل رحمته إياهم فقلت: واثنان؟ قال: واثنان، (٢).

وكذلك ورود بعض الروايات تفيد أن جماعة من الصحابة أيضاً سألوا رسول الله على عن ذلك، منهم أم أيمن وعائشة وأم هانئ.

وفي بعض الروايات أيضاً أن جابر بن عبد الله سأل عن ذلك، وكذلك عمر رضي الله عنه، لما أخرج الحاكم عن بريدة أن عمر سأل رسول الله على حينما قال الرسول عَلَى : بما من امرئ ولا امرأة يموت له ثلاثة أولاد إلا أدخله الله الجنة و فقال عمر : يا رسول الله ، واثنان؟ قال : واثنان، وهذا الحديث صحيح الإسناد كما قاله الحاكم (٣) .

ولا ينبغي أن يظن بأن ورود تلك الروايات في حكم مسألة واحدة فيها تعارض، فهي وإن كانت عن مسألة واحدة لكن ليس بينها تعارض؛ إذ

⁽١) أخرجه الطبراني بإسناد جيد كما في الفتح ٣/ ١٣١.

⁽٢) فتح الباري ٣/ ١٢١ ، وعزاه إلى الطبراني عن جابر .

⁽٣) المستدرك ١/ ٤٨٣.

يحتمل ـ كما ذكر ابن حجر ـ أن كل واحد من هؤلاء سأل الرسول عَلَيْ عن هذا(١) .

فثبت أن الأجر يحصل بفقد ولدين كما يحصل بفقد الثلاثة .

وكذلك وردت روايات تفيد أن الواحد أيضاً يحصل به ذلك الثواب العظيم لوالديه، كما في حديث جابر بن سمرة مرفوعاً: «من دفن ثلاثة فصبر عليهم واحتسب وجبت له الجنة. فقالت أم أيمن: أو اثنين؟ فقال: أو اثنين. فقالت: وواحد؟ . فسكت، ثم قال: وواحد، (٢) .

وكذلك حديث ابن مسعود مرفوعاً: •من قسم ثلاثة من الولد لم يبلغوا العنث كانوا له حصناً حصيناً من النار، قال أبو ذر: قدمت اثنين. قال: واثنين فقال أبي بن كعب سيد القراء: قدمت واحداً. قال: وواحد، ولكن إنما ذلك عندالصدمة الأولى، (٣).

وعن ابن عباس مرفوعاً: «من كان له فرطان من أمتي أدخله الله الجنة. فقالت عائشة: فمن كان له فرط من أمتك. قال: ومن كان له فرط يا موفقة. قالت: فمن لم يكن له فرط من أمتك. قال: فأنا فرط أمتي، لن يصابوا بمثلي،(٤).

وهذه الروايات صريحة في حصول الثواب بفقد ولد واحد أيضاً.

⁽١) فتح الباري ١/ ٣٨٤.

⁽٢) فتح الباري ٣/ ١١٩، وعزاه إلى الطبراني.

⁽٣) أخرجه الترمذي ٣/ ٣٧٥، وقال إنه غريب، وذكر أن أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه.

⁽٤) أخرجه الترمذي ٣/ ٣٧٦، وقال: حسن غريب.

ولكن ابن حجر بعد أن نقل هذه الأحاديث عقب عليها بأنه «ليس في شيء من هذه الطرق ما يصلح للاحتجاج».

والسبب في هذا عنده أن تلك الروايات معارضة بروايات أصح منها، أي تفيد عدم ذكر الواحد فقال:

١ - «بل وقع في رواية شريك التي علق المصنف إسنادها ـ كما سيأتي ـ :
 «ولم يسأله عن الواحد»»(١) .

٢ ـ وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة. فقامت امرأة فقالت: أو اثنان. فقال: أو اثنان قالت المرأة: ياليتني قلت: وواحداً»(٢).

٣- وعن جابر مرفوعاً: «من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة، قلنا: يا رسول الله ، واثنان؟ قال محمود: قلت لجابر: أراكم لو قلتم: وواحد؛ لقال: وواحد، قال: وأنا أظن ذلك (٣).

وقد عقب ابن حجر على هذه الأحاديث الثلاثة الأخيرة التي ليس فيها الجزم بإلحاق الواحد بالثلاثة، بأنها أصح من الثلاثة الأحاديث السابقة التي تجزم بحصول الثواب بالواحد كالثلاثة، وذكر (٤) أن أصح ما ورد في إثبات ثواب الواحد بالثلاثة هو ما رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: ويقول الله

⁽۱) فتح الباري ۳/ ۱۲۲.

⁽٢) سنن النسائي ٢٤/٤.

⁽٣) أخرجه أحمد ، وانظر: فتح الباري ١١٩/٣.

⁽٤) فتح الباري ١١٩/٣.

عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛ إلاالجنة، (١) .

قال ابن حجر: "وهذا يدخل فيه الواحد فما فوقه.

وأما ما ورد من أن السائلة لم تسأله عمن فقد واحداً؛ فهذا لا يمنع من حصول الفضل لمن مات له واحد، فلعله على سئل بعد ذلك عن الواحد فأخبر بذلك، أو أنه أعلم بأن حكم الواحد حكم ما زاد عليه فأخبر به (٢٠) .

فظهر أن فقد الأولاد. من واحد فصاعداً ـ مما ثبت به الأجر لوالديه .

فمن قصر الحكم على الثلاثة أو الاثنين فقط، فإن قوله يعد مما لا دليل له عليه، وقد وقع في هذا الإمام القرطبي-رحمه الله فإنه يرى أن هذا الحكم يختص بموت الثلاثة، وأما ما عداهم من الأربعة والخمسة فصاعداً فلا يشمله حصول ذلك الثواب والشفاعة فيه، وهذا في قوله: «وإنما خصت الثلاثة بالذكر لأنها أول مراتب الكثرة، فبعظم المصيبة يكثر الأجر، فأما إذا زاد عليها فقد يخف أمر المصيبة، لأنها تصير كالعادة كما قيل: روعت بالبين حتى ما أراع له».

وقد علق ابن حجر على هذا الرأي للقرطبي بأنه: "جمود شديد فإن من مات له أربعة فقد مات له ثلاثة ضرورة لأنهم إن ماتوا دفعة واحدة فقد مات له ثلاثة وزيادة، ولا خفاء بأن المصيبة بذلك أشد، وإن ماتوا واحداً بعد واحد؛ فإن الأجر يحصل له عند موت الثالث بمقتضى وعد الصادق، فيلزم على قول القرطبي أنه إن مات له الرابع أن يرتفع عنه ذلك الأجر مع تجدد

⁽١) البخاري، كتاب الرقاق ٢٤٢/١١.

⁽٢) فتح الباري ٢٤٣/١١.

المصيبة، وكفي بهذا فساداً»(١).

وإضافة إلى ما تقدم، نذكر بعض المسائل التي اشتملت عليها النصوص السابقة وهي:

ا ـ هل تقييد حصول ذلك الثواب بموت الأولاد بما إذا ماتوا قبل أن يبلغوا الحنث (٢) ، بحيث إن من بلغ الحنث ثم مات لا يحصل ذلك الثواب لوالديه بسبب موته في هذا السن؟ أم أن ذلك غير مراد؟

٢ ـ وهل ذلك الجزاء خاص بفقد أولاد المرء من صلبه؟ أم يدخل في
 الأولاد أولاد الأولاد؟

٣ ـ وهل لفظ الحديث: ولا يموت لمسلم ... عناص بمن مات له أولاد في حال كفره ثم حال إسلامه؟ أم يشمل هذا الثواب أيضاً من مات له أولاد في حال كفره ثم أسلم؟

الواقع أن هذه المسائل كلها محل بحث ونظر بين العلماء.

⁽١) فتح الباري ٣/ ١٢٢.

⁽٢) قال ابن حجر: «لم يبلغوا الحنث اكذا للجميع بكسر المهملة وسكون النون بعدها مثلثة»، وحكى ابن قرقول عن الداودي أنه ضبطه بفتح المعجمة والموحدة، وفسره بأن المراد لم يبلغوا أن يعملوا المعاصي. قال: ولم يذكر كذلك غيره، والمحفوظ الأول. والمعنى لم يبلغوا الحلم فتكتب عليهم الآثام.

قال الخليل: بلغ الغلام الحنث إذا جرى عليه القلم، والحنث الذنب؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ . وقيل: المراد بلغ إلى زمان يواخذ بيمينه إذا حنث. وقال الراغب: عبر بالحنث عن البلوغ لما كان الإنسان يواخذ بما يرتكبه فيه بخلاف ما قبله، وخص الإثم بالذكر؛ لأنه الذي يحصل بالبلوغ».

أما حصول ذلك الثواب بفقد الولد الكبير الذي بلغ الحنث ثم مات فقد اختلفت وجهات العلماء فيه:

ا - فبعضهم - وهم كثير من العلماء -(۱) ذهبوا إلى عدم ثبوت ذلك الثواب بفقد الولد الكبير ، وعللوا لهذا بأن الشفقة على الصغير أعظم ، والحب له أشد ، والرحمة له أوفر ، وكذلك فإن الصغير لا يتصور منه صدور العقوق المقتضي لعدم الرحمة .

٢ - وذهب الزين بن المنيسر إلى أن فقد الولد الكبيسر يحصل به ذلك الشواب من طريق الفحوى «لأنه إذا ثبت ذلك في الطفل الذي هو كل على أبويه، فكيف لا يثبت في الكبير الذي بلغ معه السعي، ووصل له منه النفع، وتوجه إليه الخطاب بالحقوق؟»(٣).

ويرجح ابن حجر - فيما يظهر - القول بأنه لا يلحق حكم الصغار بالكبار ، فهو يقول: «ويقوي الأول قوله في بقية الحديث: «بفضل دحمته إياهم لأن الرحمة للصغار أكثر لعدم حصول الإثم منهم» (٣).

وهذا التعليل يصدق فيما إذا كان التعليل لوصول الثواب يحصل بالنظر إلى محبة الولد أو عدم محبته، لكن الرسول على للم يبن وصول الثواب على المحبة وعدمها؛ بل ذكر وصول الثواب استناداً إلى الأغلب في طبائع الناس من محبة الأولاد الصغار والتعلق بهم.

قال ابن حجر: «ولم يقع التقييد في طرق الحديث بشدة الحب والا

⁽١) فتح الباري ٣/ ١٢٠.

⁽۲) فتح الباري ۳/ ۱۲۰.

⁽٣) المرجع السابق.

عدمه، وكان القياس يقتضي ذلك لما يوجد من كراهة بعض الناس لولده وتبرمه منه، ولا سيما من كان ضيق الحال، لكن لما كان الولد مظنة المحبة والشفقة؛ نيط به الحكم وإن تخلف في بعض الأفراد»(١).

وأما الضمير في قوله: «بغضل رحمته إياهم، فهو يعود(٢) إلى الله تعالى، أي بفضل رحمة الله للأولاد.

وقال ابن التين: «قيل إن الضمير في رحمته للأب؛ لكونه كان يرحمهم في الدنيا فيجازي بالرحمة في الآخرة».

ولكن ابن حجر، يرجح أن الضمير عائد إلى الأول أي بفضل رحمة الله للأولاد، واستدل على هذا بما ورد من روايات تفيد عود الضمير إلى رحمة الله للأولاد، ومنها:

ا ـ ما أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك عن النبي عَلَيْهُ قال: «ما من مسلمين يتوفى لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله الجنة بغضل رحمة الله إياهم، (٣) .

٢ - وما أخرج النسائي عن أبي ذر قال: قال رسول الله على : مما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا غفر الله لهما بفضل رحمته إياهم (٤).

⁽۱) فتح الباري ۳/ ۱۲۰.

⁽٢) المرجع السابق.

⁽٣) سنن ابن ماجه ١/٥١٢.

⁽٤) سنن النسائي ٢٤/٤.

٣ ـ وللطبراني وابن حبان من حديث الحارث بن أقيش مرفوعاً (١): «ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته».

٤ ـ حديث عمرو بن عبسة عند الطبراني: «إلا أدخله الله برحمته هو وإياهم الجنة» .

وأما الضمير في الياهم فهو يعود إلى الأولاد لا الآباء(٣) .

وأما ما جاء في التقييد بحصول الثواب لمن مات له الأولاد وهو في حال إسلامه فهو ما أفاده ظاهر حديث أنس المتقدم ذكره.

وهل يشمله ثواب أولاده الذين ماتوا قبل أن يسلم؟ فإن هذه المسألة فيها احتمال (٤) ، وقد وردت روايات تفيد عدم ذلك ، كما عند الإمام أحمد من حديث أبي ثعلبة الأشجعي قال: «قلت: مات لي يا رسول الله ولدان في الإسلام. فقال: من مات له ولدان في الإسلام أدخله الله عز وجل الجنة بفضل رحمته إياهمه. الحديث (٥).

وأخرج الإمام أحمد كذلك من حديث عمرو بن عبسة أنه قال لمن سأله أن يحدثه عن رسول الله علله حديثاً ليس فيه وهم ولا انتقاص قال: «سمعته يقول: من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة برحمته إياهم (1).

"وأخرج كذلك حديثاً عن امرأة يقال لها رجاء قالت: كنت عند

⁽١) انظر: فتح الباري ٣/ ١٢٠ ـ ١٣١ . والحارث هوابن أقيش: بقاف معجمة مصغر.

⁽٢) ـ (٤) انظر: فتح الباري ٣/ ١٢٠ ـ ١٣١ .

⁽٥) مسند أحمد ١٩٦٦.

⁽٦) المستد ٤/ ٢٨٤.

رسول الله ﷺ ، إذ جاءته امرأة بابن لها ، فقالت: يا رسول الله ، ادع لي فيه بالبركة ؛ فإنه قد تُوفي لي ثلاثة. فقال لها رسول الله ﷺ : أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم. فقال رسول الله ﷺ : جنة حصينة. فقال لي رجل: اسمعي يا رجاء ما يقول رسول الله ﷺ .

وأورد حديثاً آخر عن امرأة يقال لها ماوية بمعنى ماتقدم ا(١).

وهل ثبوت ذلك الثواب بما إذا كان المتوفون من الأولاد من الصلب، كما تفيده ظواهرالنصو.ص، أم لا؟ .

قال ابن حجر: «الظاهر أن المراد من ولد الرجل حقيقة»(٢) .

ويستدل لهذا بما أخرج النسائي عن أنس عن النبي عَنِي قال: ومن احتسب من صلبه ثلاثة دخل الجنة، (٣) . . . الحديث.

وبما أخرج الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر عن النبي عَن أنه قال: من أثكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة، (١).

وأما دخول أولاد الأولاد. عـدا أولاد البنات. في ثواب الأولاد، فقـد ذكر ابن حجر أن هذا محل بحث ونظر، ثم قال:

«والذي يظهر أن أولاد الصلب يدخلون، ولا سيما عند فقد الوسائط بينهم وبين الأب، وفي التقييد بكونهم من صلبه ما يدل على إخراج أولاد البنات، (٥)، ولعل هذا فيما يتعلق بالثواب.

⁽١) المسند ٥/ ٨٣.

⁽۲) فتح الباري ۳/ ۱۲۰.

⁽٣) سنن النسائي ٤/ ٢٤، وقد تقدم تخريجه.

⁽٤) المستد ٤/٤ ١٤٤.

⁽٥) فتح الباري ٣/ ١٣١.

أما من ناحية إطلاق التسمية؛ فإن الصحيح هوصحة إطلاق البنوة على بني البنت، وإن كان بعض العرب قد خالف هذا كما في قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، بنوهن أبناء الرجال

ولكن يرد هذا ما جاء في مناسبات كثيرة من إطلاق قول الرسول على الأولاد ابنته فاطمة الحسن والحسين أنهم أبناؤه، فقد قال على حينما كان الحسن إلى جانبه: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، (۱).

وقد قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: «وفيه إطلاق الابن على ابن البنت»(٢).

٦-شفاعة المؤ منين بعضهم لبعض:

وثبت كذلك أن الصالحين من المؤمنين يشفعون في إخوانهم الذين في النار وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيتاً؛ فدخلوا النار تطهيراً لهم.

ومن الأدلة على ذلك:

ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟ قلنا: لا ، قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما.

ثم قال: ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون؛ فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم،

⁽١) أخرجه البخاري ٣٠٧/٥.

⁽۲) فتح الباري ۱۳/ ۹۷.

حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجز وغبرات (١)من أهل الكتاب.

ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله. فيقال: كذبتم؛ لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم.

ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال: كذبتم؛ لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون.

حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال: لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإنا سمعنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما انتظرنا ربنا، قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساق؛ فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رباء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً.

ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم. قلنا: يا رسول الله ، وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها: السعدان؛ المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والراكب؛ فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً، فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق. قد تبين لكم، من المؤمنين يومنذ للجبار . إذا رأوا أنهم قد نجوا . في إخوانهم، يقولون: ربنا إخواننا

⁽١) قال النووي: وأما غُبُر: فبضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة المشددة، ومعناه: بقايا، جمع غابر (شرح النووي) ١/ ٤٣٥.

الذين كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا؟ فيقول الله تعالى: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار فيأتونهم، وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقه، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه؛ فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا.

قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرءوا: ﴿ إِنَّ السَّلَهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفُهَا ﴾ .

فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار: بقيت شفاعتي (1) ، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافته كما تنبت الحبة في حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة وإلى جانب الشجرة؛ فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة؛ فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، فيقال لهم؛ لكم ما رأيتم ومثله معه، (1)

وقد اشتمل هذا الحديث على مسائل منها: إثبات رؤية الله تعالى، وإثبات الصراط وصفته وكيفية مرور الناس عليه، وكذلك إثبات شفاعة الملائكة والأنبياء.

وبعض تلك المسائل قد سبق ذكرها وبعضها سيأتي، والقصد من إيراد

⁽۱) بمعنى أنه سبحانه يتفضل بإخراجهم من النار بلا واسطة أحد، انظر: تكملة شرح الصدور ص: ٣٦.

⁽٢) صحيح البخاري ١٣/ ٤٢٠ ٤٢٠، ومسلم ١/ ٤٣٤ ـ ٤٤٢.

هذا الحديث هنا هو إثبات شفاعة الصالحين من المؤمنين، وإلحاحهم في طلب الشفاعة إلى الله تعالى لإخراج إخوانهم من أهل الكبائر من النار.

وقوله ﷺ في رواية البخاري للحديث: وفما أنتم بأشد له مناشدة في الحق ـ قد تبين لكم. من المؤمنين يومئذ للجباره.

وقعت هذه الجملة في صحيح مسلم من رواية أبي سعيد هكذا: «حتى إذا خلص المؤمنون من النار فو الذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار».

وقد اختلف العلماء في ضبط كلمة «استقصاء»، ذكر النووي أن بعضهم يرويها «استيضاء»، وبعضهم «استضاء»، وبعضهم «استقصاء».

والمعنى ما أنتم بأشد مناشدة في استقصاء الحق في الدنيا من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم .

وهذا جواب القاضي عياض فيما ينقله عنه النووي، وخطًا القاضي عياض الرواية «استقصاء» بها يتم الكلام ويتوجه.

ورد عليه النووي بأنه: «ليس الأمر على ما قاله بل جميع الروايات التي ذكرناها صحيحة لكل منها معنى حسن».

ثم قال: "وقد جاء في رواية يحيى بن بكير عن الليث: "فما أنتم بأشد مناشدة في الحق ـ قد تبين لكم ـ من المؤمنين يومئذ للجبار ـ تعالى وتقدس ـ إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم"، وهذه الرواية التي ذكرها الليث توضح

المعنى.

فمعنى الرواية الأولى، والثانية: أنكم إذا عرض لكم في الدنيا أمر مهم، والتبس الحال فيه، وسألتم الله تعالى بيانه وناشدتموه في استيضائه وبالغتم فيها؛ لا تكون مناشدة أحدكم مناشدة بأشد من مناشدة المؤمنين لله تعالى في الشفاعة لإخوانهم.

وأما الرواية الثالثة والرابعة فمعناهما أيضاً: ما منكم من أحد يناشد الله تعالى في الدنيا في استيفاء حقه أو استقصائه وتحصيله من خصمه والمتعدي عليه؛ بأشد من مناشدة المؤمنين الله تعالى في الشفاعة لإخوانهم يوم القيامة»(١).

وقوله ﷺ عن الله تعالى: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فاخرجوه».

هذا الخطاب للمؤمنين الذين طلبوا الشفاعة إلى الله تعالى.

وفي رواية أبي هريرة عند البخاري أن الخطاب للملائكة لقوله: «أمر الملائكة أن يخرجوهم").

وفي حديث أنس عنده: أن الذي يخرجهم هو الرسول على لقوله: «ثم اشفع، فيحد لي حداً، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، (٣).

ولا منافىاة بين تلك الروايات؛ بل يجمع بينها بأن الله حينما شفع المؤمنين والرسل، يأمر تعالى الملائكة بجماشرة إخراج أولئك من النار ممن

⁽١) شرح النووي لمسلم ٤٣٨/١ ٤٣٩.

⁽۲) صحيح البخاري ۱۱/ ٤٤٥ «الفتح».

⁽٣) صحيح البخاري ١١/١١ «الفتح».

أمرتهم الرسل بإخراجه منها(١).

وعن الصنابحي عن عبادة بن الصامت أنه قال: دخلت عليه وهوفي الموت فبكيت، فقال: مهلاً، لم تبكي؟ فوالله لئن شهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك. ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله يَكُ لكم فيه خير إلاحدثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله يَكُ يقول: من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله عليه النان (٢).

وأخرج الإمام أحمد من مسند أبي بكر الصديق في إثبات شفاعة الصالحين من المؤمنين قوله عَنْ : «ثم يقال: ادعوا الأنبياء؛ فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الصديقين؛ فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الشهداء؛ فيشفعون، "

وكذا حديث أبي بكرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يحمل الناس على الصراط، فينجي الله من شاء برحمته، ثم يؤذن في الشفاعة للملائكة والنبيين والشهداء والصديقين؛ فيشفعون، (٤) . الحديث .

كما ثبت أيضاً حصول شفاعة المؤمنين لإخوانهم قبل يوم القيامة، وذلك في الدنيا، وهي استشفاعهم إلى الله تعالى في الصلاة على من مات منهم بالرحمة والغفران والتجاوز، فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن عائشة عن النبى على : «ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة

⁽١) انظر: فتح الباري ١١/٤٥٦.

⁽۲) صحيح مسلم ۱۹۲/۱.

⁽٣) مسئد أحمد ١/٥.

⁽٤) مسند أحمد ٥/ ٤٣.

كلهم يشفعون له؛ إلا شفعوا فيه،(١).

وأخرج كذلك عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال: يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت، فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته، فقال: تقول: هم أربعون؟ قال: نعم، قال: فأخرجوه فإني سمعت رسول الله على يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم فيه، (٢).

وتمام الحديث عند ابن ماجه: «ما من أربعين من مؤمن يشفعون لمؤمن إلا شفعهم الله فيه، (٣) .

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله تلك قال: «من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له، (١٠).

وقد وردت الأحاديث بروايات مختلفة في تحديد العدد المطلوب لصحة وقوع الشفاعة في الميت؛ ففي بعضها تحديد العدد بمائة مصل، وفي بعضها أربعين، وفي بعضها بثلاثة صفوف، قلت أو كثرت، وفي بعضها «أمة» دون ذكر العدد.

وهذا الخلاف ليس هو من باب التعارض والاضطراب فلا تنافي بينها لتيسر الجمع فيجمع بينها بما نقله النووي عن القاضي قوله: قيل: هذه الأحاديث خرجت أجوبة للسائلين، سألوا عن ذلك فأجاب كل واحد منهم عن سؤاله.

⁽۱) صحيح مسلم ۲۱۳/۲.

⁽Y) مسلم Y/YIF.

⁽٣)، (٤) سنن ابن ماجه ١/ ٤٧٧.

ثم قال النووي: "ويحتمل أن يكون النبي على أخبر بقبول شفاعة مائة فأخبر به، ثم بقبول شفاعة أربعين، ثم ثلاثة صفوف وإن قل عددهم فأخبر به، ويحتمل أيضاً أن يقال هذا مفهوم عدد لا يحتج به جماهير الأصوليين، فلا يلزم من الإخبار عن قبول شفاعة مائة منع قبول ما دون ذلك، وكذا في الأربعين مع ثلاثة صفوف وحينئذ كل الأحاديث معمول بها، ويحصل الشفاعة بأقل الأمرين من ثلاثة صفوف وأربعين "(1).

وكذا الرواية التي فيها ذكر الأمة فإنها لا تنافي رواية الأربعين ولا المائة لدخول ذلك العدد في لفظ الأمة.

وإنما ذكرنا هذه الشفاعة -أي شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض في الدنيا - كالدليل على شفاعة بعضهم لبعض في الآخرة ؛ لأنه إذا ثبت أن المؤمنين يشفعون لبعضهم في الدنيا بطلب المغفرة ، فإنه يدل على أن شفاعتهم لبعضهم البعض مقبولة في الآخرة ، إذ لا فرق بين ما هنا في الدنيا وهناك في هذا الموضوع ، كيف وقد جاءت السنة مبينة لذلك وموضحة له ؟

وقد سبق في بحث أقسام الشفاعات الثابتة أن سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب.

ويذكر البغدادي هنا أن كل واحد من أولئك السبعين يشفع أيضاً في سبعين ألفاً وذلك في قوله عن رأي السلف: «وقالوا بما ورد به الخبر بأن سبعين ألفاً من أمة الإسلام يدخلون الجنة بلا حساب منهم عكاشة بن محصن، وأن كل واحد منهم يشفع في سبعين ألفاً»(٢).

⁽١) شرح النووي ٢/٦١٣.

⁽٢) الفرق بين الفرق ص٣٥٩.

وإذا ثبتت شفاعة المؤمنين لإخوانهم من أهل الكبائر، فإن مما ينبغي معرفته أن شفاعتهم تختلف في القلة والكثرة بحسب مراتبهم؛ فمنهم من يشفع للعدد الكثير من الناس، ومنهم من يشفع للعدد القليل حتى إن بعضهم يشفع في الرجل الواحد، فقد روى الإمام أحمد عن أبي برزة قال: سمعت رسول الله يَلِي يقول: «إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتي لمن يعظم للناد حتى يكون ركناً من أركانها، (۱) ، وفي حديث أنس: وإن من أمتي للرجلين والثلاثة، (۱) .

وورد عن أبي سعيد ما يفيد أن من الناس من يشفع للقبيلة بأكملها ، ومنهم من يشفع لأقل من ذلك ، ومنهم من يشفع لأقل من ذلك ، ومنهم من يشفع للرجل ، لما رواه عن رسول الله على أنه قال: «إن من أمتي من يشفع للفنام (٣) ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للحصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخل الجنة ، (٤) .

ولابن ماجه عن عبد الله بن قيس قال: كنت عند أبي برزة ذات ليلة فدخل علينا الحارث بن أقيش، فحدثنا الحارث ليلتئذ أن رسول الله على قال: «إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مضر، وإن من أمتي من يعظم للناد حتى يكون أحد زواياها، (٥).

⁽۱) رواه أحمد ٤/ ٢١٢، وقال الهيشمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨١: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

⁽٢) رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح كما قال المنذري ٤/ ٤٤٥.

⁽٣) الفتام: الجماعة من الناس.

⁽٤) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٢٧ ثم قال: «قال أبو عيسى هذا حديث حسن».

⁽٥) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٤٦.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين، أو مثل أحد الحيين: ربيعة ومضر، (۱).

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن شقيق قال: جلست إلى قوم أنا رابعهم، فقال أحدهم: سمعت رسول الله عَلَيْ يقول: وليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم، قلنا: سواك يا رسول الله ؟ قال: سواي. قلت: أنت سمعت هذا من رسول الله عَلَيْ ، قال: نعم، فلما قام قلت: من هذا قالوا: ابن الجدعاء أو ابن أبي الجدعاء »(۲).

وقد جاء التصريح باسم هذا الرجل في رواية الترمذي عن الحسن البصري أن رسول الله عَلَى قال: « يشفع عثمان بن عفان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضره (٢٠).

وهذا الحديث من رواية الحسن البصري عن رسول الله عَلَيْ وفيه راو ضعيف وهو جسر ويكنى أبا جعفر ـ كما ذكر الآجري ـ (١٠) .

وإذا كان هذا الرجل المبهم هو عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أورد صاحب «منتخب كنز العمال» روايات كثيرة في فضائل عثمان رضي الله عنه

⁽١) المستد ٥/ ٧٥٢.

⁽٢) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١٤٤٤، إلا أنه قال عن شقيق عن عبد الله بن أبي الجدعاء ، ورواه الترمذي ٢٦٢/٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه أحمد ٤٦٩/٤.

⁽٣) الترمذي ٢٧٧/٤.

⁽٤) الشريعة ص٣٥١.

ومزيته في الشفاعة، وفي بعضها ـ كما في رواية ابن عساكر عن ابن عباس وأبي هريرة ـ أن عثمان يشفع في سبعين ألفاً كلهم قد استوجبوا النار ونصه: اليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفاً كلهم استوجبوا النار الجنة بغير حساب،(١).

وفي رواية أخرى: اليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي عدد ربيعة ومضر قيل: من هو يا رسول الله ؟ قال: عثمان بن عفان، (٢).

ويرويه ابن عساكر عن الحسن مرسلاً وهذه الروايات ذكرها صاحب كنز العمال وعزاها إلى ابن عساكر ولم أجد من ذكرها بالصحة .

ولا شك أن شفاعة عشمان رضي الله عنه داخلة في شفاعة المؤمنين، وعثمان من أوائل الصالحين من المؤمنين؛ فشفاعته تقع في مجموع أولئك غير أن تحديد من يشفع لهم في عدد معين مثل: سبعون ألفا أو غير ذلك يحتاج إلى إثبات.

ومما ينبغي الالتفات إليه أن الأجدر بالمسلم أن يستكثر من الأصدقاء الصالحين لما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «في شفاعة الأصدقاء من المؤمنين لأصدقائهم الذين في النار أنه قال: سمعت رسول الله يُنظِي يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل بصديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠ وَلا صَدِيقٍ حَمِيم ﴾، [الشعراء: ١٠١، ١٠٠].

⁽١) منتخب كنز العمال مع المسند ٥/٣.

⁽٢) المصدر السابق ٥/٧.

قال الحسن رحمه الله تعالى: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة »(١).

فينبغي الحرص على موادة المؤمنين والتقرب إلى الله تعالى بمحبتهم رجاء نفعهم من شفاعة أو دعاء، وأن لا يوجه الشخص همه إلى موادة أهل الجاه أو يحرص على ذلك، فرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره، يكون يوم القيامة أنفع من ملء الأرض من أهل الجاه والكلمة في الدنيا البعيدين عن الله تعالى، ولقد أحسن البصري في قوله السابق «استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة».

وعن يحيى بن سعيد المسمعي قال: «كان قتادة إذا قرأ: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿ وَ اللّٰهِ أَن الصديق إذا كان صالحاً نفع وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع» (٢) ، وهناك أحاديث في هذا المعنى غير أنها لم تخل من ضعف، مثل حديث: «أكثروا من الأصدقاء، فإنكم شفعاء بعضكم في بعض،

إلا أنه في إسناده محمد بن النضر وليس بثقة (٣) .

وكذا حديث: «أكثروا من المعارف من المؤمنين فإن لكل مؤمن شفاعة عند الله يوم القيامة»، في إسناده أصرم وهو كذاب(٤).

⁽١) معارج القبول ٢/ ٢٥١.

⁽٢) جامع البيان ١٩/١٩.

⁽٣) الفوائد المجموعة ص٥١١.

⁽٤) المصدر السابق.

٧_شفاعة القرآن الكريم:

وكذلك فإن من مظاهر رحمة الله تعالى وكرمه على عباده أن جعل القرآن الكريم أيضاً من الشفعاء المقبول شفاعتهم، وليس ذلك فقط بل أيضاً يطلب المزيد من الإكرام لصاحبه.

وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله - تعالى وتقدس - وهو حبله المتين وصراطه المستقيم، أنزله على أفضل خلقه نبينا محمد على أوجعل تلاوته ثواباً في الدنيا ؛ لكل حرف حسنة وشفاعة في يوم القيامة، ولما كان القرآن الكريم كذلك فلابد لنا من إيضاح بعض النقاط الآتية :

١ ـ بيان الفضل العظيم الذي ورد في القرآن عموماً.

٢ ـ وبيان ما جاء في أفضلية بعض سور القرآن وكلها فاضلة .

٣ ـ وبيان ما ورد من نصوص كذلك تحث على قراءة القرآن والمواظبة على ذلك.

فقد قال عَلَى على على قراءة القرآن : «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح فيها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها، (۱)

وقال عَلَيْ : «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار، (٢).

⁽١) صحيح البخاري ٦٦/٩.

⁽٢) المصدر السابق ص٧٣.

وقد أخبر عَيَّخَ في أحاديث كثيرة عن فضل بعض الآيات والسور، مثل سورة البقرة والكهف والفتح وقل هو الله أحد والمعوذتين، وآية الكرسي (١)، وغير ذلك مما لا نطيل بالاستدلال عليه.

فينبغي على كل مسلم أن يكثر من قراءة القرآن بتدبر وعناية، وأن يحتسب ذلك عند الله تعالى، ليأخذ جزاءه في يوم القيامة، وأن يحذر أن يتصف بأنه من الذين اتخذوه مهجوراً، وفيما يلي نعرض بعض النصوص التي يتعلق بها غرض البحث.

فمما ورد في شفاعة القرآن عموماً ما جاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله عَلَيْ : «اعملوا بالقرآن؛ أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واقتدوا به، ولا تكفروا بشيء منه، وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله وإلى أولي الأمر من بعدي كيما يخبروكم، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أوتي النبيون من ربهم، وليسعكم القرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، ألا ولكل آية نور يوم القيامة، وإني أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه وطواسين وحواميم من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب من تحت العرش، (٢).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله عَلَيَّ : «القرآن شافع مشفع

⁽١) انظر: صحيح البخاري ٩/ ٥٥.٦٦.

⁽٢) أخرجه الحاكم ١/ ٥٦٨ ، وقال: ههذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "ومعنى كلمة ماحل مصدق - بفتح الدال - أي خصم مجادل مصدق وقيل: ساع مصدق من قولهم محل بفلان إذا سعى به إلى السلطان يعني أن من اتبعه وعمل بما فيه فإنه شافع له مقبول الشفاعة ، ومصدق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به "انظر: النهاية لابن الأثير ٢٠٣/٤

وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار(1).

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله عَلَى قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبديوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان، (۲).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يارب حله، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يارب زده، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يارب ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارق وتزاد بكل آية حسنة، (٣).

وأخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله عن الله عنه قبره رسول الله على قال: وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول له: هل وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذه؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً، (١٠).

⁽١) المسند ٢/ ١٧٤، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، المستدرك ١/ ٥٥٤.

⁽٢) الحلية ٧/ ٢٠٦.

⁽٣) أخرجه الترمذي ٥/ ١٧٨ ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

⁽٤) المستد ٥/ ٣٤٨.

ومما ورد في شفاعة بعض سور القرآن الكريم خصوصاً مثل سورة البقرة وآل عمران، ما أخرج مسلم وغيره عن جبير بن نفير قال: سمعت النواس ابن سمعان الكلابي يقول: سمعت النبي على يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله على ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: كانهما غمامتان(۱)، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق(۱)، أو كأنهما حزقان(۱) من طير صواف(١)، تعاجان عن صاحبهما،(٥).

قال الترمذي: «ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته، كذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث وما يشبه هذا من الأحاديث: أنه يجيء ثواب قراءة القرآن، وفي حديث النواس بن سمعان عن النبي عَلَيْكُ ما يدل على ما فسروا إذ قال النبي عَلَيْكُ: «وأهله الذين يعملون به في الدنيا»، ففي هذا دلالة أنه يجيء ثواب العمل (٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

⁽١) وفي رواية ستأتي: غيابتان. «قال أهل اللغة: الغمامة والغيابة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرها. قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين، شرح النووي لمسلم ٢/ ٤٥٧.

⁽۲) أي ضياء ونور .

⁽٣) حزقان وفي رواية افرقانه، معناهما واحد: وهما قطيعان وجماعتان يقال في الواحد: فرق وحزق وحزيقة أي: جماعة.

⁽٤) ومعنى صواف: أي باسطات أجنحتها في الطيران، والصواف حمع صافة . النهاية لابن الأثبر ٣/ ٣٨.

⁽٥) أخرجه مسلم ٢/ ٤٥٧، والترمذي ٤/ ٢٣٥.

⁽٦) سنن الترمذي ٤/ ٢٣٥.

واقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراوين (۱۰): البقرة وسورة آل عصران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة، (۲).

وعن أبي هريرة عن النبي عَلَى أنه قال: «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك، (").

وبهذا تكون شفاعة القرآن ثابتة لأهله إكراماً من الله تعالى لكلامه وللمشفوع له كذلك، كما ثبت من أقوال المصطفى الله .

٢ ـ الشفعاء الذين وردت بهم روايات لم تبلغ درجة الصحة فلم تثبت صحة شفاعتهم:

مما سبق عرضه اتضح أن هناك شفعاء في يوم القيامة قد ثبتت شفاعتهم بالنصوص الصحيحة، وهم من قدمنا ذكرهم.

وبعد هذا نود التنبيه بإيجاز إلى بعض ما قيل من ثبوت الشفاعة لشفعاء لم يرد بذكرهم نص صحيح وهم:

- ١ ـ ما قيل من شفاعة بعض الجمادات كالحجر الأسود.
 - ٢ ـ أو بعض الأعمال كقراءة قل هو الله أحد ألف مرة .
 - ٣ ـ أو بعض الأشخاص كالمؤذنين والحجاج .

⁽١) سميت بالزهراوين النورهما وهدايتهما وعظيم أمرهما» شرح النووي لمسلم ٢/ ٤٥٧.

 ⁽٢) البطلة: قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة ، المصدر السابق. (شرح النووي لمسلم)،
 والحديث أخرجه مسلم ٢/ ٤٥٧.

⁽٣) أخرجه الترمذي ٢٣٨/٤.

وقد ذهب بعض الذين وقفوا على الروايات المثبتة للشفاعة في أولئك إلى القول بشفاعة من ذكرناهم ظانين أن الروايات التي وردت فيهم صحيحة، ولكن بعد البحث عنها فيما تيسر لي الاطلاع عليه تبين أنها لم تبلغ درجة الصحة ، فبعضها ضعيف وبعضها موضوع كما يتبين ذلك فيما يلي:

ا ـ أما ما يقال عن شفاعة الحجر الأسود؛ فقد ذكر الهيثمي فيما يعزوه إلى الطبراني وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله يَلِيَّة : «أشهدوا هذا الحجر خيراً، فإنه يوم القيامة شافع مشفع له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه، (۱).

وهذا الحديث ضعيف لأن في إسناده راوياً مجهولاً وهو الوليد بن عباد؛ ولأنه كذلك لم يوجد حديث صحيح يثبت شفاعة الحجر الأسود لمن استلمه.

وتقبيل الحجر الأسود قربة واتباع للرسول على كسائر القربات المشروعة، كما يفيده قول عمر رضي الله عنه الثابت في الصحيحين: «والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله على قبلك ما قبلتك»(٢).

فعمر رضي الله عنه يقول للحجر ـ ويقصد بالخطاب إسماع الحاضرين ـ: والله إني لأقبلك، وإني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، أي فلا مضرة ولا نفع فيك؛ بل الضرر والنفع إنما هو من الله عز وجل.

⁽١) مجمع الزوائد ٣/ ٢٤٢ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوليد بن عباد وهو مجهول وبقية رجاله ثقات».

⁽۲) البخاري ۲/ ۱۹۲، ومسلم ۳/ ٤٠٦.

وقد قال عمر رضي الله عنه هذا القول لأن الناس يومئذ كانوا كما يقول الطبري: «حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر هو مثل ما كانت العرب تفعله، فأراد عمر أن يعلم أن استلامه لا يقصد به إلا تعظيم الله عز وجل، والوقوف عند أمر نبيه على ، وأن ذلك من شعائر الحج التي أمر الله بتعظيمها وأن استلامه مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم الأصنام؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله عز وجل زلفى، فنبه عمر على مخالفة هذا الاعتقاد، وأنه لا ينبغي أن يعبد إلا من يملك الخضرر والنفع وهو الله جل وعلا»(۱) ، فإذا لم يكن له مزية غير ما تقدم فإن القول بشفاعته يحتاج إلى نص يثبته.

٢ ـ بطلان القول بشفاعة من قرأ «قل هو الله أحد» ألف مرة:

وفي هذا يروى عن يزيد الرقاشي قال: قال رسول الله عَلَيْ : اجاءني جبريل في أحسن صورة ضاحكاً مستبشراً فقال: يا محمد، العلي الأعلى يقرنك السلام، ويقول إن لكل شيء نسباً، ونسبتي قل هو الله أحد، فمن أتاني من أمتك قارناً بقل هو الله أحد ألف مرة من دهره لزمه داري، وإقامة (٢) عرشي، وشفعته في سبعين ممن وجبت عقوبته، ولولا أني آليت على نفسي: كل نفس ذانقة الموت، لما قبضت روحه، (٢).

ولكن هذا الحديث ذكر السيوطي أن في إسناده مجاشع بن عمرو وهو أحد الكذابين، وقد سبق بحث شفاعة القرآن، وقد نبهت على بطلان هذه الشفاعة لاعتقاد كثير من الناس صحتها.

⁽۱) القرى لقاصد أم القرى ص ٢٨١.

⁽٢) هكذا النص وهو غير واضح.

⁽٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤١٢ ، وعزاه إلى ابن النجار في تاريخ بغداد.

بطلان القول بشفاعة الأشخاص مثل المؤذنين والحجاج:

١ ـ المؤذنين.

٢ ـ الحجاج.

شفاعة المؤذنين: هذه الشفاعة غير الثابتة يستدل القائل بها بما يروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي على أنه قال: «أول من يشفع يوم القيامة الأنبياء ثمالشهداء ثمالمؤذنون، (١).

قال الهيشمي: «قلت: رواه ابن ماجه باختصار المؤذنين، وهذا الحديث فيه عنبسة بن عبد الرحمن الأموي قال عنه ابن حجر: إنه متروك ومتهم بالوضع؛ فقد ترجم له بقوله: «عنبسة بن عبد الرحمن بن عنبسة... وهذا متروك رماه أبو حاتم بالوضع»، وبهذا لا يتم الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت شفاعة المؤذنين. والنفي هنا إنما هو تخصيصهم بالشفاعة وإلا فهم داخلون في عموم شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض.

أما الشهداء والأنبياء الذين ذكروا في هذا الحديث فإن شفاعتهم ثابتة كما سبق .

ومن أدلتهم كذلك ما جاء عن أنس قال: قال رسول الله عَلَيْه : «من أذن سنة لا يطلب عليه أجراً دعي يوم القيامة، ووقف على باب الجنة فقيل له: اشفع لمن شئت (٢٠).

هذا الحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير وعزاه إلى ابن عساكر

⁽١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨١ مسنداً له إلى البزار.

⁽٢) أخرجه ابن ماجه ١٤٤٣/٢.

⁽٣) الجامع الصغير ٢/ ١٦١، ورمز لضعفه.

وهو حديث غير صحيح لأن فيه موسى الطويل، ومحمد بن مسلمة والأول كذاب والثاني غاية في الضعف.

قال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «هذا حديث لا يصح، موسى الطويل كذاب، قال ابن حبان: زعم أنه رأى أنساً وروى عنه أشياء موضوعة، ومحمد بن مسلمة غاية في الضعف»(۱). وقد ذكر الشوكاني الحديث ثم قال: «في إسناده وضاع»(۲).

وقد أورد السيوطي حديثاً طويلاً عن أبي هريرة وابن عباس جاء فيه:
«ومن تولى أذان مسجد من مساجد الله يريد بذلك وجه الله أعطاه الله
ثواب أربعين ألف ألف نبي، وأربعين ألف ألف صديق، وأربعين ألف ألف
شهيد، ويدخل في شفاعته أربعين ألف ألف أمة، كل أمة أربعون ألف ألف
رجل، وله في كل جنة من الجنان أربعون ألف ألف مدينة، في كل مدينة
أربعون ألف ألف قصر»(٣) إلخ الحديث.

وهو حديث طويل. قال ابن حجر: «هذا موضوع اختلقه ميسرة بن عبد ربه فقبحه الله فيما افترى»(١).

شفاعة الحجاج لأهاليهم:

هذه الشفاعة يستدل من يثبتها بما أخرج البزار عن أبي موسى رفعه إلى

⁽١) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ١/ ٣٩٧.

⁽٢) الزوائدالمجموعة ص٢١.

⁽٣) اللآلئ المصنوعة ٢/ ٣٧٠.

⁽٤) المطالب العالية ١/ ٦٩.

النبي ﷺ أنه قال: «الحاج يشفع في أربعمانة أهل بيت. أو قال: من أهل بيته، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه،(١٠).

وهذا الحديث ذكره الهيثمي وعزاه إلى البزار، وقال بعد أن ذكره: «رواه البزار وفيه من لم يسم»(٢)، فالحديث فيه رواة مجهولون.

ويستدلون كذلك بما يروى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله عن الله عن عرشه إلى عباده فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً قد أقبلوا يضربون إلي من كل فج عميق، أشهدكم أني قد شفعت محسنهم في مسينهم، وأني قد غفرت لهم جميع ذنوبهم، إلا التبعات التي بينهم وبين خلقي، قال: فإذا أتوا المزدلفة وشهدوا جمعاً ثم أتوا منى فرموا الجمار، وذبحوا وحلقوا ثم زاروا البيت، يا ملائكتي أشهدكم أني قد شفعت محسنهم في مسينهم، وأني قد غفرت لهم جميع ذنوبهم، وأني قد خلفتهم في عيالاتهم، وأني قد استجبت لهم جميع ما دعوا به، وأني قد غفرت لهم التبعات التي بينهم وبين خلقي وعليّ رضاء عبادي، ").

وهذا الحديث في سنده إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب قال فيه أبو زرعة: «كان يكذب، يحدث عن مالك وأبي معشر بأحاديث موضوعة، رأيته بالكوفة، قال: وسئل أبي عنه فقال: كان يكذب، كان يقعد في طريق قبيصة فإذا مررنا به قال: من أين جئتم؟ قلنا: من عند قبيصة قال: إن شئتم حدثتكم بما كتب عنى أحمد بن حنبل: ولم يكتب عنه

⁽١) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٤٠.

⁽٢) مجمع الزوائد ٣/ ٢١١.

⁽٣) أخبار أصفهان لأبي نعيم ١/ ١٤٨، ٢/ ٣٤١.

شيئاً»(۱).

وأورد السيوطي من حديث طويل عن أبي هريرة وابن عباس مرفوعاً:
«ومن خرج حاجاً أو معتصراً فله بكل خطوة حتى يرجع ألف ألف حسنة، ومعو
ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وله عند ربه بكل درهم ينفقه ألف ألف
درهم، وبكل دينار ألف ألف دينار، وبكل حسنة يعملها ألف ألف حسنة حتى يرجع،
وهو في ضمان الله فإن توفاه أدخله الجنة، وإن رجعه رجعه مغفوراً له مستجاباً
له، فاغتنموا دعوته إذا قدم قبل أن يصيب الذنوب فإنه يشفع في مانة ألف رجل يوم
القيامة،(۱).

والحديث طويل، قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث : إنه للحارث، وهو موضوع (٣) .

وهناك أحاديث أيضاً في إثبات هذه الشفاعة لا نرى التطويل بذكرها لعدم صحتها؛ وبالتالي عدم صحة ما ورد في إثبات شفاعة الحاج في أهل بيته أو في سبعين من أهل بيته، أو في مائة ألف رجل، أو فيمن شفع فيهم.

ومعلوم أن الحاج إذا كان صالحاً فإن شفاعته تثبت بعموم ما ورد في الصحيح من شفاعة المؤمنين بعضهم في بعض دون تخصيصه عزية الشفاعة.

杂 旅 杂

⁽١) الجرح والتعديل للرازي ٢/ ٢١٤.

⁽٢) اللآلئ المصنوعة ٢/ ٣٧٢.

⁽٣) المطالب العالية ١/ ٣١٤.